فيض الباري في شرح صحيح البخاري

فضيلة الاستاذ

الدكتور/ أحمد عمر هاشم

المجلد الأول

مؤسسة دار الشعب



التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

رئيس مجلس الإدارة

ياقوت محمد صعوان



الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة
تليفون : ٧٩٥١٨١٠-٧٩٥١٨١٨ قطاع النشر : ٧٩٥١٥٩٩
فاكس : ٧٩٤٤٨١٦ - ص.ب ١٤ مجلس الشعب
http:11ww.darelhsab:com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

فإن لكتاب صحيح البخارى منزلة عالية، ومكانة سامية، فهو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، وقد تلقته الأمة الإسلامية بالقبول، وقد دوَّن الإمام البخارى فيه الأحاديث الصحيحة، التى اشترط فيها شروطاً دقيقة، لا يمكن أن تحوم حولها شبهة، ولا يرتاب فيها محدث، ولا يمارى فيها باحث.

وقد دُوِّن هذا الكتاب النفيس تدويناً موضوعياً، ورتبه الإمام البخارى ترتيباً فقهياً، وتناوله كثيرون بالشرح، إلا أن الشروح القديمة مع عظمتها وأصالتها لا يستطيع الاستفادة الكاملة منها إلا المتخصصون، لما تشتمل عليه من مسائل لغوية وبلاغية وغير ذلك من العلوم، التى يصعب على جميع أبناء الأمة الإسلامية استيعابها بسهولة..

فطلب منى بعض محبى الحديث النبوى الشريف أن أقدم شرحاً ميسراً سلساً لصحيح البخارى، يستسيغه الجميع.

وكان هذا بعد أن مَنَّ الله تعالى علىّ بأداء فريضة الحج، وزيارة سيدنا رسول الله ﷺ، ثم زيارة الإمام البخارى أثناء حضورى فى مؤتمر عُقِد فى «طشقند» عن حياة هذا الإمام الجليل.

فاستعنت بالله تعالى، ودعوته أن يوفقنى لخدمة سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام، ولشرح صحيح البخارى، فشرح الله صدرى، وأفاض علىّ من توفيقه ما دفعنى أن أبدأ هذا الشرح، الذى هو فيض من الخالق البارىء سبحانه وتعالى، فسميته: **«فيض البارى بشرح صحيح البخارى»** وقد توخيت أن يكون مناسباً لكل المستويات والأعمار وأن ينتفع به المتخصصون فى علم الحديث النبوى، وغير المتخصصين من محبى العلم، وعشاق الثقافة الإسلامية، وقرّاء الحديث النبوى الشريف.

وأحب أن أوضح للسادة القراء، أن جميع ما فى صحيح البخارى أحاديث صحيحة، وليس فيها حديث ضعيف.

وقبل أن نبدأ فى شرح الأحاديث أرى من المناسب أن أقدم بين يدى هذا الكتاب الشامل لأصح الأحاديث ترجمة عن أمير المؤمنين فى الحديث الإمام أبى عبدالله البخارى، رحمه الله تعالى، وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور أحمد عمر هاشم

الإمام البخارى
وكتابه صحيح البخارى

نسبه ونشأته:

هو أمير المؤمنين فى الحديث الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة[1] الجعفى ولاء حيث أسلم جده المغيرة على يد اليمان الجعفى والى بخارى فانتمى إليه بالولاء، البخارى مولداً.

ولد أبو عبد الله بمدينة بخارى إحدى مدن ما وراء نهر جيحون على بعد ثمانية أيام من سمرقند من بلاد فارس وهذه المدينة الآن تتبع الاتحاد السوفيتى.

وكانت ولادة البخارى بها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة من الهجرة[2]. وكان والده ورعاً تقياً ومحدثاً فاضلاً. كما كان ثقة ترجم له ابن حبان فى كتاب الثقات كما ترجم له ولده فى التاريخ الكبير. وقد خرج إسماعيل حاجاً قبل سنة ١٧٩ هـ وتقابل مع إمام المدينة مالك بن أنس وحدث عن أبى معاوية بن صالح وجماعة وروى عنه أحمد بن حفص وغيره من العراقيين وبلغ إسماعيل فى ورعه درجة عالية، فكان يبتعد عن الشبهات وثروته الطائلة التى جمعها نقية خالصة استثمرها فى الخيرات روى عنه أحمد بن حفص قال: دخلت عليه عند موته فقال: لا أعلم فى جميع مالى درهماً من شبهة، فتصاغرت إلى نفسى[3] وفى بيئة الطهر والورع والدين والدنيا استقبل بيت الحديث والنعمة محمد بن إسماعيل، وقد لبث الوالد قرير العين بابنه إلى أن عاجلته المنية فترك ابنه طفلاً صغيراً فكفلته أمه وقامت بتربيته ورعايته وعقدت عليه أسمى الآمال، ثم وجهته إلى التعليم لينسج على منوال أبيه ويستفيد مما خلفه من ثروة العلم فاتجهت به إلى الكُتَّاب ليحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف وما أن بلغ البخارى العاشرة من عمره إلا وألهمه الله حفظ الحديث الشريف فى هذه السن المبكرة مما يدل على ما وهبه الله له من قدرة فائقة فى الحفظ وقريحة وقادة فيه، يقول محمد بن أبى حاتم وراق البخارى: سمعت البخارى يقول: ألهمت حفظ الحديث وأنا فى الكتاب فقلت: كم أتى عليك اذ ذاك؟؟ فقال:

---

(١) بردزبة: كلمة فارسية معناها الزراع أى الفلاح أو البستانى.

(٢) وفيات الأعيان جـ١ ص ٥٧٦ ومقدمة فتح البارى ص ٤٧١١.

(٣) الطبقات الكبرى لابن السبكى جـ٢ ص ٢١٣.

عشر سنين أو أقل[1] ولهذا النبوغ الهائل انطلق البخارى فى سن الحادية عشرة قاصداً أئمة الحديث لينهل من مواردهم يساعده فى ذلك عقلية واعية وحافظة قوية ومما يدل على نبوغه العلمى ما تحدث به عن نفسه فى هذه المرحلة : (ثم خرجت من الكُتَّاب فجعلت أختلف إلى الداخلى وغيره فقال يوماً فيما كان يقرأ الناس : سفيان عن أبى الزبير عن إبراهيم فقلت : إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم فانتهرنى فقلت له : ارجع إلى الأصل إن كان عندك فدخل فنظر فيه ثم رجع فقال : كيف هو يا غلام؟ فقلت : هو الزبير وهو ابن عدى بن إبراهيم، فأخذ القلم وأصلح كتابه، وقال لى : صدقت، قال : فقال له إنسان : ابن كم حين رددت عليه؟؟ فقال : ابن إحدى عشرة سنة)[2].

منهج البخارى فى طلب الحديث:

ينحصر منهج البخارى فى طلب الحديث فى أمور ثلاثة الأول : العناية بالسند والمتن، والثانى : رحلاته العلمية، والثالث : حفظه ومعرفته بعلوم الحديث.

١- العناية بالسند والمتن: أما بالنسبة للأول فمنذ اتجه البخارى إلى طلب الحديث وهو يعنى بالإسناد فعرف الرجال وتواريخهم وأحوالهم، وعنى بالمتن وأصوله وكان لا يروى الموقوف الذى روى عن الصحابى أو المقطوع الذى وقف على التابعى إلا إذا كان له أصل من القرآن الكريم أو السنة الصحيحة المسندة يقول سليم بن مجاهد : كنت عند محمد بن سلام البيكندى فقال : لو جئت قبل لرأيت صبياً يحفظ سبعين ألف حديث فخرجت حتى لحقته فقلت له : أنت تحفظ سبعين ألف حديث؟ قال : نعم وأكثر ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ولست أروى حديثاً من حديث الصحابة والتابعين إلا ولى من ذلك أصل أحفظه من الكتاب أو السنة[3]. وهكذا هيأته عناية الله وتوفيقه لسلوك طريق العلم منذ صغره على أساس متين مع الاستعداد الفطرى والعقلية الحادة مما جعل لمروياته الثقة المتوفرة كما أعانه على تحصيل العلم واستيعابه ما تركه والده من التراث العلمى النافع فظل يحفظ ويناقش ويطلب العلم حتى ذاع صيته وأصبح موضع الإعجاب من شيوخه، وما

---

(١) النكت لابن حجر ص ٧ مخطوط بمكتبة الأزهر.

(٢) مقدمة فتح البارى ص ٤٧٩، الطبقات الكبرى لابن السبكى جـ ٢ ص ٢١٦.

(٣) الطبقات الكبرى لابن السبكى جـ ٢ ص ٢١٨.

أن بلغ من عمره ست عشرة سنة إلا وحفظ كتب ابن المبارك ووكيع وعرف مذاهب أهل الرأى وكلامهم.

٢- رحلاته العلمية: أما عن رحلات البخارى فى طلب العلم فقد كابد الأخطار فى رحلاته وبذل كثيراً من الجهود المضنية فى طلب العلم وتحرى الأحاديث الصحيحة ولم يكتف البخارى فيما يرويه على ما جمعه من أحاديث بلده الذى يعيش فيه وإنما هاجر ورحل إلى كثير من البلاد يجالس المحدثين والحفاظ ليأخذ عنهم ويسمع منهم ولم يأل جهداً فى استيعاب ما عند المحدثين حتى جمع الكثير من الحديث. وقد حفزه إلى الرحلة ما وفقه الله تعالى إليه من إلهامه الصواب وتذليل طرق البحث والتعليم، وما كان يستشعره فى نفسه من نهم علمي وطموح مبكر وتوجيه سديد. وقد ابتدأ البخارى رحلته بمكة المكرمة مهبط الرسالة ليؤدى فريضة الحج فخرج هو وأمه وأخوه أحمد سنة عشرة ومائتين ٢١٠ هـ وأقام البخارى بمكة يطلب العلم ورجع أخوه أحمد إلى بخارى، وفى مكة سمع من أبى الوليد أحمد بن محمد الأرزقى وإسماعيل بن سالم الصايغ ثم اتجه بعد ذلك إلى المدينة المنورة دار الهجرة، وفى رحاب المسجد النبوى وبجوار صاحب الرسالة ﷺ بدأ البخارى تأليف ما وفقه الله إليه فصنف قضايا الصحابة والتابعين ثم صنف التاريخ الكبير، قال البخارى: فلما طعنت فى ثمانى عشرة صنفت كتاب قضايا الصحابة والتابعين ثم صنفت التاريخ فى المدينة عند قبر النبى ﷺ وكنت أكتبه فى الليالى المقمرة وقل اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة إلا أنى كرهت أن يطول الكتاب «أ.هـ»[١].

ومكث البخارى فى المدينة سنة ثم رحل بعدها إلى البصرة وأقام بها خمس سنين وكان يتردد منها على مكة أيام الحج يقول البخارى «دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين وإلى البصرة أربع مرات وأقمت بالحجاز ستة أعوام ولا أحصى كم دخلت إلى الكوفة وبغداد مع المحدثين»[٢]. وهكذا طوف البخارى فى سبيل العلم فى أقطار شتى فمن مكة إلى المدينة والشام وبغداد والبصرة والكوفة ومصر وبخارى ومرو ونيسابور وقيسارية وعسقلان وحمص وخراسان وكان لهذه الجهود التى بذلها من الأهمية ما

(١) هدى السارى ص ٤٧٩ .
(٢) المرجع السابق.

يعطينا الثقة الكاملة بمروياته يقول البخارى: كتبت عن ألف شيخ أو أكثر ما عندى حديث لا أذكر إسناده[1].

٣- حفظه ومعرفته بعلوم الحديث: تميز البخارى منذ صغره بمواهب عظيمة منحه الله إياها فكان لديه الاستعداد الفطرى الذى فطره الله عليه: حافظة قوية وعقلية صافية وعمل دائب فلا غرو أن كان فى حفظه ومعرفته بعلوم الحديث آية بهرت العقول وقد سلك فى دراسته أدق الطرق وأسماها فكان ينمي ما عنده من القدرات بالجد والاجتهاد والمداومة على المذاكرة، يقول البخارى موضحاً المنهج السليم للحفظ (لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر)[2] كما كان يستعين على تثبيت المعلومات بربطها بما يحيط بها كما كان يربط بين أقوال الصحابة والتابعين وبين الكتاب والسنة حتى يتضح القول فى ذهنه من جميع الجوانب فسبق علماء النفس بهذا المنهج التربوى فى الدراسة. ومما يشهد للبخارى بسعة حفظه ومعرفته بعلوم الحديث ما رواه أحمد بن الحسين الرازى قال: سمعت أبا أحمد بن عدى الحافظ يقول: سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون: إن محمد بن إسماعيل البخارى قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا به وأرادوا امتحان حفظه فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر ودفعوها إلى عشرة أنفس لكل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى وأخذوا عليه الموعد للمجلس فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث.

فقال البخارى: لا أعرفه، فما زال يلقى عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ والبخارى يقول لا أعرفه وكان العلماء ممن حضروا المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون فهم الرجل ومن كان لم يدر القصة يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الحفظ ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً فسأله عن حديث من الأحاديث المقلوبة فقال: لا أعرفه فسأل عن آخر فقال: لا أعرفه فلم يزل يلقى عليه واحداً واحداً حتى فرغ والبخارى يقول: لا أعرفه، ثم الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة والبخارى لا يزيدهم على (لا أعرفه) فلما علم أنهم قد فرغوا التفت

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٠.

(٢) هدى السارى ص ٤٨٨.

إلى الأول فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا، وصوابه كذا وحديثك الثانى كذا وصوابه كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه وفعل بالآخرين مثل ذلك فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل[1]. يقول ابن حجر: هنا يخضع للبخارى فما العجب من رد الخطأ إلى الصواب؟ فإنه كان حافظاً بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة وفى هذا الامتحان الصعب الذى اجتازه البخارى بنجاح باهر ما يدل على قوة ذاكرته، وبلوغه فى الإحاطة بالحديث حداً لم يصله سواه حتى أقر له الجميع بالإمامة والفضل. وكان البخارى حجة فى معرفة علوم الحديث ولم يتصدر للتحديث إلا بعد إحاطته بالصحيح من السقيم كما قال (ما جلست للتحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم وحتى نظرت فى كتب أهل الرأى). وهكذا تتضح شخصيته العلمية متكاملة الجوانب فى مجال السنة المطهرة، يجمع بين حفظ الأسانيد والمتون والإحاطة الدقيقة بعلل الحديث مما جعله مرجعاً لكبار العلماء. قال أحمد بن حمدون الحافظ (رأيت البخارى فى جنازة ومحمد بن يحيى الذهلى يسأله عن الأسماء والعلل والبخارى يمر فيه مثل السهم كأنه يقرأ هو الله أحد)[2]. وقد شهد الإمام مسلم للبخارى بالسبق والإمامة معترفاً له بالفضل، قال أحمد بن حمدون: جاء مسلم بن الحجاج إلى البخارى فقبل بين عينيه، وقال: (دعنى أقبل رجليك يا أستاذ الأساتذة ويا سيد المحدثين وطبيب الحديث فى علله)[3].

كما شهد له أيضاً أبو عيسى الترمذى قال: (لم أر بالعراق ولا بخراسان فى معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل)[4] كما شهد له أقرانه وشيوخه وأثنوا عليه عاطر الثناء، فلا غرابة أن يلقب بأمير المؤمنين فى الحديث، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

شيوخ البخارى:

رسم البخارى منهجاً لنفسه فى اختيار شيوخه الذين يأخذ عنهم لا يتعداه ولا

(١) هدى السارى ص ٤٨٧، ووفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٧٦.
(٢) هدى السارى ص ٤٨٩.
(٣) البداية والنهاية جـ ١١ ص ٩٦.
(٤) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٢٧.

يحيدون عنه فقد طاف بآفاق كثيرة يبحث عن أئمة الحديث واشترط على نفسه ألا يأخذ الحديث إلا عن الرواة الثقات المعروفين بالورع، واهتم بمعرفة أحوالهم وكيفية تلقيهم للحديث فميز بين من كان محل ثقة كاملة فى نظر الأئمة المحدثين فيأخذ حديثه وبين من لم يكن محل ثقة فيترك حديثه. يقول البخارى: (كتبت عن ألف شيخ وأكثر ما عندى حديث إلا وأذكر إسناده)[1] وفى هذا دلالة على إحاطته الدقيقة وتحريه الشديد فى معرفة الرجال وتمييزهم فمن كان من الرواة فيه نظر ترك حديثه مهما كان عدد أحاديثه، سئل عن خبر حديث، فقال: (يا أبا فلان أتراني أدلس؟ تركت أنا عشرة آلاف حديث لرجل فيه نظر، وتركت مثلها أو أكثر لغيره لى فيه نظر)[2].

وكما تحرى الدقة فى معرفة الثقات وغيرهم فقد تحرى الدقة كذلك بالنسبة للأحاديث الصحيحة وغيرها فحفظ كثيراً من الأحاديث الصحيحة وغير الصحيحة، وحفظه لغير الصحيحة إنما هو لتجنبها وتمييزها وتنقية الأحاديث الصحيحة منها.

وقد كان شيوخ البخارى من الكثرة بمكان بحيث يصعب استيعابهم أو تحديد بعض الشخصيات العلمية الذين كان لهم أثرهم فى تزكية مواهبه وتنمية ثروته العلمية لأنه كان ذا رحلات واسعة متأثراً بجميع شيوخه الأفاضل حتى تكونت شخصيته العلمية المستقلة ومن شيوخه **بمكة**: أبو الوليد أحمد بن محمد الأرزقى وإسماعيل بن سالم الصائغ وأبو بكر الحميدى، **وبالمدينة**: إبراهيم بن المنذر الحزامى ومطرف بن عبدالله بن حمزة، **وبالشام**: محمد بن يوسف الفريابى من أوائل من صنف المسانيد وأبو إسحاق ابن إبراهيم وأبو ابراهيم وأبو اليمان بن نافع، **وببخارى**: محمد بن سلام البيكندى ومحمد بن يوسف بن محمد المسندى، **وبمرو**: على بن الحسن بن شقيق وعبدالله بن عبدالله بن عثمان ومحمد بن يحيى الصائغ، **وببلخ**: مكى بن إبراهيم ويحيى بن بشر وقتيبة بن سعيد ومن **هراة**: أحمد بن الوليد الحنفى، ومن **نيسابور**: يحيى بن يحيى التميمى وإسحاق بن راهويه ومحمد بن يحيى الذهلى ومن **الرى**: إبراهيم بن موسى ومن **بغداد**: أحمد بن حنبل ومحمد بن سابق وأبو بكر بن الأسود ومن **واسط**: حسان ابن عبدالله وسعيد بن عبدالله بن سليمان ومن **البصرة**: أبو عاصم النبيل وأبو الوليد

(١) تهذيب التهذيب جـ ٢ ص ٤٧.
(٢) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٢٥.

الطيالسي ومن **الكوفة**: عبدالله بن موسى وأبو نعيم بن يعقوب **وبمصر**: عثمان بن صالح وسعيد بن كثير ويحيى بن عبدالله بن بكير **وبالجزيرة**: أحمد بن عبدالملك الحراني وأحمد بن يزيد وعمر بن خلف، وقد ميز الحاكم بين كل ناحية وسمى شيوخها من المتقدمين ليستدل على عالي إسناد البخاري[1] وإذا نظرنا إلى مراتب شيوخ البخاري نرى أنهم ينحصرون في خمس طبقات:

الطبقة الأولى[2]: من حدثه عن التابعين مثل محمد بن عبدالله الأنصاري حدثه عن حميد ومثل مكي بن إبراهيم حدثه عن يزيد بن أبي عبيد، ومثل أبي عاصم النبيل حدثه عن يزيد بن أبي عبيد أيضاً ومثل عبدالله بن موسى حدثه عن إسماعيل بن أبي خالد ومثل أبي نعيم حدثه عن الأعشى وشيوخ هؤلاء كلهم من التابعين.

الطبقة الثانية: قوم حدثوا عن أئمة حدثوا عن التابعين وهم شيوخه الذين روى عنهم عن ابن جريج ومالك وابن أبي ذئب في الحجاز وشعبة والأوزاعي وطبقتهما بالشام والثوري وحماد وأبي عوانة بالعراق ويعقوب بن عبدالرحمن بمصر وفي هذه الطبقة كثرة.

الطبقة الثالثة: قوم حدثوا عن قوم أدرك زمانهم وأمكنه لقيتهم، ولكن لم يسمعهم كيزيد بن هارون وعبدالرزاق.

الطبقة الرابعة: قوم في عداد طبقته حدث عنهم عن مشايخه كأبي حاتم بن إدريس الرازي.

الطبقة الخامسة: قوم في عداد طلبته في السن والإسناد سمع منهم للفائدة كعبدالله ابن حماد وعبدالله بن أبي العاص الخوارزمي وحسين بن محمد القباني وغيرهم وقد روى عنهم أشياء يسيرة وعمل في الرواية عنهم بما روى عثمان بن أبي شيبة عن وكيع قال: لا يكون الرجل عالماً حتى يحدث عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه، وعن البخاري أنه قال: لا يكون المحدث كاملاً حتى يكتب عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه[3]. ولعل مرادهم بذلك زيادة العلم وكثرة التحديث والتمكن فربما يكون عند البعض ما ليس عند الآخرين حتى ولو كانوا أدنى منهم.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي جـ ٢ ص ٢١٤.
(٢) هدى الساري ص ٤٧٩.
(٣) هدى الساري ص ٤٨٠.

ولتفصيل هذه الطبقات وبيانها فائدة هامة هى أنه يبتعد عن الالتباس والإبهام عن الذى لا معرفة له إذا كان الحديث بإسناد عال مرة ونازل أخرى وبمعرفة الطبقات يمكن إدراك أن الإسناد العالى قد حذف منه أو الاسناد النازل قد زيد فيه[١] يقول ابن طاهر مبيناً ذلك : لئلا يظن من لا معرفة له إذا حدث البخارى مثلاً عن مكى عن يزيد بن أبى عبيد عن سلمة . ثم حدث فى موضع آخر عن قتيبة عن بكر بن مضر عن عمرو بن الحارث عن بكير بن عبدالله الأشج عن يزيد بن أبى عبيد عن سلمة أن الإسناد الأول سقط منه شىء وعلى هذا سائر الأحاديث إذ لو لم يعرف ذلك لوقع الالتباس فى كثير من الأحاديث على من لا معرفة له «أ. هـ» .

ومن شيوخ البخارى الذين كان لهم أثرهم : الإمام على بن المدينى والإمام أحمد بن حنبل والإمام يحيى بن معين والإمام إسحاق بن راهويه وسيأتى الحديث عنهم إن شاء الله .

من صفات الإمام البخارى:

كان البخارى نحيف الجسم ليس بالطويل ولا بالقصير ويميل لونه إلى السمرة[٢] وقد جمع مع علمه كثيراً من محامد الفعال وكريم الخصال وعرف بالتقوى والورع ومكارم الأخلاق ، وبتلك المعانى النبيلة والمثل المشرقة التى استقاها من منابع السنة المطهرة احتل مكانة مرموقة بين علماء عصره فجمع بين الحسنيين : علماً وعملاً ، وكان كثير العبادة والتهجد بالليل وقراءة القرآن الكريم زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة . وذات يوم كان يصلى فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة فلما قضى صلاته قال : انظروا أى شىء هذا الذى آذانى فى صلاتى ؟ ؟ فنظروا فإذا (الزنبور) قد ورمه فى سبعة عشر موضعاً ولم يقطع صلاته وقال : كنت فى آية فأحببت أن أتمها[٣] وفى هذا ما يدل على مدى اتصاله بربه ولذة مناجاته فى صلاته مما لا يجعله ينصرف عن العبادة مهما كانت الأحوال . كما كان حسن المعاملة غاية فى الحياء وعفة اللسان وتحرى القول فى نقد الرجال ، يظهر ذلك واضحاً لمن يتأمل كلامه فى الجرح والتعديل فيقول مثلاً «سكتوا عنه» ، «فيه نظر» ، (تركوه) (ونحو هذا من العبارات التى يتبين منها دقته وتحريه ،

---

(١) البخارى محدثاً وفقيهاً للدكتور الحسينى هاشم ص ٤٠ .

(٢) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٧ ، هدى السارى ص ٤٨١ .

ولذلك كان يقول : إنى لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبنى أنى اغتبت أحداً)[1] ومما اتصف به البخارى كذلك الكرم فقد ورث ثروة عظيمة أنفق منها على طلبة العلم والفقراء وسائر وجوه البر يقول فى ذلك : كنت أستغل فى كل شهر خمسمائة درهم فأنفقها فى الطلب وما عند الله خير وأبقى[2] وهكذا وطن البخارى نفسه على معانى النبل والفضيلة ، وكان حريصاً على أن يدعو إلى ما تحلى به من هذه الأخلاق ومن ذلك دعوته إلى اغتنام الوقت فى العبادة والاتعاظ بالموت ومن أشعاره المأثورة فى ذلك :

أغتنم فى الفراغ فضل ركوع ** فعسى أن يكون موتك بغته

كم صحيح رأيت من غير سقم ** ذهبت نفسه الصحيحة فلته[3]

كما وطن نفسه على تتبع الرسول ﷺ والتأسى به فى كل الجوانب فاقتدى به فى حب الجهاد والمهارة فى الحرب فأتقن الثقافة الحربية وتعلم استخدام آلات الحرب ، وحذق أساليب الجهاد فى عصره حتى قيل إنه ما أخطأ فى حياته إلا مرتين.

البخارى ومسألة اللفظ:

وقدم البخارى نيسابور سنة خمسين ومائتين فاستقبله أهلها بالبشر والترحاب ومعهم شيخه الذهلى ولما دخل البلد نزل دار البخاريين فقال محمد بن يحيى : لا تسألوه عن شىء من الكلام فإنه إن أجاب بخلاف ما نحن عليه وقع بيننا وبينه وشمت بنا كل ناصبى ورافضى وجهمى ومرجئى بخراسان[4] وقال الذهلى اذهبوا إلى هذا الرجل الصالح العالم فاسمعوا منه فأقبل أناس عليه حتى ظهر الخلل فى مجلس محمد بن يحيى ، فحسده بعد ذلك وتكلم فيه[5] وكان لهذا الحسد نتيجته السيئة بعد ذلك التى عادت على البخارى ، قال أحمد بن عدى : ذكر لى جماعة من المشايخ أن محمد بن إسماعيل لما ورد نيسابور واجتمع الناس عنده ، حسده بعض شيوخ الوقت فقال لأصحاب الحديث : إن محمد بن إسماعيل يقول لفظى بالقرآن مخلوق فلما حضر المجلس قام إليه رجل فقال : يا أبا عبد الله ما تقول فى اللفظ بالقرآن مخلوق هو أو غير

---

(١) هدى السارى ص ٤٨١ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن السبكى جـ ٢ ص ١١ .

(٣) هدى السارى ص ٤٨٢ .

(٤) هدى السارى ص ٤٩١ .

(٥) تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٥٣ ، طبقات الشافعية لابن السبكى جـ ٢ ص ٢٢٨ .

مخلوق؟ فأعرض عنه البخارى ولم يجبه فلما ألح عليه قال البخارى: القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة، فشغب الرجل وقال قد قال لفظى بالقرآن مخلوق، ومنذ حدوث هذا الشغب وزعمهم أنه قال بخلق القرآن حدث الجفاء والقطيعة بينه وبين شيخه الذهلى بصورة واضحة وساعد على ذلك ما كان فى النفوس البشرية من حسد، فقال الذهلى من زعم: لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم ومن ذهب بعد هذا إلى مجلسه فاتهموه، فانقطع الناس عنه إلا مسلم وأحمد ابن سلمة، فقال الذهلى: ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا فأخذ مسلم ابن الحجاج رداءه وقام على رؤوس الناس فبعث إلى الذهلى جميع ما كان كتبه عنه على ظهر حمال[1].

وفى الحقيقة أن البخارى برىء من هذه التهمة وليس فيما رآه من عيب يؤخذ عليه لكنها العصبية العنيفة والتهييب الشديد من الكلام فى هذا الموضوع مما جعل القوم على هذه الصورة خاصة بعد ما نال أهل السنة وإمامهم أحمد بن حنبل من الفتنة. وما أثير حول البخارى إنما هو وليد الحسد، وإثارة هذه الفتنة قائمة على وجه غير صحيح وهو عدم التفريق بين القرآن والقراءة، وقد التزم البخارى منهج السلف فأعرض عن سائله فى بادىء الأمر. ولكنه تحت الإلحاح بين أن السؤال فى ذلك بدعة وأجابه إجابة واضحة مبيناً الفرق بين القرآن وهو قديم وبين التلفظ والنطق بالألسنة وبين الكتابة بالأيدى وكل ذلك حادث.

رجوعه إلى بخارى:

ولكن البخارى آثر السفر إلى بلده «بخارى» خشية اشتعال هذه الفتنة، وعندما عاد إلى بلده استقبلوه استقبالاً حاراً وفرحوا بمقدمه، ومكث فى بلده مدة يحدث الناس ويعلمهم وزاد الإقبال عليه، وسوى بين الجميع فى طلب العلم فلم يخص بدرسه قوماً دون الآخرين حتى ولو كان الأمير، وعلى هذا المنهج عاش البخارى فى بلده حتى وقع بينه وبين أمير بخارى خالد بن أحمد الذهلى ما عكر الصفو وكان السبب المباشر فى ذلك هو اعتزاز البخارى بالعلم، فقد بعث الأمير إلى البخارى أن يحمل إليه كتاب الجامع والتاريخ ليسمع منه فقال البخارى لرسوله: قل له إنى لا أذل العلم ولا أحمله

---

(١) هدى السارى ص ٤٩٢.

إلى أبواب السلاطين فإن كانت لك حاجة إلى شيء منه فليحضرني في مسجدى أو فى دارى فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعنى من المجلس ليكون لى عذر عند الله يوم القيامة لأنى لا أكتم العلم[١] فكان هذا هو السبب فى الجفاء والقطيعة بينهما وظل يترقب الأمير ويتحين الفرص حتى وصله كتاب محمد بن يحيى الذهلى الذى واصل عداءه بما كتبه للولاة والعلماء بالتشنيع على البخارى فى مسألة اللفظ واتهامه بالاعتزال كما كتب إلى الأمير خالد بن يحيى فانتهز الأمير الفرصة للانتقام منه وصرف الناس عنه مستعيناً بحديث ابن أبى الورقاء وغيره من أهل بخارى حتى تكلموا فى مذهبه فنفاه عن البلد فخرج إلى «خرتنك» وهى قرية من قرى سمرقند «وكان له أقرباء بها فنزل عندهم»[٢] فاتفق أن مرض بها وتوفى ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين ودفن بعد ظهر يوم عيد الفطر بعد حياة حافلة بالعلم والعمل فرضى الله عنه وأرضاه.

وقد شهد للإمام البخارى بالعلم والفضل والإمامة فى الحديث والفقه كثيرون لا يحصون من شيوخه وأقرانه وتلاميذه قال يعقوب بن إبراهيم الدورقى: محمد بن إسماعيل البخارى فقيه هذه الأمة وقال محمد بن بشار: هو أفقه خلق الله فى زماننا، ولعظم مكانته فيهم ولشدة حبهم تمنوا أن يفدوه بأرواحهم. قال يحيى بن جعفر: لو قدرت أن أزيد فى عمر محمد بن إسماعيل لفعلت فإن موتى يكون موت رجل واحد وموت محمد بن إسماعيل ذهاب العلم، قال ابن حجر: ولو فتحت باب ثناء الأئمة عليه ممن تأخر عن عصره لفنى القرطاس ونفدت الأنفاس فذاك بحر لا ساحل له أ هـ. وفى هذا ما يدل على ما كان عليه البخارى من مكانة عظيمة وتقدير بالغ بين عارفيه وجميع أهل عصره.

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٣٣.
(٢) تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٥٢، مرآة الجنان لليافعى جـ ٢ ص ١٦٧.

مؤلفات البخارى

كان للإمام البخارى مجال فسيح فى التأليف يدل على أفقه العلمى الواسع ومعرفته الفائقة بأحوال الرواة فكتب فى كل ما يتصل بالسنة النبوية الشريفة ومن هذه المؤلفات :

١- الجامع الصحيح .
٢- الأدب المفرد .
٣- رفع اليدين فى الصلاة .
٤- بر الوالدين .
٥- التاريخ الكبير .
٦- التاريخ الأوسط .
٧- التاريخ الصغير .
٨- كتاب الضعفاء .
٩- كتاب التفسير الكبير .
١٠- القراءة خلف الإمام .
١١- الكنى .
١٢- العلل .
١٣- أسامى الصحابة .
١٤- كتاب الأشربة .
١٥- كتاب الوحدان وهو من ليس له إلا حديث واحد .
١٦- كتاب الهبة .
١٧- كتاب المسند الكبير .
١٨- كتاب المبسوط .
١٩- كتاب الفوائد[١] .

ولنتناول الآن أعظم مصنفات هذا الإمام الجليل وهو كتابه (الجامع الصحيح) الذى صنفه على الأبواب .

(١) مقدمة فتح البارى ص ٤٩٣ .

كتاب الجامع الصحيح للإمام البخارى

التعريف بالكتاب:

كتاب الجامع الصحيح للإمام البخارى هو الكتاب الذى قال فيه العلماء: إنه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى وبه أصبح البخارى أمير المؤمنين فى الحديث وهو أعلى وأهم مؤلفات البخارى، قطع قبله رحلات واسعة، وكتب عدة مؤلفات كانت بمثابة المقدمة التى مهدت لكتابه العظيم (الجامع الصحيح). وقد صنفه البخارى فى روية وأناة، متحرياً العناية التامة والدقة الكاملة ومكث فى تصنيفه ستة عشر عاماً. قال البخارى: صنفت الجامع الصحيح لست عشرة سنة وخرجته من ستمائة ألف حديث وجعلته حجة بينى وبين الله عز وجل[1] وكان يتأهب لكتابة كل حديث بالطهارة، والصلاة يقول البخارى: «ما كتبت فى كتاب الجامع الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين» وقيل إنه وضع تراجم جامعه بين قبر النبى ﷺ ومنبره وكان يصلى لكل ترجمة ركعتين، وروى عن البخارى أنه قال: صنفت كتاب الجامع فى المسجد الحرام وما أدخلت فيه حديثاً إلا بعد ما استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وتيقنت صحته. وقيل صنف كتابه ببخارى، وقيل صنفه بمكة، ويمكن الجمع بين هذه الآراء بأن الإمام البخارى كان يصنف من كتابه الجامع الصحيح بعضاً بمكة والبعض الآخر بالمدينة والبصرة وببخارى، فقد صنفه فى ست عشرة سنة ويرى الحافظ أنه ابتدأ تصنيفه ووضع التخطيط العام للكتاب كمسودة فى المسجد الحرام ثم أكمله وبيَّضه فى بخارى وغيرها.

والاسم الكامل لكتاب الجامع الصحيح هو (الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) وقد أطلق عليه صحيح البخارى اختصاراً وكان البخارى نفسه يطلق عليه الصحيح اختصاراً، وقد خرج البخارى أحاديث جامعه من ستمائة ألف حديث ويبدو أن مراده بالمسند هو تخريج الأحاديث المتصلة بالإسناد ببعض الصحابة عن النبى ﷺ سواء أكانت قولاً أو فعلاً أو تقريراً. وأما ما وقع فى

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٥٤٤، تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٤٩، هدى السارى ص ٤، ٥.

الكتاب مما يخالف ذلك فإنما وقع فيه عرضاً لا أصلاً فهو غير مقصود كالمعلقات والموقوفات التي ذكرها استئناساً وتبعاً وهي لا تخرج الكتاب عن أصل موضوعه وهو الحديث الصحيح. ولم يفت البخارى أن يسجل فى جامعه بعض الفوائد الفقهية فاستخرج بما وفقه الله من فهم فى المتون المعانى الكثيرة التى فرقها فى أبواب الكتاب بحسب ما يناسبها، كما عنى بآيات الأحكام التى استنبط منها واستخرج من كنوزها، فلم يكن مقصوده الاقتصار على الأحاديث فقط، بل إنه استهدف الاستنباط منها والاستدلال على بعض الأحكام التى أرادها.

الباعث له على تأليفه

كانت الكتب المؤلفة قبل الجامع الصحيح منها ما هو ممزوج بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومنها ما هو جامع بين الصحيح والحسن والضعيف، فكان الذى يقرأ هذه الكتب لا يستطيع تمييز الصحيح من غيره إلا إذا كان على جانب كبير من الخبرة التامة فى فنون الحديث كما شاعت الأحاديث الضعيفة بل والموضوعة عن طريق القصاص وأصحاب البدع والأهواء كما ظهر بعض المنتسبين إلى أهل الرأى فأوغلوا فى مخالفتهم بعض السنن الثابتة الصحيحة وظل الوضع هكذا حتى جاء الإمام البخارى فاضطلع بدور هام، وأخذ على عاتقه رسالة جليلة هى أن يخص الأحاديث الصحيحة بالجمع وأن يرتبها على حسب الأبواب الفقهية، وعلى حسب الموضوعات المختلفة الواردة فى الأحاديث، لأنه كان يرى الدواوين المؤلفة قبله تجمع بين الأحاديث بدافع حفظها على الأمة وصيانتها ولم يراع أصحابها فيها المناسبات فى ترتيبها فكانت صعبة على من يريد أن يستخرج منها حديثاً يتعلق بموضوع من أحكام الشرع، فدفعه إلى هذا العمل العظيم وقوى عزمه فيه ما سمعه من أستاذه الإمام إسحاق بن راهويه. قال البخارى: كنا عند إسحاق بن راهويه فقال: (لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ)، قال: فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع الجامع الصحيح، كما قوى عزمه وشرح صدره لذلك رؤيا منامية رأى فيها النبى ﷺ والبخارى واقف بين يديه وبيده مروحة يذب بها عنه فسأل بعض المعبرين عن ذلك فقال له: أنت تذب عنه الكذب. ومع دقة البخارى العلمية وتحريه الكبير فقد كان يطلب التوفيق والعون من الله سبحانه وتعالى ويستلهم الجانب الروحى فى نفسه، قال الفربرى: يقول البخارى ما كتبت فى كتاب الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين، ولما ألف البخارى كتابه عرضه على الأئمة: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المدينى وغيرهم فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة إلا فى أربعة أحاديث، قال العقيلى: والقول فيها قول البخارى وهى صحيحة أ هـ [1].

---

(١) هدى السارى ص ٥.

منهج البخارى فى الجامع الصحيح

صنف الإمام البخارى كتابه الجامع الصحيح على منهج التأليف على الأبواب، وهو تخريجه على أحكام الفقه وغيرها فجمع ما ورد فى كل نوع من الأنواع فى باب خاص بحيث يتميز ما يتعلق من الأحاديث مثلاً بالصلاة عما يتعلق منها بالصوم وهكذا، مقتصراً على إيراد ما صح من الأحاديث فقط فلم يدون فى كتابه إلا ما صح سنده واتصل بنقل العدول الضابطين وخلا من الشذوذ والعلة كما كان يتخير الرجال الذين يخرج عنهم فينتقى أكثرهم صحبة لشيخه وأكثرهم معرفة لحديثه.

وإذا نظرنا إلى تسمية البخارى لكتابه (الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) يتضح لنا منهج البخارى وشرطه فى كتابه فقوله (الجامع) يتضح به أنه لم يختص بصنف دون صنف، وإنما أورد فيه الأحكام والفضائل والأخبار وغير ذلك من الآداب.. بما يتضح من قوله (الصحيح) أنه لا يوجد فيه ما ثبت ضعفه عنده، وأما قوله (المسند) فهو أن الأصل تخريج الأحاديث المتصلة السند بالصحابى عن النبى ﷺ قولاً كان ذلك أو فعلاً أو تقريراً وأما ما عدا ذلك فقد ذكر فيه تبعاً وعرضاً لا أصلاً مقصوداً[1]. وبهذه الطريقة استنتج ابن حجر شرط البخارى فى صحيحه ومنهجه فيه. وقد أكثر الإمام البخارى فى كتابه الجامع الصحيح من التراجم فذكر الترجمة التى تناسب الحديث أولاً كشرح أو توجيه إلى معنى خفى وغرضه من ذلك: الاستنباط منها والاستبدال لأبواب أرادها من الفقه والأصول والزهد والأدب وغيرها وربط كثيراً من أحاديثه بآيات القرآن وأقوال من السلف وما يستنبطه بفهمه من الأحاديث فكانت بمثابة المفتاح لفهم الحديث.

وإذا كان صحيح البخارى يتفق فى منهجه مع موطأ مالك حيث إن الكتابين مرتبان على الأبواب لكن صحيح البخارى يختلف عن الموطأ فى أمرين:

١- تجريد البخارى أحاديثه من أقوال الصحابة والتابعين بخلاف الموطأ.

٢- جمع البخارى لأحاديث الفقه وغيرها من الأنواع بخلاف الموطأ، فإن أغلبه فى أحاديث الأحكام الفقهية. بهذا كان الإمام البخارى أول من ألف جامعاً صحيحاً، لأنه جمع فى كتابه معظم الأبواب الفقهية وغيرها وهو أول صحيح فى القرن الثالث، أما الموطأ فهو أول صحيح فى القرن الثانى وكما قال الإمام النووى: «أول من صنف الصحيح المجرد البخارى»[2].

---

(١) النكت لابن حجر مخطوط بمكتبة الأزهر.

(٢) تدريب الراوى (٤١).

شرط البخاري في صحيحه

وأما عن شرط الإمام البخارى فى كتابه، فقد ورد فى ذلك اختلاف لبعض العلماء وذلك لأنه لم يؤثر عن الإمام البخارى، ولا الإمام مسلم التصريح بشروطهما فى كتابيهما على وجه التفصيل، ولذا استنتج العلماء بدراسة الكتب وسبرها شروطاً لكل منهما.

وقد اشترط الحافظ أبو بكر الحازمى فى الحديث الصحيح: أن يكون إسناده متصلاً، وأن يكون راويه مسلماً صادقاً غير مدلس ولا مختلط، متصفاً بصفات العدالة، ضابطاً متحفظاً، سليم الذهن قليل الوهم، سليم الاعتقاد.

واشترط البخارى أن يكون الحديث صحيح السند متصلاً بنقل العدول الضابطين خالياً من الشذوذ والعلة كما سبق واشترط فى المعنعن: اللقاء مع المعاصرة والثقة وعدم التدليس، فإذا ثبت ذلك حملت العنعنة على السماع، وطريق ثبوت اللقاء عند البخارى قائم على التصريح بالسماع فى الإسناد، ثم بين الحازمى مذهب الأئمة فى كيفية استنباط مخارج الحديث فقال: إن[1] مذهب من يخرج الصحيح أن يعتبر حال الراوى العدل فى مشايخه وفيمن روى عنهم وهم ثقات أيضاً، وحديثه عن بعضهم صحيح ثابت يلزمهم إخراجه، وعن بعضهم مدخول لا يصلح إخراجه إلا فى الشواهد والمتابعات وهذا باب فيه غموض، وطريقه: معرفة طبقات الرواة عن راوى الأصل ومراتب مداركهم، ولنوضح ذلك بمثال: وهو أن نعلم مثلاً أن أصحاب الزهرى على طبقات خمس، ولكل طبقة منها مزية على التى تليها وتفاوت، فمن كان فى **الطبقة الأولى:** فهو الغاية فى الصحة وهوبغاية مقصد البخارى، **والطبقة الثانية:** شاركت الأولى فى العدالة غير أن الأولى جمعت بين الحفظ والاتقان وبين طول الملازمة للزهرى حتى كان فيهم من يزامله فى السفر ويلازمه فى الحضر. والطبقة الثانية لم تلزم الزهرى إلا مدة يسيرة وكانوا فى الإتقان دون الطبقة الأولى وهم شرط مسلم.

والطبقة الثالثة: جماعة لزموا الزهرى مثل أهل الطبقة الأولى غير أنهم لم يسلموا من غوائل الجرح فهم بين الرد والقبول وهم شرط أبى داود والنسائى.

---

(١) شروط الأئمة الخمسة للحازمى ص ٤٣ بتعليق الشيخ محمد زاهد الكوثرى.

والطبقة الرابعة: قوم شاركوا أهل الطبقة الثالثة فى الجرح والتعديل وتفردوا بقلة ممارستهم لحديث الزهرى، لأنهم لم يصاحبوا الزهرى كثيراً وهم شرط أبى عيسى. وفى الحقيقة شرط الترمذى أبلغ من شرط أبى داود، لأن الحديث إذا كان ضعيفاً أو مطلعه من حديث أهل الطبقة الرابعة فإنه يبين ضعفه وينبه عليه فيصير الحديث عنده من باب الشواهد والمتابعات ويكون اعتماده على ما صح عند الجماعة، وعلى الجملة فكتابه مشتمل على هذا الفن فلهذا جعلنا شرطه دون شرط أبى داود.

والطبقة الخامسة: نفر من الضعفاء والمجهولين لا يجوز لمن يخرج الحديث على الأبواب أن يخرج حديثهم إلا على سبيل الاعتبار والاستشهاد عند أبى داود فمن دونه فأما عند الشيخين فلا.

فأما أهل الطبقة الأولى: فنحو مالك وابن عيينة وعبيد الله بن عمر ويونس وعقيل الايليان وشعيب بن أبى حمزة وجماعة سواهم.

وأما أهل الطبقة الثانية: فنحو عبد الله بن عمر والأوزاعى والليث بن سعد والنعمان ابن راشد وعبدالرحمن بن خالد بن مسافر وغيرهم.

والطبقة الثالثة: نحو سفيان بن حسين السلمى وجعفر بن برقان وعبدالله بن عمر ابن حفص والعمرى وزمعة بن صالح المكى وغيرهم.

والطبقة الرابعة: نحو إسحاق بن يحيى الكلبى ومعاوية بن يحيى الصدفى وإسحاق ابن عبدالله بن أبى فروة المدنى وإبراهيم بن يزيد المكى والمثنى بن الصباح وجماعة سواهم.

والطبقة الخامسة: نحو بحر بن كنيز السقا والحكم بن عبدالله الايلى وعبدالقدوس ابن حبيب الدمشقى ومحمد بن سعيد المصلوب وغيرهم، وهم خلق كثير «أ.هـ».

وأما الطبقة الأولى فهم شرط البخارى، وقد يخرج من حديث أهل الطبقة الثانية ما يعتمده من غير استيعاب، وأما مسلم فيخرج حديث الطبقتين على سبيل الاستيعاب

ويخرج أحاديث أهل الطبقة الثالثة على النحو الذى يصنعه البخارى فى الثانية وأما الرابعة والخامسة فلا يعرجان عليهما[1].

وقد علق ابن حجر بعد ذكر كلام الحازمي بقوله: «وهذا المثال الذى ذكرناه هو فى حق المكثرين فيقاس على هذا أصحاب نافع وأصحاب الأعشى، وأصحاب قتادة وغيرهم. فأما غير المكثرين فإنما اعتمد الشيخان فى تخريج أحاديثهم على الفقه والعدالة وقلة الخطأ لكن منهم من قوى الاعتماد عليه فأخرجا ما تفرد به كيحيى بن سعد الأنصارى. ومنهم من لم يقو الاعتماد عليه فأخرج له ما شاركه فيه غيره وهو الأكثر»[2].

ويلاحظ أن الحازمي قارن بين البخارى وغيره من الأئمة فى كلامه ووضع البخارى فى مقدمة الأئمة فجعل شرطه أن يخرج من أحاديث أهل الطبقة الأولى التى امتازت بالحفظ والإتقان وطول ملازمتها لشيخها.

ونرى أن ابن حجر فى كتابه «النكت» قد استنتج شرط البخارى فى تسمية الكتاب وهو (الجامع الصحيح المسند..) إلخ، ومن استقرائه لتصرفه فى تعريف الصحيح، واشتراطه اللقاء مع المعاصرة، والثقة وعدم التدليس.

وأرى أن رأى ابن حجر يتفق فى المعنى مع ما رآه الحازمي كما سبق. وقد ارتضاهما العلماء ولم يرد عليهما اعتراض فكل من الرأيين ينتهى إلى أن البخارى لا يخرج إلا الأحاديث الصحيحة المتصلة السند على ما سبق بيانه من شروط.

---

(١) تدريب الراوى ص ٧٠.
(٢) هدى السارى ص ٧.

رأى ابن طاهر المقدسى فى شرط البخارى ومسلم

وأما الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى المتوفى سنة ٥٠٧ هـ، فيرى أن شرط البخارى ومسلم: أن يخرجا الحديث المتفق على ثقة نقلته إلى الصحابى المشهور من غير اختلاف بين الثقات، ويكون إسناده متصلاً غير مقطوع، فإن كان للصحابى راويان فصاعداً فحسن وإن لم يكن راو واحد، فإذا صح الطريق إلى ذلك الراوى أخرجاه، إلا أن مسلماً أخرج أحاديث أقوام كحماد بن سلمة وسهيل بن أبى صالح وداود بن أبى هند، فلما تكلم فى هؤلاء بما لا يزيل العدالة والثقة ترك البخارى إخراج حديثهم فى الأصول تحرياً لشبهة وقعت فى نفسه، وإنما أخرج مسلم حديثهم لزوال الشبهة.

وقد اعترض عليه الحافظ العراقى فى قوله: «المتفق على ثقة نقلته..» فقال: وليس ما قاله ابن طاهر بجيد لأن النسائى ضعف جماعة أخرج لهم الشيخان أو أحدهما وأجيب: بأنهما أخرجا من أجمع على ثقته إلى حين تصنيفهما، ولا يقدم فى ذلك تضعيف النسائى بعد وجود الكتابين وقال شيخ الإسلام: تضعيف النسائى إن كان باجتهاده أو نقله عن معاصر فالجواب ذلك وإن نقله متقدم فلا، قال: ويمكن أن يجاب: بأن ما قاله ابن طاهر هو الأصل الذى بنيا عليه أمرهما، وقد يخرجان عنه لمرجع يقوم مقامه» (١).

رأى الحاكم النيسابورى: وأما الحافظ الحاكم أبو عبد الله النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥هـ. فقد رأى أن الدرجة الأولى من الصحيح اختيار البخارى ومسلم وهو أن يروى الحديث عن النبى ﷺ صحابى زائل عنه اسم الجهالة، بأن يروى عنه تابعيان عدلان، ثم يروى عنه التابعى المشهور بالرواية عن الصحابة وله راويان ثقتان، ثم يرويه عنه من أتباع التابعين حافظ متقن وله رواة من الطبقة الرابعة ثم يكون شيخ البخارى أو مسلم حافظاً مشهوراً بالعدالة فى روايته «أ.هـ».

قال أبو على الغسانى: ليس المراد أن يكون كل خبر روياه يجتمع فيه راويان عن صحابيه ثم عن تابعيه فمن بعده فإن ذلك يعز وجوده، وإنما المراد أن هذا الصحابى وهذا التابعى قد روى عنه رجلان خرج بهما عن حد الجهالة (٢).

---

(١) شروط الأئمة للمقدسى، تدريب الراوى ص ٦٥.

(٢) تدريب الراوى ص ٦٦.

والحقيقة أن الشيخين لم يشترطا هذا الشرط، ولا نقل عن واحد منهما أنه قال ذلك، والحاكم قدر هذا التقدير وشرط لهما هذا الشرط على ما ظن، ومن استقرأ الكتابين وجد ما يرد هذه الدعوى، فمن ذلك حديث مرداس الأسلمى «يذهب الصالحون الأول فالأول»، الحديث، وهو حديث تفرد البخارى بإخراجه عن يحيى بن حماد عن أبى عوانة عن بيان عن قيس عن مرداس، وليس لمرداس فى صحيح البخارى سوى هذا الحديث ولم يروه عن مرداس غير قيس بن أبى حازم (١).

وقال ابن حجر: والشرط الذى ذكره الحاكم وإن كان منتقضاً فى حق بعض الصحابة الذين أخرج لهم فإنه معتبر فى حق من بعدهم، فليس فى الكتاب حديث أصل من رواية من ليس له إلا راو واحد قط (٢) أ هـ.

عدد أحاديث الجامع الصحيح

وجميع أحاديث الجامع الصحيح بالمكرر سوى المعلقات والمتابعات على ما حرره ابن حجر: سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعون حديثاً، وجملة ما فى الكتاب من التعاليق ألف وثلاثمائة وواحد وأربعون حديثاً وأكثرها مُخَرّج فى الكتاب أصول متونه، والمتون التى لم تخرج فى الكتاب مائة وستون حديثاً، وجملة ما فيه من المتابعات والتنبيه على اختلاف الروايات ثلاثمائة وواحد وأربعون حديثاً. وجميع ما فى صحيح البخارى من المتون الموصولة من غير تكرار ألفا حديث وستمائة حديث وحديثان، ومن المتون المعلقة المرفوعة التى لم يوصلها فى موضع آخر من الجامع مائة وتسعة وخمسون حديثاً، فجميع ذلك ألفا حديث وسبعمائة وواحد وستون حديثاً.

قال ابن حجر: «فجميع ما فى الكتاب على هذا بالمكرر تسعة آلاف واثنان وثمانون حديثاً وهذه العدة خارجة عن الموقوفات على الصحابة والمقطوعات عن التابعين فمن بعدهم»(٣)، ورأى ابن حجر فى عدد أحاديث كتاب البخارى هو الذى أرجحه فهو من الدقة والتحرير بمكان بحيث يطمئن إليه الباحث بعد نظره فى كتابه، ومما ساعد ابن حجر على ذلك أنه شرح صحيح البخارى وكان يذكر فى آخر كل كتاب منه عدد الأحاديث.

---

(١) شروط الأئمة الخمسة ص ٢٢.
(٢) هدى السارى ص٧.
(٣) هدى السارى ص ٤٧٠.

رواة الجامع الصحيح

سمع كتاب الجامع الصحيح رواة كثيرون من أشهرهم أبو عبد الله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفربرى المتوفى سنة ٣٢٠، نسبة إلى فربر قرية ببخارى، وكان سماعه للصحيح كله مرتين: مرة بفربر سنة ٢٤٨ ومرة أخرى ببخارى سنة ٢٥٢، أى قبل وفاة الإمام البخارى بأربع سنين، ومنهم إبراهيم بن معقل بن الحجاج النسفى المتوفى سنة ٢٩٤ وكان من الحفاظ وله تصانيف، وقد فاته من كتاب صحيح البخارى أوراق رواها بالإجازة عن البخارى ومنهم حماد بن شاكر النسوى، المتوفى سنة ٢٩٠ ومنهم أبو طلحة منصور بن محمد بن على بن قرينة البزدوى المتوفى سنة ٣٢٩ وهو آخر الذين حدثوا عن الإمام البخارى(١).

وقد تناول تلامذتهم كتاب الجامع الصحيح ثم أخذه عنهم من بعدهم وهكذا تتابعت روايته عن الكثيرين فى كل زمان وتلقته الأمة بالقبول.

الأحاديث الصحيحة والرواة الثقات فى كتاب البخارى

سبق بيان أن الإمام البخارى تحرى أن يدون فى كتابه الأحاديث الصحيحة ولا يروى إلا عن الرواة الثقات الذين اشترط فيهم الشروط السابقة، ولكنه لم يستوعب الأحاديث الصحيحة كلها، وقد صرح البخارى بذلك فى قوله: (ما أدخلت فى كتاب الجامع إلا ما صح وتركت من الصحاح حتى لا يطول)(٢).

وكان البخارى يحفظ الأحاديث الصحيحة، والأحاديث غير الصحيحة أيضاً لمعرفتها وتمييز الصحيح من غيره. قال: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتى ألف حديث غير صحيح وبهذا يتضح أن البخارى لم يثبت فى كتابه كل حديث صحيح كان يحفظه، ولا كل حديث صحيح على شرطه بل إن الصحيحين لم يستوعبا الأحاديث الصحيحة فى كتابيهما، وقال الحافظ ابن كثير: ثم إن البخارى ومسلماً لم يلتزما بإخراج جميع ما يحكم بصحته من الأحاديث فإنهما قد صححا أحاديث ليست فى

(١) مقدمة فتح البارى جـ١ ص٤.
(٢) تاريخ بغداد جـ٢ ص٨ مقدمة ابن صلاح ص٨.

كتابيهما ، كما نقل الترمذى وغيره عن البخارى تصحيح أحاديث ليست عنده بل فى السنن وغيرها[1] .

وبهذا يتبين أن البخارى لم يستوعب الصحيح ولم يلتزم استيعابه كما أنه لم يستوعب الرواة الثقات المتوفرة فيهم صفات القبول والصحة ، قال الحازمى : إن قصد البخارى وضع مختصر فى الحديث وإنه لم يقصد استيعاباً لا فى الرجال ولا فى الحديث ، وقد قال : لم أخرج فى هذا الكتاب إلا صحيحاً . ولم يخرج الشيخان شيئاً فى الصحيحين من حديث الإمام أبى حنيفة ولا حديث الإمام الشافعى ولا أخرج البخارى من حديث الإمام أحمد إلا حديثين ولا أخرج مسلم فى صحيحه عن الإمام البخارى ولا عن الإمام أحمد إلا قدر ثلاثين حديثاً ولا أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن الإمام مالك عن نافع بطريق الشافعى وهو أصح الطرق إلا أربعة أحاديث ، وما رواه أحمد عن الشافعى بغير هذا الطريق لا يبلغ عشرين حديثاً ولعل السبب فى ذلك كما رأى الشيخ زاهد الكوثرى[2] أن ذلك راجع إلى أنهم كانوا يرون أن أحاديث هؤلاء فى مأمن من الضياع لكثرة أصحابهم القائمين برواياتها شرقاً وغرباً . وجل عناية أصحاب الدواوين بأناس من الرواة ربما كانت تضيع أحاديثهم لولا عنايتهم بها لأنه لا يستغنى من بعدهم عن دواوينهم فى أحاديث هؤلاء دون هؤلاء فالاطمئنان على حفظ مروياتهم وعدم الخوف عليها هو الذى حدا بالأئمة إلى ترك بعض الرواة ، وأيضاً فقد يكون السبب طلب علو الإسناد بأن يكون الحديث من طريق ذلك الإمام نازلاً ، ومن طريق غيره من الثقات عالياً فيختار صاحب الطريق العالى لقربه من الرسول ﷺ وإذا تبين أن صحيح البخارى لم يستوعب الصحيح ولا التزمه فليس لأحد أن يرد حديثاً صحيحاً أو لا يأخذ به بحجة أنه ليس فى الصحيحين وكما يقول الإمام مسلم : إنما أخرجت هذا الكتاب وقلت هو صحاح ، ولم أقل إن ما لم أخرجه من الحديث فى هذا الكتاب ضعيف[3] .

---

(١) الباعث الحثيث ص ٢٥ .

(٢) شروط الأئمة الخمسة ص٤٣ .

(٣) المرجع السابق ص٦٠ .

تراجم كتاب الجامع الصحيح

تميز الإمام البخارى بالحافظة القوية، والذهن السيال، الذى وجهه إلى فهم الكتاب والسنة واستنباط ما فيهما من كنوز، فاستخرج ما شاء الله له من الأحكام، وقد أودع فى تراجم الأبواب ما أداه إليه اجتهاده، وما اهتدى إليه بعقله العلمى المتفتح، مما يشهد له كإمام من أئمة الفقه - بالبراعة فى استنباط الأحكام من الأحاديث النبوية ومما زاد البخارى توفيقاً فى الفهم والاستنباط أنه كان يتجه إلى نصوص القرآن والسنة بطاقاته الروحية، فيهيىء نفسه بطهارة الجسم والنفس وبجوار صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه. وبهذا السلوك العقلى والروحى وصلت تراجم أبوابه منزلة عالية روى أبو أحمد بن عدى عن عبد القدوس بن همام، قال: (شهدت عدة مشايخ يقولون: حول البخارى تراجم جامعة - يعنى بيّضها - بين قبر النبى ﷺ ومنبره، وكان يصلى لكل ترجمة ركعتين) وقد قسم الإمام البخارى كتابه الجامع الصحيح إلى كتب وقسم الكتب إلى أبواب وبدأه بباب: كيف بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ وقول الله جل ذكره: (إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده)[1]، ثم ذكر كتاب الإيمان، ثم العلم، ثم كتاب الطهارة، ثم كتاب الصلاة وهكذا، وبعد أن انتهى من ذكر العبادات والمعاملات ذكر غير ذلك من الأبواب غير الفقهية كالسيرة والمغازى، والتفسير وغير ذلك، وبلغ عدد كبير من الأحاديث وفى بعض الأبواب ما فيه حديث واحد وفى بعضها ما فيه آية من القرآن وبعضها لا شىء فيه، وقيل إنه صنع ذلك ليبين أنه لم يصح عنده حديث بشرطه فى المعنى الذى ترجم عليه، ومن ثم قام بعض الناسخين للكتاب فضم باباً لم يذكر فيه حديث إلى حديث لم يذكر له باب، فأشكل فهمه على الناظر فيه.

ويقوم منهج البخارى فى تراجمه على طريقتين:

١- طريقة ظاهرة.

٢- طريقة خفية.

---

(١) فتح البارى جـ١ ص٥، ٦.

١. الطريقة الظاهرة

هى أن تكون الترجمة دالة بالمطابقة على ما يورده من الأحاديث، كأن يقول: هذا الباب الذى فيه كيت وكيت أو باب ذكر الدليل على الحكم الفلانى، مثلا وقد تكون الترجمة بلفظ المترجم له، وقد تكون ببعض ألفاظه، وقد تكون بمعناه، وهذا النوع من التراجم، وهو التراجم الظاهرة ذكر ابن حجر أن فائدتها: الاعلام بما ورد فى ذلك الباب[١]، مثال ذلك: (باب ذكر هند بنت عتبة بن ربيعة رضى الله عنها). وجاء بالإسناد المتصل إلى عروة أن عائشة رضى الله عنها قالت: جاءت هند بنت عتبة قالت: يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك[٢] فليس فى هذه الترجمة اجتهاد، ولكنها مجرد عنوان لما ترجم له.

ومثال الترجمة بلفظ المترجم له: (باب قول النبى ﷺ اللهم علمه الكتاب) «وجاء بالحديث المتصل عن ابن عباس قال: ضمنى رسول الله، وقال: اللهم علمه الكتاب»[٣].

فقد جاء فى الترجمة هنا بنفس الحديث المترجم له.

ومثال الترجمة ببعض المترجم له: (باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) وجاء بالإسناد المتصل، قال حميد بن عبد الرحمن: سمعت معاوية خطيباً يقول سمعت النبى ﷺ يقول: (من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله)[٤] فقد ترجم هنا ببعض عبارات الحديث المترجم له.

ومثال الترجمة التى جاءت تفسيراً لمعنى كلمة فى الحديث (باب الاغتباط فى العلم والحكمة) وقال عمر تفقهوا قبل أن تسودوا ثم ذكر الحديث المسند عن عبد الله بن مسعود قال النبى ﷺ لا حسد الا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق وجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها [٥] فقد فسر فى هذه الترجمة المعنى المراد بالحسد وهو الغبطة ومعناها: أن يتمنى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه بخلاف الحسد.

(١) مقدمة فتح البارى ص١١.
(٢) فتح البارى جـ٧ ص٩٧.
(٣) المرجع السابق ص١٥٥.
(٤) فتح البارى جـ١ ص١٥٠.
(٥) فتح البارى جـ١ ص١٥١.

الطريقة الثانية

أن يأتى للحديث العام بترجمة خاصة، أو يأتى للحديث الخاص بترجمة عامة، فمثال الأول: «باب جهر الإمام بالتأمين»[1] ثم يأتى بالحديث المسند عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» فليس فى الحديث التصريح بالجهر بالتأمين ولكنه وضح فى الترجمة أن المراد: الجهر بالتأمين فى الصلاة الجهرية، وأخذ ذلك من قول الرسول ﷺ: إذا أمن الإمام فأمنوا، فتحديدها بوقت تأمين الإمام، لا يعرف إلا حال الجهر حيث يتمكن المقتدى أن يؤمن، فبين بالترجمة إذ أن الحديث وإن كان عاماً، إلا أنه أراد منه الخصوص.

ومثال الثانى وهو ما جاء فيه بترجمة عامة للحديث الخاص: (باب التسمية على كل حال وعند الوقاع)[2] وجاء بالإسناد المتصل عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: «باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضى بينهما ولد لم يضره». فالحديث ورد خاصاً بالحالة المعينة وهى عند الوقاع، أما الترجة فجاءت عامة فى هذه الحالة وفى سائر الأحوال، وذلك للإشارة إلى أن التسمية مستحبة عموماً، والحديث وإن جاء خاصاً إلا أنه يراد به العموم، وهكذا الحال بالنسبة للمطلق والمقيد وشرح المشكل وتفسير الغامض وتأويل الظاهر وتفصيل المجمل.

وقد يأتى بلفظ الترجمة، ثم يورد بعدها آية أو أثراً لا حديثاً مسنداً، فكأنه يقول لم يصح فى الباب شىء على شرطى. وقد يترجم بآية ويأتى بعدها بالحديث، وقد يترجم بلفظ الاستفهام كقوله: باب هل يكون كذا؟ أو من قال كذا؟ وذلك عندما لا يتجه له القطع بأحد الاحتمالين، ويكون غرضه بيان هل يثبت الحكم أم لا؟ فترجم على الحكم ومراده ما يفسره بعد ذلك من إثباته أونفيه أواحتماله لهما، وربما كان أحد الاحتمالين أظهر، وغرضه: أن يبقى للنظر مجالاً. وقد يترجم بأمر يكون فى الظاهر قليل الجدوى ولكن إذا نظر فيه الناظر وتدبره وجده كثير النفع كقوله: (باب قول الرجل ما صلينا)[3] فإنه أشار به إلى الرد على من كره ذلك.

---

(١) فتح البارى جـ٢ ص١٧٧.

(٢) العينى جـ٢ ص٣٦٦.

(٣) صحيح البخارى جـ١ ص١٠٩.

نقد الجامع الصحيح للإمام البخارى

تلقت الأمة كتاب الجامع الصحيح للإمام البخارى بالقبول، واحتل هذا الكتاب النفيس مكانته الجليلة وتقديره العظيم عند أئمة الحديث ولذا عنوا به عناية عظيمة فكان منهم من دفعه اهتمامه بالكتاب وتقديره له إلى أن قام بتطبيق ما فيه من الأحاديث على ما اشترطه البخارى فى صحيحه فإذا ما بدا له أن بعض الأحاديث لاتتفق وما اشترطه البخارى، وتبين له أنها نزلت عن الدرجة العالية التى التزمها، إذا ما بدا له ذلك تناول هذه الأحاديث بالنقد. وليس معنى نقدهم لها أنها قد وصل بها الضعف إلى حد الموضوع أو المنكر ما سيتضح ذلك.

وقد كان من بين الأحاديث المنتقدة على البخارى ما وافقه مسلم على تخريجه وهو اثنان وثلاثون حديثاً، ومنها ما انفرد البخارى بتخريجه وهو ثمانية وسبعون حديثاً، وقبل بيان الرد الإجمالى والتفصيلى على هذا النقد أحب أن أقرر أن الدافع لهؤلاء النقاد الذى حفزهم على هذا النقد هو شدة حذرهم ويقظتهم، وكمال اهتمامهم وعنايتهم بهذه المصنفات النفيسة، على أساس من الإخلاص وليس بدافع القدح أو الحسد.

الجواب الإجمالى

ذكر ابن حجر فى مقدمة فتح البارى جواباً إجمالياً قال فيه:

«لا ريب فى تقديم البخاري ثم مسلم على أهل عصرهما ومن بعده من أئمة هذا الفن فى معرفة الصحيح والمعلل فإنهم لا يختلفون فى أن على بن المدينى كان أعلم أقرانه بعلل الحديث وعنه أخذ البخارى ذلك حتى كان يقول: ما استصغرت نفسى عند أحد إلا عند على بن المدينى، ومع ذلك فكان على بن المدينى إذا بلغه ذلك عن البخارى يقول: دعوا قوله فإنه ما رأى مثل نفسه. وكان محمد بن يحيى الذهلى أعلم أهل عصره بعلل حديث الزهرى وقد استفاد منه ذلك الشيخان جميعاً وروى الفربرى عن البخارى قال: ما أدخلت فى الصحيح حديثاً إلا بعد أن استخرت الله تعالى وتيقنت صحته، وقال مكى بن عبد الله: سمعت مسلم بن الحجاج يقول: عرضت كتابى هذا على أبى زرعة الرازى فكل ما أشار أن له علة تركته فإذا عرف وتقرر أنهما لا يخرجان من الحديث إلا ما لا علة له أو له علة إلا أنها غير مؤثرة عندهما فتقدير توجيه كلام من انتقد عليهما يكون قوله معارضاً لتصحيحهما ولا ريب فى تقديمهما فى ذلك على غيرهما فيندفع الاعتراض من حيث الجملة«أ.هـ»[1]

---

(١) هدى السارى ص ٣٤٥.

الجواب التفصيلى

وأما من حيث التفصيل فإن الأحاديث المنتقدة تنقسم إلى ستة أقسام :

القسم الأول:

ما تختلف الرواة فيه بالزيادة والنقص من رجال الإسناد ، فإن أخرج صاحب الصحيح الطريق المزيدة وعلله الناقد بالطريق الناقصة فهو تعليل مردود كما صرح به الدارقطنى لأن الراوى إن كان سمعه فالزيادة لا تضر لأنه قد يكون سمعه بواسطة عن شيخه ثم لقيه فسمعه منه وإن كان لم يسمعه فى الطريق الناقصة فهو منقطع ، والمنقطع من قسم الضعيف والضعيف لا يعلل الصحيح ، وإن أخرج صاحب الصحيح الطريق الناقصة وعلله الناقد بالطريق المزيدة تضمن اعتراضه دعوى انقطاع فيما صححه المصنف فينظر إن كان ذلك الراوى صحابياً أو ثقة غير مدلس قد أدرك من روى عنه إدراكاً بيناً أوصرح بالسماع إن كان مدلساً من طريق أخرى فإن وجد ذلك اندفع الاعتراض بذلك وإلا لم يوجد وكان الانقطاع فيه ظاهراً فحصل الجواب عن صاحب الصحيح أنه إنما أخرج مثل ذلك فى باب ما له متابع وعاضد أو ما حفته قرينة فى الجملة تقويه ويكون التصحيح وقع من حيث المجموع وربما علل بعض النقاد ، أحاديث ادعى فيها الانقطاع لكونها غير مسموعة كما فى الأحاديث المروية بالمكاتبة والإجازة وهذا لا يلزم منه الانقطاع عند من يسوغ الرواية بالإجازة بل فى تخريج صاحب الصحيح لمثل ذلك دليل على صحة الرواية بالإجازة عنده .

القسم الثانى:

ما تختلف الرواة فيه بتغيير رجال بعض الإسناد ، فالجواب عنه إن أمكن الجمع بأن يكون الحديث عند ذلك الراوى على الوجهين جميعاً فأخرجهما المصنف ولم يقتصر على أحدهما حيث يكون المختلفون فى ذلك متعادلين فى الحفظ والعدد ، وإن امتنع بأن يكون المختلفون غير متعادلين بل متقاربين فى الحفظ والعدد فيخرج المصنف الطريق الراجحة ويعرض عن الطريق المرجوحة أو يشير إليها فالتعليل بجميع ذلك من أجل الاختلاف غير قادح إذ لا يلزم من مجرد الاختلاف اضطراب يوجب الضعف فينبغى الإعراض أيضاً طالما هذا سبيله .

القسم الثالث:

ما تفرد بعض الرواة بزيادة فيه دون من هو أكثر عدداً أو أضبط ممن لم يذكرها فهذا لا يؤثر التعليل بها إلا إن كانت الزيادة منافية بحيث يتعذر الجمع أما إن كانت الزيادة لا منافاة فيها بحيث تكون كالحديث المستقل فلا، اللهم إلا إن وضح بالدلائل القوية أن تلك الزيادة مدرجة فى المتن من كلام بعض رواته فما كان من هذا القسم فهو مؤثر.

القسم الرابع:

ما تفرد به بعض الرواة ممن ضعف منهم، وليس فى هذا «الصحيح» من هذا القبيل غير حديثين، وتبين أن لكل منهما متابعاً أحدهما حديث أبى بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده قال: كان للنبى ﷺ فرس يقال له اللحيف، قال الدار قطنى: وأبى هذا ضعيف قال الحافظ: وقد تابعه عليه أخوه عبد المهيمن بن عباس، وثانيهما: حديث إسماعيل بن أبى أويس عن مالك وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضى الله عنه استعمل مولى له يدعى هنيا على الخمس، الحديث. قال الدار قطنى: وإسماعيل ضعيف قال الحافظ: لم ينفرد به بل تابعه عليه معن بن عيسى فرواه عن مالك كرواية إسماعيل سواء.

القسم الخامس:

ما حكم فيه بالوهم على بعض رواته، والجواب أن الوهم إنما يؤثر إذا لم يرو الحديث من غير طريق الذى حكم عليه بالوهم وقال ابن حجر وليس فى الصحيح منه بحمد الله شىء وأما اذا روى الحديث من غير طريقه فذلك الوهم لا يؤثر ويكون المعتمد عليه أصل الحديث لا خصوص ذلك الطريق.

القسم السادس:

ما اختلف فيه بتغيير بعض ألفاظ المتن والجواب: إن هذا أكثره لا يترتب عليه قدح لإمكان الجمع فى المختلف من ذلك أو الترجيح أ.هـ [1] وبعد أن ذكر ابن حجر الأحاديث المنتقدة وأجاب عنها بين أن هذا هو جميع ما تعقبه الحفاظ النقاد العارفون بعلل الأسانيد. وقد ظهر واضحاً أنه ما من حديث إلا ورد من طريق آخر وثبتت صحة المتون كلها فضلاً عن رد كل نقد وجه إلى الأحاديث ولا يغض هذا النقد من قيمة الجامع الصحيح وأصحيته فهو فى الدرجة الأولى من الصحة.

---

(١) هدى السارى.

ومن أمثلة الأحاديث المنتقدة:

١ـ قال الدار قطني: (وأخرجا جميعاً ـ أي البخاري ومسلم ـ حديث الأعمش عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس يعني في قصة القبرين وأن أحدهما كان لا يستبرىء من بوله قال وقد خالفه منصور فقال عن مجاهد عن ابن عباس وأخرج البخاري حديث منصور على إسقاطه طاوساً، وهذا الحديث قد أخرجه البخاري في كتاب الطهارة عن عثمان بن أبي شيبة عن جرير وأخرجه في كتاب الأدب عن كثير بن سلام عن عبيدة بن حميد كلاهما عن منصور به، ورواه من طريق أخرى من حديث الأعمش وأخرجه باقي الستة من حديث الأعمش أيضاً وأخرجه أبو داود والنسائي وابن خزيمة في صحيحه من حديث منصور أيضاً، وقال الترمذي بعد أن أخرجه: رواه منصور عن مجاهد عن ابن عباس وحديث الأعمش أصح يعني المتضمن للزيادة قال الحافظ وهذا في التحقيق ليس بعلة لأن مجاهداً لم يوصف بالتدليس وسماعه من ابن عباس صحيح في جملة من الأحاديث ومنصور عندهم أتقن من الأعمش مع أن الأعمش أيضاً من الحفاظ والحديث كيفما دار دار على ثقة الإسناد كيفما دار كان متصلاً فمثل هذا لا يقدح في صحة الحديث إذا لم يكن راويه مدلساً، وقد أكثر الشيخان من تخريج مثل هذا ولم يستوعب الدار قطني انتقاده)[1].

٢ـ قال الدار قطني: وأخرجا جميعاً حديث ابن جريج عن الزهري عن عبد الرحمن ابن عبد الله عن أبيه وعمه عبيد الله بن كعب عن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر ضحى بدأ بالمسجد الحديث.. وقد خالفه معمر فقال عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه وقال عقيل عن الزهري عن ابن كعب عن أبيه وهو يشبه رواية معمر، قال الدارقطني: ورواية ابن جريج أصح ولا يضره من خالفه، قال ابن حجر: قول معمر وغيره عن عبد الرحمن بن كعب يحمل على أنه نسبه إلى جده فتكون روايتهم منقطعة وهذا الجواب صحيح من الدار قطني في أن الاختلاف في مثل هذا لا يضر[2].

نقد الرجال

وجه بعض النقاد الطعن في بعض رجال البخاري الذين خرج لهم في كتابه «الجامع الصحيح» ومعظمهم من شيوخه الذين لقيهم وجالسهم وخبرهم وميز بين صحيح مروياتهم من سقيمها وقد أخرج لبعضهم في أصول الكتابة وأخرج لبعضهم الآخر في المتابعات والشواهد.

(١) هدى الساري.

(٢) هدى الساري ص٣٦٢.

وانبرى الحافظ ابن حجر في مقدمته للإجابة عن تلك الاعتراضات والطعن وتناول الدفاع عنهم واحداً واحداً ورتبهم على حروف المعجم مما يشهد له بدقة النقد العلمى ونزاهته، ويقول الحافظ ابن حجر[1] : ينبغى لكل منصف أن يعلم أن تخريج صاحب الصحيح لأى راو كان . مقتض لعدالته عنده وصحة ضبطه وعدم غفلته ولا سيما ما انضاف إلى ذلك من إطباق جمهور الأئمة على تسمية الكتابين بالصحيحين وهذا معنى لم يحصل لغير من خرج عنهم فى الصحيح فهو بمثابة إطباق الجمهور على تعديل من ذكر فيهما هذا إذا خرج له فى الأصول فأما إن خرج له فى المتابعات والشواهد والتعاليق فهذا تتفاوت درجات من أخرج له منهم فى الضبط وغيره مع حصول اسم الصدق لهم، وحينئذ إذا وجدنا لغيره فى واحد منهم طعناً فذلك الطعن مقابل لتعديل هذا الإمام فلا يقبل إلا مبين السبب مفسراً بقادح يقدح فى عدالة هذا الراوى وفى ضبطه مطلقاً، أو فى ضبطه لخبر بعينه لأن الأسباب الحاملة للأئمة على الجرح متفاوتة منها ما يقدح ومنها ما لا يقدح وقد كان الشيخ أبو الحسن المقدسى يقول فى الرجل الذى يخرج عنه فى الصحيح : هذا جاز القنطرة يعنى بذلك أنه لا يلتفت إلى ما قيل فيه .

وقد وضع ابن حجر مقاييس دقيقة لنقد الرجال يزن بها قيمة رجال الصحيح فقال : لا يقبل الطعن فى أحد منهم إلا بقادح واضح لأن أسباب الجرح مختلفة ومدارها على خمسة أشياء .

١ـ البدعة .

٢ـ المخالفة .

٣ـ الغلط .

٤ـ جهالة الحال .

٥ـ دعوى الانقطاع فى السند بأن يدعى فى الراوى أنه كان يدلس أو يرسل فأما جهالة الحال فمندفعة عن جميع من أخرج لهم فى الصحيح لأن شرط الصحيح أن يكون راوية معروفاً بالعدالة فمن زعم أن أحداً منهم مجهول فكأنه نازع المصنف فى دعواه أنه معروف ولا شك أن المدعى لمعرفته مقدم على من يدعى عدم معرفته لما مع المثبت من زيادة العلم ومع ذلك فلا تجد فى رجال الصحيح أحداً يسوغ إطلاق اسم

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨١ .

الجهالة عليه أصلاً وأما الغلط : فتارة يكثر من الراوى وتارة يقل فحيث يوصف بكونه كثير الغلط ينظر فيما أخرج له إن وجد مروياً عنده وعند غيره من رواية غير هذا الموصوف بالغلط علم أن المعتمد أصل الحديث لا خصوص هذه الطريقة وإن لم يوجد إلا من طريقه ، فهذا قادح يوجب التوقف عن الحكم بصحة ما هذا سبيله وليس فى الصحيح بحمد الله من ذلك شيء .

وحيث يوصف بقلة الغلط كما يقال سيىء الحفظ وله أوهام أو له مناكير وغير ذلك من العبارات فالحكم فيه كالحكم فى الذى قبله أى تارة يكثر وتارة يقل وينظر فيما أخرج له ... إلخ . إلا أن الرواية عن هؤلاء فى المتابعات أكثر منها عند المصنف من الرواية عن أولئك مع عدم التفرد فلا طعن - إلا أن الرواية عنهم إنما هى للاستئناس والشواهد وتكثير الطرق فهى معادة .

وأما المخالفة : فيثبت بها الشذوذ والنكارة ، فإذا روى الضابط والصدوق شيئاً فرواه من هو أحفظ منه وأكثر عدداً بخلاف ما روى الحديث يتعذر الجمع على قواعد المحدثين فهذا شاذ ، وقد تشتد المخالفة بأن يضعف الحفظ فيحكم على من يخالف فيه بكونه منكراً وهذا ليس فى الصحيح منه إلا قدر يسير . وكان البخارى بعد ذكر الروايات جميعها ينبه عليها ويذكر رأيه فلا اعتراض عليه . وأما دعوى الانقطاع فمدفوعة عمن أخرج لهم البخارى كما علم من شرطه . وهو أن العنعنة تفيد الاتصال بشرط المعاصرة واللقاء . ومع ذلك فحكم من ذكر من رجاله بتدليس أو إرسال أن تسبر أحاديثهم الموجودة عنده ، فإن وجد التصريح بالسماع فيها - بأن يوجد هذا فى طرق أخرى - اندفع الاعتراض وإلا فلا وقد ثبت السماع فى المعنعن فلا وجه للاعتراض .

أما البدعة : فالموصوف بها إما أن يكون ممن يكفر بها أو يفسق . فالمكفر بها لا بد أن يكون ذلك التكفير متفقاً عليه من قواعد جميع الأئمة كما فى غلاة الروافض من دعوى بعضهم حلول الألوهية فى على أو غيره أو الإيمان برجوعه إلى الدنيا قبل يوم القيامة أو غير ذلك ، وليس فى الصحيح من حديث هؤلاء شيء ألبتة .

والمفسق بها : كبدع الخوارج والروافض الذين لا يغلون ذلك الغلو وغير هؤلاء من الطوائف المخالفين لأصول السنة خلافاً ظاهراً لكنه مستند إلى تأويل ظاهره سائغ فقد اختلف أهل السنة فى قبول حديث ما هذا سبيله إذا كان معروفاً بالتحرز من الكذب مشهوراً بالسلامة من خوارم المروءة موصوفاً بالديانة والعبادة فقيل يقبل مطلقاً وقيل يرد مطلقاً والثالث التفصيل بين أن يكون داعية لبدعته أو غير داعية فيقبل غير الداعية

ويرد حديث الداعية، وهذا المذهب هو الأعدل وصارت إليه طوائف من الأئمة وادعى ابن حبان إجماع أهل النقل عليه لكن في دعوى ذلك نظر فقد روى عن الإمام مالك رد روايتهم. ثم اختلف القائلون بهذا التفصيل فبعضهم أطلق ذلك وبعضهم زادهم تفصيلاً فقال إن اشتملت رؤية غير الداعية على ما يشيد ببدعته ويزينها ويحسنها ظاهراً فلا تقبل وإن لم تشتمل فتقبل، هذا وطرد بعضهم هذا التفصيل بعينه في حق الداعية فقال: إن اشتملت روايته على ما يرد بدعته قبل وإلا فلا وعلى هذا اذا اشتملت رواية المبتدع سواء كان داعية أم لم يكن على ما لا تعلق له في بدعته أصلاً هل ترد مطلقاً أو تقبل مطلقاً؟

مال أبو الفتح القشيري إلى تفصيل آخر فيه فقال: إن وافقه غيره فلا يلتفت إليه هو إخماداً لبدعته وإطفاء لناره وإلا لم يوافقه حد ولم يوجد ذلك الحديث إلا عنده مع وصفنا من صدقه وتحرزه عن الكذب واشتهاره بالدين وعدم تعلق ذلك الحديث ببدعته فينبغي أن تقدم مصلحة تحصيل ذلك الحديث ونشر تلك السنة على مصلحة إهانته وإطفاء بدعته.

واعلم أنه قد وقع من جماعة الطعن في جماعة بسبب اختلافهم في العقائد فينبغي التنبه لذلك وعدم الاعتداد به إلا بحق وكذا عاب جماعة من الورعين جماعة وخذلوا في الدنيا فضعفوهم لذلك، ولا أثر لذلك التضعيف مع الصدق والضبط والله الموفق. وأبعد من ذلك كله من الاعتبار تضعيف من ضعف بعض الرواة بأمر يكون الحمل فيه على غيره أو التحامل بين الأقران، وأشد من ذلك تضعيف من ضعف من هو أوثق منه أو أعلى قدراً أو أعرف بالحديث فكل هذا لا يعتبر به «أ.هـ».

وقد عقد ابن حجر فصلاً مستقلاً جمع فيه أسماء الرجال الذين طعن فيهم مع ذكر الطعن الموجه إليهم وسببه وقام بالإجابة عنه ومن أمثلة ذلك:

١ـ أحمد بن بشير الكوفي أبو بكر مولى عمرو بن حريث المخزومي، قال النسائي: ليس بذاك القوي، وقال عثمان الدارمي: متروك وقواه ابن معين وأبو زرعة وغيرهم وأخرج له البخاري حديثاً واحداً تابعه عليه مروان بن معاوية وأبو سلمة وهو في كتاب الطب أما تضعيف النسائي له فمشعر بأنه غير حافظ، وأما كلام عثمان الدارمي فقد رده الخطيب بأنه اشتبه عليه براو آخر اتفق اسمه واسم أبيه وهو كما قال الخطيب رحمه الله تعالى وقد روى له الترمذي وابن ماجه.

٢ـ أحمد بن شبيب بن سعيد الحبطي روى عنه البخاري أحاديث بعضها قال فيه

حدثنا وبعضها قال فيه : قال أحمد بن شبيب ووثقه أبو حاتم الرازى وقال ابن عدى : وثقه أهل العراق ، وكتب عنه على بن المدينى وقال أبو الفتح الأزدى : منكر الحديث غير مرضى ، ولا عبرة بقول الأزدى لأنه هو ضعيف فكيف يعتمد فى تضعيف الثقات ؟

وأرى بعد هذا النقد والإجابة عليه : أن كتاب الجامع الصحيح للإمام البخارى هو أول الكتب الستة فى الصحة ، ولا يغض من قيمته مثل هذا النقد ، فقد وردت الأحاديث المنتقدة من طرق أخرى ، وقد تبين من الإجابة عليها ، وعلى الرجال المنتقدين أن الإمام البخارى كان شديد التحرى بالغ الحيطة ، فى رواية الأحاديث وفى اختيار من يروى عنهم من الرجال حتى أخذ كتابه الصحيح مكانته المرموقة وتبوأ درجته الأولى على قمة أمهات كتب السنة ، حتى قيل فيه إنه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى .

وكما توجه النقد قديماً إلى صحيح البخارى فقد توجه أيضاً النقد حديثاً وسنقدم بعض النماذج من الأحاديث التى توجه إليها النقد ثم نجيب عنها .

شروح صحيح البخارى ومختصراته

حظى (صحيح البخارى) بعناية كبيرة من علماء المسلمين ، فتناولوه ، ما بين شارح له ودارس لرجاله ، وكان أعظم شروح صحيح البخارى وأوفاها :

١ ـ «فتح البارى بشرح صحيح البخارى» للإمام الحافظ أبى الفضل أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى والمولود سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، والمتوفى سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، وقد اشتمل هذا الشرح على فوائد حديثة واستنباطات فقهية ونكات بلاغية وأدبية ، كما امتاز باستقراء الأحاديث التى رويت فى الباب ، وبيان منزلتها من القوة والضعف . وقد نهج ابن حجر فى كتابه بالنسبة للأحاديث المكررة أن يقوم بشرح ما يتصل بمقصد البخارى منها فى كل مناسبة ثم يحيل الباحث على المواضع الأخرى .

ولكتاب «فتح البارى» مقدمة نفسية تضمنت بحوثاً قيمة واشتملت على بيان منزلة صحيح البخارى وبيان التراجم والتعليقات والأحاديث المنتقدة والرجال الذين انتقدوا والإجابة على ذلك وترجمة لحياة الإمام البخارى وما إلى ذلك . . وقد أخذ كتاب فتح البارى مكانته فى نفوس العلماء والباحثين بحيث يدرك كل واحد منهم عظيم قدره وسمو مادته العلمية ، ولما طلب من الشيخ محمد بن على الصنعانى الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ صاحب «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار» أن يشرح صحيح البخارى التزم مكانه وقال : «لا هجرة بعد الفتح» معترفاً لابن حجر بالأمانة والمكانة ومعترفاً

للكتاب بالسبق والعظمة، ويقع الشرح فى ثلاثة عشر مجلداً، ومقدمته فى مجلد، وهو مطبوع فى الهند وفى مصر.

٢ـ «أعلام السنن» وهو شرح الإمام أبى سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستى المشهور بالخطابى المتوفى سنة ٣٨٨هـ، وهو شرح عظيم، وفيه من اللطائف والدقائق الكثير، وقد قام بتأليف هذا الشرح استجابة لطلب أهل «بلخ»، فعندما فرغ من تأليف كتابه «معالم السنن» شرح سنن أبى داود طلبوا منه أن يصنف لهم شرحاً لصحيح البخارى فأجابهم إلى ذلك.

٣ـ «الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى» شرح العلامة شمس الدين محمد ابن يوسف بن على الكرمانى المتوفى سنة ٧٨٦ هـ، عنى فيه بشرح الألفاظ اللغوية ووجوه الإعراب، وضبط الأسانيد والمتون، والتوفيق بين الأحاديث التى يوهم ظاهرها التعارض، وقد انتهى من تأليفه بمكة المكرمة سنة ٧٧٥هـ.

٤ـ «عمدة القارى» شرح العلامة بدر الدين محمود بن أحمد العينى الحنفى المولود سنة ٧٦٢هـ والمتوفى سنة ٨٥٥ هـ عنى فيه بما يؤخذ من الأحاديث من الأحكام الفقهية والآداب، وبيان النواحى اللغوية والإعرابية ووجوه المعانى والبيان، ومنهج العينى فى شرحه يقوم على تخريج الحديث وذكر من خرجه من أصحاب الكتب المشهورة، وعند شرح الأحاديث المكررة ينص على سياق الحديث بأكمله، ولا يحيل على المواضع الأخرى. وسار فى شرحه على طريقة السؤال والجواب، وهى طريقة حسنة ومجدية، وابتدأ فى كتابة هذا الشرح سنة ٨٢١هـ وانتهى منه سنة ٨٤٧هـ، وهذا الشرح مطبوع فى استانبول ومصر.

٥ـ «إرشاد السارى إلى صحيح البخارى» للعلامة الشيخ شهاب الدين بن محمد الخطيب المصرى الشافعى المعروف بالقسطلانى المتوفى سنة ٩٢٢هـ وهو أوجز من شرح ابن حجر ومن شرح العينى، وكان يعتمد كثيراً على شرح سابقيه لا سيما «فتح البارى». وكتب له مقدمة تناول فيها منزلة الحديث وعناية المسلمين به. وقد طبع هذا الكتاب مراراً.

٦ـ شرح العلامة أبى الحسن بن عبد الهادى السندى نزيل المدينة المنورة المتوفى سنة ١١٣٨، اقتصر فيه على تفسير الغامض أو المشكل، وهذا الشرح على اقتصاره يتضمن فوائد عظيمة.

وهناك شروح كثيرة لكتاب البخارى بعضها لم يتم مثل: شرح الإمام النووى وشرح

الحافظ ابن كثير وشرح الحافظ ابن رجب الحنبلي وغير ذلك. ومن مختصرات الجامع الصحيح:

١ـ مختصر الإمام جمال الدين أبى العباس أحمد بن عمر الأنصارى القرطبى المتوفى سنة ٦٥٦.

٢ـ «إرشاد السامع والقارى المنتقى من صحيح البخارى» للعلامة بدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبى المتوفى سنة ٧٧٩هـ.

٣ـ مختصر الإمام زين الدين أبى العباس أحمد بن عبد اللطيف الشرجي الزبيدى المتوفى سنة ٨٩٣هـ، حذف المكرر منه وحذف الأسانيد واقتصر على الصحابى، وقد فرغ منه فى شعبان سنة ٨٨٩ هـ وقد شرحه الشيخ عبد الله الشرقاوى معتمداً فى شرحه على الشروح السابقة ولا سيما «فتح البارى».

٤ـ ومن المختصرات الهامة: مختصر الصوفى الشيخ أبى محمد عبد الله بن سعد بن أبى جمرة الأندلسى المتوفى سنة ٦٩٥هـ وقد شرح مختصره هذا فى كتاب سماه «بهجة النفوس وغايتها، بمعرفة ما لها وما عليها».

وعنى فى هذا الشرح بالمعانى دون الألفاظ، وتضمن كثيراً من التحقيقات الهامة.

وبهذه الشروح والمختصرات وغيرها من الكتب الأخرى التى تناولت الجامع الصحيح بالدراسة والتحقيق والشرح والتحليل، كما تناولت بالدراسة والتوضيح، والتعديل والتجريح رجال البخارى، بهذا كله نرى كيف كانت عناية الأمة الإسلامية بهذا الكتاب النفيس، وإلى أى مدى بذل علماؤنا من الجهود العظيمة ما يشهد لهم بسعة الأفق، وقوة الإيمان وشدة الحب لصاحب السنة المطهرة عليه أفضل الصلاة والسلام.

ومن الكتب التى وجه أصحابها هممهم إلى دراسة الرجال «كتاب التعديل والتجريح» لرجال البخارى ألفه القاضى أبو الوليد سليمان بن خلف الباجى المتوفى سنة ٤٧٤هـ، وكتاب «أسماء رجال البخارى» للإمام أحمد بن محمد الكلاباذى المتوفى سنة ٣٩٨هـ.

ومن الكتب التى تناولت توضيح المشكلات: كتاب «التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح» للإمام جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك النحوى المتوفى سنة ٦٧٢هـ، وكتاب «الإفهام بما وقع فى البخارى من الإبهام» لجلال الدين عبد الرحمن بن عمر البلقينى المتوفى سنة ٨٢٤هـ، وكتاب «تعليق التعليق» لابن حجر.

٢ كتاب : بدء الوحى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم ﴾

صدق الله العظيم

مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر هى أولى مؤسسات النشر المصرية والعربية - حيث تعد المؤسسة من أبرز المنارات الثقافية والفكرية فى العالم العربى لما يزيد عن ثمانين عاماً .

يسعدها أن تعيد إلى القراء الأفاضل فى مصر والدول العربية والإسلامية ..



- تحت شعار التراث الإسلامى والثقافى والمعرفى لكل الشعب بأسعار الأمس ..
- يصدر أسبوعياً اعتبارا من أول رمضان ١٤٢١هـ بمشيئة الله وتوفيقه ..

ونسأل العلى القدير أن يمنحنا العون والقدرة على المزيد من الجهد فى خدمة الإسلام ..

مع دعوات وتحيات

رئيس مجلس الإدارة

عادل أحمد أبو المعاطى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة البخارى ؛ رحمه الله تعالى . آمين :

كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ : وقول الله جل ذكره (١) ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ .

١- حدثنا الحميدىُّ عبدُ الله بن الزبير قال : حدثنا سفيانُ قال : حدثنا يحى بن سعيد الأنصارىُّ قال : أخبرنا محمدُ بنُ إبراهيمَ التيمىّ أنه سمع علقمةَ بنَ وقاص الليثىّ يقول : سمعت عمرَ بنَ الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمَالُ بالنِّيات ، وإنما لكُل امرئ ما نَوى فمَنْ كانتْ هجْرتُه إلى دُنْيا يصيبها أو إلى امرأةٍ ينكحُهَا فَهجرتُه إلى مَا هو هَاجَر إليْه » .

كتاب : بدء الوحى
إنما الأعمال بالنيات

١- هذا هو الحديث الأول حديث : إنما الأعمال بالنيات ، وهو من الأحاديث الهامة التى تعتبر من أصول الإسلام ، وجاء هذا الحديث فى الابتداء تيمناً بحصول النية الخالصة ، ولكنه حذف أحد وجهى التقسيم وهو قوله : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ... قال الخطابى : وقع هذا الحديث فى روايتنا وجميع نسخ أصحابنا مخروماً وقد ذهب شطره ، ولنا أن نتساءل : لم بدأ بهذا السياق الناقص ؟

(١) سورة النساء : آية ١٦٣ .

والجواب : أنه اختار الحميدى لكونه أجل مشايخه المكيين .

وقال ابن العربى : إن إيراد الحديث تاماً تارة وغير تام تارة إنما هو اختلاف الرواة ، فكل منهم قد روى ما سمعه .

فى هذا الحديث الشريف يرسى الرسول ﷺ قاعدتين من أهم القواعد الإسلامية التى يقوم عليهما بناء الأعمال والثواب عليها .

الأولى : تعتبر الأساس الذى يقوم عليه كل عمل ، فيكون كاملاً وصحيحا .

الثانية : جزاء كل عامل ؛ ولذا كان هذا الحديث من الأحاديث الهامة التى تقوم عليها أصول الإسلام .

قال الإمام أحمد بن حنبل : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث ، حديث عمر « إنما الأعمال بالنيات » وحديث عائشة « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وحديث النعمان بن بشير « الحلال بين والحرام بين » .

واتفق كثير من العلماء على أن هذا الحديث ثلث الإسلام ، ومنهم من قال ربعه ، واختلفوا فى تعيين الباقى ، ووجَّه البيهقى كونه ثلث العلم بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه ، فالنية أحد أقسامه الثلاثة وأرجحها ، لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها يحتاج إليها ، ومن ثم ورد : نية المؤمن خير من عمله .

وكان السلف رضوان الله عليهم يحبون البدء بهذا الحديث حثاً للطالب على العناية بحسن النية ، والإخلاص لله تعالى .

أما النية فهى تعنى تمييز بعض العبادات عن بعض كالظهر من العصر ، أو تمييز العبادات عن العادات كالغسل الذى يقصد به التطهر أو التنظيف ، وهكذا . والنية لغة : القصد ، وشرعاً : قصد الشيء مقترنًا بفعله فإن تراخى عنه سمى عزما .

وقال ابن دقيق العيد : الذين اشترطوا النية قدروا « صحة الأعمال » أى « إنما صحة الأعمال بالنيات » والذين لم يشترطوها قدروا « كمال الأعمال » أى « إنما كمال الأعمال بالنيات » ورجح الأول بأن الصحة أكثر لزوماً للحقيقة من الكمال ، فالحمل عليها أولى ، وفى هذا الكلام إيهام أن بعض العلماء لا يرى اشتراط النية ، وليس الخلاف بينهم فى ذلك إلا فى الوسائل ، وأما المقاصد فلا اختلاف بينهم فى اشتراط النية .ا هـ .

وجملة « وإنما لكل امرىء ما نوى » قيل : إنها تأكيد لما أفادته الجملة الأولى ، وهو الاعتداد بالنية أو طلب النية فى كل عمل . والأصح أن هذه الجملة للتأسيس لا للتأكيد ، وذلك لأنها أفادت أموراً جديدة زائدة على ما أفادته الجملة الأولى ، ومن هذه الأمور :

أولاً : أنه لا يصح لإنسان أن يكون غيره نائباً عنه فى النية ، لأن تقدير المعنى : لكل امرىء نيته ، فلا يصح لأحد أن ينوى عن عمل غيره ، وأما صحة النية من الولى عن الصبى الذى لا يميز ، فذلك لمعنى آخر يخصه ، وهو أنه ليس متأهلاً للنية لعدم تمييزه .

ثانياً : أنها أفادت أهمية الإخلاص فى العمل حتى يستحق صاحبه الثواب عليه ، ففى هذه الجملة تحذير من الرياء .

ثالثاً : إذا تمحضت نية الخير فى الأمور العادية ، فإن صاحبها يثاب عليها كالعبادات تماماً كالأكل للتقوى على الطاعة ، والمباشرة بهدف إعفاف الزوج نفسه وزوجته ، وهكذا .

رابعاً : إذا انعقدت النية على عمل ما من الأعمال وصمم على فعله فإن له ثواب نيته سواء تحقق العمل أو لم يتحقق ، يدل على ذلك ما روى عن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فقال « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض » وفى رواية : =

= « حبسهم العذر » وفي رواية : « إلا شركوكم في الأجر » رواه البخاري عن أنس ، ومسلم عن جابر .

وتحمل النية في الحديث على معناها اللغوي ، لأنه الذي يشمل النية الحسنة أو السيئة ، قال الحافظ ابن حجر : والنية في الحديث محمولة على المعنى اللغوي ليحسن تطبيقه على ما بعده وتقسيمه أحوال المهاجر ، فإنه تفصيل لما أجمل ، اهـ .

ثم فرع - بعد ذلك - على القاعدتين السابقتين بقوله : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ... إلخ » فبين أن المهاجر إذا كانت هجرته في سبيل الله وابتغاء مرضاته فهو المهاجر إلى الله ورسوله حقاً ، أما إذا كان المهاجر طالباً من طلاب الدنيا ، أو راغباً في امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه تحقيراً لرغبته ، فعدى الهجرة في الجملة الثانية باللام التي تشير إلى الغرض الباعث على الفعل ، إشارة إلى أن الهجرة من أجل الدنيا أو المرأة مذمومة إذا كان الغرض منها خالصاً لهما .

ولكن كيف يتحد الشرط والجزاء مع أن الأصل أن يكونا متغايرين ؟

ولنا على هذا جوابان :

الأول : أن التغاير قد يقع باللفظ ، وهذا هو الأغلب ، وقد يكون التغاير بالمعنى ، ويعرف من سياق الكلام كقوله تعالى ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ [1] وهو مؤول على إرادة المعهود إلى المستقر في النفس ، أو مؤول على إقامة السبب مقام المسبب لاشتهار السبب . وقد قيل : إذا اتحد لفظ المبتدأ والخبر والشرط والجزاء علم منهما المبالغة إما في التعظيم وإما في التحقير .

وهذا الجواب بناء على أن كلمة « هجرته » في الجملتين مبتدأ خبره الجار والمجرور الذي بعده .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٧١ .

الثاني : أن يكون الجار والمجرور متعلقاً بـ« هجرته » والخبر محذوف فيهما والتقدير : فهجرته إلى الله ورسوله مقبولة ، وفي الجملة الثانية : فهجرته إلى ما هاجر إليه مذمومة.

وقد وقعت الهجرة في الإسلام على وجهين ؛ الأول : الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن ، كما في هجرتي الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة . والثاني : الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين ، وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقياً بعد الفتح .

وصرح في العبارة الأولى بالاسم الظاهر فقال : « فهجرته إلى الله ورسوله » لتعظيم شأن الهجرة وشرفها والتبرك باسم الله ورسوله ، ولم يظهر في العبارة الثانية ، بل قال : « فهجرته إلى ما هاجر إليه » تحقيراً لشأن الدنيا والمرأة وتحذيراً منهما ، وحثاً للإعراض عنهما حيث أعرض عن التصريح بذكر اسمهما ، وقد عطف المرأة على الدنيا مع أنها داخلة ضمن الدنيا وفي عمومها ؛ ليؤكد التحذير منها ، فإن فتنتها شديدة ، فقد ورد في الحديث : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » رواه الشيخان . وللتنبيه إلى ما قيل بأن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجها ، فسمي مهاجر أم قيس .

ولئن ورد أن هذا هو سبب ورود الحديث ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وبهذا الحديث يتبين لنا أهمية الإخلاص في العمل بحيث لا تشوبه شائبة ما من شوائب الرياء قال الله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ لا خَيْرَ =

(١) سورة الكهف : آية ١١٠ .

= فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[1] وهذا وعد من الله تعالى بعظم أجر المخلصين ، وإذا كان الحديث قد نص على الهجرة فما هى إلا مثال من أمثلة العمل ، وعلى ضوئها تقاس سائر الأعمال .. وهكذا كل عمل يشرك فيه صاحبه أحداً غير الله فهو متروك ولا وزن له . عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : يقول الله تبارك وتعالى :« أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه » أخرجه البخارى .

(١) سورة النساء: آية ١١٤ .

(١) أهمية النية والإخلاص فى العبادات والمعاملات والتحذير من الرياء ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (١) واستدل البعض بهذا الحديث على أن النية شرط فى صحة الأعمال ، وذهب البعض إلى أنها شرط فى كمال الأعمال .

(٢) يحاسب الإنسان على حسب نيته ثواباً أو عقاباً .

(٣) وجوب الهجرة من بلاد الكفر والخوف إلى بلاد الإيمان والأمن .

(٤) التحذير من الدنيا وزخرفها ، والتحذير من فتنة النساء ؛ لأنها أضر ما يكون على الرجال .

(٥) بقاء الهجرة من الكفر والفتن محافظة على الدين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ (٢) وفى معنى الهجرة العامة الهجرة لكل ما نهى الله عنه ، كما قال ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

---

(١) سورة الكهف : آية ١١٠ .

(٢) سورة النساء : آية ٩٧ .

٢ - حَدثنا عبد الله بن يوسُف قال : أَخبرنا مالك عن هِشام بن عُرْوَةَ عن أَبيه عن عائشةَ أُمِّ المُؤْمنينَ رضى الله عنها أَنَّ الحَارث بنَ هشام رضى الله عنه سأَل رسولَ الله ﷺ فقال : يا رسولَ الله كَيْفَ يَأْتيكَ الوَحْيُ ؟ فقال رسول الله ﷺ : أَحْيانًا يأْتينى مثْل صَلْصَلَة الجَرس ، وَهُوَ أَشدُّهُ عَلَىَّ ، فيُفْصَمُ عَنِّى وَقَدْ وَعَيْتُ عنهُ ما قال ، وَأَحْيانًا يَتَمثَّلُ لىَ المَلَكُ رَجُلاً ، فَيُكلِّمُنى ، فَأَعِى ما يَقُولُ قالتْ عائشَةُ رضى الله عنها : وَلَقَدْ رأَيْتُهُ يَنزِلُ عَلَيْه الوَحْيُ فى اليَوْمِ الشَّديدِ البرْدِ ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وإنَّ جَبينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا .

كيفية الوحى

٢- سأل الحارث بن هشام المخزومى وهو شقيق أبى جهل وأسلم يوم الفتح رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟» ويحتمل أن تكون السيدة عائشة رضى الله عنها حضرت ذلك فيكون من مسند السيدة عائشة ويحتمل أن يكون الحارث أخبرها بذلك بعد فيكون من مرسل الصحابة وله حكم الموصول عند جمهور العلماء .

وقد يكون المسئول عنه صفة الوحى ، وقد يكون صفة حامل الوحى ، أو ما هو أعم من ذلك . وقال الكرمانى : لعل المراد منه السؤال عن كيفية ابتداء الوحى ، أو عن كيفية ظهور الوحى .

والوحى لغة : الإعلام فى خفاء .

وشرعاً : الإعلام بالشرع الذى شرعه الله سبحانه وتعالى عن طريق الملك الموكل بالوحى .

وقد يطلق الوحي على « الموحَى به » مثل كلام الله سبحانه وتعالى المنزل على رسول الله ﷺ .

وليست ظاهرة الوحي محصورة في هاتين الحالتين : مثل صلصلة الجرس وتمثل الملك رجلاً .. وإنما هناك حالات أخرى زائدة على ذلك ، فمن حالات صفة الوحي : مجيئه كدوى النحل ، والنفث في الروع ، والإلهام ، والرؤيا الصالحة ، والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة .

ومن حالات صفة حامل الوحي : مجيئه في صورته التي خلق عليها : له ستمائة جناح ورؤيته على كرسي بين السماء والأرض وقد سد الأفق .

وعلى هذا فلا يراد بالحالتين المذكورتين في الحديث حصر الوحي فيهما وأنهما تحملان على الغالب .. أو أن سواهما من الحالات وقع بعد السؤال ولم يتعرض الحديث لصفتي المَلك المذكورتين وهما : مجيئه على الهيئة التي خلق عليها ورؤيته على كرسي بين السماء والأرض لم يتعرض لهما لندورهما فقد ثبت عن عائشة (رضى الله عنها) أنه ﷺ لم يره كذلك إلا مرتين ، أو لم يأته في تلك الحالة بوحي ، أو أتاه به فكان على مثل صلصلة الجرس فإنه بيَّن صفة الوحي لا صفة حامله [1] .

ولقد دل القرآن الكريم على أهم وأظهر حالات الوحي وهي الحالات التي عزى إليها العلماء الحالات الأخرى قال «الله» تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [2]

وقد ذكر ابن القيم (رحمه الله) مراتب الوحي ، فأوصلها إلى سبع مراتب :

---

(١) فتح الباري .　　(٢) سورة الشورى : آية ٥١ .

الأولى : الرؤيا الصالحة وكانت مبدأ وحيه (ﷺ) وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

الثانية : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه ، من غير أن يراه كما قال النبي (ﷺ) :

« إن روح القدس نفث في روعي : أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته »

الثالثة : أنه (ﷺ) كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

الرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى أن جبينه ليتفصَّد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحي إليه ما شاء «الله» أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر «الله» ذلك في سورة النجم .

السادسة : ما أوحاه «الله» إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام «الله» له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم «الله» موسى بن عمران وهذه المرتبة ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن وثبوتها لنبينا (ﷺ) في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي : تكليم «الله» له كفاحاً من غير حجاب وهذا على مذهب من يقول : إنه (ﷺ) رأى ربه تبارك وتعالى ، وهي مسألة خلافية بين السلف والخلف وإن كان جمهور الصحابة - بل كلهم - مع

عائشة كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمى إجماعاً للصحابة . أ . هـ [1] .

وجمع الحافظ ابن حجر بين الحالات المذكورة وهى كثيرة وبين الحالتين الواردتين فى الحديث وما جاء به القرآن الكريم موفقاً بينها فقال :

وأما النفث فى الروع : فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين .

وأما فنون الوحى : فدوى النحل لا يعارض صلصلة الجرس لأن سماع الدوى بالنسبة للحاضرين كما فى حديث عمر : «يسمع عنده كدوى النحل» والصلصلة بالنسبة إلى النبى (ﷺ) فشبهه عمر بدوى النحل بالنسبة إلى السامعين وشبهه هو (ﷺ) بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه .

فإذا أتاه الملك فى صلصلة الجرس نفث حينئذ فى روعه .. وأما الإلهام فلم يقع السؤال عنه لأن السؤال وقع عن صفة الوحى الذى يأتى بحامل وكذا التكليم ليلة الإسراء .

وأما الرؤيا الصالحة ، فقال ابن بطال : لا ترد لأن السؤال وقع عما ينفرد به عن الناس لأن الرؤيا قد يشركه فيها غيره والرؤيا الصادقة وإن كانت جزءاً من النبوة فهى باعتبار صدقها لا غير وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبياً وليس كذلك ويحتمل أن يكون السؤال وقع عما فى اليقظة أو لكون حال النيام لا يخفى على السائل فاقتصر على ما يخفى عليه أو كان ظهور ذلك له (ﷺ) فى المنام على الوجهين المذكورين لا غير ، قال الكرمانى : وفيه نظر وقد ذكر بعضهم أن الوحى كان يأتيه على ستة وأربعين نوعاً فذكرها وغالبها من صفات حامل الوحى ومجموعها يدخل فيما ذكر . أ . هـ (فتح البارى) .

والصلصلة : هى صوت ينبعث من وقوع الحديد بعضه على بعض ثم أطلق على كل صوت له طنين ، وقال الكرمانى : الجرس ناقوس صغير أو سطل فى داخله نحاس يعلق منكوساً على البعير فإذا تحرك تحركت النحاسة فأصابت السطل فحصلت الصلصلة أ.هـ .

---

(1) من كتاب زاد المعاد ج1 ص 33 وما بعدها .

- ولكن كيف وقع تشبيه الوحى وهو محمود - بصوت الجرس وهو مذموم، لصحة النهى عنه ؟ .

وأجيب عن ذلك بأنه لا يلزم من التشبيه تساوى المشبه والمشبه به من جميع الوجوه بل يكفى الاشتراك فى صفة ما ، فذكر ما ألفه السامعون تقريباً للعقول ، ثم إن للصوت قوة وطنيناً ، وقد وقع التشبيه به من حيث القوة لا من حيث الطرب ، فقد وقع التنفير منه .

- والمراد بالصلصلة المذكورة : صوت الملك بالوحى وقال الخطابى : يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد .

وقيل : بل صوت حفيف أجنحة الملك .

والحكمة فى تقدمه أن يقرع سمعه الوحى فلا يبقى فيه مكان لغيره .

- وإنما كان هذا الوضع بالنسبة للوحى أشد الأنواع لأن الفهم من كلام مثل الصلصلة أشكل من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود .

وفائدة الشدة : ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات ، ومعنى : يفصم، يقلع وينجلى ما يغشاه وأصل الفصم القطع . ومعنى قوله (ﷺ) : «وقد وعيت عنه ما قال » : أى القول الذى جاء به .

والمراد بقوله : «وأحْيَانا يتمثَّلُ لى المَلَكُ رَجُلاً» أى يتصور، واللام فى المَلَك للعهد وهو جبريل . . وظهور المَلَك فى صورة رَجُلٍ له أثره فى المؤانسة للمُخَاطَب .

وقد جاء التعبير متغايراً فى الحالتين ففى الأول قال : «وَقَدْ وَعيت» بلفظ الماضى وفى هذه الحالة الثانية قال : «فَأَعِى» بلفظ الاستقبال لأن الوعى حصل فى الأول قبل الفصم وفى الثانى حصل حال المكالمة ويدل قول السيدة عائشة(رضى الله عنها) : «ولَقَدْ رَأَيْتُه يَنْزِلُ عَلَيْه الوَحْى فى اليوم الشَّديد البَرْد فيفصم عَنْهُ وإن جَبِينَه لَيَتَفَصَّد عرَقاً» يدل هذا على أنه كان يعانى شدة =

من نزول الوحي لما فيه من مخالفة العادة وهو كثرة العَرَق مع شدة البرد فإن هذا يدل على أمر طارئ شديد على ما تحتمله الطباع البشرية .

ولقد كانت عناية الكتاب والسُّنَّة بظاهرة الوحي عناية فائقة تكشف عن كيفية الوحي وأول بدئه ، وما يصحب الوحي من سمات ومظاهر .. إلى غير ذلك من الأمور .

ولما كان موضوع الوحي هو الموضوع الأول والأكبر للإسلام فهو طريق وصول العقيدة والتشريع والأحكام والأخلاق من أجل هذا اتجه إليه محترفو الغزو الفكرى ، وصَوَّبَ أعداء الإسلام سهامهم إليه محاولين التشكيك والتلبيس والخلط بينه وبين الحديث النفسي والإلهام وما إلى ذلك مما خاضوا فيه بتبجح وتمحل .

ولكن أنَّى لهم ذلك ؟ وظاهرة الوحي ثابتة ثبوتاً واضحاً وقوياً ومتواتراً ، ودل عليها الكتاب والسُّنَّة والإجماع مما يُفْحِم المنكرين والمكابرين والمعاندين .

* * *

ما يؤخذ من الحديث

(١) السؤال عن الوحي وكيفيته .

(٢) الحالتان المذكورتان في الحديث هما أغلب حالات الوحي وغيرهما وقع بعد السؤال .

(٣) عناية الكتاب والسنة بموضوع الوحي لإثباته والرد على من يحاول إنكاره .

٣ - حدثنا يحيى بن بُكَيْرٍ قال : حدثنا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شهاب عَنْ عُرْوَةَ بن الزُّبَيْر عن عائشةَ أُمِّ المُؤْمنينَ أَنَّهَا قالتْ : « أَوَّلُ مَا بُدِئَ به رسولُ الله ﷺ مِنَ الوَحْي الرُّؤيَا الصَّالحةُ في النَّوْمِ ، فَكانَ لاَ يرى رُؤْيَا إلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إليه الخَلاَءُ ، وكانَ يَخْلُو بغار حراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيه - وَهُوَ التعبُّدُ - اللَّيَالي ذَوَاتِ العدد قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إلى أهله ، وَيَتَزَوَّدُ لذَلكَ ، ثُمَّ يرجعُ إلى خَديجةَ ، فيتزوَّدُ لمثْلها ، حتَّى جاءَهُ الحَقُّ وهو في غار حراءٍ ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فقال : اقْرَأْ ، قال : مَا أَنَا بقارئٍ ، قال : فَأَخَذَني فَغَطَّني حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْد ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فقال : اقْرَأْ ، فَقُلْتُ : مَا أنَا بقارئٍ ، قال : فَأَخَذَني فَغَطَّني الثَّانيةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْد ، ثُمَّ أَرْسَلَني ، فقال : اقْرَأْ ، فَقُلْتُ : مَا أَنَا بقارئٍ ، قال : فَأَخَذَني فَغَطَّني الثَّالثةَ ، ثُمَّ أَرْسَلَني ، فقال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾﴾ [العلق : ١ - ١٩]

فَرَجَعَ بهاَ رسولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ، فَدَخَلَ عَلَى خَديجةَ بنْتِ خُوَيْلد رضي الله عنها ، فَقَالَ : زَمِّلُوني زَمِّلوني ، فَزَمَّلوهُ حَتى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فقال لخديجةَ ، وأَخْبَرَهَا الخَبَرَ : لَقَدْ خَشيتُ عَلَى نَفْسي ، فقالتْ خَديجةُ :

كَـلاَّ واللهِ مـا يُخْـزيكَ اللهُ أبدًا ، إنَّكَ لَتَـصلُ الرَحِمَ ، وتَحْـمِلُ الكَلّ ، وتكْسبُ المَعْدُومَ ؛ وتَقْرِى الضَّيْفَ ، وتُعينُ عَلَى نوَائِب الْحقِّ ، فانْطَلَقَتْ به خَديجَةُ حتَّى أَتَت به ورَقَـةَ بن نوْفَل بن أسَـد بن عَبْـد العُـزَّى ابن عَم خَديجَةَ ، وكَانَ امْرأً تَنصَّرَ في الجَاهليَّة ، وكَانَ يَكْتُبُ الكتَابَ العبْرانى ، فَيَكْتُبُ من الإنْجيل بالعبْرَانيَّـة ما شَاءَ اللهُ أنْ يَكْتُبَ ، وكَان شَيْخًا كَبيرًا قَدْ عَمِيَ ، فقَالَتْ لَهُ خَديجَةُ : يا ابنَ عمٍّ اسْمَعْ منَ ابنِ أخيكَ ، فقَال لَهُ وَرَقَةُ : يَا ابنَ أَخِي ماذَا تَرَى ؟ فأَخْبَرَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى ، فقَال لَهُ وَرَقَةُ : هـذا النَّامُوسُ الَّذى نَزّل اللهُ عَلَى مُوسَى ، يَا لَيْتَنى فيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنى أكُونُ حَيًّا ، إذْ يُخْرجُكَ قَومكَ ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : أوَ مُخْرجِيَّ هُمْ ؟ قَـال : نَعَمْ ، لَمْ يَأْت رَجُلٌ قَطُّ بمِـثْل مَـا جـئْتَ بـه إلاَّ عُـودِىَ ، وإنْ يُدْرِكْني يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ، ثُـمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَن تُوُفِّيَ ، وَفَتَـرَ الوَحْيُ .

قَال ابنُ شِهاب : وأَخْبَـرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بنُ عَبْد الرَّحْمَـٰـن « أَنَّ جَابرَ بنَ عَبْد اللهِ الأَنْصَارِيَّ قَال - وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَة الوَحْيِ - فقَال في حَديثه : بَيْنَا أَنَا أَمْشي ، إذْ سَمعْتُ صَوْتًا منَ السَّمَاء ، فَرَفَعْتُ بَصَرِى ، فإذَا المَلَكُ الَّذى جَاءَنِي بحراء جَالسٌ عَلَى كُرْسيٍّ بَيْنَ السَّمَاء والأَرْض ، فَرُعبْتُ منْهُ ، فَرَجَعْتُ ، فَقُلْتُ : زَمِّلوني . فَأَنْزَلَ اللهُ تعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ ﴾ [المدثر]

فَحَمِيَ الوَحْيُ وتَتَابَعَ .

تَابَعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُف وأَبُو صَالح .

وتَابَعَهُ هلاَلُ بنُ رَدَّاد عَنْ الزُّهْرِيِّ .

٣ - وَقَالَ يُونُسُ وَمَعْمَرٌ : بَوَادِرُهُ .

بدء الوحى

نلاحظ فى قصة بدء الوحى بأن أول بداية كانت الرؤيا الصالحة، وهى الصادقة التى ليست بأضغاث أحلام ، وبدئ بها ليكون فى ذلك تمهيد وتوطئة لليقظة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فى وضوحها وتحقيقها، ثم حبب إليه الخلاء وهو الخلوة وفيها الفراغ والانقطاع عن صخب الحياة اللاهية، وضجيجها وعبثها، حيث يطمئن القلب ويستريح ويتفرغ لربه، فتتفجر ينابيع الحكمة، وكان يخلو فى غار حراء متعبداً، ومتبعاً الحنيفية، وهى دين إبراهيم عليه السلام وذلك فى شهر رمضان، وكان يتزود لذلك مستصحباً الزاد، وإنما خص حراء بالتعبد فيه، لأنه يرى بيت الله منه وهو عبادة فكان له عليه السلام فيه ثلاث عبادات : الخلوة والتحنث والنظر إلى الكعبة ، وظل كذلك حتى شاء الله تعالى للنور أن يشرق، وللحق أن يظهر واضحاً، وللباطل أن يزهق وللظلام أن ينقشع، فجاءه الأمر الحق، وأتاه الملك، فقال: اقرأ قال : ما أنا بقارئ ثلاثاً ، والمراد بقوله : «غطنى» ضمنى وعصرنى حتى بلغ الغط غايته . وقيل فى الحكمة من هذا الضم ، ليتفرغ قلبه من النظر إلى الدنيا ويقبل بكليته الى ما يلقى عليه، وكرره للمبالغة، وقيل الغطة الأولى ليتخلى عن الدنيا، والثانية ليتفرغ لما يوحى إليه، والثالثة: للمؤانسة ولذا لم يذكر فيها بلوغ الجهد. بعد ذلك أرسله الملك وقال : «اقرأ بأسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم » أى: أنه لا يقرأ من عند نفسه، ولا بقوته ومعرفته، بل إنه يقرأ بحول الله وقوته وعونه ورعايته، فهو الذى يعلمه ويعلم أمته كما خلقهم وهو على كل شيء قدير .

ثم رجع رسول الله ﷺ بهذه الآيات أو بتلك القصة ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى زملونى فزملوه أى :لفوه حتى ذهب الفزع.

وفي قوله : «لقد خشيت على نفسى » مع قوله « يرجف فؤاده» .

ما يدل على ما حدث من انفعال بسبب الوحى لدرجة أنه كان يخشى على نفسه الموت من شدة الرعب أو المرض وقد جزم به ابن أبي جمرة أو يخشى دوام المرض ـ فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، هذا اليقين الذى دفعها الى القسم على ذلك ، تستدل عليه بثاقب فكرها ، وحصافة عقلها ، ووزنها للأمور بالميزان الصحيح تستدل على ذلك بأمر استقرائى ، وصفته بأصول مكارم الأخلاق ، لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو الى الأجانب ، وإما بالبدن أو بالمال ، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل وذلك كله مجموع فيما وصفته به «إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ـ وهو من لا يستقل بأمره - وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق» وهى كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ولما لم يتقدم ، إنه يعين على نوائب الحق وحوادثه ونوازله . ثم انطلقت به خديجة الى ورقة فلما أخبره الخبر قال ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى والناموس صاحب السر ، وتمنى ورقة أن يكون عند ظهور الدعوة إلى الاسلام شاباً ليتمكن من نصرة الرسول ﷺ عندما يخرجه قومه فقال رسول الله ﷺ : «أو مخرجى هم ؟ قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ـ أى يلبث ـ ورقة أن توفى وفتر الوحى » .

وكانت مدة ابتداء الوحى بالرؤيا ستة أشهر ، فابتداء النبوة بالرؤيا وقع فى شهر المولد وهو ربيع الأول بعد أن أكمل أربعين سنة ، وابتداء وحى اليقظة وقع فى شهر رمضان والمراد بفترة الوحى تأخر نزول القرآن ، ومدة فترة الوحى قدرت بثلاث سنين وهى ما بين نزول «اقرأ» و «يا أيها المدثر» وحكمة فتور الوحى : ذهاب ما كان وجده ﷺ من الروع وليحصل له التشوق الى العود ، وأول ما نزل عليه بعد فترة الوحى ﴿ يا أيها المدثر ﴾ كما يدل عليه حديث جابر : «بينا أنا أمشى اذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسى فإذا =

= الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت: زملونى زملونى فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر .. ﴾ إلى قوله : فحمى الوحى وتتابع .

ما يؤخذ من الحديث

(١) من دروس هذه القصة: مؤانسة من نزل به أمر بتيسيره عليه، وأن من نزل به له أن يطلع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه .

(٢) فى رد السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها دلالة على أن مكارم الأخلاق وفعل الخير سبب للسلامة من مصارع الشر والمكاره، فمن كثر خيره حسنت عاقبته ورجى له سلامة الدين والدنيا .

(٣) كما يؤخذ من هذه القصة جواز مدح الإنسان فى وجهه إذا كان لمصلحة وليس بباطل ولا يوقع الممدوح فى غرور .

(٤) بداية الوحى بهذه الآيات الكريمة، وهذا التوجيه الإلهى العظيم « اقرأ باسم ربك الذى خلق» هذه البداية تشير إلى كل ما يصدر عنه من قول وفعل وحركة وسكون، إنما هو باسم الله فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لا يصدر فى أمر من الأمور عن نفسه ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [النجم] إنها بداية استهلت حياة الدعوة إلى الله، واستهلت رحلة هذه الرسالة بالقراءة والعلم والمعرفة، فالإسلام هو دين العلم والمعرفة، فبالعلم يتعرف الناس على خالقهم ورازقهم. وعلى دينهم وعقيدتهم. وما يصلحهم فى الدنيا ، ويسعدهم فى الآخرة، وأن هذا الأمر « باسم ربك » صاحب التربية والنعمة بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

٤ - حَدثنا مُوسَى بنُ إسْمَاعيلَ قال : حدّثنا أبُو عَوانَةَ قال : حدّثنا مُوسَى بنُ أبى عائشَةَ قال : حدثنا سَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ عن ابن عَبَّاسٍ فى قوله تعالى ﴿ لا تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لتَعْجَلَ به ﴾ قال : كانَ رسولُ الله ﷺ يُعَالِجُ من التَّنْزيل شدَّةً ، وكانَ ممَّا يُحرِكُ شَفَتَيْه ، فقال ابنُ عبَّاس : فأنا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كما كَانَ رسولُ الله ﷺ يُحَرِّكُهما ، وقال سَعيدٌ : أنَا أُحَرِّكُهُما كمَا رأيْتُ ابنَ عبَّاس يُحَرِّكُهما ، فَحَرَّكَ شَفَتَيْه ، فأَنْزَلَ الله تعالى ﴿ لا تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لتَعْجَلَ به إنَّ عَلَيْنَا جمْعَهُ وقُرْآنَهُ ﴾ قال : جمْعُهُ لَهُ فى صدْرِكَ ، وتَقْرأَهُ ﴿ فإذا قَرأْنَاهُ ، فَاتَّبعْ قُرآنَهُ ﴾ قال : فَاسْتَمعْ لَهُ وأَنْصتْ ﴿ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بيَانَهُ ﴾ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ ، فكانَ رسولُ الله ﷺ بَعْدَ ذَلكَ إذَا أتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمعَ ، فإذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرأَهُ النَّبىُّ ﷺ كمَا قَرَأَهُ .

---

٤ - كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، والمعالجة: هى محاولة الشىء بصعوبة ومشقة بتحريك شفتيه ﷺ إذا نزل جبريل بالوحى عليه، مخافة أن يفلت منه شىء ، فكان عليه الصلاة والسلام يهتم بضبط الآيات القرآنية عندما يتلوها جبريل عليه السلام، فيتابع جبريل ويحرك لسانه معه فى سرعة لحفظ ما يتلوه، فأمره الله سبحانه أن يستمع للتلاوة وألا يحرك لسانه متعجلاً به فقال سبحانه : ﴿ لا تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لتَعْجَلَ به ﴿١٦﴾ إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ (١) .

(فقال ابن عباس : فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ =

---

(١) سورة القيامة : آية ١٦ - ١٩ .

= يحركهما) فحرّك شفتيه ـ فأنزل الله تعالى «لا تحرك به لسانك لتعجل به ...» ووعد بأنه آمن من تفلته بالنسيان وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ (١) أي :لا تعجل بالقراءة .

«إن علينا جمعه وقرآنه» قال : جمعه لك في صدرك وتقرأه وهو توضيح وتفسير من ابن عباس رضي الله عنهما .

وتكفّل رب العزة سبحانه وتعالى بجمعه له في صدره ، كما تكفل أيضاً ببيانه ، بتوضيح مبهمه وما أشكل عليه ، وتفصيل مجمله ، وبعد أن نزلت هذه الآيات الكريمة كان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق واستمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل . قال ابن كثير : «كان ﷺ يبادر إلى أخذ القرآن ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه في صدره ، وأن يبينه له ويوضحه ، فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة : تفسيره وإيضاح معناه» . .

وهكذا نرى أن الله تعالى ، كما تكفل بحفظ القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢) . تكفل سبحانه بحفظ كل حقيقي وصادق من الأحاديث الصحيحة لتكون بياناً للقرآن الكريم وتفسيراً وتفصيلاً له مصداقاً لقوله تعالى : «إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه» .

ما يؤخذ من الحديث

(١) اهتمام رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم وحفظه وحبه له حباً جمّاً .

(٢) تكفل الله بحفظ القرآن الكريم وجمعه في صدر الرسول ﷺ .

(٣) تكفل الله ببيانه لرسوله ﷺ وشرحه له وفي هذا دلالة .

---

(١) سورة طه : آية ١١٤

(٢) سورة الحجر : آية ٩ .

٥ - حَـدثنا عَـبْـدَانُ قـال : أخبـرنا عَـبْـدُ الله قـال : أخبـرنا يُونُسُ عن الزُّهْرِىِّ ، ح . وحدّثنا بشْرُ بنُ مُحَمَّد قال : أخبرنا عَبْدُ الله قال : أَخبرنا يُونُسُ وَمَعْمَرٌ عنِ الزُّهْرِىِّ ، قال : أَخْبَرنى عُبَيْدُ الله عَنِ ابنِ عبَّاس قال : « كان رسولُ الله ﷺ أَجْودَ النَّاس ، وكـان أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فى رمضـانَ حينَ يَلْقَاهُ جبْرِيلُ ، وكـان يَلْقَاهُ فى كُلِّ لَيْلة منْ رَمَضَانَ ، فَيُدَارِسُهُ القُرآنَ ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بالخَيْرِ منَ الرِّيح المُرْسَلَة » .

الرســـول ﷺ
فى رمضـــان

٥ - يوضح هذا الحديث ما كان عليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من الجود والإنفاق والبذل والعطاء، فكان صلوات الله وسلامه عليه أجود الناس.

والجود فى الشرع: هو إعطاء ما ينبغى لمن ينبغى، وهو أهم من الصدقة وفى حديث آخر عن أنس: كان النبى ﷺ أشجع الناس وأجود الناس.

وليس عجيباً أن يكون أجود الناس وهو الأسوة الحسنة، وصاحب النفس الكريمة التى هى أكرم النفوس وأشرفها، وصاحب الأخلاق العالية التى هى أفضل الأخلاق بل إنه ركز مضمون بعثته لإتمامها، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فلا عجب أن يكون أجود الناس وأسخى الناس وأكرم الناس وأفضلهم، وهو الهادى إلى صراط ربه والقائل: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» رواه البخارى.

وبعد أن وضح الحديث أن رسول الله ﷺ أجود الناس مطلقاً، أشار بعد =

= ذلك إلى أن جوده وعطاءه وبذله صلوات الله وسلامه عليه في شهر رمضان أكثر من غيره من الشهور، فبعد بيان أنه أجود الناس وجوده أفضل من غيره مطلقاً، وضح أن جوده في شهر رمضان يفضل جوده في سائر الأوقات ، لأن شهر رمضان هو موسم الخيرات، ولأن نعم الله سبحانه وتعالى على عباده فيه زائدة على غيره وهي في هذا الشهر أكثر من غيره، فكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يؤثر متابعة سنة الله في عباده.

ويقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: فبمجموع ما ذكر من الوقت والمنزول به والنازل والمذاكرة حصل المزيد في الجود.

(وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن) ومعنى مدارسة القرآن: قراءته بالتناوب على سرعة، فكان الرسول ﷺ يتناوب القراءة مع جبريل عليه السلام بأن يقرأ هذا بعضاً من القرآن ويقرأ الآخر البعض أو يتشاركان في القراءة معاً. أما الحكمة في مدارسة القرآن فهي أنها تجدد العهد بمزيد غنى النفس، والغنى سبب الجود ولأن هذا الشهر المبارك هو موسم الطاعات والخيرات ونعم الله فيه لا تحصى. وهكذا يتضح من الحديث أن رسول الله ﷺ أجود الناس مطلقاً وأن جوده في شهر رمضان أكثر من غيره .

ثم أشار الحديث بعد ذلك إلى أن جوده في شموله وعمومه حيث يشمل كثيراً من الوجوه والمنافع وأنه جود مع كثرته سريع كالريح المرسلة بل إن جوده صلوات الله وسلامه عليه أكثر من الريح المرسلة سرعة، ووصف الريح «بالمرسلة» إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة، وإلى عموم النفع بجوده كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه، وجاء عند الإمام أحمد في آخر هذا الحديث: «لا يسأل شيئاً إلا أعطاه».

وفى الصحيح من حديث جابر رضى الله عنه : ما سئل رسول الله ﷺ فقال : لا .

وكما قال الشاعر :

ما قال «لا» قط إلاَّ فى تشهده   لولا التشهد كانت لاؤه نعم

وإنما كان جوده صلوات الله وسلامه عليه فى شهر رمضان أفضل من جوده فى غيره لكونه فى رمضان ولملاقاته جبريل عليه السلام ولمدارسته للقرآن الكريم .

وفى الحديث إشارة إلى أن ابتداء نزول القرآن الكريم كان فى شهر رمضان كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ .. ﴾ (١) وأن نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان فى شهر رمضان . كما ثبت هذا من حديث ابن عباس : «فكان جبريل يتعاهده فى كل سنة فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان ، فلما كان العام الذى توفى فيه عارضه به مرتين» .

ومعلوم أن رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة الذى يجب على أمته أن يقتدوا به كما قال الله جل شأنه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ (٢).

فعلينا أن نقتدى برسولنا صلوات الله وسلامه عليه فى الإنفاق والمزيد من الجود فى شهر رمضان .

ولقد دعا القرآن الكريم إلى المبادرة إلى الإنفاق وأن يكون شغلهم الشاغل ليل نهار ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِراً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) ﴾ (٣) وفصَّل القرآن الكريم أصحاب الحقوق فى قوله تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) ﴾ (٤) .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٨٥ . (٢) سورة الأحزاب آية : ٢١ . (٣) سورة البقرة : آية ٢٧٤ . (٤) سورة الإسراء : آية ٢٧ .

وليس لأحد أن يبخل متعللاً بجمعه لأولاده، وليس لأحد أن يخاف الفقر بسبب الإنفاق ولا أن يخاف على أولاده من بعده.

والحديث الآتى يصور لنا موازنة بين الإنفاق والبخل، وأن الله تعالى يرعى أبناء المنفقين، وينزل بأبناء البخلاء ما يخافون منه.

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نشر الله عبدين ممن أكثر لهما من المال والولد، فقال لأحدهما: أى فلان بن فلان. قال: لبيك رب وسعديك. قال: ألم أكثر لك من المال والولد؟ قال: بلى أى رب. قال: كيف صنعت فيما آتيتك؟ قال: تركته لولدى مخافة العيلة - أى الفقر - قال: أما إنك لو تعلم العلم لضحكت قليلاً ولبكيت كثيراً، أما إن الذى تخوفت عليهم قد أنزلت بهم.

ويقول للآخر: أى فلان بن فلان؟ فيقول: لبيك أى رب وسعديك، قال له: ألم أكثر لك من المال والولد؟ قال: بلى أى رب. قال: فكيف صنعت فيما آتيتك؟ قال: أنفقت فى طاعتك، ووثقت لولدى من بعدى بحسن طولك. قال: أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً، أما إن الذى وثقت به قد أنزلت بهم». رواه الطبرانى.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل رسول الله ﷺ وشدة جوده وخاصة فى شهر رمضان، ولنا فيه الأسوة الحسنة.

(٢) الدعوة إلى الجود والإنفاق فى كل وقت، وزيادته فى رمضان وعند الاجتماع بأهل الصلاح والخير.

(٣) زيارة الصالحين وأهل الخير، وتكرار ذلك إذا كان المزور لا يكرهه.

(٤) استحباب قراءة القرآن فى شهر رمضان، وأنها أفضل الأذكار.

(٥) مكانة شهر رمضان ومنزلته فى الإسلام، وما ينبغى على المؤمنين فيه من العبادة وقراءة القرآن والإنفاق ومضاعفة أعمال الخير وصنائع المعروف.

٦- حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال : أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره « أنَّ أبا سفيان بن حرب أخبره أنَّ هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجارًا بالشام ، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : فقلت :أنا أقربهم نسباً فقال : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوه فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه ، ثم كان أول ماسألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قطُّ قبله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم ، قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحدٌ منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعلٌ فيها ، قال : ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه

الكَلمة ، قال : فهلْ قاتَلْتُموهُ ؟ قلتُ : نعَمْ ، قَالَ : فكَيْفَ كَانَ قتالُكُمْ إيَّاهُ ؟ قُلْتُ : الحَرْبُ بيْنَنَا وبيْنَهُ سجالٌ ، يَنَالُ منَّا ونَنَالُ منهُ ، قال : ماذا يَأمُرُكُم ؟ قُلْتُ : يقولُ : اعبُدُوا الله وَحْدَهُ ، ولاَ تُشْرِكُوا به شَيْئًا ، واتْرُكوا مَا يقول آباؤُكُمْ ، ويَأْمُرُنا بالصَّلاة ، والصِّدْق ، والعَفَاف ، والصِّلَة ، فقال للتَّرْجُمَان : قُلْ لَهُ : سأَلْتُكَ : عن نَسَبِه ، فذَكَرْتَ أَنَّهُ فيكُمْ ذُو نَسب ، فكذلكَ الرُّسُلُ تُبْعثُ فِى نَسبِ قَوْمِها ، وسأَلْتُكَ : هَلْ قال أَحَدٌ منكُمْ هذا القَوْلَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا ، فقلتُ : لو كَانَ أَحَدٌ قال هذا القَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رجُلٌ يأْتَسى بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ ، وسأَلتُكَ : هلْ كان من آبائه منْ مَلك ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لا ، قلتُ : فلو كان من آبائه منْ مَلك قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبيه ، وسأَلْتُكَ : هلْ كُنتمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذب قَبْلَ أَنْ يقولَ ما قَالَ ؟ فَذَكَرْتَ أنْ لا ، فَقَدْ أَعْرفُ أَنَّهُ لَم يكُنْ ليذَرَ الكَذبَ على النَّاسِ ويَكْذبَ علَى الله ، وسأَلْتُكَ : أَشْرافُ النَّاسِ اتَّبعُوهُ أم ضُعفاؤُهُمْ ؟ فذَكرتَ أَنَّ ضُعَفاءَهُمْ اتَّبعُوهُ ، وهُمْ أَتْباعُ الرُّسلِ ، وسأَلْتُكَ : أَيَزيدُونَ أَمْ يَنْقُصونَ ؟ فذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يزيدُونَ ، وكذلكَ أَمْرُ الإيمانِ حتَّى يَتمَّ . وسَأَلْتُكَ : أَيرْتَدُّ أَحدٌ سَخْطَةً لدينه بَعْد أَنْ يدْخُلَ فيه ؟ فذَكرْتَ أَن لا ، وكَذلكَ الإيمانُ حينَ تُخالطُ بَشَاشَتُهُ القُلوبَ ، وسأَلْتُكَ : هَلْ يَغْدرُ ؟ فَذكرْتَ أنْ لاَ وكَذَلكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدرُ ، وَسَأَلْتُكَ : بما يأمُرُكُمْ ، فذَكَرْتَ أَنَّهُ يأمُركم أَنْ تَعْبُدوا الله ، وَلاَ تُشرِكُوا به شَيْئًا ، ويَنْهاكم عَنْ عِبادةِ

الأوثان ، ويَأمُركُمْ بالصَّلاة ، والصِّدْق ، والعَفَاف ، فإنْ كان ما تقول حقًا فسيَملكُ موضعَ قدَمَيَّ هاتَين ، وَقَدْ كُنْتُ أعْلَمُ أنه خارِجٌ ، لَمْ أكُنْ أظُنُّ أنَّهُ منكمْ ، فَلَوْ أنِّي أعْلَمُ أنى أخْلُصُ إليْه لَتجَشَّمْتُ لقاءَهُ ، ولوْ كُنتُ عنْدهُ لَغسَلْتُ عَنْ قدَمه ، ثُمَّ دعَا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بَعَثَ به دحْيَةَ إلى عظيم بُصْرَى ، فَدَفَعَهُ إلى هرَقْلَ ، فقرأَهُ ، فإذا فيه « بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من مُحمَّد عبد الله ورسوله إلى هرَقْلَ عَظيم الرُّوم ، سَلامٌ عَلى مَن اتَّبعَ الهُدَى ، أمّا بَعْدُ فإنِّى أَدْعُوكَ بدعَايَة الإسْلام ، أَسْلمْ تَسْلَمْ، يُؤْتكَ اللهُ أَجْركَ مَرَّتَين، فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ علَيْكَ إثْمَ الأَريسيِّينَ ، و(يَا أَهْلَ الكتَاب تَعالَوْا إلَى كلمَة سَواءٍ بيننا وَبَيْنَكمْ، أَنْ لاَ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْركَ به شَيْئاً، ولاَ يَتَّخذَ بَعْضُنَا بَعضاً أرْبابًا منْ دُون الله، فإنْ تَوَلَّوا فقُولُوا اشْهَدُوا بأَنَّا مُسْلمُونَ) .

قال أَبُو سُفْيَانَ : فَلَمَّا قَالَ ما قَالَ، وفَرَغَ منْ قرَاءَة الكتَاب، كَثُرَ عنْدَهُ الصَّخَبُ، وارتَفَعَت الأَصْواتُ، وأُخْرجْنَا، فَقُلْتُ لأَصْحَابى حينَ أُخْرجْنَا: لَقَدْ أمرَ أَمْرُ ابن أَبى كَبْشَةَ أنَّهُ يَخافُه مَلكُ بَني الأَصْفَر، فَمَا زلْتُ مُوقنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ، حتَّى أَدْخَلَ اللهُ علَيَّ الإسْلاَمَ .

وكان ابنُ الناطُور صَاحبُ إيلياءَ وهرَقْلُ سُقُفاً على نَصارَى الشَّأْم، يُحَدِّثُ أنَّ هرقْلَ حينَ قَدمَ إيلياءَ أصْبَحَ يَوْمًا خَبيثَ النَّفْس ، فقال بعْضُ بَطارقَته: قَد اسْتَنْكَرْنا هَيْئَتكَ، قال ابنُ الناطُور: وكَانَ هرقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ

فى النُّجُومِ فقال لَهُمْ حينَ سألُوهُ : إنِّى رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حينَ نَظرتُ فى النجُومِ مَلِكَ الختان قَدْ ظَهرَ فَمَنْ يَختَتنُ من هَذه الأُمَّة ؟ قَالُوا : لَيْس يَخْتَتِنُ إلاَّ اليَهُودُ فَلاَ يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهمْ ، واكْتُبْ إلى مَدائنِ مُلْكِكَ ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِم مِنَ اليهُودِ ، فَبَيْنَما هُمْ على أَمْرِهِمْ أُتِى هِرَقْلُ بِرَجُل أرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ ، يُخْبِرُ عَنْ خَبرِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ ، قال : اذْهَبُوا ، فَانْظُرُوا ، أَمُخْتَتِنٌ هُو أَمْ لا ، فَنَظَرُوا إليه ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ ، وسأَلَهُ عَنِ العَرَبِ ، فقال : هُمْ يَخْتَتِنُونَ ، فقال هِرَقْلُ : هذا مُلْكُ هذه الأُمَّةِ قَدْ ظَهر ، ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إلى صاحبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ وكان نَظِيرَهُ فى العِلْمِ ، وسار هِرَقْلُ إلى حِمْصَ ، فلم يَرِمْ حِمْصَ ، حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صاحِبِه ، يُوَافِقُ رأْيَ هِرَقْلَ على خُرُوجِ النبىِّ ﷺ ، وأَنَّهُ نَبِىٌّ ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَماءِ الرُّومِ فى دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ ، ثُمَّ أَمرَ بِأَبْوابِها فَغُلِّقَتْ ، ثُمَّ اطَّلَعَ ، فقال : يَا مَعْشَرَ الرُّومِ ، هَلْ لَكُمْ فى الفَلاَحِ والرُّشدِ وأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هذا النبىَّ ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأَبْوابِ ، فَوَجَدُوها قَد غُلِّقتْ ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ ، وأَيِسَ مِنَ الإيمانِ ، قال : رُدُّوهُمْ عَلَيَّ ، وَقَالَ : إنِّى قلتُ مَقَالَتى آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلى دِينِكُمْ ، فقد رأَيْتُ ، فَسجَدُوا لَهُ ، ورضُوا عنهُ ، فكانَ ذلكَ آخرَ شأْنِ هِرَقْلَ .

رَوَاهُ صالِحُ بنُ كَيْسانَ وَيُونُسُ ومَعْمَرٌ عن الزُّهْرِىِّ .

* * *

الدعوة إلى الإسلام
محاورة هرقل لأبي سفيان
ومساءلته عن أحوال النبي ﷺ

٦ - هذا الحديث يمثل جانباً من منهج الدعوة إلى الإسلام ،وهو إرسال الكتب إلى الملوك ، ودعوتهم إلى الدين الذى جاء به رسول الله ﷺ ، كما يمثل أيضاً جانباً آخر من علامات النبوة ، وكيف يصل الفكر المستنير إلى الحق ، ويعرف عن طريق الاستنتاج الصحيح أن صاحب هذه الدعوة مرسل من ربه . . .

فإن هرقل حين جاءه كتاب الرسول ﷺ قرأه ، وأراد أن يصل إلى الحقيقة من أقوم طريق ، فقال هرقل ـ كما فى رواية مسلم ـ : هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ قالوا : نعم ، قال أبو سفيان : فدعيت فى نفر من قريش فدخلنا على هرقل فأجلسنا بين يديه فقال : أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : فقلت أنا ، فأجلسونى بين يديه وأجلسوا أصحابى خلفى ثم دعا بترجمانه فقال له : قل لهم إنى سائل هذا عن الرجل الذى يزعم أنه نبى فإن كذبنى فكذبوه ... وإنما أراد هرقل أن يسأل أقربهم نسباً بالرسول ﷺ لأنه هو الذى يكون أكثر معرفة بأحواله والاطلاع على شئونه ظاهراً وباطناً أكثر من غيره ، ولأن الأبعد لا يؤمن أن يقدح فى نسبه بخلاف الأقرب . ثم أكد الأمر لأصحابه فقال لهم : إن كذبنى فكذبوه ، أى : لا تستحيوا منه ، كما أنه جعل أصحابه خلفه ، ليكون تكذيبهم له ـ إن كذب ـ أهون وأيسر ولئلا يستحيوا أن يواجهوه فإن مقابلة الكاذب بالكذب وجهاً لوجه من الأمور الصعبة .

وقال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا [1] عليَّ كذباً لكذبت عليه ، وفي هذا القول دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب ، أخذاً عن الشرع السابق أو بالعرف .

وأول سؤال هو : كيف نسبه فيكم ؟ أى : ما حال نسبه أهو شريف أم لا ؟ فكان الجواب : هو فينا ذو نسب . والتنوين فيه للتعظيم وفى رواية مسلم : كيف حسبه فيكم ؟ فقال : هو فينا ذو حسب ، والمعنى واحد .

والسؤال الثانى : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ أى من قريش أو العرب والمراد من قومكم ، فأجاب بقوله : لا

والسؤال الثالث : فهل كان من آبائه من مَلك ؟ وفى رواية مسلم : فهل كان من مَلك ؟ وقد روى هذا اللفظ على وجهين : أحدهما (من) بكسر الميم و(ملك) بفتح الميم وكسر اللام والثانى : من بفتح الميم و(ملك) بفتحها على أنه فعل ماض وكلاهما صحيح .

والسؤال الرابع : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فأجاب بقوله : ضعفاؤهم . وفى رواية بإثبات همزة الاستفهام أيتبعه أشراف الناس ؟ والمراد بهم : أهل النخوة والتكبر منهم لا كل شريف حتى لا يرد مثل أبى بكر وعمر .

والسؤال الخامس : أيزيدون أم ينقصون ؟ فأجاب بقوله : بل يزيدون .

والسؤال السادس : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فأجاب بقوله : لا ، والمراد بالسخط : كراهة الشيء وعدم الرضا به .

والسؤال السابع : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال !

---

(١) أى أن يرووا وينقلوا .

فأجاب بقوله : لا ، والمراد بالكذب : هو الكذب على الناس وإنما عدل عن السؤال عن نفس الكذب إلى السؤال عن التهمة ، تقريراً لهم على صدقه ، كما قال الحافظ ابن حجر ، لأن التهمة إذا انتفت انتفى سببها ولهذا عقبه بالسؤال عن الغدر . اهـ .

والسؤال الثامن : فهل يغدر؟ فأجاب بقوله : لا ... والغدر : هو ترك الوفاء بالعهد . ثم قال : ونحن فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها ، قال : ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة . والمراد بالمدة التى أشار إليها أبو سفيان هى مدة الهدنة والصلح الذى حصل فى الحديبية . ومعنى قوله : ولم يمكنى كلمة إلخ ... أى أنه لم يستطع أن ينتقص من قدر النبى ﷺ والتنقيص نسبى فقد كان الرسول ﷺ معروفاً بأنه لا يغدر ، ولكن لما كان الأمر مغيباً لأنه مستقبل أمن أبو سفيان أن ينسب إليه الكذب . وفى رواية أبى الأسود عن عروة مرسلاً خرج أبو سفيان إلى الشام فذكر الحديث إلى أن قال : فقال أبو سفيان : هو ساحر كذاب ، فقال هرقل : إنى لا أريد شتمه ولكن كيف نسبه؟ إلى أن قال : فهل يغدر إذا عاهد ؟ قال : لا إلا أن يغدر فى هدنته هذه . فقال : وما يخاف من هذه ؟ فقال : إن قومى أمدوا حلفاءهم على حلفائه قال : إن كنتم بدأتم فأنتم أغدر .

والسؤال التاسع : فهل قاتلتموه؟ فأجاب بقوله : نعم .

والسؤال العاشر : ماذا يأمركم ؟ فأجاب بقوله :يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

وبعد أن أدار هرقل هذه المحاورة الدقيقة ، وانتهى من الأسئلة المحكمة ، =

والإجابة التى فهمها وعرف جوانب ما تدل عليه ، كون صورة استنتجها بمنطقه السليم ، مع أنه لم تكن له معرفة بالرسول ﷺ من قبل ، ومع هذا فقد كانت صورة صحيحة ، رتب نتائجها على مقدمات سليمة ، هى تلك التى تحدثنا عنها فى الأسئلة السابقة ، أما النتائج التى توصل إليها هرقل فهى ما يأتى :

لقد قال هرقل للترجمان : «قل له سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها » ، والمعنى : أن الرسل عليهم السلام يبعثون فى أفضل أنسابهم وأشرفها ، والحكمة فى ذلك ، أنه أبعد من انتحال الباطل فالإنسان الذى يتمتع بالشرف وأصالة المعدن - غالباً - لا يميل إلى انتحال الباطل وليس فى حاجة إليه ، كما أنه أقرب إلى انقياد الناس له . وقال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : الظاهر أن إخبار هرقل بذلك بالجزم كان عن العلم المقرر عنده فى الكتب السالفة . هذا هو الاستنتاج الأول .

وأما الاستنتاج الثانى : وهو أنه لم يقل هذا القول أحد قط قبله فإنه قد استنتج أنه لو كان أحد قاله قبله لكان متأسياً به ، وإنما لم يقل هرقل «فقلت» إلا فى هذا الموضع ، وفى قوله : « هل كان من آبائه من ملك» لأن هذين المقامين مقام فكر ونظر بخلاف غيرهما من الأسئلة فإنهما مقام نقل .

كما استنتج من أنه ليس فى آبائه من ملك بأن هذا دليل على أنه لا يطلب ملكاً ولا يمكن أن تحوم حوله شبهة ، فلو كان من آبائه من ملك لأمكن أن يقال إنه رجل يطلب ملك أبيه .

كما استنتج من أنه غير متهم بالكذب قبل هذا الأمر أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، كيف ، وهو المعروف بالصادق الأمين ، وكانت سمات الصدق وغيرها من الفضائل قد عرف بها النبى عليه الصلاة والسلام قبل بعثته وبعدها ، ولازمته هذه الفضائل على

مر أدوار الحياة، وتظهر سمة صدقه ﷺ عندما دعا قريشاً إلى الإسلام وأخبرهم بنبوته قائلاً: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقوننى؟» فقالوا: نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط.

كما استنتج صدق الرسول ﷺ عن طريق اتباع الضعفاء له، لأنهم أتباع الرسل، فإن أتباع الرسل - فى الغالب - أهل الاستكانة والتواضع لا أهل الاستكبار والعناد الذين يصرون على الباطل ويتبجحون به بغياً وحسداً، أما الضعفاء فلا يأنفون بل ينقادون إلى الحق ويتبعونه.

ثم استنتج أيضاً من زيادة الأتباع أن هذا هو الإيمان حين يتم بعقيدته وعبادته وأخلاقه، وسائر شعائره من صلاة وزكاة وحج وغير ذلك، ولذا أنزل فى آخر سنى النبى ﷺ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾(١).

وأما استنتاجه بالسؤال عن الردة، فلأن من دخل على بصيرة وهدى فى الدين لا يرجع عنه بعد أن ذاق حلاوته وخالطت بشاشته قلبه، هذا بخلاف من دخل فى الباطل. وإن الذين يدخلون الإسلام ويستشعرون حلاوته لا يتزعزعون ولا ينحرفون عنه مهما كان حولهم من اضطهاد ومهما نزل بهم من عذاب، وهذا بلال كم كان يقاسى ما يقاسى فى الصحراء المحرقة والعذاب الأليم فما كان يزيد عن قوله: «أحد أحد»

كما كان استنتاجه أيضاً من عدم الغدر بأنه رسول إذ أن الرسل لا تغدر، لأنهم لا يطلبون حظاً من حظوظ الحياة الدنيا التى لا يبالى طلابها بالغدر، وهذا بخلاف أهل الآخرة وطلابها فإنهم أوفياء أمناء لا يخونون ولا يغدرون .

---

(١) سورة المائدة: آية ٣.

ولم يعرج هرقل على ما دسه أبو سفيان ، قال في الفتح : وقد كان معروفاً عندهم بالاستقراء من عادته أنه لا يغدر ، ولما كان الأمر مغيباً ، لأنه مستقبل أمن أبو سفيان أن ينسب في ذلك إلى الكذب ، ولهذا أورده بالتردد ، ومن ثم لم يعرج هرقل على هذا الغدر منه.

ثم كان الاستنتاجان الأخيران من السؤال عن قتالهم له وكيفيته ، وأنهم قاتلوه وأن الحرب بينهم وبينه سجال ، وهذا شأن الرسل عليهم السلام تبتلى ثم تكون لهم العاقبة ، وإنما يبتليهم الله تعالى بذلك ليعظم أجرهم بكثرة صبرهم وما بذلوه من أقصى ما في وسعهم في طاعة الله سبحانه وتعالى.

وأما ما أمرهم به : فهو أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأما ما ينهاهم عنه : فينهاهم عن عبادة الأوثان ، ويأمرهم بالصلاة والصدق والعفاف . قال المازني : هذه الأشياء التي سأل عنها هرقل ليست قاطعة على النبوة إلا أنه يحتمل أنها كانت عنده علامات على هذا النبي بعينه لأنه قال بعد ذلك : قد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم وما أورده احتمالاً.

ويصل هرقل إلى النتيجة الأخيرة ، والنظرة البعيدة لمنزلة هذا الرسول وما لدعوته من مستقبل عظيم ، هذه النتيجة تتلخص في قوله «فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أني أعلم أني أخلص إليه - أي أصل إليه - لتجشمت لقاءه» أي تكلفت الوصول إليه ، وهذا يدل على أنه كان يتحقق أنه لا يسلم من القتل إن هاجر إلى النبي عليه الصلاة والسلام - لقد أبدى استعداده - لو أمكنه الوصول إلى النبي ﷺ لارتكب المشقة ، وتحمل كل عناء في سبيل ذلك ، إلا أنه قد خاف الروم على نفسه وفي قوله : « لغسلت عن قدميه » إظهار

للعبودية والخدمة وأنه لا يطلب منصباً ولا جاهاً وإنما يطلب ما يحصل له من البركة.

والمراد بقوله: « فسيملك موضع قدمي هاتين» بيت المقدس وكنّى بقوله: «موضع قدميّ » عنه لأنه موضع استقراره، أو أنه كناية عن الشام كله.

وهنا نصل إلى درجة المعرفة التي بلغها هرقل، لقد كان يعلم الحقيقة، ويعلم أن النبي مرسل من ربه ولكنه خاف على نفسه وعلى ملكه. وهل هذا عذر يمكن أن يكون؟ نقول: لا إنه لا ينهض عذراً فقد عرف الرجل صدق الرسولﷺ إلا أنه رغب في استمرار الرياسة وخاف على المُلْك ، فآثر ذلك على الإسلام ، ولكن الرجل لو فطن لقول الرسول ﷺ في الكتاب «أسلم تسلم» ووعى ما يترتب على الإسلام من السلامة دنيا وآخرة لكان سالماً من كل ما يخافه، ولكن الهدى هدى الله .

وفي رواية :«ولو أراد الله هدايته لوفقه كما وفق النجاشي وما زالت عنه الرياسة» وقد كان الكتاب الذي حمله الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي في سنة سبع في المحرم ودفعه دحية إلى عظيم « بصرى » وهي مدينة بين المدينة ودمشق، وقيل هي خوران، وعظيمها: هو الحارث بن أبي شمر الغساني.

وفي وصف هرقل بعظيم الروم: إشارة إلى عدم الاعتراف بهذا الملك لأنه معزول بحكم الإسلام ولكنه لم يخله من إكرام لمصلحة التألف.

ولا يعترض على ما في الكتاب من قوله « سلام على من اتبع الهدى » ببدء الكافر بالسلام؟ فإن المعنى سلم من عذاب الله من أسلم، وليس المراد منه التحية، ومذهب الشافعي وجمهور أصحابه وأكثر العلماء أنه لا يجوز للمسلم أن يبتدىء كافراً بالسلام ، وأجازه كثيرون من السلف ، ولكن قال =

= الإمام النووى - بالنسبة للجواز - وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة فى النهى عن ذلك ، وهناك رأى آخر يقول بجواز بدء الكافر بالسلام إذا كان ذلك للاستئلاف أو لحاجة إليه أو نحو ذلك. وقوله : « أما بعد » «أما» تستعمل لتفصيل ما يذكر بعدها غالباً وللتفصيل والتقرير وترد مستأنفة لا لتفصيل كالتى هنا ، ولفظة «بعد» مبنية على الضم وتفتح إذا أضيفت لكنها قطعت عن الإضافة فبنيت على الضم.

ولماذا يؤتى أجره مرتين، كما جاء فى الحديث؟ الجواب على هذا هو أن من آمن بنبيه ثم آمن بالرسول ﷺ كان له أجران أو أن ذلك من جهة أن إسلامه سيكون سبباً فى إسلام أتباعه ، ولذا فإنه إن أعرض كان عليه إثمهم مع إثمه «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» فإن الأتباع إذا لم يسلموا تقليداً له كان عليه إثمهم وإثمه من باب أولى ولا يتعارض هذا مع قول الله تعالى ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] لأن الفاعل الذى يتسبب فى السيئات يتحمل الوزر من جهتين جهة فعله وجهة تسببه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من دعا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» رواه مسلم.

« وكان ابن الناطور» ـ ومعناه حارس البستان ـ « صاحب إيلياء» أى أميرها ، وهرقل أسقف على نصارى الشام ، والأسقف لفظ أعجمى معناه : رئيس دين النصارى ، وقيل : عربى وهو الطويل فى انحناء ، كان هرقل قد أصبح ردىء النفس فاستنكر بعض بطارقته ـ وهم خواص الدولة ـ هيئته وكان هرقل حزاء ـ

(١) سورة الأنعام : آية ١٦٤

أى كاهناً - ينظر في النجوم، وقيل : إن الحزاء هو الذى ينظر فى الأعضاء وفى الوجه فيحكم على الإنسان بطريق الفراسة.

ولكن كيف ساغ للبخارى إيراد هذا الخبر الذى يشعر بتقوية أمر المنجمين؟ نقول: إنه أراد توضيح جميع الأوجه وسائر الدلالات التى أشارت إلى ذلك الأمر وأنها قد وردت من طرق متنوعة وعلى لسان كل فريق من كاهن أو منجم ومن محق أو مبطل ومن إنس أو جن وهذا أقوى ما يشير إليه عالم ، وبينما القوم على أمرهم فى مشورتهم، وهرقل يقول لهم: إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ملك الختان قد ظهر ... إلخ بينما هم على ذلك أتى هرقل برسول من قبل ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ .

قال الحافظ فى الفتح: وأنبأنى غير واحد عن القاضى نور الدين بن الصائغ الدمشقى قال: حدثنى سيف الدين فليح المنصورى قال أرسلنى الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية فأرسلنى ملك المغرب إلى ملك الفرنج فى شفاعة فقبلها وعرض عليَّ الإقامة عنده فامتنعت فقال لى : لأتحفنك بتحفة سنية، فأخرج لى صندوقاً مصحفاً بذهب فأخرج منه مقلمة ذهب فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه وقد التصقت عليه خرقة حرير فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدى قيصر ما زلنا نتوارثه فينا فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا .اهـ

وأخرج أبو عبيد فى كتاب الأموال من مرسل عمير بن إسحاق قال : كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر ، فأما كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه، وأما قيصر فلما قرأ الكتاب طواه ثم رفعه فقال رسول الله ﷺ : أما هؤلاء فممزقون وأما هؤلاء فستكون لهم بقية.

* * *

ما يؤخذ من الحديث

(١) صدق الرسول ﷺ وكثرة العلامات التى دلت عليه فى الكتب السابقة كالتوراة.

والعلامات المذكورة هنا منها ما يتعلق بشخص الرسول ﷺ ومنها ما يتعلق بشأن من اتبعه، ومنها ما يتعلق بشأن دعوته.

(٢) من السهل على كل عاقل ممن لم يؤمن بالرسول أن ينظر إلى تلك الصورة المعتدلة التى كوّنها هرقل عن شخصية الرسول ﷺ ويستطيع أن يزن بعقله وفكره أمر الرسول فيعتنق الإسلام.

(٣) دعوة الكفار إلى الدخول فى الإسلام، وما يجب على أئمة المسلمين وولاة الأمور فى شتى أقطار العالم من الدعوة إلى الإسلام والعمل على انتشاره وتبليغ تعاليمه.

(٤) وجوب دعوة الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم، وأن قتال الكفار قبل دعوتهم حرام إذا لم تكن قد بلغتهم الدعوة، وإن بلغت فالدعاء يكون مستحباً.

(٥) وجوب العمل بخبر الواحد، حيث إنه بعث الكتاب مع دحية.

(٦) استحباب أن يصدر الكتاب بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» وإن كان مرسلاً إلى الكافر.

(٧) إن من اهتدى وتسبب فى هداية غيره آتاه الله أجره مرتين، ومن ضل وتسبب فى إضلال غيره كان عليه إثمه وإثم من تبعه.

(٨) من أدرك نبينا ﷺ من أهل الكتاب فآمن به كان له أجران.

طبع بمؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر

٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة - تليفون: ٧٩٥١٨١٠/٧٩٥١٨١٨

٣ كتاب الإيمـــان

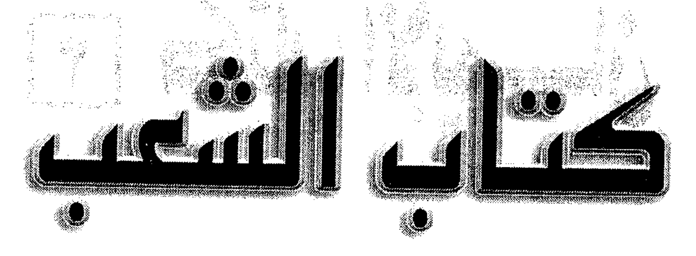
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم ﴾

صدق الله العظيم

□□ مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر هى أولى مؤسسات النشر المصرية والعربية - حيث تعد المؤسسة من أبرز المنارات الثقافية والفكرية فى العالم العربى لما يزيد عن ثمانين عاماً .

يسعدها أن تعيد إلى القراء الأفاضل فى مصر والدول العربية والإسلامية ..



- تحت شعار التراث الإسلامى والثقافى والمعرفى لكل الشعب بأسعار الأمس ..
- يصدر أسبوعياً اعتبارا من أول رمضان ١٤٢١هـ بمشيئة الله وتوفيقه ..

ونسأل العلى القدير أن يمنحنا العون والقدرة على المزيد من الجهد فى خدمة الإسلام ..

مع دعوات وتحيات

رئيس مجلس الإدارة

عادل أحمد أبو المعاطى

بسم الله الرحمن الرحيم

٢ - كتاب الإيمان

باب قَوْلُ النَّبيِّ ﷺ «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ»

وَهُوَ قَوْلٌ وفِعْلٌ، وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾(١) ﴿وزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾(٢) ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾(٣) ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(٤) ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾(٥) وقوله: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾(٦) وقَوْلُه جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾(٧) وقَوْلُه تعالَى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً﴾(٨) والحبُّ فِي اللهِ والبُغْضُ فِي اللهِ من الإِيمَانِ، وكَتَبَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بنِ عَدِيٍّ: إِنَّ لِلإِيمَانِ فَرَائِضَ، وشَرَائِعَ، وَحُدُوداً، وَسُنَناً فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ، وَمَنْ لَم يَسْتَكْمِلْهَا لم يَسْتَكْمِلِ الإِيمَانَ، فإِنْ أَعِشْ فَسأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا، وإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا على صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ، وقال إِبْرَاهِيمُ: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(٩) وقال مُعَاذٌ: اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعةً، وقال ابنُ مَسْعُودٍ: اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ، وقال ابنُ عُمَرَ: لاَ يَبْلُغُ العَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ ما حَاكَ فِي الصَّدْرِ، وقال مُجَاهِدٌ: شَرَعَ لَكُمْ(١٠) أَوْصَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَإِيَّاهُ دِيناً وَاحِداً، وَقَالَ ابن عبَّاسٍ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(١١) سَبِيلاً وَسُنَّةً.

---

(١) سورة الفتح (٤). (٢) سورة الكهف (١٣). (٣) سورة مريم (٧٦).
(٤) سورة محمد (١٧). (٥) سورة المدثر (٣١). (٦) سورة التوبة (١٢٤).
(٧) سورة آل عمران (١٧٢). (٨) سورة الأحزاب (٢٢). (٩) سورة البقرة (٢٦٠).
(١٠) (شرع لكم من الدين) سورة الشورى (١٣). (١١) سورة المائدة (٤٨).

٢ - باب
دُعاؤكم إيمانكم

٧- حدثنا عُبيْدُ اللهِ بنُ موسَى قال: أَخبرنا حَنْظَلَةُ بنُ أَبى سُفْيَان عن عِكْرِمةَ بنِ خالدٍ عن ابنِ عُمَرَ رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِىَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْس: شَهَادة أَنْ لا إِلَه إِلاَّ اللهُ وأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وإِقامِ الصلاةِ، وإِيتاء الزكاةِ، والحجِّ، وصَوْمِ رمضانَ».

---

٧ - «بنى الإسلام على خمس»: أى: أقيم الإسلام على خمس دعائم وأسماء العدد يجوز فيها التذكير والتأنيث إذا كان المميز غير موجود كما فى الحديث هنا وبنى بهذه الأركان «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله»: أى النطق بهذه الشهادة، مع التصديق بالقلب، والعمل بالأركان.

«وإقام الصلاة»: أى المداومة عليها، والإتيان بأركانها وشروطها معتدلة مستقيمة.

«وإيتاء الزكاة»: إعطاء الزكاة لمستحقيها.

«وحج البيت»: أى التوجه إلى مكة المكرمة فى وقت الحج وزمانه لأداء المناسك من إحرام وطواف وسعى ووقوف بعرفة إلى آخر مناسك الحج. وقدّم الصلاة؛ لأنها عماد الدين ثم الزكاة؛ لأنها قرينة الصلاة ثم الحج للتأكيد الوارد بشأنه.

«وصوم رمضان»: أى صوم شهر رمضان بالامتناع عن المفطرات والإمساك عن شهوتى البطن والفرج من الفجر إلى غروب الشمس.

ويرشد هذا الحديث إلى حقيقة الإسلام وأصوله، التى لا يتم إلا بها، فيشبهه ببناء، دعائمه وأركانه هذه الأمور الخمسة التى تشتمل على جميع أنواع العبادات

= من قول و فعل و ترك، فالعبادة إما قولية: فهى الشهادة، وإمَّا غير قولية وهى إما تَرْك وهى عبادة الصيام، وإما فعل، والفعل إمَا أن يكون فعلاً بدنياً وذلك كالصلاة، وإما أن يكون فعلاً مالياً وذلك كالزكاة، وإما أن يكون مشتملاً على النوعين وذلك كالحج إلى بيت الله الحرام.

– فأما الشهادة: فالمراد بها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والمراد النطق بها، والتصديق القلبى بها والعمل بالجوارح لما تقتضيه من عبادات، فيشهد الإنسان بها مصدّقاً قلبه بأن الله واحد لا شريك له، لا إله غيره ولا معبود سواه، وأن سيدنا محمداً ﷺ عبده ورسوله أرسله الله للناس كافة بشيراً ونذيراً، وختم الله به الأنبياء والمرسلين.

– وأما إقام الصلاة: فالصلاة هى أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشروط مخصوصة وهى: صلاة الصبح، وصلاة الظهر، وصلاة العصر، وصلاة المغرب، وصلاة العشاء. ومن زاد على هذه الفروض فى النوافل زاد أجره وثوابه، والصلاة عماد الدين، وصلة بين العبد وربه، وإقامتها تكون باستمرار أدائها والدوام عليها، وعدم الانقطاع عنها، وأن يؤديها الإنسان كاملة الأركان والشروط، مستقيمة بخشوعها.

– أما إيتاء الزكاة: فهى إعطاء مال مخصوص لمستحقيه بشروط مخصوصة، وشرعت الزكاة لسد حاجة المحتاجين، وتكافلاً بين المسلمين، وتطهيراً للمال من أية شبهة. وتطهيراً للغنى من الشح والبخل، وتطهيراً للفقير من الحقد على الغنى، وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[1]

=

(١) التوبة: ١٠٣.

- وأما الحج : فهو قصد مكة المكرمة لأداء المناسك التى شرعها الله تعالى من إحرام وطواف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة ووقوف بعرفة ومبيت بالمزدلفة ورمى للجمرات وهكذا، وهو واجب على المستطيع -بدنياً ومالياً- مرةً واحدة فى العمر، وله أشهر معلومات، كما قال تعالى :

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾(١)

- وأما صوم شهر رمضان : ففيه تزكية للنفس وتربية للإرادة ووصول إلى تقوى الله تعالى، كما قال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٢)

ولهذا الحديث روايات أخرى فيها تقديم الصوم على الحج، ولا منافاة بين الروايات لأن الراوى للحديث وهو عبدالله بن عمر رضى الله عنهما سمعه من النبى ﷺ مرتين : مرة بتقديم الحج، ومرة بتقديم الصوم.

- ولم يذكر فى الحديث الجهاد، لأنه فرض كفاية، ولا يكون فرض عين إلا فى بعض الأحوال، كما لم يذكر الإيمان بالأنبياء والملائكة وغير ذلك مما تضمنته بعض الأحاديث الأخرى، لأن المراد بالشهادة تصديق الرسول عليه الصلاة والسلام فيما جاء به فيستلزم ذلك جميع ما يجب الإيمان به والعمل به مما أخبر به الرسول ﷺ.

وأما باقى التكاليف الشرعية، وأوامر الإسلام الأخرى فهى متممة لأركان الإسلام، وداخلة فى دائرتها.

(١) البقرة: ١٩٧. (٢) البقرة: ١٨٣.

ما يؤخذ من الحديث

(١) شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هي أساس قبول الأعمال وشرط للحكم بإسلام قائلها .

(٢) أهمية الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج ووجوب القيام بذلك .

(٣) ظاهر الحديث أن الإنسان لا يكون مسلماً إذا ترك ركناً من هذه الأركان ، ولكن إجماع العلماء منعقد على أن العبد لا يخرج من الإسلام بترك ذلك بل يكون عاصياً ، إلا إذا تركها جاحداً لها .

(٤) التأكيد على المحافظة على العبادات وعدم إهمالها .

٣ - باب
أمور الإيمان

وقَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[1] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[2] الآية.

٨- حدثنا عَبْدُ الله بنُ مُحَمَّد قال: حدَّثنا أبو عامرٍ العقَديُّ، قال: حدَّثنا سُلَيمانُ بنُ بلالٍ عنْ عَبْد الله بنِ دينارٍ عَنْ أَبِي صالحٍ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عنه عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «الإيمانُ بِضْعٌ وستُّونَ شُعْبَةً، والحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمان».

٨- (البضع) بكسر الباء، وقد تفتح: هو قطعة من العدد، تطلق على العدد من الثلاث إلى التسع، وقيل: إلى العشر، وقيل: إلى الخمس، قال الفراء: «هو خاص بالعشرة إلى التسعين فلا يقال بضع ومائة ولا بضع وألف».

وتضاف إلى لفظ بضع الهاء مع المذكر، ويكون مع المؤنث بدونها، فنقول: بضعة وعشرون رجلاً، وبضع وعشرون امرأة، وفي بعض الروايات: «بضعة» على تأويل الشعبة بالنوع.

(والشعبة) بالضم هي القطعة، والمراد بها الخصلة.

يوضح الرسول ﷺ ما ينطوي عليه الإيمان من محامد الفعال وكريم الخصال، وأنها كثيرة، فهي بضع وستون شعبة.

---

(١) سورة البقرة (١٧٧). (٢) سورة المؤمنون (١).

= وفى رواية: «بضع وسبعون» وليس بين الروايتين تناقض، فالمراد التكثير، وذكر البضع للترقى بمعنى أن شعب الإيمان كثيرة لا حصر لها.

وقيل: إن المراد حقيقة العدد، ويكون قد صرح فى بادىء الأمر بالبضع والستين، لأنه الذى وقع وحدث حينئذ، ثم زادت عشر أخرى فنص عليها.

ثم نبه على شعبة من هذه الشعب هى أهمها، ألا وهى الحياء.

والحياء: خلق كريم يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير فى حق ذى الحق وينشأ من الخوف من الله، واستشعار مراقبته، هذا تعريفه الشرعي. وأما معناه فى اللغة: فهو تغير وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يعاب به.

والحياء يعصم المرء من مزالق الشر، ويفضى به إلى مسالك البر والفضيلة والخير.

وقد روى فى حديث آخر ثمرات الحياء جملة فورد: «الحياء خير كله» و «الحياء لا يأتى إلا بخير» لأنه يوجه صاحبه إلى المعروف والطاعة، ويحجزه عن كل منكر ومعصية.

وتوضيح الحياء بهذا المفهوم، وهو أنه باعث على اجتناب القبيح، ومانع من التقصير هو الحقيقى الشرعى، أما حين يمتنع إنسان من قول الحق، أو من فعل الخير متعللاً بما يزعم من حياء، فليس هذا من الدين، ولا من الحياء فى شىء، بل هو عجز ومهانة، ولا ينشأ إلا من ضعف الدين.

وخص الرسول ﷺ شعبة الحياء بالذكر دون سائر الشُّعَب؛ تنبيهاً على ما للحياء من أثر فى سلوك الإنسان، فالحياء يدعو إلى سائر الخصال الحميدة، والحيى يخشى الله تعالى ويخاف فضيحة الدنيا والآخرة، فيأتمر بأمر ربه، وينتهى بنهيه. أما من لا حياء عنده فلا خير فيه، لأنه لا يرى بأساً فى إعلان فسقه أو شره، ومن هنا وجب تحذير الناس منه، ومن ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له.

وقد اجتهد بعض السلف فى حصر ما تفرعت عنه شعب الإيمان، فمنها ما يتعلق بأعمال القلب: كالإيمان والإخلاص والحب فى الله. ومنها ما يتعلق بأعمال =

= اللسان كالتوحيد والذكر وتلاوة القرآن والاستغفار. ومنها ما يتعلق بالبدن كالصلاة والزكاة والصيام والحج وهكذا.

وفى رواية مسلم ما يشير إلى أن شعب الإيمان متفاوتة علواً ونزولاً، «أعلاها: لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» أى: تنحيته من طريق المسلمين.

وكثيراً ما كان رسول الله ﷺ يحث على التخلق بالحياء.

وقد مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء ليكفه عنه، لما يزعم أن فيه ضعفاً، فنهاه الرسول ﷺ قال: «دعه فإن الحياء من الإيمان».

وكان ﷺ خير من تمثل فى شخصه الشريف خلق الحياء فهو رقيق الشعور، دقيق الإحساس، إذا رأى شيئاً لا يحبه مما لا يتصل بشأن الدين ظهر فى وجهه وعرفه أصحابه، أما ما يتصل بأمور الدين فكان أسرع ما يكون إلى تغييره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه.

وحسب هذه الفضيلة شرفاً أنها خلق الإسلام، كما قال ﷺ: «إن لكل دين خلقاً وإن خلق الإسلام الحياء»[1].

بل إن الحياء هو خلق كل الأديان، قال ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[2].

وأما التفقه فى الدين فلا ينبغى أن يستحيا منه، جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحى من الحق، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت؟ فقال: «نعم إذا رأت الماء»[3].

وقد عد بعض العلماء تلك الشعب منهم ابن حبان، ولخص الحافظ ابن حجر فى الفتح ما أورده، وبين أنها تتفرع من أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن كما سبق.

(١) رواه مالك فى الموطأ. (٢) رواه البخارى.
(٣) روا البخارى.

=

= وأعلى أنواع الحياء: هو الحياء من الله تعالى، وذلك بطاعته سبحانه فلا يراك حيث نهاك، وهذا بمعرفته ومراقبته في السر وفي العلانية، وهذا هو المراد بقول الرسول ﷺ فيما أخرجه الترمذى عنه ﷺ أنه قال: «استحيوا من الله حق الحياء» قالوا: إنا نستحي والحمد لله، فقال: «ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».

وقد جعل الحياء شعبة من الإيمان مع أنه من الغرائز، لأنه قد يكون غريزة، وقد يكون تخلقاً، ولكن استعمال الحياء في الشرع لا بد له من نية واكتساب فكان من الإيمان لهذا، ولأنه يبعث على فعل الطاعات، ويمنع من ارتكاب المعاصي والمخالفات.

والمراد بالإيمان في الحديث هو الإيمان الكامل الذى يتكون من التصديق والإقرار والعمل.

ما يؤخذ من الحديث

(١) اشتمال الإيمان على فعال حميدة، وخصال من الخير كثيرة.

(٢) أهمية الحياء في الإسلام، وأن من لا حياء عنده فلا خير فيه.

(٣) توجيه الرسول ﷺ أمته إلى ما فيه صلاحها في الدنيا والآخرة.

(٤) أن الإيمان يطلق في الحديث كثيراً على المعنى الشامل للتصديق بالقلب، والنطق باللسان، وعلى الأعمال البدنية وعلى الفضائل، ونظيره من القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ولكنّ اللّه حبّب إليكُمُ الإيمان وزيّنهُ في قُلوبكُمْ وكرّه إليْكُمُ الكُفْر والفُسُوق والعصْيان أُولئك هُمُ الرّاشدُون﴾[1].

(١) سورة الحجرات: الآية ٧.

٤ - باب
المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ

٩ـ حدثنا آدَمُ بنُ أَبِى إِيَاسٍ قال حدَّثنا شُعْبَةُ عن عبْدِ اللهِ بنِ أَبِى السَّفَرِ وإسماعيلَ عنِ الشَّعْبىِّ عَنْ عبد الله بن عَمْرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لسَانِهِ ويَدِهِ ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عنْهُ» .

قال أَبُو عبْدِ الله : وقال أَبُو مُعَاوِيَةَ : حدَّثنا داوُدُ عن عامرٍ قال : سَمِعْتُ عبدَ الله عنِ النَّبىِّ ﷺ . وقال عَبْدُ الأَعْلَى : عن داوُدَ عَنْ عامرٍ عنْ عبْدِ اللهِ عَنِ النبىِّ ﷺ .

٩ـ الإسلام عقيدة وشريعة وسلوك وأخلاق ، ولا يقتصر وصف المسلم على جانب العقيدة والعمل فحسب ، بل لابد إلى جانب ذلك للمسلم الكامل أن يجمع إلى جانب عقيدته وعباداته السلوك المستقيم فيسلم الناس من لسانه ومن يده .

وفى هذا الحديث يبين سيدنا رسول الله ﷺ بعض السمات الهامة للمسلم الكامل فى الإسلام ، فيقول «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ولا يلزم من ذلك أن من اتصف بهذا فقط يكون كاملاً بل لا بد أن يراعى بقية الأركان والعبادات والمعاملات وسائر الأخلاق الأخرى ، فالمسلم هو الذى يأتى بأركان الإسلام ويسلم المسلمون بل ويسلم غير المسلمين أيضاً من أهل الذمة من لسانه =

ويده والتقيد بكلمة «من سلم المسلمون» ورد على الغالب كالتعبير بجمع المذكر، فالمراد الرجال والنساء أى من سلم المسلمون والمسلمات، ولكنه ورد على الغالب (من لسانه ويده) خصَّ اللسان واليد بالذكر لأن الأذى بهما يكون أكثر وأغلب، وقدم اللسان لأن الأذى به يكون أكثر ولأنه المعبِّر عما فى داخل الإنسان وإنما عبر بقوله «من سلم المسلمون من لسانه» ولم يقل من قوله ليشمل من آذاهم بقوله أو بلسانه وإن كان من غير القول وخص اليد دون بقية الجوارح لتدخل فى ذلك اليد المعنوية كالاستيلاء على حقوق الناس ظلماً أما إقامة الحدود والتعزيرات فذلك بالنظر إلى المقصود الشرعى وهو الإصلاح ولو مآلاً.

ونلاحظ فى هذا الحديث الشريف أن الرسول عليه الصلاة والسلام يصف المسلم الكامل فى رجولته، الكامل فى إسلامه الكامل فى عباداته وأخلاقه، وإنما عرف المسلم بالألف واللام لبيان صفة الكمال فيه أى المسلم الكامل كما نقول فلان الرجل أى الكامل فى رجولته (من سلم المسلمون من لسانه ويده) فلا يتعرض لهم بما حرم عليهم من العدوان على دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم لأن الرسول ﷺ قال «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا» وقدم اللسان لأن التعرض بالأذى به يكون أكثر وأسرع.

وخصَّ اليد لأن معظم مزاولة الأعمال بها ولا يقال: إذا سلم المسلمون منه يلزم أن يكون مسلماً كاملاً وإن لم يأت بأركان الإسلام التى بنى عليها، لا يقال ذلك لأن الحديث ورد على سبيل المبالغه والتأكيد لأمر هذه السمة ولتعظيم ترك الإيذاء كأن ترك الإيذاء هو نفس الإسلام الكامل وهو محصور فيه على سبيل الادعاء للمبالغه (المسلم من سلم المسلمون) أى، وسلم المسلمات. وإنما ورد بالمذكر لأن الأمر جرى مجرى الغالب كما سبق ولكنه يشمل المسلمين والمسلمات ويشمل =

= المسلمين وغير المسلمين أيضاً من أهل الذمة، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه، فالذى يترك ما حرمه الله سبحانه وتعالى عليه قولاً أو فعلاً أوسلوكاً فهو مهاجر هجرة فى الله وهو طائع لله يتقى الله سبحانه وتعالى.

وفى رواية أخرى «والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» أى ائتمنوه وجعلوه أميناً عليها لكونه مجرباً فى حفظها وفى عدم الخيانة وذكر المسلم والمؤمن بمعنى واحد تأكيداً أو تقريراً، ومن هنا نلاحظ أهمية هذا التوجيه النبوى الذى يتفق مع توجيهات أخرى، قال فيها الرسول ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

ما يؤخذ من الحديث

(١) الإسلام تصديق بالقلب، وقولٌ باللسان، وعمل بالجوارح.

(٢) أن كمال الإسلام يكون بكفِّ الجوارح عن إيذاء الناس قولاً وفعلاً.

(٣) الدعوة إلى التحلّى بالفضائل والتخلى عن الرذائل وعن كل ما يؤذى الناس.

٥ - باب

أى الإسَلام أَفْضَلُ؟

١٠ـ حدثنا سَعيدُ بنُ يَحْيَى بنِ سعيد القُرَشيٌّ قَالَ: حَدَّثنا أَبى قَالَ: حدَّثنا أَبُو بُرْدَةَ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسى رضى الله عنه، قال: قالوا: يا رسول الله أَىُّ الإِسْلامِ أَفْضَلُ؟ قال «مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ».

١٠ـ سئل رسول الله ﷺ فى أى ذوى الإسلام أفضل، أو أى المسلمين أفضل، وإنما قدّرنا ذلك، لأن كلمة «الإسلام» مفردة، وشرط «أى» أن تدخل على متعدّد، فاتضح أن فى الكلام حذفاً تقديره: أى المسلمين أفضل؟

فأجاب الرسول ﷺ بقوله «من سلم المسلمون من لسانه ويده»

فى هذا الحديث روى أبو موسى ـ رضى الله تعالى عنه ـ ما توجه به البعض إلى سيدنا رسول الله ﷺ يقول له: يا رسول الله أى المسلمين أفضل، إنه يسأل عن أفضلية المسلمين، والناس فى دينهم وعباداتهم درجات، والعبادات والمعاملات والعلاقات بين الناس درجات، فأىُّ المسلمين أفضل؟ يريد أن يقف على الدرجة العظيمة العلية حتى يسير عليها وحتى يسلك الطريق المستقيم الذى يصل به إليه فيجيبه الرسول ﷺ بقوله: «من سلم المسلمون من لسانه ويده» هذا هو أفضل المسلمين.

وكأنى بهذا الحديث وهو لا يكلف السائل فعلاً ولا عملاً وإنما ينهاه ويحذره من أن يسلك طريق الشر ويدعوه إلى الحفاظ على لسانه ويده وأن يسلم الناس من لسانه ويده فلا يتكلم بالكذب ولا بالغيبة ولا بالنميمة ولا يشهد شهادة الزور =

= ولا يقع في أعراض الناس بل يسلم الناس من لسانه ويسلم الناس من يده فلا يسرق ولا يبطش بها فى ظلم أو عدوان فإنه إن حافظ على هاتين الجارحتين من الإيذاء فإنه يكون في درجة الأفضلية.

ولو قارنا بين هذا السؤال الوارد عن أبى موسى رضى الله عنه والإجابة عليه وبين سؤال آخر ورد عن بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وما كان يجيب به الرسول ﷺ من إجابات تغاير هذه الإجابة كقوله لآخر «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» وكغير هذه الإجابة لآخرين لرأينا أنه وإن كان السؤال جاء مضمونه متحداً فى كثير من الحالات، ولكن اختلفت الإجابة باختلاف أحوال السائلين وباختلاف الأحوال والظروف والأماكن، فإنسان يكون الأفضل والأَوْلَى له أن يطعم الطعام وأن يفشى السلام، وآخر يكون الأفضل له أن يسلم الناس من لسانه ويده وهكذا، فكان عليه الصلاة والسلام يجيب كل سائل بما يليق به وبحاله ومكانه وما هو الأفضل فهو يراعى مقتضى الحال ويرى أن لكل مقام مقالاً، وهو أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

وفى الحديث الذى معنا حينما يبين أن أفضل الناس من سلم المسلمون من لسانه ويده إنما يريد أن يبين أن هاتين الجارحتين وهما اللسان واليد أكثر أنواع الأذى يقع بهما، ولذا نص عليهما وحذر منهما ودعا إلى سلامة الناس من أذاهما.

ومن أجل ذلك جاء فى حديث آخر ما يفيد أن الذى لا يسلم الناس من أذاه يصبح يوم القيامة صفر اليدين من الثواب وتضيع أعماله التى قدمها سدى بسبب ما أحبط عمله السيء بما ارتكبته يده أو لسانه فيقول ﷺ لأصحابه: أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا مَنْ لا درهم له ولا متاع فقال: إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيُعْطى هذا، من حسناته، وهذا من حسناته، فإن

= فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخِذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طُرح في النار»[1]

فالغاية المنشودة من العبادات في الإسلام أن تزكى النفس الإنسانية، وأن توثق صلة الإنسان بخالقه وأن توثق صلته بالناس على أساس من العقيدة الصحيحة والخلق الحسن، فبالصلاة ينتهى المسلمون عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة تترعرع الألفة بين القلوب وينمو الحنان والإحسان بين الناس، وبالصوم يتمرس الإنسان على الصبر وسائر خصال البر، وبالحج تتم سائر الفضائل الدينية والأخروية التي تغرسها مناسكه في قلب المسلم، وهكذا تثمر العبادات في الإسلام ثمرتها وتؤتي أكلها، إذا صدقت بها نية صاحبها وتعهدها بمعالجة نفسه وارتوت منها أحاسيسه، أما إذا أداها مجرد عادة يقوم بها فلا وزن لها.

وهكذا يتضح لنا كيف تؤدى العبادات إلى المراتب الحسنة؟ وكيف تؤدى الأخلاق السيئة بصاحبها إلى مهاوى الهلاك مهما كثرت العبادة، والعكس صحيح، فإن قليلاً من العبادات الصحيحة مع حسن الخلق تكفل النجاة لصاحبها والأذى من اليد واللسان يورد الإنسان موارد الهلاك، فعلينا أن نحافظ على ألسنتنا، وأيدينا، نسأل الله العافية.

ما يؤخذ من الحديث

(١) زيادة الإيمان ونقصانه بسبب الأعمال.
(٢) التأكيد على أن الإسلام قول وعمل وتصديق.
(٣) التحذير من إيذاء الناس قولاً وعملاً.

---

(١) رواه مسلم والترمذى.

٦- باب

إطْعَامُ الطَّعَامِ منَ الإسْلاَمِ

١١ـ حدثنا عَمْرُو بنُ خالدٍ قال : حَدَّثنا اللَّيْثُ عنْ يزيد عن أَبى الخيْرِ عَنْ عبْد الله بنِ عَمْرٍو ـ رضى الله عنهما ـ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبىَّ ﷺ : أَىُّ الإسْلاَمِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : «تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وتَقْرَأُ السَّلاَمَ على مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ» .

١١ـ يتكون الإسلام من شعب كثيرة وخصال حميدة ، وقد جاء منها فى هذا الحديث شعبتان : الأولى : إطعام الطعام . والثانية : إقراء السلام .

وقد جاء فى أحاديث أخرى بعض شعب أخرى منها قوله ﷺ : «الإيمان بضع وستون ـ أو بضع وسبعون ـ شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» .

وهكذا . . نرى أن للإيمان شعباً ، وأن بعضها يفضل بعضاً ، ويترتب على ذلك إيمان المؤمن أو نقصه ، ومدى قربه من ربه أو بعده ، فكلما زادت هذه الشعب وكان صاحبها يتحلى بأعظمها كان أكثر إيماناً ، وكان أقرب من ربه سبحانه وتعالى .

وكلما نقصت هذه الشُّعَب وكانت أقل أو كان صاحبها لا يتحلى بالكثير منها وبالخصال الحميدة كان أقل إيماناً وأبعد من ربه . وإجابة الرسول ﷺ للسائلين والمستفسرين من أصحابه ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ كانت مطابقة لمقتضى الأحوال ، فيخاطب ويجيب كل جماعة بما هو أجدى لهم وأنفع ، ففى حديث آخر عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله أى الإسلام أفضل ؟ قال : «من سلم المسلمون من لسانه ويده» .

وهكذا، فهو يجيب كل سائل فى كل وقت بما يكون أفضل فى حق السامع أوالسائل أو أهل المجلس الذين يحدثهم فربما يكون ظهر من أحدهم قلة مراعاة ليده ولسانه وإيذاء المسلمين، وربما يكون ظهر من الآخر إمساك عن الطعام والبعد عن السلام أو ما فيه استعلاء فأجابه على حسب حاله، وقد يكون السائل الأول يهدف من وراء سؤاله إلى معرفة أفضل المنهيات والأمور التى يجب عليه تركها فأجابه بقوله: «من سلم المسلمون من لسانه ويده».

ويكون الثانى سأل ليعرف خير الأعمال وأفضلها؛ فأجابه بإطعام الطعام وإقراء السلام. ومن المعلوم أن الإطعام مستلزم لسلامة اليد، والسلام لسلامة اللسان.

وهاتان الخصلتان المذكورتان فى الحديث هما من الأهمية بمكان بحيث يترتب عليهما صلاح المجتمع حسياً ومعنوياً.

وذلك أن مكارم الأخلاق وشعب الإيمان منها ما هو مالى كالإنفاق والإطعام، ومنها ما هو بدنى كصنعة الخير ومعاونة الضعيف، ومنها ما هو قولى كإقراء السلام. وهاتان الخصلتان حث عليهما رسول الله ﷺ أول ما دخل المدينة، كما رواه الترمذى من حديث عبد الله بن سلام قال: «أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل[1] الناس إليه، فكنت ممن جاءه فلما تأملت وجهه واشتبهته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. قال: وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

فأفضل تلك الخصال: إطعام الطعام الذى به قوام الأبدان، وأفضل الأقوال فى البر والإكرام هو إفشاء السلام لمن عرفه الإنسان ومن لم يعرفه ليكون خالصاً لله تعالى بعيداً عن الرياء، فالسلام هو شعار الإسلام، وقد قال فى الحديث «تطعم

(١) انجفل: أى حضر الناس إليه مسرعين.

= الطعـام » ولم يُعبّـر بلفظ الأكل ونحـو ذلك لأن كلمـــة الإطعام عـامة تشـمل الأكـل والشـرب والـذوق. وجـاء التعبيـر النبـوى بـالإطعـام عـامـاً غير مقيد ولا مخصوص ليشمل الإنسان والحيوان والمسلم وغير المسلم والإطعام الواجب والإطعام المستحب، وإطعام الفقراء وإطعام غيرهم من الأهل والضيوف والجيران وهكذا.. فتقدير الكلام أن تطعم الخلق الطعام وحذف المفعول ليعم.

كمـا أنه قال: «وتقرأ السلام» ولم يقل: وتسلم ليشمل السلام الذى يبعثه المسلم بالكتاب والسلام الذى يلقيه مشافهة على أخيه وهكذا. فالسلام تحية المسلمين، وشعار الإسلام.

إنهما إذاً لشعبتان من أهم شعب الإيمان التى ينبغى على المؤمنين أن يتمثلوهما أما الشعبة الأولى، وهى إطعام الطعام: فلها آثارها البعيدة فى حياة الفرد والمجتمع، وفى دنيا الإنسان وآخرته.

وإنها تعمل على تأليف قلوب الناس، وغرس الألفة والمحبة بينهم، كما قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمُ   فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

إنها لتمثل أهم جوانب البذل والإنفاق، فهى بذلك برهان صادق على صحة إيمان صاحبها، كما قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «والصدقة برهان».

وإنها لتعنى البذل والسخاء، وللسخاء أثره البالغ فى جعل صاحبه قريباً من الله ومن الناس ومن الجنة، ويجعله بعيداً عن النار قال ﷺ: « السخى قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار. والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولجاهل سخى أحب إلى الله من عابد بخيل..»(١)

ولقد سجل القرآن الكريم ثناء رب العزة سبحانه وتعالى على أولئك الصحابة الكرام الذين آثروا إخوانهم بالخير وإطعام الطعام، قال الله تعالى:

---

(١) رواه الترمذى والبيهقى فى شعب الإيمان، والطبرانى فى الأوسط.

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية: أنه نزل برسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وهو لا يكفي إلا واحداً وليس عنده غيره، وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يده في الطعام كأنه يأكل ولا يأكل، فأكل الضيف الطعام الذي قدمه إليه فلما أصبح قال له الرسول الكريم ﷺ «لقد عجب الله من صنيعكما الليلة إلى ضيفكم» ونزل قوله تعالى:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٢)

لقد وعى سلفنا الصالح وصحابة رسول الله ﷺ قيمة البذل والكرم، فكانوا سباقين للخيرات بإذن الله، وكيف لا وقد رأوا رأى العين قدوتهم وأسوتهم الحسنة رسول الله ﷺ وهو أجود بالخير من الريح المرسلة. فكانوا على الدرب سائرين ولأعماله مقتدين، وهو الذى رغبهم فى الخير وكشف لهم عن ثواب ذلك فى الآخرة، فقال رسول الله ﷺ «أيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة، وأيما مؤمن سقي مؤمناً على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عرى كساه الله من خضر الجنة» رواه الترمذى.

وقال الإمام على كرم الله وجهه: «ياعجباً لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً، لقد كان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق، فإنها مما تدل على سبيل النجاة» فقال له رجل: أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال: نعم، وما هو خير منه.

---

(١)، (٢) سورة الحشر (٩).

ولَمَّا أتى بسبايا طيء، وقفت جارية في السبي فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب فإني بنت سيد قومي وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني ويشبع الجائع ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا بنت حاتم الطائي، فقال رسول الله ﷺ «يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً ولو كان أبوك مؤمناً لترحمنا عليه، خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق».

فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله «آالله يحب مكارم الأخلاق؟» فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق»

وأما الشعبة الثانية، وهي «إقراء السلام» فلها - كذلك أبعد الآثار في حياة الفرد والمجتمع وفي دنيا الإنسان وآخرته.

إن إقراء السلام هو تحية الإسلام التي تميز بها هذا الدين الحنيف. قال الله تعالي: ﴿وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾(١)

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية قد وردت في السلام، وهي تدل على أن الجواب واجب إما بأحسن منه وهو أن يزيد عليه ورحمة الله، فإن قال المسلم: السلام عليك ورحمة الله، زاد في الجواب عليه قوله: «وبركاته» وهي النهاية، وإما أن يرد بمثل تحيته. وقد روى أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ السلام عليك، فقال «وعليك السلام ورحمة الله»

وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: «وعليك» فقال الرجل: نقصتني فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية. فقال ﷺ: «إنك لم تترك لي فضلا فرددت عليك مثله».

والسلام هو تحية الملائكة للمتقين عند دخول الجنة كما قال تعالي ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(٢) وهو أيضاً تحية الختام للقاء الروحي المتكرر في اليوم والليلة خمس مرات في الصلاة.

(١) سورة النساء: آية ٨٦.
(٢) سورة الزمر: آية ٧٣.

والسلام كذلك شعار الإسلام، بالنسبة للدين الإسلامى نفسه، وبالنسبة للإنسان المسلم.

فأما بالنسبة للدين الإسلامى ففيه إظهار الدين وإعلان آدابه وإذاعة صوته وتحيته وندائه، وإشاعة الأمان الذى يستهدفه، والرحمة التى هى جوهره، والبركة التى تعود على المتمسكين به المعتصمين بحبل الله جميعاً.

وأما بالنسبة للإنسان المسلم فهو بإقراء السلام وإفشائه وإلقائه على إخوانه وفى السلام إعلام بأنه مسلم إذا وجد فى بيئة فيها المسلمون وغير المسلمين فهو بالسلام يتعين أمام الناس فيعرفونه ويعاملونه على ذلك، ويتضح أثر إفشاء السلام بالنسبة للفرد فى احترام دينه وصيانة حقوقه يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾(١)

وروى أن سرية غزت أهل فدك فهربوا وبقى «مرداس» ثقة بإسلامه فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى ناحية من الجبل وصعد فلما تلاحقوا به وكبروا كبر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم فقتله أسامة واستاق غنمه فما أقرهم الرسول ﷺ على قتله لأن الرجل شهد الشهادتين وقال: السلام عليكم ولا يعلم ما فى القلوب إلا علام الغيوب.

وفى إفشاء السلام تطبيق لخلق التواضع بين المسلمين، وتأليف لقلوبهم وتصفية للنفوس وغرس للود بين الناس يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له فى المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه» وقال: «أو لا أنبئكم بشىء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»

---

(١) سورة النساء: آية ٩٤.

ما يؤخذ من الحديث

(١) حرص الصحابة على معرفة أمور دينهم ومعرفة أفضل الأعمال للتقرب إلى الله.

(٢) إجابة الرسول ﷺ لكل سائل ولكل جماعة بما يناسبهم ويوافق حالهم.

(٣) أن الإيمان يزيد وينقص بزيادة شعبه ونقصها بالنسبة للمسلم.

(٤) التفاضل بين شعب الإيمان وخصال الخير وأن منها ما هو أفضل من غيره.

(٥) فضل إطعام الطعام وإقراء السلام.

(٦) دعوة الإسلام إلى ما فيه صلاح الفرد والمجتمع.

٧ - بـاب

من الإيمان أنْ يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنَفْسه

١٢ـ حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قال : حَدَّثنا يَحْيَ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أنَس رضى الله عنه عَن النبى ﷺ ، وعن حُسَين المعُلم قال : حدثنا قَتَادَةُ عَنْ أَنَس عن النَّبى ﷺ قال : «لا يُؤْمنُ أَحَدُكمْ حتَّى يحبَّ لأَخيه ما يُحبُّ لنَفْسه» .

١٢ـ يوجه الرسول ﷺ أمته إلى حب الخير ، والتعاون فيما بينهم ، وأن يكونوا على قلب رجل واحد ، وأن تكون المشاركة الوجدانية قاسماً مشتركاً بين قلوبهم ، فيوضح لهم أن كمال إيمانهم إنما يكون حين يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ، فلا يكره النعمة تنزل بأخيه ولا يفرح لحدوث شر أو سوء له ، بل يحب له ما يحبه لنفسه ويكره له ما يكرهه لنفسه .

فلا يكون الإنسان مؤمناً إيماناً كاملاً حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه . وكلمة الخير كلمة عامة تشمل الطاعات والعبادات التى يتقرب بها العبد إلى ربه سبحانه وتعالى ويكون بها من الطائعين ومن المقربين . كما تشمل كلمة الخير الأمور المباحة من الأمور الدنيوية والدينية ، وتخرج الأمور المنهى عنها لأنها لا تدخل تحت كلمة الخير والمحبة المقصودة فى الحديث فى قوله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .

هذه المحبة هى إرادة ما يعتقده الإنسان خيراً . وهى الميل إلى ما يوافق المحب وقد يكون بحواسه كحسن الصورة أو بعقله إما لذاته كالفضل والكمال أو لإحسانه كجلب نفع أو دفع ضر . والمراد هنا الميل الاختيارى دون القهرى ، ومفهوم الحديث أنه يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من السوء ، ولم يُنصّ على هذا فى الحديث لأن حب الشيء يستلزم بغض نقيضه ، وإنما كان حب الخير سبباً لكمال الإيمان ليكون المؤمنون كنفس واحدة ، وذكر الوصف بالأخوة فى الحديث حتى يحب لأخيه ، =

= على سبيل الأغلب الأعم، وإلا فإن المسلم ينبغى عليه أن يحب أيضاً للكافر الإسلام بأن يخرج من كفره وأن يدخل فى دين الله ويهتدى بهدى الله وما يترتب على دخوله الإسلام من الأجر والخير.

ويستهدف الحديث بهذا التوجيه بناء مجتمع إسلامى نقى تنتظم فيه أمور الحياة الإنسانية ويمضى فيه الإنسان بسداد ورشاد وفى تعاون واتحاد مستجيباً لأمر ربه سبحانه وتعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (١)

ولا يتأتى حب الخير للناس إلا إذا تطهر القلب من الحقد والحسد والضغينة والكراهية ومن سائر العلل القلبية التى تفسد الحياة الإنسانية، ولهذا الحديث روايات كثيرة: منها ما يفيد طلب مثل هذا الحب للجار فى رواية «لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ولجاره» وفى رواية أخرى زيادة تفيد أن هذا الحب هو حب الخير، وأن المراد بمَنْ يحب له الخير هو المسلم، وهذا ثابت فى رواية أخرى «حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير».

وهذا كما سبق فى الأغلب ولا يلزم من ظاهر الحديث أن من أتى بهذه الخصلة يكون مؤمناً كامل الإيمان وإن لم يفعل بقية أركان الإيمان لأن الحديث ورد مورد المبالغة كما يفهم من قوله «لأخيه المسلم» أنه لاحظ بقية صفات المسلم. وهذه الخصلة وهى أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه من شُعَب الإيمان وهى داخلة فى التواضع وعدم العلو فى الأرض، كما قال الله تعالى:

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

وهذا يكون بترك الحقد والحسد والغل والغش، ويكون الإنسان المسلم مع أخيه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. وهذا الحديث واضح فى معناه

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٠٣.
(٢) سورة القصص: آية ٨٣.

= وواضح في مبناه لو عمل الناس به لاستراحوا وأراحوا ولما نصبوا المعارك بين بعضهم، ولما تحامل بعضهم على بعض، فلو أحب كل إنسان لأخيه ما يحب لنفسه ما حقد عليه ولا حسده على خير وهبه الله إياه، بل إنه يشكر الله ويحمده صباح مساء هاتفاً من أعماقه «أصبحنا وأصبح الملك لله وحده لاشريك له. اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر». فيحمده ويشكره على النعمة التي تأتيه وعلى النعمة التي تأتي لأخيه، وهذا عنوان محبة الإنسان لأخيه الإنسان.

ما يؤخذ من الحديث

(١) دعوة المسلمين إلى اتباع الخير وتحصيل كمال الإيمان.

(٢) الإرشاد إلى محبة الإنسان لأخيه الإنسان.

(٣) الدعوة إلى توحيد قلوب المؤمنين وتوثيق صلاتهم وعلاقاتهم الإنسانية.

٨ - بـاب

حُبّ الرسُول ﷺ منَ الإيمَانِ

١٣- حدثنا أبُو اليَمانِ قالَ : أخبرنا شُعَيْبٌ قال : حدثنا أبو الزِّنَادِ عَنِ الأعْرجِ عَنْ أبي هُرَيْرةَ رضى الله عنه أن رَسُولَ الله ﷺ قال : « فَوَالذى نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤمِنُ أَحَدكُمْ حتى أكُونَ أحبَّ إليْهِ مِنْ وَالدِهِ وَوَلَدِه» .

---

١٣ - لقد رُوى هذا الحديث أيضاً عن أنسَ رضى الله عنهَ وزاد فى آخره : «والناس أجمعين» .

فى هذا الحديث يوضح رسول الله ﷺ حقيقة هامة فى باب الإيمان حتى يكون الإنسان كامل الإيمان، وهذه الحقيقة هى : (محبة رسول الله ﷺ) لأن محبته تقتضى طاعته فى كل ما جاء به من عند ربه سبحانه وتعالى ، وتقتضى طاعته فى كل ما أمر به وما نهى عنه .

فلا يكمل إيمان العبد حتى يؤثر محبة رسول الله ﷺ على والده وولده والناس أجمعين ، بل ومن نفسه التى بين جنبيه كما فى حديث آخر . وقد أقسم رسول الله ﷺ على هذه الحقيقة بقوله «والذى نفسى بيده» وكلمة اليد فى الحديث من المتشابه .

وهناك المفوّضة : الذين يفوضون الأمر فى مثل ذلك إلى الله تعالى ويقولون : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[1] أى : على وجه التفصيل .

وهناك المؤولة : وهم الذين يؤولون مثل هذه الجوارح فيعينون لها مصرفاً يليق ، كقولهم : المراد باليد القدرة ، وذكر أبو حنيفة أن تأويل اليد بالقدرة ونحو ذلك يؤدى إلى التعطيل ؛ فإن الله تعالى أثبت لنفسه يداً فإذا أولت بالقدرة يصير عين التعطيل ، وإنما الذى ينبغى فى مثل هذا أن نؤمن بما ذكره =

---

(١) سورة آل عمران - الآية (٧) .

الله تعالى من ذلك على ما أراده ولا نشتغل بتأويله ، فنقول: له يد على ما أراده لا كيد المخلوقين وهكذا وإنما أقسم رسول الله ﷺ لتأكيد هذا الأمر الذى يوجه المسلمين إليه ، والمقسم عليه هو قوله : «لا يؤمن أحدكم ..» أى: لا يؤمن إيماناً كاملاً «حتى أكون أحب إليه» أى أكثر محبوبية «من والده» والمراد من له ولادة ، فيشمل الأب والأم ، أو أن المراد بالوالد الأب واكتفى به عن الأم والمراد الأبوان «وولده» أى الذكر والأنثى فكل مولود ولد ذكراً كان أو أنثى ، وقدم الوالد ؛ لأنه الأكثر وجوداً ، فما من أحد إلا وله والد ، ولا عكس ، فليس كل ابن له ابن، أو قدم الوالد تعظيماً له وتكريماً أو لأنه يسبق في الزمان.

وإنما خص الوالد والولد؛ لأنهما أعز شيء على الإنسان ، والمحبة ميل قلبى إلى ما يوافق المحب ، وهى ثلاثة أقسام:

محبة إجلال كمحبة الوالد.

ومحبة شفقة كمحبة الولد.

ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة الناس بعضهم لبعض.

وهذه المعانى كلها تجتمع فى رسول الله ﷺ.

والمراد بالحب : الحب الاختيارى ، المستند إلى الإيمان بأن يؤثر رضاه ﷺ على هوى والده وولده، وليس الحب الغريزى.

إن محبة رسول الله ﷺ تتمثل فى طاعته وفى اتباعه، وذلك علامة على حب الله تعالى كما قال جل شأنه :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [1]وإن تفضيل الآباء أو الأبناء أو سائر أمور الحياة على محبة الله =

(١) سورة آل عمران - الآية (٣١).

= تعالى ورسوله ، يؤذن بالوعيد ، والنهاية التى لا تحمد عقباها ، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١) .

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز القسم على الأمر المهم للتأكيد ، وإن لم يكن هناك مستحلف .

(٢) أن محبة الرسول ﷺ دليل على كمال الإيمان .

(٣) تقديم حب الرسول ﷺ على الوالد والولد والناس أجمعين وعلى كل عزيز فى الوجود .

---

(١) سورة التوبة - الآية (٢٤) .

١٤- حَدَّثَنا يَعْقُوبُ بنُ إِبْراهِيمَ قَالَ: حدَّثنا ابنُ عُلَيَّةَ عن عبْد العَزِيزِ ابنِ صُهَيْب عَنْ أَنَسٍ عن النبيِّ ﷺ، ح وحدَّثنا آدمُ قال: حدَّثنا شُعْبَةُ عن قَتادةَ عَنْ أنَسٍ قال: قال النبيُّ ﷺ: «لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ والدِهِ وولده والنَّاسِ أَجْمعِين».

١٤- لقد ورد هذا الحديث، والذى قبله تحت عنوان ترجم به الإمام البخارى للموضوع بقوله: «بابٌ.. حبُّ الرسولِ ﷺ من الإيمان».

و «اللام» فى قوله «حب الرسول» للعهد، فالمراد به سيدنا محمد ﷺ، للقرينة الواضحة في قوله ﷺ: «حتى أكون أحب إليه.....» وإن كانت محبة رسل الله جميعاً من الإيمان لكن المحبة هنا مختصة بسيدنا محمد رسول الله ﷺ.

وقد وضح الحديث أن كمال الإيمان لا يكون إلا إذا كان الرسول ﷺ أحب للإنسان من والده وولده والناس أجمعين.

وكلمة (والده) معناها: من له ولادة فيشمل الأب والأم أو أن المراد بالوالد (الأب) ويكون الاكتفاء به عن الأم، والمراد به الأبوان فاستغنى بذكر أحدهما عن الآخر. والمراد بقوله: (وولده) الذكر والأنثى وإنما قدم الوالد على الولد، لأنه الأكثر وجوداً فما من أحد إلا وله والد، ولا عكس فليس كل ابن له ابن، أو قدم الوالد تعظيماً له وتكريماً، أو لأنه يسبق الابن فى الزمان والوجود.

وخص الوالد والولد، لأنهما أعز شيء على الإنسان في حياته. والمحبة هي ميل القلب إلى ما يوافق المحب وهى ثلاثة أقسام:

١- محبة إجلال واحترام كمحبة الوالد.

٢- ومحبة شفقة كمحبة الولد.

٣- ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة الناس بعضهم بعضاً، وهذه المعانى كلها موجودة فى رسول الله ﷺ.

والمراد بالحب الحب الاختيارى المستند إلى الإيمان بأن يؤثر رضا رسول الله ﷺ على هوى والده وولده والناس وليس الحب الغريزى.

وأما قوله: «... والناس أجمعين» بعد الوالد والولد فهذا من ذكر العام وعطفه على الخاص.

وهذه المحبة شرط فى صحة الإيمان وكماله، فمن لم يكن كذلك فليس كامل الإيمان، وإلى هذا المعنى يشير قول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى رواه البخارى من حديث عبدالله بن هشام - فى الأيمان والنذور - أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال للنبى ﷺ: «لأنت يا رسول الله أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى» فقال: «لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال له عمر: «فإنك الآن والله أحبُّ إلىّ من نفسى، فقال: «الآن يا عمر».

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن محبة رسول الله ﷺ دليل على كمال الإيمان.

(٢) يجب أن تقدم محبته وطاعته على النفس والولد والوالد والناس أجمعين.

٩ - بـــاب
حـــلاوة الإيمان

١٥- حدثنا محمدُ بنُ المثنى قال : حدثنا عبدُ الوهاب الثقفيُّ قال : حدثنا أيوب عن أبى قلابة عن أنس عن النبى ﷺ قال : «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَد حَلاوةَ الإيمانِ : أنْ يكون اللهُ ورسُوله أحبَّ إليه مما سواهُمَا ، وأنْ يُحبَّ المرْءَ لا يحبه إلا لله، وأنْ يكرهَ أنْ يعودَ فى الكُفْرِ كَمَا يكرَهُ أنْ يُقذَفَ فِى النَّار».

١٥- يصور لنا الحديث خصال الإيمان وأماراته التى إذا تحققت أصاب المسلم حلاوة الإيمان وسعد به ، وحلاوة الإيمان تتجلى واضحة بأن يستلذ المسلم الطاعات ويستعذب الأذى فى سبيل مرضاة ربه ، ويتحمل المشقات فى رضى الله ورسوله ويؤثر ذلك على أعراض الدنيا .

وتظهر محبة العبد لربه ، بقيامه بطاعة الله وفعل أوامره، وتركه لمعصية الله واجتناب نواهيه ، وكذلك الحال بالنسبة لمحبة الرسول ﷺ فهى تظهر باتباعه والاقتداء به، وذلك دليل محبة الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (١) .

وتظهر محبة الإنسان المسلم لأخيه صادقة بعيدة عن أية جهة أو غرض هابط بل يكون رائد هذه المحبة الإيمان بالله ، وهذا النوع من الحب يرفع صاحبه يوم القيامة إلى درجة يستظل فيها بظل ربه يوم لا ظل إلا ظله، ففى الحديث «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» .. ومنهم : «ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه..» .

(١) سورة آل عمران - الآية (٣١) .

= وتظهر محبة الإنسان المسلم لدينه بتمسكه به واعتصامه بحبل ربه وعدم التفريط فى أمر من أوامره أو من نواهيه ، ووقوفه على حمى هذا الدين دفاعاً عنه، ورداً لشبهات المبتدعين ، والمنكرين ، وبحيث يضحى فى سبيله مهما كلفه ذلك كما كان الحال بالنسبة للصحابة والسلف من الصالحين ، فهذا بلال حين عذب ليصرف عن دينه ما زاده ذلك إلا إيماناً وتثبيتاً فكان يجيب على أهل الشرك والعناد الذين يعذبونه بقوله : أحد أحد . ويستعذب العذاب فى سبيل دينه.

يقول الإمام النووى : أصل المحبة : الميل الى ما يوافق المحب ثم الميل قد يكون لما يستلذه الإنسان ويستحسنه كحسن الصورة والصوت والطعام ونحو ذلك ، وقد يستلذه بفعله للمعانى الباطنة كمحبة الصالحين والعلماء وأهل الفضل مطلقاً ، وقد يكون لإحسانه إليه ودفعه المضار والمكاره عنه ، وهذه المعانى كلها موجودة فى النبى ﷺ لما جمع من جمال الظاهر والباطن وكمال خلال الجلال وأنواع الفضائل وإحسانه إلى جميع المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم ، ودوام النعم والإبعاد من الجحيم ، وقد أشار بعضهم إلى أن هذا متصور فى حق الله تعالى، فإن الخير منه سبحانه وتعالى ا. هـ شرح النووى.

ولكن كيف قال ﷺ : «مما سواهما» بضمير التثنية بينه وبين الله عز وجل ، مع أنه أنكر على من فعل ذلك وهو الخطيب الذى قال : «ومن يعصهما فقد غوى» فقال «بئس الخطيب أنت».

ويجاب على ذلك بأن المراد فى الخطب الإيضاح، وأما هنا فالمراد الإيجاز ليحفظ الحديث عنه ، وقال القاضى عياض: وأما تثنية الضمير ههنا فللإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة فإنها وحدها ضائعة لاغية ، وأمر بالإفراد فى حديث الخطيب إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزامه الغواية.

وقيل : إنه من الخصوصيات فتمتنع فى غير النبى ﷺ ولا يمتنع منه لأن غيره إذا جمع أوهم إطلاقه التسوية بخلاف النبى ﷺ فإن منصبه لا يتطرق إليه إيهام

ذلك، ولقد وضح الله تعالى علامة تتميز بها محبة الإنسان لربه سبحانه وتعالى، قال الحسن: قال أصحاب النبى ﷺ « يا رسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً، فأحب الله أن يجعل لحبه علماً فأنزل الله هذه الآية: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (١).

وأهم دلائل الصدق فى المحبة حفظ الحدود، والوقوف على ما أمر الله به والانتهاء عما نهى الله عنه، يقول يحيى بن معاذ: ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده، وسئل رويم عن المحبة فقال: الموافقة فى جميع الأحوال، وقال بعضهم:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه هـذا لعمرى فى القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وقال وهيب بن الورد: بلغنا - والله أعلم - أن موسى عليه السلام قال: يارب أوصنى؟ قال: أوصيك بى، قالها ثلاثاً حتى قال فى الأخرى: أوصيك بى أن لا يعرض لك أمر إلا آثرت فيه محبتى على ما سواها، فمن لم يفعل ذلك لم أزكه ولم أرحمه.

وأما عن محبة الرسول ﷺ فهى كمحبة الله من صميم الإيمان والعقيدة، روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده» وروى أيضاً عن أنس قال النبى ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» وهذا من جوامع كلمه - عليه الصلاة والسلام - فإن المتمعن فى هذا النص النبوى الشريف يرى أنه قد جمع المحبة بأنواعها الثلاثة فمن أنواع المحبة: محبة الإجلال والتعظيم، كمحبة الابن لوالده.

والنوع الثانى: محبة الرحمة والإشفاق كمحبة الوالد لولده.

(١) سورة آل عمران - الآية (٣١).

والنوع الثالث : محبة المشاكلة والاستحسان كمحبة الناس بعضهم لبعض فجمع الرسول ﷺ الأنواع كلها.

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه : وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ ولا أجلّ فى عينى منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له. وإن عمر رضى الله عنه لما سمع هذا الحديث قال : أنت أحب إليّ من كل شىء إلا من نفسى فقال : «ومن نفسك يا عمر» فقال : ومن نفسى. فقال :«ومن نفسك يا عمر» فقال : ومن نفسى. فقال «الآن يا عمر».

وفى حديث آخر يوضح الرسول ﷺ ضرورة أن يحب المرء ما أمر به الله ورسوله ، وأن يكره ما نهى عنه الله ورسوله.

قال ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» بمعنى أن يكون تبعاً لما جاء به من الأوامر والنواهى.

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[2].

وقد ذم الله سبحانه وتعالى من كره ما أحبه الله ، أو أحب ما كرهه الله ، فقال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [3] وقال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [4].

إن أولى أمارات الإيمان محبة الله ورسوله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى المسلم مما سواهما.

أما إن أحب شيئاً ما أكثر من الله ورسوله فله الوعيد الشديد على ذلك حتى ولو

---

(١) سورة النساء : آية (٦٥).

(٢) سورة الأحزاب : آية (٣٦).

(٣) سورة محمد : آية (٩).

(٤) سورة محمد : آية (٢٨).

كان ذلك أباه أو ابنه أو أخاه أو زوجه أو عشيرته أو ماله أو تجارته أو مسكنه قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (١).

وإذا كانت العلامة الأولى تتمثل فى حب الله ورسوله ، أو فى علاقة الإنسان بربه ورسوله ، فإنها تعنى إلى جوار طاعتهما التمسك بكتاب الله العزيز وبسنة الرسول ﷺ .

وأما العلامة الثانية : فإنها تعنى علاقة المسلم بأخيه ، وللعلاقات الإنسانية فى الإسلام وضعها الكريم ووزنها الهام.

وحسبنا فى الدلالة على احترام الإسلام للعلاقات الإنسانية وصيانتها من كل الآفات أن يرتفع الإسلام بمستواها إلى درجة الحب ، وليس الحب فحسب بل الحب المجرد من الأهواء والأغراض ، الحب الخالص لله «وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله».

ولا تقف علاقة المسلم بأخيه عند درجة الحب الخالص فى الله فحسب ، بل إنها تسمو إلى أن تصبح محبة مماثلة لمحبة الإنسان لنفسه . فيقول الرسول ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وهذا يعنى كذلك أن يكره لأخيه ما يكرهه لنفسه .

وقد بيّن الإسلام جزاء هذه المحبة والمكافأة عليها فقال ﷺ : «قال الله تعالى : وجبت محبتى للمتحابين فىّ ، والمتجالسين فى ، والمتزاورين فىّ ، والمتباذلين فىّ».

وقال عليه الصلاة والسلام : «يقول الله تعالى يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى».

ومحبة الإنسان المسلم لأخيه تكون فى الله ولله إذا أحبه وألفه لأنه يحب الله ويطيعه ، أو لأنه يعينه على دينه ويساعده على طاعة الله سبحانه ، أو لأنه يعينه على دنياه التى يستعين بها على أخراه .

وهناك نوع من محبة الإنسان لأخيه لم تأخذ صفة المحبة لله ولكنها مباحة ، =

(١) سورة التوبة - الآية (٢٤) .

= حيث لا يترتب عليها معصية، ولا ما يغضب الله، وذلك كمحبة الإنسان لمن وجد طبعه يميل إليه وتأنس روحه لروحه ويعينه على ما يتمتع به من دنياه فهذا النوع من المحبة طبيعي نفساني مباح وقد لا يخلو من خير.

أما النوع الثالث من محبة الإنسان لأخيه، فهو أن يحبه، لأنه يعينه على الظلم والعدوان، أو المعصية والبهتان فتلك محبة مذمومة، وصحبة كريهة ليست في سبيل الله، وإنما هي في سبيل الشيطان، وتنقلب إلى عداوة في الآخرة، وقد تنقلب أيضاً إلى عداوة في الدنيا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

والعلامة الثالثة: « وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذ الله منه، كما يكره أن يقذف في النار ».

والإنقاذ من الكفر عام يشمل إنقاذه منه ابتداء ومولداً ووجوداً حيث ولد على الإسلام فسار مع فطرة الله الخالصة التي فطره عليها واستمر على الإسلام مؤمناً بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالاسلام ديناً. كما يشمل الإنقاذ من الكفر إنقاذه منه بالخروج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بالله، كما حدث للكثيرين ممن كان غير مسلم ثم اعتنق الإسلام.

وعلى المعنى الأول: يكون قوله: «يعود» على معنى الصيرورة بخلاف المعنى الثاني فإن العود فيه على ظاهره، وقد عدى الفعل «يعود» بـ «في» ولم يعده بـ «إلى» لأنه ضمَّنه معنى الاستقرار كأنه قال: يستقر فيه، ومثله قول الله تعالى: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾ (٢).

وهذه الصفة الثالثة تقتضي التمسك بالإسلام عقيدة وتشريعاً وأحكاماً وآداباً، كما تقتضي الاعتصام بالكتاب والسنة وعدم الانحراف عنهما، وألا يتبع المسلم تلك الأهواء والبدع، ولا ما يفسد عقيدته ودينه مما يهب على المجتمع الإسلامي بين الحين والحين من عواصف الإلحاد ورياح الفتن والفساد. وهذه الصفة تحيط

(١) سورة الزخرف - الآية (٦٧).
(٢) سورة الأعراف الآية (٨٩).

= عقيدة المسلم بسياج من الحفظ والاستمساك بها، بحيث إن المسلم لا يقع فى الكفر، بل إن مشاعره تنطوى على الكراهية لمجرد الرغبة فى العودة، كما يكره أن يقذف فى النار، وكيف لا وفى الكفر نار تحرق اعتقاد الإنسان وتوقعه فى الشر ولهب المعصية وفى الآخرة عذاب جهنم وبئس المصير، فكيف إذاً لا يكره الكفر والرجوع إليه، وذلك يقتضى أيضاً أن يكره كل ما يؤدى إلى الكفر من السبل المتفرقة المتحللة ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[1] وألا يتبع الكافرين والمضلين حتى لا يضلوه عن طريق الخير والرشاد.

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن للإيمان حلاوة يحسها كل مؤمن صادق كامل الإيمان محب لله ولرسوله ولإخوانه ولدينه.

(٢) أنه يجب على المسلم أن يقدم محبة الله ورسوله وطاعة الله ورسوله على كل شيء فى الدنيا، وأن يتمسك بالكتاب والسنة.

(٣) أن تكون علاقة المسلم بأخيه علاقة محبة خالصة لله.

(٤) أن تنطوى مشاعر المسلم على حب لدينه، وتمسك بعقيدته واعتصام بها وغيرة على حدودها.

(١) سورة الأنعام: الآية (١٥٣).

١٠ - باب
علامة الإيمان حبُّ الأنصار

١٦ - حدَّثنا أبو الوليد قال : حدَّثنا شُعْبةُ قال : أخبرني عبدُ الله بن عبد الله بن جَبْر قال : سَمِعْتُ أنساً عن النبيِّ ﷺ قال : «آيةُ الإيمانِ حُبُّ الأنصَارِ، وآيةُ النفاقِ بُغْضُ الأنْصارِ».

---

١٦ - خص الله تعالى أنصار رسوله عليه الصلاة والسلام بهذه المنقبة العظيمة لما فازوا به من استقبال الدعوة الإسلامية واستقبال الرسول ﷺ ومن معه والقيام بشئونهم وتضحيتهم وبذلهم ومواساتهم بالنفوس والأموال ولما قدموه من إيثارٍ جلَّ عن النظير حتى نزل في شأنهم قرآن يتلى ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ (١).

قال الإمام الحافظ ابن حجر : ثم كان ما اختصوا به مما ذكر موجباً للحسد، والحسد يجر إلى البغض، فلهذا جاء التحذير من بغضهم والترغيب في حبهم، حتى جعل ذلك آية الإيمان أو النفاق تنويهاً بعظيم فضلهم، وتنبيهاً على كريم فعلهم وإن كان من شاركهم في معنى ذلك مشاركاً لهم في الفضل المذكور كل بقسطه.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن علي :« أن النبي ﷺ قال له : لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

وهذا جار باطراد في أعيان الصحابة لتحقق مشترك الإكرام لما لهم من حسن العناء في البلاء في الدين. وقال صاحب المفهم :

---

(١) سورة الحشر الآية (٩) .

= «وأما الحروب الواقعة بينهم فإن وقع من بعضهم بغض لبعض فذاك من غير هذه الجهة، بل للأمر الطارئ الذى اقتضى المخالفة، ولذلك لم يحكم بعضهم على بعض بالنفاق، وإنما كان حالهم فى ذلك حال المجتهدين فى الأحكام، للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد.

وفيما رواه البخارى بسنده إلى البراء رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ أو قال : قال النبى ﷺ.

«الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله».

وعن هشام بن زيد قال سمعت أنس بن مالك يقول :

«مر أبو بكر والعباس- رضى الله عنهما - بمجلس من مجالس الأنصار رضى الله عنهم وهم يبكون فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبى ﷺ منا فدخل على النبى فأخبره بذلك قال: فخرج النبى ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد قال : فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتى وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » رواه البخارى.

ومعنى « كرشى » أى : بطانتى وخاصتى. ومعنى «عيبتى» أى: ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده، يريد أنهم موضع سره وأمانته، وهذا يشير إلى ما وقع لهم ليلة العقبة من المبايعة .

فإنهم بايعوا على أن يؤوا النبى ﷺ وينصروه على أن لهم الجنة فوفوا بذلك.

وعن زيد بن أرقم قال قال رسول الله ﷺ :«اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» رواه مسلم.

إن مكانة أصحاب رسول الله ﷺ شهدت بها آيات القرآن وأحاديث الرسول =

= ﷺ ، فهم شهود هذا الدين وحملته ونقلته ، وحبهم وحب الأنصار الذين آووا ونصروا علامة على صدق إيمان المؤمن، كما أن بغضهم علامة على النفاق نفعنا الله بحب أصحابه واتباع سنتهم والاقتداء بهديهم ووقانا شانئيهم، ووفقنا الله إلى سلوك طريق الصحابة آمين .

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل الأنصار ومكانتهم فى الإسلام.

(٢) أن حب الأنصار علامة على كمال الإيمان وبغضهم علامة على النفاق.

(٣) الدعوة إلى التأسى بالأنصار والاقتداء بصحابة رسول الله ﷺ .

(٤) الترغيب فى حب الأنصار والتحذير من بغضهم.

١١ - باب

١٧ ـ حدَّثنا أَبُو اليَمَان قال : أخبرنا شُعَيْبٌ عن الزُّهرىِّ قال : أخبرنى أبو إدريسَ عَائذُ الله بنُ عبد الله أن عُبادَةَ بنَ الصَّامت ـ رضى الله عنه ـ وكَانَ شَهِدَ بدراً ، وهُوَ أحدُ النُّقباء ليلةَ العَقبة ـ أن رسولَ الله ﷺ قال ـ وحولَهُ عصَابَةٌ منْ أصْحابه ـ «بَايعُوني علَى أنْ لاَ تُشركوا بالله شَيْئاً ، ولاَ تَسْرقُوا ، ولا تَزنُوا ، ولا تقتلوا أولادكُمْ ، ولا تأتُوا ببُهْتَان تفتَرُونَه بَيْن أيديكُمْ وأرجُلكُم ، ولا تَعْصُوا في مَعْروف ، فَمَنْ وَفّى منكُمْ فأجرُه عَلَى الله ، ومَنْ أصابَ منْ ذلك شيئاً فَعُوقب فى الدُّنْيا ، فهو كفارة له ، ومَنْ أصابَ من ذلك شيئاً ثُمَّ سَتَره اللهُ فهُوَ إلى الله : إنْ شاء عفَا عَنْه ، وإنْ شاءَ عَاقَبه ، فَبايعْنَاهُ علَى ذلكَ»

---

١٧ ـ لقد أورد الإمام مسلم والإمام البخارى هذا الحديث فى كتاب الحدود وذلك واضح للإشارة فيه إليها ، ولكن أورده البخارى فى الإيمان لأن فى الحديث ما يتعلق بمباحث الإيمان من وجهين :

الأول : أن اجتناب النواهى من الإيمان كامتثال الأوامر .

والثانى : أنه تضمن الرد على من يقول : إن مرتكب الكبيرة كافر أو مخلد فى النار ، كما أورده البخارى فى باب «علامة الإيمان حب الأنصار» وذلك لأنه لما ذكر الأنصار فى حديث قبل هذا الحديث أشار فى الحديث إلى ابتداء السبب فى تلقيبهم بالأنصار ، لأن أول ذلك كان ليلة العقبة لما توافقوا مع النبى ﷺ عند عقبة منى فى المواسم والنقباء جمع نقيب وهو عريف القوم وضمينهم والناظر عليهم ، والعصابة الجماعة من العشرة إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها .

وقد طلب الرسول ﷺ من هؤلاء الأنصار ليلة العقبة أن يبايعوه أى أن يعاهدوه =

= على تلك الأمور المذكورة «ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم» وإنما خَصَّ القتل بالأولاد، لأنه قتل وقطيعة رحم فالنهى عنه أشد وآكد، ولأن قتل الأبناء كان شائعاً مثل وأدهم للبنات وقتلهم للبنين مخافة الفقر، وخص الأبناء بالذكر لأنهم بصدد ألا يدفعوا عن أنفسهم (ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم) ، والبهتان هو الكذب الذى يتحير من عظمه وشأنه يقال : بهت الرجل أى: انقطع وتحير فالبهتان عبارة عن كذب يبهت سامعه، وإنما خص الأيدى والأرجل بالافتراء لأن معظم الأفعال بهما، ويحتمل أن يكون المراد : لا تبهتوا الناس كفاحاً، وبعضكم يشاهد بعضاً كما يقال: قلت كذا بين يدى فلان قال الخطابى: وفيه نظر لذكر الأرجل وقيل ذكر تأكيداً، أو أن المراد بقوله «بين أيديكم» أى فى الحال «وأرجلكم» أى فى المستقبل لأن السعى من فعل الأرجل وقال بعض العلماء: أصل هذا كان فى بيعة النساء وكنّى بذلك عن نسبة المرأة الولد الذى تزنى به أو تلتقطه إلى زوجها ، ثم لما استعمل هذا اللفظ فى بيعة الرجال احتيج إلى حمله على غير ما ورد فيه أولاً.

«ولا تعصوا فى معروف» المعروف هو : ما عُرِف من الشارع حسنه نهياً وأمراً قال النووى: يحتمل أن يكون المعنى ولا تعصونى ولا أحد أولى الأمر عليكم فى المعروف.

وقال بعض العلماء: نبه بذلك على أن طاعة المخلوق إنما تجب فيما كان فى غير معصية الله «فمن وفى منكم فأجره على الله» وفى بالتخفيف والتشديد «ومن أصاب من ذلك شيئاً » فالعقاب فى الدنيا كفارة له، وعلى هذا تكون الحدود كفارات لأصحابها.

وعموم هذا الحديث مخصوص بقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ فالمرتد إذا قتل على ارتداده لا يكون القتل له كفارة ، والحديث دليل على أن الحدود كفارة لأهلها، وأما حديث أبى هريرة «لا أدرى الحدود كفارة لأهلها» فحديث عبادة أصح إسناداً وقيل: يمكن مع هذا الجمع بينهما بأن يكون حديث

= أبى هريرة ورد أولاً قبل أن يعلمه الله ثم أعلمه بعد ذلك ولكن يمنع الجمع أن كانت ليلة العقبة بمنى وهى البيعة الأولى وأبو هريرة إنما أسلم بعد ذلك بسبع سنين عام خيبر فكيف يكون حديثه متقدماً ؟

والحق أن البيعة التى فى الحديث كانت بعد فتح مكة وحصل الالتباس لأن عبادة حضر البيعتين وكانت بيعة العقبة من أجل ما يمتدح به فكان يذكرها إذا حدث تنويهاً بسابقته والحديث لم يهمل المأمورات وإنما ذكرها إجمالاً فى قوله «ولا تعصوا» إذ العصيان مخالفة الأمر .

وإنما نص على كثير من المنهيات دون المأمورات . لأن الكفّ أيسر من إنشاء الفعل ؛ لأن اجتناب المفاسد مقدم على جلب المصالح ، والتخلى عن الرذائل مقدم على التحلى بالفضائل .

ما يؤخذ من الحديث

(١) فى الحديث دلالة لمذهب أهل الحق أن المعاصى غير الكفر لا يُقطَع لصاحبها بالنار إذا لم يتب بل هو فى مشيئة الله خلافاً للخوارج الذين يكفرونه والمعتزلة القائلين بخلوده فى النار ، والأصح أن الحدود كفارات وحديث عبادة متأخر عن حديث أبى هريرة .

(٢) فى الحديث ردّ على الخوارج الذين يُكفِّرون الناس بالذنوب ، وردّ على المعتزلة الذين يُوجبون تعذيب الفاسق إذا مات بلا توبة .

(٣) التحذير من الشهادة بالنار على أحد أو بالجنة لأحد إلا من ورد بشأنه نص من كتاب أو سنة .

(٤) إن إقامة الحدود كفارة للذنب ولو لم يتب الذى أقيم عليه الحد وهو قول الجمهور ، وقيل : لابد من التوبة .

١٢- باب
من الدِّينِ الفِرارُ مِن الفِتَنِ

١٨- حدثنا عَبْدُ الله بنُ مَسْلَمَةَ عَنْ مَالك عَنْ عَبْدِ الرَّحْمنِ بن عبدالله ابنِ عبد الرَّحمنِ بنِ أَبى صَعْصَعَةَ عَنْ أَبيه عَنْ أَبى سَعيد الخُدْرِىِّ أَنَّهُ قال : قال رسولُ الله ﷺ : «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بهَا شَعَفَ الجِبَالِ ، وَمَوَاقِعَ القَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ» .

١٨- يوجه هذا الحديث المسلمين أن يحافظوا على دينهم من الفتن ، وأن الخوف على الدين من الفتن شعبة من شعب الإيمان . ويقرّب الحديث معنى الفرار من الدين بالفتن بما ضربه من مثل يقع بين الناس حين تكون الغنمُ خير مال الإنسان المسلم يتبع بها «شعف الجبال» وهى رؤوس الجبال .

«ومواقع القطر» أى بطون الأودية ، وإنما خص هذين الموقعين بالتمثيل دون غيرهما ؛ لأنهما مظان الرعى .

«يفر بدينه من الفتن» أى : بسبب دينه حفاظاً عليه وحتى لا يفتن بأية فتنة من الحياة الدنيا .

ومعنى «يوشك» : يقرب ويسرع ، أى : أن هذا الأمر قريب للزمن السابق الذى قيل فيه الحديث ، وهو قريب أيضاً فى كل زمن من أزماننا المعاصرة .

ويرى جمهور العلماء أن الاختلاط أولى من الفرار والعزلة ، لما فى الاختلاط من القيام بشعائر الإسلام وتكثير عدد المسلمين ، والتعاون معهم وإغاثة من يحتاج إلى إغاثة ، ويرى البعض أن العزلة أولى لتحقق السلامة بشرط معرفة ما يتعين ، وقال الإمام النووى رحمه الله : المختار تفضيل المخالطة لمن لا يغلب على ظنه أنه يقع فى معصية ، فإن أشكل الأمر فالعزلة أولى .

فالحديث يشير إلى بعض ما يحدث ويكون، فراراً من الفتن، فحيث وقعت الفتنة، ترجحت العزلة لما ينشأ فيها غالباً من الوقوع فى المحذور، وقد تنزل العقوبة بأهل الفتنة فتعم الجميع، كما قال الله تعالى:

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾(١)

هذا إذا رأى فى نفسه أنه ربما يقع فى الفتنة أو يصيبه بسببها شر، أما إذا كان يأنس فى نفسه دفعها والتعاون مع الناس على مقاومتها وعلى الإصلاح فالإقامة له أفضل.

ما يؤخذ من الحديث

(١) المحافظة على الدين وعلى النفس من الوقوع فى الفتن ما ظهر منها وما بطن.

(٢) أن القادر على ردِّ الفتنة عليه أن يدفعها، وأن الخائف من الوقوع فيها عليه أن يحتفظ منها.

اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) سورة الأنفال: (٢٥).

١٣ - باب

قَوْلِ النبىِّ ﷺ : «أنا أَعْلَمُكُمْ باللهِ» ، وأَنَّ المَعْرِفَةَ فِعْلُ القَلْبِ ، لِقَوْلِ اللهِ تعالى : ﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (١) .

١٩ - حدثنا مُحَمَّدُ بنُ سَلاَمٍ قَالَ : أَخبرنا عَبْدَةُ عَنْ هِشَامٍ عَن أَبِيهِ عَنْ عائشة قَالَتْ : «كان رسول الله ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ أَمَرَهُمْ من الأَعْمَال بِمَا يُطِيقُونَ ، قَالُوا : إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِك يا رسول الله ، إِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّر ، فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الغَضَبُ فى وَجْهِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : إِنَّ أَتْقَاكُمْ وأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا» .

١٤ - باب

مَن كَرِهَ أَنْ يَعُودَ فى الْكُفْرِ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فى النَّارِ مِنَ الإِيمَانِ .

---

١٩ - كان رسول الله ﷺ إذا أمر المسلمين بأمر من الأمور أو كلفهم بتكليف من التكاليف الشرعية أمرهم بما يطيقون وما يسهل عليهم فعله دون مشقة أو تعب ، مخافة أن ينقطعوا عن العمل ، ولكى يرغبهم فيما هو أيسر ليستمروا فى العبادة كان عليه الصلاة والسلام يعمل بمثل ما يأمرهم به من التخفيف . ولكنهم كانوا يطلبون من الرسول ﷺ التكليف الشاق ، لظنهم أنهم فى حاجة إلى المزيد والمبالغة فى العمل ليرفع الله درجاتهم وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر إنهم يقولون له : «لَسنا كهيئتك» أى : ليس حالهم مثل حاله ﷺ ، فكان الرسول ﷺ يغضب =

---

(١) سورة البقرة (٢٢٥) .

= حتى يُعرف الغضب في وجهه، لأن حصول الدرجات العلا لا يوجب التقصير في العمل بل الزيادة شكراً لله سبحانه وتعالى على نعمة التوفيق كما جاء في حديث آخر «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وإنما أمرهم الرسول ﷺ بما هو سهل وميسّر عليهم ليستمروا؛ لأن أحب الأعمال ما داوم عليها الإنسان كما جاء في الحديث: «أحب العمل إلى الله أدومه» حتى وإن كان قليلاً، فالقليل المستمر خير من الكثير المنقطع، ومعلوم أن الإسلام هو دين اليسر لا عسر فيه ولا مشقة، وأنه عليه الصلاة والسلام بعث رحمة للعالمين، وجاء بشريعة سمحة لا عُسْرَ فيها ولا حرج ولا مشقة.

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن الإنسان إذا وصل إلى الغاية في العبادة كان عليه أن يستمر في العمل لاستبقاء نعمة التوفيق ويزيد شكراً لله.

(٢) الدعوة إلى التيسير في الأعمال والتكاليف.

(٣) الأفضل في العبادة الاستمرار مع القصد وهذا خير من المبالغة مع الانقطاع.

(٤) محبة الصحابة رضي الله عنهم للإكثار من الطاعات.

(٥) مشروعية الغضب عند مخالفة أمر من الأمور الشرعية.

(٦) جواز التحدث بنعمة الله تعالى على العبد من توفيقه له في العبادة إذا أمن على نفسه من فتنة المباهاة وحب الظهور؛ لأن الرسول ﷺ قال: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا».

(٧) إن الله تعالى اختص سيدنا رسول الله ﷺ بمقام الكمال الإنساني علماً وعملاً، أما جانب العلم ففي قوله: «أعلمكم» وأما جانب العمل ففي قوله: «أتقاكم» صلوات الله وسلامه عليه.

٢٠- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بنُ حَرْبٍ قال: حدَّثنا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَس رضى الله عنه عنِ النبىِّ ﷺ قال: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإيمَان: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْداً لاَ يُحِبُّهُ إلا لله، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِى الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَن يُلْقَى فِى النَّارِ».

٢٠- فى هذه الرواية زيادة على الرواية السابقة لهذا الحديث وهى: «ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى فى النار» وهذا الإنقاذ من الكفر يحتمل وجهين:

الأول: أن يكون الإنقاذ من الابتداء بأن يولد على الإسلام ويستمر على إسلامه وعلى عبادته.

الثانى: بأن ينقذه الله من الكفر بالخروج منه إلى الدخول فى الإسلام.

والحديث يدعو إلى تحصيل حلاوة الإيمان وهى استلذاذ الطاعات وإيثارها على أعراض الدنيا، ويتم تحصيل التمتع بحلاوة الإيمان وسعادتها بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فيؤثر طاعة الله وطاعة ورسوله ﷺ على كل ما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله . قال يحيى بن معاذ: حقيقة الحب فى الله ألا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء.

وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار، ليظل متمسكاً بدينه، محافظاً على عبادته بعيداً عن المعاصى والفتن ما ظهر منها وما بطن، بعيداً عن الكفر وعن أسبابه، وعن كل ما يتصل به.

ما يؤخذ من الحديث

(١) الدعوة إلى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل.

(٢) أن للإيمان حلاوة وسعادة ومتعة قال عنها بعض العارفين: إنَّا فى متعة لو عرفها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف، وهذه السعادة لا يشعر بها إلا أهلها العارفون بالله المحبون له.

(٣) إيثار محبة الله تعالى ومحبة رسول الله ﷺ على كل ما سواهما، وتقديم طاعة الله تعالى وطاعة رسول الله ﷺ على كل عزيز وغالٍ فى الحياة الدنيا.

(٤) محبة المسلم لأخيه محبة صادقة خالصة لوجه الله تعالى لا لغرض دنيوى، ولا لسبب نفعى بل محبة فى الله تعالى.

(٥) التمسك بالإسلام وكراهية العودة إلى الكفر كما يكره أن يُلْقى فى النار، وأن هذا الشعور من الإيمان ودالٌّ عليه.

باب

١٥ - تفاضل أهل الإيمان في الأعمال

٢١ - حدثنا إسْمَاعيلُ قَالَ: حَدَّثَني مَالكٌ عَنْ عَمْرِو بنِ يَحْيى المَازنىِّ عَنْ أَبيه عن أبي سعيد الْخُدْرِىِّ رضي الله عنه عن النَّبى ﷺ قال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّة الجَنَّة، وأَهْلُ النارِ النَّار، ثُمَّ يَقُولُ الله تعالى: أَخْرجُوا مَن كان فى قَلْبِه مثْقَالُ حَبَّة منْ خَرْدلٍ منْ إيمَان، فَيُخْرَجُونَ منْهَا قَد اسْوَدوا، فيُلْقَوْنَ فى نَهْرِ الحَيَا - أَو الحَيَاة شَكَّ مالكٌ فَيَنبُتونَ كَمَا تَنْبُتُ الحبَّةُ فى جَانب السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّها تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيةً.

قَالَ وُهَيْبٌ: حَدَّثَنَا عَمْرٌو: «الحياة»، وقَالَ: «خَرْدل من خَيْرٍ».

---

٢١ - يوضح هذا الحديث تفاضل أهل الإيمان فى الأعمال، وأن القليل من الإيمان يُخرج صاحبه من النار، وأن الناس يتفاضلون فى الآخرة على حسب إيمانهم وأعمالهم.

فمنهم من يدخل الجنة أول الأمر، ومنهم من يدخل الجنة آخر الأمر، وذلك كله على حسب الأعمال، ومنهم من يدخل الجنة بعد أن يدخل النار ويخرج منها وهكذا...

فوضَّح الحديث أن أهل الجنة بعد أن يدخلوا الجنة، وبعد أن يدخل أهل النار النار، يقول الله تعالى: «أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» أى: أخرجوا من كان فى قلبه مقدار أو زنة حَبَّةٍ وهى واحدة الحب المأكول من حنطة ونحوها، «من خردل» وهو نبات معروف يشبه به الشيء القليل، أى: يأمرهم الله تعالى أن يخرجوا من كان فى قلبه أقل قدر من الإيمان، فيخرجون من النار قد =

= اسودّوا فيلقون في نهر الحيا، وهو المطر ، وبه يحصل حياة النبات فهو أليق بمعنى الحياة، أو المراد نهر الحياة بمعنى الماء الذى يحيي من انغمس فيه، «فينبتون كما تنبت الحبة »بكسر الحاء وهي بذرة العشب، أو أن الألف واللام فيها للعهد فيراد بها حبة بقلة الحمقاء لأنها تنبت سريعاً على جانب السيل فيتلفه السيل ثم ينبت فيتلفه السيل ، ولهذا سميت بالحمقاء لأنه لا تمييز لها في اختيار المنبت، أو هي بذور الصحراء مما ليس بقوت.

وفي بعض الروايات (في حميل السيل) وهو ما يحمله السيل من طين ونحوه. أو : هي بذور البقول والرياحين ، ومعنى خروجها صفراء ملتوية أي متثنية ومنعطفة.

ويتضح بهذا أن من مات على التوحيد يدخل الجنة، وأن الله تعالى لا يخلّد في النار العصاة الذين ماتوا على توحيد الله، لأن هذا الحديث أمر الله تعالى فيه بخروج من كان في قلبه أقل الإيمان، فضلاً من الله وإحساناً، ورحمة بعباده الذين ماتوا لا يشركون به شيئاً.

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن الناس يتفاضلون في الآخرة بإيمانهم وبأعمالهم.

(٢) في الحديث ردٌّ على المرجئة الذين يرون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، فلا يدخل العاصي النار.

(٣) وفي الحديث ردٌّ على المعتزلة الذين يرون وجوب خلود العاصي في النار، ففي هذا الحديث ما يوضح أن العاصي لا يخلد في النار بل يخرج منها ويدخل الجنة بأقل الإيمان الذى مات عليه.

(٤) أن الأعمال من الإيمان، لأن الإيمان تصديق بالقلب ، ونطق باللسان، وعمل بالأركان.

٢٢ـ حدثنا مُحَمَّدُ بنُ عُبيْد الله قال : حدَّثنا إِبْرَاهيمُ بنُ سعْد عَنْ صَالحٍ عن ابنِ شـهَـاب عَنْ أَبى أُمـامَـةَ بنِ سَـهْل أَنَّهُ سَـمِعَ أَبَا سَـعيـد الخُـدْرِىَّ يَقُـولُ :قـال رسـولُ الله ﷺ : «بَيْنَا أنَا نَـائِمٌ رأيْتُ النَّاس يُعْـرَضُـونَ عَلَىَّ، وَعَلَيْـهِمْ قُمُصٌ :منْهَـا ما يبْلُغُ الثُّـدِىَّ، ومنْها ما دُون ذلك، وعُـرِضَ عَلَىَّ عُـمَر بْنُ الخطَّاب، وَعلَيْـهِ قَـمِيصٌ يَجُرُّه، قَالُوا : فَما أَوَّلْت ذَلكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ : الدِّين» .

٢٢ـ يوضح رسـول الله ﷺ لأمتـه ما أطلعه الله سبحانه وتعالى عليه فى النوم، ورؤيا الأنبيـاء حق، فـيـقـول (بينا أنا نائم رأيت النـاس يُعرضـون علَىّ وعليـهم قُمُص) وأصل كلمة (بينا) بين فأشبعت الفتحة فصارت ألفاً، ومعنى «يعرضـون على» أى : يظهـرون لى «والثدى» يذكر ويؤنث وهى للمرأة والرجل ومن الناس الذين ظهروا لـه من كـان عليهم قمص تبلغ الثدى ومنهـا دون ذلك وعرض على رسـول الله ﷺ عمـر بن الخطاب - رضى الله عنه - وعليـه قـمـيص يجـره، لطول القميص وكبره وإسباغه على جسمه وزيادته عليه لدرجة أنه يجره، قالوا : فما أوّلت ذلك يا رسـول الله؟ فـأجاب عليـه الصـلاة والسـلام بقـوله :«الدين» أى : أن النـاس يتفـاضلون فى دينهم وإيمانهم وأعمالهم على حسب ما هم عليه من يقين وصدق ومن سلوك وعبادات، وعمل وطاعات .

وإنما جاء هذا التشبيـه البليغ الذى شبّه الدين فيـه بالقـميص ، لأن القـميص يستر عورة الإنسان وجسده ويحجبه من وقوع النظر على عورته، فكذلك الدين يستره من النار ويحجبه عن كل مكروه، فلذا فسّره وأوّله رسـول الله ﷺ بالدين لهذا الاعتبار.

= وإذا كان تأويل القميص بالدين ، فما تأويل جَرّ القميص ؟

الجواب : أن هذا يدل على بقاء آثاره وسننه الحسنة في المسلمين بعد انتقال سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى جوار ربه سبحانه وتعالى، بقيت آثاره الحميدة، ينتفع بها المسلمون ويقتدى بها الناس من بعده.

وهذه خصوصية لسيدنا عمر رضى الله عنه، وهى لا تقتضى أفضليته على سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه، لأن الخصوصية لا تقتضى الأفضلية، وهذه القسمة غير حاصرة، لجواز قسم رابع وهناك أحاديث كثيرة تدل على أفضلية سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

وفى الحديث حث للمؤمنين، على زيادة إيمانهم بزيادة أعمالهم الصالحة، لأنهم يتفاوتون بتفاوت الأعمال.

ما يؤخذ من الحديث

(١) تفاضل أهل الإيمان بتفاضل أعمالهم .

(٢) فضل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومكانته العظيمة فى الإسلام.

(٣)مشروعية تأويل الرؤيا وتعبيرها والاستفسار عنها ممن له علم بتعبيرها.

(٤)جواز الثناء على أهل الفضل إذا لم يؤد إلى إعجاب بالنفس وإنما ليقتدى به.

١٦- باب
الحَيَاءُ مِنَ الإيمَانِ

٢٣- حدثنا عَبْدُ الله بنُ يُوسُفَ قَالَ: أخبرنا مَالكُ بنُ أنَسٍ عَنِ ابنِ شهَابٍ عَنْ سَالم بن عَبد الله عَنْ أبيه «أنّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأنْصَارِ، وهُوَ يعظُ أخَاه في الحَيَاء، فَقَالَ رسول الله ﷺ: دَعْهُ، فإنَّ الحَيَاءَ منَ الإيمَانِ».

٢٣- لقد مرّ رسول الله ﷺ على رجل أى اجتاز عليه وهو يعظ أخاه فى الحياء، فكان ينصحه أو يخوّفه ويعاتبه بأن حياءهُ قد أضرّ به، و«فى» للسببية فكأنه كان كثير الحياء لدرجة أن حياءه كان يمنعه من استيفاء حقوقه، فالإنسان الذى يتخلق بالحياء يمنعه حياؤه أن يطلب حقاً من حقوقه، أو أن يرد على إنسان ربما ألصق به ما ليس فيه أو نال من شخصه، فعاتبه أخوه على ذلك ، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك، أراد أن يُوَجهه ويوجه أخاه ويوجّه الأمةَ بهذا الحديث إلى أنَّ الحياء له أثرهام فى البعد عن الآثام، وتجنب المعاصى والحرام، فقال له النبى ﷺ:

«دعْه فإن الحياءَ من الإيمان» أى: اترك أخاك على هذا الخلق الحميد الذى يتخلق به، ثم بعد أن وجهه إلى أن يترك أخاه على خلق الحياء كما هو، وضح له قيمة الحياء ومنزلته فى الإسلام وأهميته فى حياة الإنسان المسلم فقال: «فإن الحياء من الإيمان» فبيّن السبب فى أهمية التمسك بهذا الخلق، وزاده ترغيباً فيه، وحكم بأنه من الإيمان ، وكما أن الإيمان يمنع المؤمن من العصيان ويوجهه إلى طاعة ربه، فكذلك الحياء يمنع صاحبه من المعاصى ويوجهه إلى عبادة الله سبحانه وتعالى.

وقد جاء التأكيد فى الحديث على بيان كون الحياء من الإيمان بقوله:

= «فإن الحياء من الإيمان» وهذا التأكيد ربما لأن الذى كان ينهى أخاه عن الحياء لم يكن يعلم أن الحياء من مكملات الإيمان، فكان التأكيد لتقرير هذا المعنى عنده وعند أمثاله، أو أن الرسول ﷺ أراد تأكيد أن الحياء من الإيمان لأهمية هذا الخلق وإن لم يكن هناك إنكار لها، لأن الحياء من خصائص الإنسان حتى يرتدع عن محاولة فعل كل ما يريد وقول كل ما يبتغي وارتكاب كل ما يشتهى فلا يكون كالحيوان، ولذلك قلما يرتكب صاحب الحياء فسقاً أو عصياناً، أو يقول زوراً أو بهتاناً.

والإنسان المستحى يخاف أن يُنسب إليه الشر، ولذلك لا يأتى الحياء إلا بالخير، وحكى عن بعض السلف قال: «رأيت المعاصى مذلة فتركتها مروءة، فصارت ديانة» وقد يتولد الحياء من الله تعالى من التقلُّب فى نعمه فيستحى العاقل أن يستعين بها على معصيته. وقد قال بعض السلف: «خف الله على قدر قدرته عليك، واستحى منه على قدر قربه منك»

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن الإيمان تصديق وقول وعمل وأخلاق.

(٢) أن الحياء من شُعَب الإيمان.

(٣) الحث على التخلق بالحياء، لأنه يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصى والرذائل، ويدعوه إلى الطاعة والتحلي بالفضائل.

(٤) الحض على الامتناع عن منكرات الأمور.

(٥) لا تعد النصيحة صحيحة إلا إذا وقعت موقعها.

(٦) التنبيه على زجر ومنع مثل هذا الناصح الذى يمنع غيره من خلق حميد كخلق الحياء.

١٧ - باب

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[١]

٢٤ - حدثنا عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّد المُسْنَدى قال: حدَّثنا أَبُو رَوْحٍ الحَرَمِيُّ بنُ عُمَارَةَ قال: حدَّثنا شُعْبَةُ عَنْ وَاقد بن مُحَمَّد قال: سَمِعْتُ أَبى يُحَدِّثُ عن ابنِ عُمَرَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ: لاَ إله إلاَّ اللهُ وأَنَّ مُحمداً رَسُولُ اللهِ، ويُقِيمُوا الصَّلاَةَ، ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلكَ عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ، إلاَّ بِحقِّ الإِسْلاَمِ، وحِسَابُهُمْ علَى اللهِ».

---

٢٤ - يوجه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - الأمة الإسلامية إلى المحافظة على عقيدتها وعلى توحيد الله سبحانه وتعالى.

كما يوضح لها أن شهادة التوحيد وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة كل ذلك يعصم دم الإنسان وماله «إلا بحق الإسلام» وهذا الحق يتضمن باقى الفروض الإسلامية والأحكام، أى: أن الإيمان وحده دون الأعمال والتكاليف لا يكون كافياً.

وفى هذا ردٌّ على «المرجئة» الذين زعموا أن الإيمان لا يحتاج إلى الأعمال. فقوله ﷺ «إلا بحق الإسلام» يشمل جميع الأحكام «وحسابهم على الله» فى سرائرهم وضمائرهم، وهذا يدل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر والله يتولى السرائر.

---

(١) سورة التوبة: آية ٥.

ومعنى هذا : أن الذى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة يكون دمه معصوماً وماله كذلك إلا بحق الإسلام.

وفى قوله : «أمرت» ما يفيد أن الأمر بهذا من الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه لا آمر للرسول ﷺ إلا الله سبحانه وتعالى.

وأما إذا قال الصحابى : «أمرت» فالمراد به أمر رسول الله ﷺ له.

وإنما أقام المفعول مقام الفاعل لشهرة الفاعل ولتعينه ، إذ لا آمر للرسول ﷺ إلا الله سبحانه وتعالى، وإنما عدل عن التصريح لدعوى اليقين والتعويل على شهادة العقل.

وجاء التعبير بصيغة المفاعلة التى تقتضى اشتراك طرفين فى قوله: «أن أقاتل الناس» ؛ لأن الإسلام ظهر بالجهاد، والجهاد لا يقع إلا بين طرفين، وللحديث رواية أخرى عند النسائى بلفظ: «أمرت أن أقاتل المشركين». وقيل : أريد بكلمة «الناس» عبدة الأوثان دون أهل الكتاب ؛ لأن القتال يَسْقُط عنهم بقبول الجزية، وعلى هذا تكون اللام للعهد. وقال البعض: هو من العام الذى خص منه البعض.

وإنما خص الحديث الصلاة والزكاة بعد الشهادتين، لعظمهما والاهتمام بكل من الصلاة والزكاة فهما أصْلاَ العبادات البدنية والمالية.

والمراد بإقامة الصلاة الإتيان بها كاملة بشروطها وأركانها وخشوعها وخضوعها، كما يراد بالقيام الأداء تعبيراً عن الكل باسم الجزء؛ لأن القيام بعض أركان الصلاة.

وليس المراد بالصلاة جنس الصلاة ، وإنما المراد بها المفروضة ، ثم يوضح الحديث بعد ذلك أن الناس إذا فعلوا ذلك عصموا دماءهم وأموالهم، أي : منعوا =

= دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام وهو شامل لسائر الفروض والتكاليف.

«وحسابهم على الله» وهذا التعبير بكلمة «على الله» يفيد الوجوب ، والله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء وإنما هو على سبيل التشبيه أي : هو كالواجب على الله في تحقق وقوعه.

ومعنى هذا أن من نطق بالشهادتين وأقام الصلاة وآتى الزكاة عصم دمه وماله ولا يحل لأحد أن يعتدي عليه، ولا أن يتعرض له بسوء في نفسه ولا في ماله، لأن هذا الحديث وضح هذه الحقيقة بأجلى معانيها.

ولا يتعارض هذا الحديث مع ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تفيد أن الإسلام لا يُكرِه أحداً على الدخول فيه مثل قوله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[1].

وذلك لأن المراد بالناس: هم أهل الأوثان دون أهل الكتاب وهم مشركو العرب وعبدة الأصنام الذين كانوا ينازلون الإسلام ويتربصون به، أما الدعوة إلى الإسلام فإنها لا إكراه فيها.

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

ما يؤخذ من الحديث

(١) أنّ من أظهر الإسلام وأدى الفروض والأركان يجب الكفّ عنه ولا يتعرض أحد له، فقد عصم نفسه وماله.

(٢) في الحديث دليل على أن الاعتقاد الجازم كافٍ في نجاة صاحبه خلافاً لمن أوجب تعلّم الأدلة، وجعل ذلك شرطاً في الإسلام.

(٣) اشتراط التلفظ بكلمتي الشهادة في الحكم بالإسلام.

(٤) عدم تكفير أهل الشهادتين.

(٥) قبول الأعمال الظاهرة، والحكم بما يقتضيه الظاهر والله يتولى السرائر.

(٦) من أتى بالشهادتين وأقام الصلاة وآتي الزكاة وإن كان لا يؤاخذ لكونه معصوماً، لكنه يؤاخذ بحق من حقوق الإسلام.

(٧) ويرى القاضي عياض أن اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يُوحّد وهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يُقر بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقول لا إله إلا الله إذ كان يقولها في كفره وهي من اعتقاده، فلذلك جاء في الحديث الآخر: «وأني رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة» ولا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ كما جاء في الرواية الأخرى لأبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» (١).

(١) رواه مسلم.

١٨- باب
من قال إن الإيمان هو العمل

لقَول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[١] وقال عدَّةٌ من أَهْلِ العلْمِ فى قَوْله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢] عَـنْ قَوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ الله وقـال: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾[٣].

٢٥ - حدثنا أَحْمَدُ بنُ يُونُسَ ومُوسَى بنُ إِسْمَاعِيلَ قالاَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ ابنُ سَعْد قال: حدَّثنا ابْنُ شهَاب عَنْ سَعِيدِ بنِ المُسَيَّبِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ: أَىُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فقال: «إِيمانٌ بالله ورسوله، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الجِهَادُ فى سَبِيلِ الله، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ».

---

٢٥ - نلاحظ فى هذا الباب أن الإمام البخارى رحمه الله تعالى قد ذكر فى الترجمة قوله: «باب من قال إن الإيمان هو العمل» ثم ذكر بعض الآيات القرآنية الكريمة التى تدل على أن العمل هو الذى ينال به الإنسان الجنة والدرجات العالية فى الآخرة، وأن الإيمان قول وعمل وتصديق، ووضح فى التبويب أن الإيمان من العمل لأن الرسول ﷺ، لما سُئل عن أفضل الأعمال قال: إيمان بالله ورسوله، فجعل الإيمان من العمل.

ودلّ هذا علَى أن الاعتقاد والنطق من جملة الأعمال.

وقدم الجهاد مع أنه ليس ركناً على الحج وهو ركن؛ لأن نفع الحج قاصر غالباً، =

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٧٢.
(٢) سورة الحجر: الآية ٩٢، ٩٣.
(٣) سورة الصافات: الآية ٦١.

ونفع الجهاد متعدّ غالباً، أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين، ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر، فكان أهم منه فقُدّم ، وأما الحج فالواجب منه مرة واحدة، وما زاد فهو نفل.

في هذا الحديث كان هذا السؤال إلى رسول الله ﷺ، من أبي ذر رضي الله عنه سأله عن أي العمل أفضل؟ وقد سئل الرسول ﷺ مثل هذا السؤال عدة مرات من أناس كثيرين وفي أحوال كثيرة وكانت إجابة رسول الله ﷺ تتعدد وتختلف وتتنوع بحسب الحاجة وبحسب الظروف والأحوال. فإنسان يحتاج إلى التوجيه إلى الإيمان والجهاد والحج وآخر يحتاج إلى توجيهه إلى إطعام الطعام وإفشاء السلام وهكذا يتعدد الجواب بتعدد السؤال ويختلف الجواب باختلاف الأحوال والأشخاص الذين يسألون؛ لأن لكل مقام مقالاً ولأن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وسيدنا رسول الله ﷺ هو أفصح الناس وأبلغهم قاطبة، فكان يجيب كل سائل بما يليق بحاله وظروفه وحال الزمان والمكان الذي هو فيه فلما قيل له: أي العمل أفضل؟ أجاب في الحديث الذي معنا بقوله: «إيمان بالله ورسوله» وهذا هو العنصر الأول أو الركن الأول من أركان الإسلام.. ولا صحة لعمل دون إيمان وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل. والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ولما قيل له: ثم ماذا؟ أجاب عليه الصلاة والسلام بقوله «الجهاد في سبيل الله» وهنا نرى أنه حث على الجهاد بعد الإيمان مباشرة، وفي حديث آخر حث على إطعام الطعام وإفشاء السلام وما ذلك إلا لأن الحاجة تدعو إلى الجهاد آنئذ فنبه على الجهاد وهناك الحاجة تدعو إلى التكافل والتضامن وتعاون الناس فيما بينهم، فحثّ على إطعام الطعام وإفشاء السلام.

ومما لا شك فيه أن الجهاد فى سبيل الله تتلخص حكمة مشروعيته فى الدفاع عن الدين وفى تأمين الطريق أمام الدعوة الإسلامية وفى الدفاع عن النفس والوطن والأرض والعرض فهو فى سبيل الله لا صلة له بأساليب السطو والقهر والاستعمار .

والمتتبع لآيات الجهاد فى القرآن الكريم يرى أنها قد خصته فى إطار سليم نقى هو أنه فى سبيل الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1] وللجهاد أنواع فمنه جهاد النفس والشيطان ويتضح تحذير القرآن من شرور النفس ببيان أنها أمارة بالسوء ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[2] كما حذر من كيد الشيطان فى قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾[3] .

وهناك جهاد العصاة والبغاة وأهل الفسوق والبدع وهناك جهاد الكفار . واتفق جمهور المسلمين على أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به من يكفى فى رد المعتدين سقط الطلب عن الباقين وإلاّ أثم الجميع . ويكون فرض عين إذا تقابل الفريقان فيجب على من حضر القتال ويحرم عليه الفرار أو إذا اعتدى الكفار على بلد من بلاد الإسلام أو إذا عين ولي الأمر أحداً للقيام بالقتال أصبح فرضاً عليهم لقول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[4] .

ولما سئل الرسول ﷺ بعد ذلك وقيل له : ثم ماذا ؟ أجاب عليه الصلاة والسلام

---

(١) سورة التوبة آية ١١١ .

(٢) سورة يوسف : آية ٥٣ .

(٣) سورة الأعراف : آية ٢٧ .

(٤) سورة التوبة : آية ٣٨ .

= بقوله « حج مبرور » ومعنى الحج المبرور هو الذى وفيت أحكامه وهو الذى لا إثم فيه ولا فسوق أو هو أن يكون الحاج مطعماً للطعام مفشياً للسلام متعاوناً مع إخوانه ، وهو الذى يعود صاحبه كما ولدته أمه ، وما ذلك إلا لأن الحج الصحيح المبرور هو المقبول وهو الذى لم يخالطه إثم وكان كامل الأحكام مستوفى المناسك لا نقص فيه ولا خلل.

وروى عن جابر قال : يا رسول الله ما برّ الحج ؟ قال : إطعام الطعام وإفشاء السلام فالحج المبرور : هو الذى لم يخالطه إثم ، ولا رياء فيه.

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن الإيمان تصديق وقول وعمل.

(٢) فى الحديث دلالة على أن نيل الدرجات بالأعمال.

(٣) الأفضل هو الإيمان وبعده الجهاد ثم الحج.

(٤) حرص الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين على الاستفسار من رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال ليتقربوا بها إلى الله سبحانه وتعالى.

(٥) توجيه الرسول ﷺ للمسلمين إلى ما يليق بأحوالهم وما يحتاجون إليه.

(٦) فضل كل من الإيمان والجهاد فى سبيل الله ، والحج المقبول.

بـاب
١٩ - إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة

وكَانَ عَلَى الاسْتِسْلاَمِ، أَوِ الخَوْفِ منَ القَتْلِ، لِقَوْلِه تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾[١] فإذَا كَانَ عَلَى الحَقِيقَةِ فَهْو على قَوْلِه جلَّ ذِكْرُهُ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[٢].

٢٦- حدثنا أَبُو اليَمَانِ قَالَ: أَخبرنا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخبرني عَامِرُ بنُ سَعْد بن أَبي وقَّاصٍ عَن سَعْد رضي اللهُ عنه: «أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطًا وسَعْدٌ جَالِسٌ، فَتَرَكَ رسولُ اللهِ ﷺ رَجُلاً، هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ مَالَكَ عَنْ فُلانٍ؟ فَوَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤمناً، فقَالَ: أَوْ مُسْلماً، فَسَكَتُّ قَليلاً، ثُمَّ غَلَبَني ما أَعْلَمُ منْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتي، فَقُلْتُ: مَالَكَ عنْ فُلانٍ؟ فَوَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمناً، فَقَالَ: أَوْ مُسْلماً، ثُمَّ غَلَبَني ما أَعْلَمُ منْهُ، فَعُدْتُ لِمَقَالَتي، وَعَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا سَعْدُ، إِنِّي لأُعْطي الرَّجُلَ وغَيْرُهُ أَحبُّ إِليَّ منْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ في النَّارِ».

ورواهُ يُونُسُ وَصَالحٌ ومَعْمَرٌ وابنُ أَخِي الزُّهْرِيِّ عنِ الزُّهْرِيِّ.

٢٦- وضع الإمام البخاري رحمه الله تعالى هذه الترجمة التي جاءت عنواناً لما أورده من الأحاديث التي توضح أن للإسلام حقيقة شرعية ترادف الإيمان، ويكون الإسلام بذلك هو الدين عند الله النافع لصاحبه كما في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[٢] وواضح أن للإسلام حقيقته اللغوية: وهي بمعنى

(١) سورة الحجرات (١٤). (٢) سورة آل عمران (١٩).

الانقياد والاستسلام وأما حقيقته الشرعية وهى المرادفة للإيمان فهى المرادة فى هذا الحديث.

وفى هذا البيان النبوى يتبين لنا أن الرسول ﷺ أعطى رهطاً، والرهط: عدد من الرجال من ثلاثة إلى عشرة ولا واحد له من لفظه ، ورهط الرجل قومه وبنو أبيه وكان هذا العطاء عندما جاءه رهط فسألوه فأعطاهم فترك رجلاً منهم. وهذا الرجل الذى تركه الرسول ﷺ ولم يعطه هو جعيل بن سُراقَة الضَّمْرى، وقد قال عنه سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه: «هو أعجبهم إلىّ» أى : هو أفضلهم وأصلحهم فى رأيه واعتقاده.

وسأل سعد رضى الله عنه رسول الله ﷺ قائلاً: «مَالَك عن فلان؟» أى ما السبب فى عدولك عن هذا الرجل إلى غيره وأقسم بقوله: «فوالله إنى لأراه مؤمناً» بفتح الهمزة فى (لأَراه) وفى رواية بضمها، فبالفتح أى لأعلمه وبالضم بمعنى أظنه ومما يؤكد الرواية الأولى بأنها بالفتح بمعنى لأعلم قوله بعد ذلك عندما قال له الرسول ﷺ : [«أو مسلماً» فسكتّ قليلاً ثم غلبنى ما أعلم منه].

وفى قول الرسول ﷺ : «أو مسلماً» ما يفيد أن إطلاق كلمة الإسلام على من لم يختبر حاله الخبرة الباطنة أولى من إطلاق كلمة الإيمان، لأن الإسلام يعلم من ظاهر الأعمال والإيمان أمر باطنى لا يطلع عليه ولا على ما فى القلوب إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى.

والحديث يوضح أن رسول الله ﷺ كان يكثر العطاء فى أول عهد الإسلام لمن أظهر إسلامه تألفاً لقلبه وقد أعطى العطاء الكثير لهذا الرهط وكانوا من المؤلفة، وترك «جُعيلاً» وهو من المهاجرين ومن الصالحين؛ وكلّم سعد رسول الله ﷺ فى شأن هذا الرجل الذى لم يعطه الرسول ﷺ.

فبيّن الرسول ﷺ الحكمة فى إعطاء هؤلاء القوم وعدم إعطاء هذا الرجل =

= الصالح مع كونه أحب إليه من الذين أعطاهم وهذه الحكمة هى : أن هؤلاء الناس الذين أراد أن يتألفهم رسول الله ﷺ لو تركهم دون أن يعطيهم لم يُؤْمَن عليهم أن يرتدوا وأن يكونوا من أهل النار، فخاف عليهم فأعطاهم ما أعطاهم تأليفاً لقلوبهم.

كما أرشد الرسول ﷺ سعداً وهو إرشاد لجميع المسلمين إلى التوقف عن الثناء بالأمور الباطنية الخفية كالإيمان والذى محله القلوب وهذا هو الأولى.

وفى الحديث ردٌّ على غلاة المرجئة فى اكتفائهم فى الإيمان بنطق اللسان، وأن النطق باللسان لا يكون كافياً بل لا بد معه من التصديق بالقلب والعمل بالأركان.

ويتضح من هذا الحديث ما يرشد إليه رسول الله ﷺ من عدم الثناء على الغير على سبيل القطع، خاصة فى الأمور التى لا تكون ظاهرة كالإيمان الذى هو تصديق قلبى لا يطلع أحد عليه، ولذلك عندما قال سعد رضى الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ : مالك عن فلان؟ فوالله إنى لأراه مؤمناً، كان عليه الصلاة والسلام يردّ عليه بما ينبغى أن تكون الشهادة أو الثناء على إنسان فيقول عليه الصلاة والسلام ردًّا على سعد رضى الله عنه: «أو مسلماً» وتكرر هذا مرة ثانية وثالثة، وكان التكرار من سعد دافعه ما كان يعلم عن هذا الصحابى الذى لم يُعطه الرسول ﷺ من صلاح وتقوى، ولذا كان يقول: «ثم غلبنى ما أعلم منه». وفى هذا ما يوضح الفرق بين الإسلام والإيمان وحقيقة كل منهما، وأنه ليس لأحد أن يقطع بالإيمان الكامل لأحد لم يَرِدْ نصٌّ عليه من كتاب أو سنة.

وقد وضّح الحديث حقيقة أخرى هامة وهى الحكمة فى إعطاء هؤلاء الذين أعطاهم، وعدم إعطاء هذا الصحابى، هذه الحكمة تتلخص فى تأليف قلوب الذين أعطاهم الرسول ﷺ ، فلو لم يعطهم قد يرتدون عن الإسلام ويصبحون خارجين عنه فتكون نهايتهم أليمة وهى النار وبئس القرار، فأعطاهم ليتألف قلوبهم أما الصحابى

= الذى لم يعطه وهو «جعيل» مع كَوْنِهِ أحبَّ إليه ممنً أعطاهم فإنه لا يخشى على إيمانه ولا على عقيدته. ويتضح كل هذا من قوله صلوات الله وسلامه عليه:

«يا سعد إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىّ منه؛ خشية أن يكبَّه الله فى النار» أى خشية أن يلقيه منكوساً فى النار ويقلبه، يقال: أكبّ الرجل، إذا أطرق، وكبّه غيره إذا قلبه وبهذا تتضح الحكمة فى إعطاء الرهط وعدم إعطاء الرجل المذكور وهو «جعيل» وقد ذكر اسمه الواقدى.

ما يؤخذ من الحديث

(١) من مناهج الدعوة الإسلامية وأساليبها تأليف القلوب للإسلام ومن ظواهر التأليف ما يكون من عطاء لمن يخشى عليهم الرجوع عن الإسلام.

(٢) جواز الحلف على غلبة الظن لأن الرسول ﷺ لم ينْه سعداً عندما حلف قائلاً: «فوالله إنى لأراه مؤمناً».

(٣) النهى عن الثناء بالأمر الباطن الذى لا يعلمه إلا علاّم الغيوب.

(٤) الرد على غلاة المرجئة فى اكتفائهم فى الإيمان بنطق اللسان.

(٥) جواز تصرف الإمام أو الحاكم أو المسئول فى مَال المصالح وتقديم الأهم فالأهم، وإن خفى ذلك على بعض الرعية، أو بعض الذين يكونون معه.

(٦) جواز التقدم بالشفاعة للحاكم أو الإمام أو المسئول فى الأمر الذى يعتقد الإنسان جواز الشفاعة فيه.

(٧) يجوز للصغير أن يُنَبِّه الكبير إذا رَأى أمْراً ربما يكون قد نسيه وجواز مراجعة المشفوع إليه إذا لم يؤدّ هذا إلى مفسدة.

(٨) النصيحة فى السر أفضل منها فى الجهر.

(٩) الأمر بالتثبت وترك القطع بما لا يعلم فيه القطع.

(١٠) فى الحديث دلالة على وضوح الفرق بين الإسلام والإيمان.

باب
٢٠ - إفشاء السلام من الإسلام

وَقَالَ عَمَّارٌ: ثَلاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإيمانَ: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسكَ، وَبذْلُ السَّلاَمِ للْعَالَمِ، والإِنْفَاقُ من الإِقْتَارِ.

٢٧ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عنْ يَزيدَ بن أبى حبيبٍ عَنْ أَبى الخَيْرِ عن عبْد الله بن عمْرٍو «أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رسولَ الله ﷺ: أَىُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وتَقْرأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرفْت وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ».

---

٢٧ - المراد بإفْشَاء السلام هو نشره سراً أو جهراً، ثم قال البخارى رحمه الله تعالى: وقال عمار: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصافُ من نفسك، وبَذْل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار».

أى أن هناك ثلاث خصال من حصلن فيه وأصابهن فقد جمع الإيمان، الإنصاف من النفس، وبذل السلام للعالم والإنفاق من الإقتار أى من القلّة والافتقار.

أما عن الإنصاف من النفس فلأن الإنسان إذا اتصف بالإنصاف كان قائماً بما يجب عليه أن يقوم به وكان منتهياً عن كل ما يسىء إليه، فلا يترك لمولاه حقاً واجباً عليه إلا قام به وأدّاه على أكمل وجه، ولا يترك شيئاً مما نهى الله عنه إلا كان منتهياً عنه وهذا يجمع الإيمان بلا شك؛ لأن الإيمان تصديق وقول وعمل.

وأما بَذْلُ السلام: فإنه يتضمن التعارف فيحدث به التآلف بين الناس والتحاب والتواصل، كما يدلّ على مكارم الأخلاق، والتحلى بالفضائل والتخلق بالتواضع وعدم الاحتقار.

وأما الإنفاقُ من الإقتار: فلأن الذى ينفقُ وقد وسّع الله عليه وهو ذو مال كثير فأمره عادى وطبيعى أما إذا كان مُقتراً وفقيراً وينفق فهذا الإنفاق حينئذ يكون =

متضمناً غاية الكرم، لأنه ينفق مع الاحتياج ومن أنفق مع الاحتياج والإقتار فإنه مع التوسع يكون أكثر إنفاقاً، والإنفاق يشمل ما يكون على الأهل والأبناء والإنفاق والواجب والمندوب وسائر وجوه البذل والعطاء.

ولا ينفق الإنسان من إقتار إلاَّ إذا كان واثقاً في ربّه سبحانه وتعالى وأنه يخلف على المنفقين، كما أن الإنفاق من الإقتار يدل على زُهْدِ صاحبه في الدنيا ويتضح من الحديث أن أفضل خصال الإسلام خصلتان :

أما الأولى: فهي إطعام الطعام، ولا شك في أن الإطعام أداء للإنفاق، والإنفاق من دلائل الإيمان والتقوى، وذلك في كل الأحوال في العسر واليسر وفي السراء والضراء، كما قال الله تعالى في صفات المتقين: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [1].

كما أن في الإطعام أداءً للصدقة، والصدقة كما قال رسول الله ﷺ : «والصدقة برهان» [2] فهي دليلٌ قاطع، وبرهان ساطع، على صدق إيمان صاحبها.

وإطعام الطعام ليس إنفاقاً وصدقة عادية بل تمثلت في الإطعام الذي به قوام الحياة والناس أشدُّ حاجة إليه فهو من الضروريات التي لا يستغني الناس عنها.

وإلى جانب كل ما سبق فإن في هذه الفضيلة التي تتمثل في الإطعام معنى التواصل بين الناس، والتكافل والاجتماع معاً على الطعام وفي هذا من معاني الألفة والمحبة والتعاون ما لا يخفى على أحد. كما أن الإطعام وَرَدَ عاماً دون تقييد ليشمل كل أنواع التعاون في إطعام الطعام للفقير والقريب والبعيد والغريب والجار إلى غير ذلك من الأنواع.

وعبَّر بالإطعام دون الأكل؛ ليشمل كل أنواع الإطعام من أي أكل أو شرب أو ذوق ونحو ذلك.

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٣٤ (٢) رواه مسلم، وهذا جزء من حديث أوله : «الطهور شطر الإيمان ..» إلخ.

= وأما الثانية : فهى إقراء السلام على من عرفه الإنسان ومن لم يعرفه ، فالسلام هو تحية الإسلام التى تميز بها هذا الدين ، والسلام تحية الملائكة للمتقين عند دخول الجنة . وهو شعار الإسلام .

وفى تطبيق هذه الفضيلة تطبيق لخلق التواضع بين المسلمين وتأليف للقلوب .

وإنما قال : «وتَقْرأ السلام» ولم يقل : وتُسلّم ، حتى يشمل السلام الذى يحقّقه شفهيًا والسلام الذى يبعث به ضمن كتاب يكتبه لصاحبه ، ومن ذلك مثلاً إذا قال أقرئه السلام ، أى : اجعله يقرأه .

وجاء التوجيه النبوى بإقراء السلام على من عرفه الإنسان ومن لم يعرفه ، فلا يخص بالسلام أحداً معيناً لمعرفته له أو قرابته منه ، أو لارتباطه به بأى سبب من الأسباب ، ولا يخص بسلامه أحداً معيناً تكبراً على سائر الناس فلا يسلم عليهم مُقتصراً على من يعرفه فقط ، بل عليه أن يُعمِّمَ فى السلام جميع الناس ؛ لأن جميع المؤمنين إخوة يتساوون فى أخوتهم التى ربط الإسلام بينهم بها ، ومن مراعاة حقوق هذه الأخوّة ، أنه إذا لقى أخاه المسلم فعليه أن يسلّم عليه .

وهذا العموم فى السلام على جميع من عرف ومن لم يعرف مخصوص بالمسلمين ، وهذا التخصيص أو التقييد جاء فى حديث آخر ، بألاَّ يسلم ابتداء على الكافر وذلك فى قول رسول الله ﷺ : «لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، فإذا لقيتم أحدهم فى الطريق فاضطروه إلى أضيقه»[1] وأشار الحديث بهاتين الخصلتين إلى سائر الخصال الأخرى المالية والبدنية فكأنه جمع بين الفضائل المالية بإطعام الطعام والبدنية بإقراء السلام .

---

(١) رواه مسلم والبخارى فى الأدب المفرد .

ما يؤخذ من الحديث

(١) فيه دلالة على أن نفقة المعسر على عياله أعظم أجراً من نفقة الموسر.

(٢) فضل إطعام الطعام وإفشاء السلام وأن هاتين الخصلتين من أفضل خصال الإسلام.

(٣) أن العمل من الإيمان، وأن من أفضل شعب الإيمان وأعماله «الإطعام وإفشاء السلام».

(٤) ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من الحرص على معرفة أفضل العبادات والفضائل ليتنافسوا عليها.

(٥) أن الإسلام عقيدة وعمل وسلوك وأخلاق وأنه يوجِّه أتباعه إلى كل ما فيه تواصل بينهم وتكافل اجتماعى وألفة ومحبة بين القلوب.

باب
٢١ - كفران العشير وكفر دون كفر

فيه عَنْ أبي سَعيد الخُدْرِيِّ عَنِ النبيِّ ﷺ

٢٨ـ حَدَّثَنا عَبْدُ الله بنُ مسْلمَة عن مَالك عَنْ زَيْد بن أسْلَمَ عنْ عَطاء بن يَسَارٍ عَنِ ابن عَبَّاسٍ قال: قال النبيُّ ﷺ: «أُريتُ النَّارَ فإذا أكْثَرُ أهْلهَا النِّساءُ يكْفُرْنَ قيلَ: أَيَكْفُرْنَ بالله؟ قال: يَكْفُرْنَ العَشيرَ، ويَكْفُرْنَ الإحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رأَتْ منْكَ شَيْئاً قَالَتْ: مَا رأيْتُ منْكَ خَيْرا قَطُّ».

٢٨ـ كما تسمى الطاعات إيماناً، لأن الإيمان يشتمل عليها وعلى التصديق القلبي والنطق باللسان، فكذلك المعاصي تسمى كفراً، ولكن لا يراد بكلمة «الكفر» الذي يُخرج صاحبه من الدين والملّة بل كما ذكر في ترجمة الباب «كفر دون كفر» وذكر «كفران العشير» وهو الزوج وخصه بالذكر دون سواه من بين أنواع المعاصي والذنوب الأخرى؛ لأن له حقاً كبيراً أشار إليه الرسول ﷺ في قوله: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تَسْجُدَ لزوجها» فلما كان للزوج هذا الحق العظيم على زوجته حيث قَرَنَهُ الرسول ﷺ بحق الله تعالى، فمعنى هذا أن المرأة إذا كفرت حق زوجها دلّ هذا على تهاونها في حق ربها سبحانه وتعالى فلذلك أطلق على ذلك كفراً ولكنه لا يخرج عن الإسلام والملة، وللحديث طرق أخرى منها حديث أبي سعيد الذي رواه البخاري في الحيض وغيره وفيه قوله: «تصدّقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار، فقلن: ولِمَ يارسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير» الحديث.

= وقد وضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى هذا الحديث أن الله سبحانه وتعالى أراه النار، بأن خلق الله له إدراكاً خاصاً به أدرك به النار كما أدرك أيضاً الجنة على حقيقتهما يقول: «فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن» وفى رواية أخرى «بكفرهن» أى بسبب كفرهنّ.

قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، وهو الزوج؛ لأنه المعاشر، « ويكفرن الإحسان» والمراد به جحده، وهذا الوعيد على كفران العشير وكفران الإحسان، يدل على أنهما من الكبائر «لو أنفقت إلى إحداهن الدهر» أى: مدة عمر الإنسان أو الزمان كله، وليس الخطاب فى الحديث لشخص معين بل هو لكل من يتأتى منه أن يكون مخاطباً.

«ثم رأت منك شيئاً» ورد بالتنوين وفيه التقليل أى: رأت شيئاً قليلاً أو حقيراً، لا يوافق رغبتها ومزاجها ولا يعجبها.

« قالت: ما رأيت منه خيراً قط» وهو ظرف زمان لاستغراق ما مضى، واللاتى فى النار هن المتصفات بالرذائل الذميمة.

وما دام هذا الكفران للعشير وللإحسان من أسباب دخول النار، فيدل هذا على تحريم كفران الحقوق والنعم، كما يدل هذا الوعيد بالنار على أن هذا العصيان وكفران الحقوق الزوجية من الكبائر فعلى كل زوجة أن تجتهد فى حسن الألفة والمعاشرة مع الزوج حتى تستقر الأسرة وتنهض.

و «أل» فى «العشير» للعهد فالمراد به الزوج ويصح أن تكون للجنس أى جنس العشير بمعنى المعاشر مطلقاً، وذلك بكفران إحسانه وجحوده فالجملة الثانية «ويكفرن الإحسان» كالبيان والتفسير للجملة السابقة عليها.

= ويدل هـذا الحـديث على أن المعاصى تنقـص الإيمـان وتقـلّله ؛ لأنـه جـعـل هـذه المخـالفـة كـفـراً وإن كـان ليس بالـكـفـر الموجـب للخـلـود فى النـار ، كـمـا دل الحـديث على أن الإيمـان يزيـد بالأعـمـال ، حـيث دل ذلك عـلـى أن إيمـانهن يـزيـد بشكر العشـير .

ولنا تـوجيـه فى فـهـم هـذا الحـديث الذى قـد يتـبـادر للفـهم من ظـاهره سـوء طبيـعة المرأة ، ومـا خلقت به وجبلت عليه ممّا ورد فى الحديث من كفـران العشير ، وجحـود إحسـانه لمجرد أن رأت المرأة ـ مثلاً ـ من زوجـها شيئاً قليلاً لا يوافق رغبتـها ولا يعجبـهـا ، فتنكـر كل شىء ، وتعلن أنهـا ما رأت من زوجـهـا خيـراً قط ، هذا الذى يتبـادر للأذهان من أول وهلة يحتـاج إلى أن نوجـهـه إلى بعض النسـاء وليس لكل النسـاء ؛ لأن من بين النسـاء ، مَنْ هُنَّ ذات إيمان صـادق ، وصـلاح وتَقْوى ، وشكر للزوج وعـرفـان بحـقـه ، ومنهن الكثيـرات من فـضـليـات نسـاء العالمين ، وأمـهـات المؤمنـين ، والصـالحـات القـانتات ولكن الحديث هنـا يشـير إلى بعـضـهن من اللاتى يتصفْن بمثل ذلك من الصـفـات الذميمـة كالتى ذُكرَت ، بل روى فى حـديث جابر رضى الله تعـالى عنـه مـا يدل عـلى أن المرئى فى النـار من النسـاء ذات الصـفـات الذميمة ولفظه :

« . . وأكثر من رأيت فيـها من النساء اللاتى إن أؤتمنَّ أفْشَيْن ، وإن سُئلْنَ بخلْن ، وإن سَألْنَ ألْحَفْنَ ، وإن أُعطينَ لمَ يشْكُرْنَ » .

ما يؤخذ من الحديث

(١) حث الأعلى للأدنى على الطاعة وتوجيهه للهداية والبعد عن كل ما ينقص الإيمان من الجحود والعصيان.

(٢) للمتعلم أن يسأل العَالِمَ ويراجعه فيما لم يتضح له من المعنى.

(٣) جواز أن يطلق الكفر على من كفر النعمة وجحدها.

(٤) أن الإيمان يزيد بزيادة الأعمال الصالحة وأن المعاصى تنقص الإيمان.

(٥) أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان لقوله ﷺ : « .. أُريتُ النار .. »

(٦) النهى عن جحود الحقوق والنعم وكفرانها وأنها حرام؛ لأنه لا يدخل النار إلاّ بارتكاب الحرام، بل إن الوعيد الوارد يفيد بأن كفران العشير والإحسان من الكبائر.

(٧) فى الحديث دلالة على عِظَم حقِّ الزوج على زوجته.

باب

٢٢ - المعاصى من أمر الجاهلية ولا يُكفَّر صاحبها بارتكابها إلاّ بالشرك

لقَوْل النبيِّ ﷺ : إنَّكَ امْرؤٌ فيكَ جَاهليةٌ ، وقَوْل الله تَعَالَى ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يَغْفرُ أَن يُشْرَكَ به ويَغْفرُ مَا دُونَ ذَلكَ لمَن يَشَاءُ ﴾[١]

٢٩ـ حدثنا سُلَيْمَانُ بنُ حَرْب قَالَ : حدَّثنا شُعبةُ عَنْ وَاصلٍ الأَحْدَب عَن المَعْرُور قال : لَقيتُ أَبَا ذَر بالرَّبَذَة ، وعليه حُلَّةٌ وَعلى غُلامه حُلَّةٌ ، فَسأَلْتُهُ عَنْ ذَلكَ ، فقال : إنِّى سَابَبْتُ رجُلاً ، فَعيرْتهُ بأمِّه ، فقال لي النبيُّ ﷺ : «يا أَبَا ذَرٍّ أَعيَّرْتَهُ بأُمِّه ؟ إنَّكَ أمْرؤٌ وفيكَ جَاهليّةٌ ، إخْوانُكُمْ خَوَلُكُمْ جعَلَهم اللهُ تَحْتَ أَيْديكُمْ ، فَمَنْ كان أَخُوهُ تَحْتَ يده فَلْيُطْعمْهُ ممَّا يأكُلُ ، وَلْيُلبسْهُ ممَّا يَلْبَسُ ، ولا تُكلّفوهُمْ مَا يَغْلبُهمْ ، فَإنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فأَعينُوهُمْ» .

٢٩ـ هذا العنوان لهذا الباب ، يفيد أن المعاصى من صفات الجاهلية وهى ما قبل الإسلام ، ولا يكون مرتكب المعاصى كافراً سواء كان عاصياً بترك واجب أو بفعل محرم ، إلا إذا أشرك بالله فالشرك بالله هو أكبرها وأخطرها ولا يغفره الله ؛ لقوله سبحانه ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يَغْفرُ أَن يُشْرَكَ به وَيَغْفرُ مَا دُونَ ذَلكَ لمَن يَشَاءُ ﴾ [١] وفى الحديث السابق ورد إطلاق الكفر على المعاصى على سبيل المجاز لأن المراد كفران النعمة وجحودها وليس الشرك بالله تعالى ، وهنا وفى هذا الباب أراد توضيح أن المعاصى لا تخرج صاحبها عن الملّة ، خلافاً للخوارج الذين يُكفِّرون بالذنوب .

ففى قول الرسول ﷺ لأبى ذر «فيك جاهلية» معناها خصلة جاهلية من خصالها ، قال المعرور وهو ابن سويد : لقيتُ «أبا ذرّ» وهو جُندب بن جُنادة الغفارى ، وهو من السابقين إلى الإسلام ومن الصحابة الزاهدين «بالربذة» على ثلاث مراحل من المدينة .

---

(١) سورة النساء (٤٨ ، ١١٦) .

لقيه بالربذة وعليه حلة وهى عبارة عن قطعتين وسميت بذلك لأن كل قطعة تحل على الأخرى، ورأى على غلام أبى ذر حلة أيضاً فسأل أبا ذر عن تساويه بغلامه فى لبس الحلة ، والسبب فى هذا السؤال، أن العادة جرت بأن ثياب الغلام دون ثياب سيده.

فأجاب أبو ذر على هذا التساؤل ووضح السبب فى مساواته بغلامه وهو أنه كان قد تناول بالسب أى الشتم رجلاً فعيره بأمه قال أبو ذر: «إنى ساببت رجلاً فعيّرتُه بأمه» أى نسبه إلى العار، وكانت أم هذا الرجل أعجمية، فنال منها وفى رواية فقلت له: يا ابن السوداء فقال له النبى ﷺ (يا أبا ذر أعيرته بأمه) وهذا استفهام إنكارى توبيخى (إنك امرؤ فيك جاهلية) ولعل ما حدث من أبى ذر كان قبل أن يعرف تحريم مثل هذه الأمور فكان هذا التصرف منه باقياً فيه من خصال الجاهلية، وروى أن الرجل المذكور الذى عيّره أبو ذر هو بلال المؤذن رضى الله عنه، وروى أنه لَمَّا شَكَاهُ بلال إلى رسول الله ﷺ قال له: شتمت بلالاً وعيرته بسواد أمه؟ قال: نعم قال: حسبت أنه بقى فيك من كبر الجاهلية، فألقى أبوذر خده على التراب ثم قال:(لاَ أَرْفَعُ خدِّى حتى يطأ بلال خدى) بقدمه وروى: فوطىء خدَّه.

ثم وجه رسول الله ﷺ توجيهاً شاملاً لعامة المسلمين قائلاً: «إخوانكم خولكم» أى : إخوانكم فى الإسلام أو من جهة أبوة آدم، ومعنى «خولكم» خدمكم أو عبيدكم.

(جعلهم الله تحت أيديكم) أى : أنتم مالكون لهم، ولكم عليهم القدرة (فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مِمَّا يأكُل ولْيلْبسْه مما يلبس) بمعنى أن يأكل من الذى يأكل منه، ومن الذى يلبسه، و«من» للتبعيض فإذا أطعم عبده مما يقتاته كان قد أطعمه مما يأكله ولا يلزمه أن يطعمه من كل مأكوله بصفة عامة ولكن يستحب ذلك ، ثم نهى الحديث عن تكليفهم بما يعجزون عنه وهو نهى تحريم، فإن كلفوهم بشىء مما يصعب عليهم ويغلبهم فعليهم أن يُعِينُوهُمْ، ويلحق بالعبد فى هذه الأمور: الأجير والخادم والدابة.

وواضح من التَّعبير بصيغة المفاعلة فى الحديث (ساببت) أنه وقع بين أبى ذر وبين غلامه سباب وفى رواية مسلم: قال:أعيرته بأمه فقلت : من سب الرجال

سبوا أباه وأمه قال : « إنك امرؤ فيك جاهلية » أى : خصلة من خصال الجاهلية .

وقد وعى أبو ذر هذا التوجيه النبوى تماماً فكان بعد ذلك يساوى غلامه فى الملبوس وغيره أخذاً بالأحوط وبالأكمل فى المساواة وهذا هو الأفضل .

ولكن الحديث أراد المواساة لا المساواة ، وذلك يستفاد من التعبير بقوله (فليطعمه مما يأكل) أى : من جنس ما يأكل ومن جنس ما يلبس و (من) للتبعيض فإذا أطعم عبده من بعض ما يقتاته كان قد أطعمه مما يأكله ولا يلزمه الإطعام من الكل .

وفى هذا التوجيه النبوى الحكيم دعوة للمعاملات الإسلامية الرحيمة البعيدة عن القسوة أو الظلم ، وإرشاد للناس بأنهم سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وكلهم لآدم وآدم من تراب وأكرمهم عند الله أتقاهم فلا يصح أن يعير أحدٌ أحداً ، ولا أن يسب أحد أحداً ، حتى ولو كان عبداً أو من فى حكمه كالخادم أو الأجير بل عليهم أن يقيموا العدل بينهم وألا يسبوهم أو يكلموهم كلاماً جارحاً لمشاعرهم وعليهم أن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون وألا يكلفوهم الأعمال الشاقة التى يصعب عليهم أن يقوموا بها فإذا كلفوهم عليهم أن يعينوهم .

ما يؤخذ من الحديث

(١) الدعوة إلى المساواة بين الناس وأنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

(٢) الرحمة بالعبيد والأجراء والخدم وعدم تكليفهم ما لا يطيقون .

(٣) النهى عن سب العبيد ومن فى معناهم كالأجير والخادم والنهى عن تعييرهم بآبائهم أو أمهاتهم .

(٤) النهى عن الاستعلاء على الناس أو احتكارهم .

(٥) الحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(٦) إطلاق كلمة الأخ على الرقيق والخادم والأجير .

(٧) التفاضل الحقيقى فى ميزان الإسلام إنما هو بتقوى الله سبحانه وتعالى .

٢٣ - باب

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (١) فَسَمَّاهُمُ الْمُؤْمِنِينَ .

٣٠ - حدثنا عَبْدُ الرَّحْمنِ بنُ الْمُبَارَك حدَّثنا حَمَّادُ بنُ زَيْدٍ حدثنا أَيُّوبُ ويُونُسُ عنِ الحَسَنِ عَنِ الأَحْنَف بنِ قَيْسٍ قال : ذَهَبْت لأَنْصُر هَذَا الرَّجُلَ ، فَلَقِيَنِى أبُو بَكْرَة . فقال : أَيْنَ تريدُ ؟ قُلتُ : أنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ ، قَالَ : ارْجعْ ، فإنِّى سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ : «إذَا التَقَى الْمُسْلِمَان بسيفَيْهِمَا ، فَالقَاتِلُ والمقْتُولُ فِي النَّارِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، هَذَا القَاتِلُ ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ ؟ قَالَ : إِنَّهُ كان حَرِيصاً عَلَى قَتْلِ صاحبِه»

٣٠-إن الإسلام يرعى حقوق الإنسان ، ويحافظ على حرمة النفس الإنسانية ، ويعمل على درء أى خطر يتهدّدها .

ومن ذلك عدوان الناس بعضهم على بعض ، ورفع أحدهم السلاح على غيره ، فيبين الحديث أنه إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، ليضرب كل منهما الآخر عن قصد وعزم ونية للقتل عدواناً وبغير حق ولا عذر ولا تأويل سائغ ولا شبهة ، فالحكم حينئذ أن القاتل والمقتول فى النار ، ولَمّاَ قال أبو بكرة لرسول الله ﷺ : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ أجاب عليه الصلاة والسلام بقوله : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه ، أى أنه قتل أثناء اشتراكه فى المقاتلة وكان مصمماً على قتل الآخر ونوى ذلك ، فكل منهما ظالم ومعتدٍ ، ومعنى قوله : هذا القاتل ، فما بال =

(١) سورة الحجرات : آية ٩ .

= المقتول؟ أى : ما ذنبه حتى يكون فى النار؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام بأنه كان حريصاً على قتل صاحبه.

ولا يلزم من كونهما فى النار أن يكونوا فى رتبة واحدة ، فالقاتل يُعذّب على القتال، وعلى قتله للآخر، وأما الآخر المقتول فإنه يعذب على القتال فقط.

وفى قول الرسول ﷺ «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» ما يفيد أن الذى ينوى فعل الجريمة أو الذنب يأثم، فإن كلاً من الشخصين كان ينوى أن يقتل الآخر ويقصد إلى ذلك، ولم يكن القتل للدفاع عن النفس ولو قصد أحدهما الدفاع عن النفس فلم يندفع قاتله إلا بقتله فقتل المعتدى بيد المدافع عن نفسه الذى لم يكن يقصد ولا ينوى قتله ابتداء، فقتْله هَدَر.

وواضح أنه إذا انعقدت النية على القتل، فإنه حينئذ تكون النتيجة والعقوبة التى أشار إليها الحديث، أما إذا كان الإنسان يدافع عن نفسه وفى حالة دفاعه ضرب الذى يعتدى عليه ففى مثل هذه الحالة إذا ترتب على ذلك موت الآخر المعتدى بيد المعتدى عليه المدافع عن نفسه فليس على القاتل شىء لأنه غير معتد بل مدافع عن نفسه ولا يقصد القتل، فقد جاء فى حديث آخر: عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال : يا رسول الله ، أرأيتَ إن جاء رجل يريد أخذ مالى؟ قال : «فلا تُعطه مالك» قال : أرأيت إن قاتلنى؟ قال «قَاتلْهُ» قال: أرأيتَ إن قتلنى؟ قال: «فأنتَ شهيد» قال: أرأيت إن قتلتُه؟ قال: «هو فى النار» (١).

ونلاحظ أن الإمام البخارى رحمه الله ذكر فى عنوان هذا الباب وقبل الحديث الآية الكريمة:

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (٢)

ثم قال: فسمّاهُم المؤمنين.

يريد بذلك أن يستدلّ على أن الإنسان المؤمن إذا ارتكب معصية فإنه لا يكفر،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة الحجرات : آية ٩.

لأن الله تعالى فى الآية الكريمة أبقى عليه اسم «المؤمن» مع القتال ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾.

قال الأحنف بن قيس: ذهبتُ لأنصر هذا الرجل، والمراد به على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه، وأخرجه البخارى فى الفتن بلفظ «أريد نصرة ابن عم رسول الله ﷺ» وكان هذا فى يوم الجمل.

وقول الرسول ﷺ: «فالقاتل والمقتول فى النار» أى: هما فى النار إن جازاهما الله سبحانه وعاقبهما وهو مذهب أهل السنة وهو محمول على غير المتأول وقيل فى معنى أن القاتل والمقتول فى النار: أنهما يستحقانهما وأمرهما إلى الله عز وجل، كما جاء فى حديث عبادة:

«فإن شاء عفا عنهما، وإن شاء عاقبهما ثم أخرجهما من النار فأدخلهما الجنة»

وقيل: إن قوله: «فالقاتل والمقتول فى النار» محمول على من استحل ذلك. وليس فى الحديث حجة للخوارج، ومن قال من المعتزلة بأن أهل المعاصى مخلدون فى النار، لأنه لا يلزم من قوله ﷺ «فالقاتل والمقتول فى النار» أن يكونا مخلَّدين فى النار، كما لا يلزم أن يكونا فى درجة واحدة كما سبق إيضاح ذلك.

ويرى جمهور الصحابة والتابعين وجوب نصر الحق، وقتال الباغين. ومما اتفق عليه أهل السنة منع الطعن فى أحد من أصحاب رسول الله ﷺ بسبب ما جرى بينهم من خلافات أو قتال، لأن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين عدول حتى من لابس الفتن منهم، لأنهم إنما حدث بينهم القتال بتأويل واجتهاد، والمجتهد إن أخطأ فله أجر واحد، وإن أصاب فله أجران.

أما الحديث الذى معنا، والذى يفيد أن الطرفين المتقاتلين فى النار فذلك خاص بمن قاتل عدواناً وظلماً، وبغير تأويل سائغ بل لطلب الدنيا أو المُلْك، ومما يؤيد أن المتقاتلين الذين يكونون فى النار هم الذين يقاتلون بأهوائهم ومن أجل الدنيا وبدون اجتهاد ولا تأويل سائغ الزيادة الواردة فى بعض روايات الحديث وهى «إذا اقتتلتم على الدنيا فالقاتل والمقتول فى النار» (١).

(١) رواه البزار.

وأيضاً حديث : «لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس زمان لا يدرى القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قُتل، فقيل : كيف يكون ذلك؟ قال : الهرج القاتل والمقتول فى النار» (١) .

وبناء على هذا الحديث، وعلى قول الرسول ﷺ «فالقاتل والمقتول فى النار..» الخ، هل تكون المؤاخذة على الذنب بمجرد العزم وإن لم يحدث فعل؟

لقد رأى بعض العلماء ذلك مستدلاً بهذا الحديث.

ورأى البعض الآخر عدم المؤاخذة بالعزم أو القصد ، وأن الصورة المقصودة فى هذا الحديث هى صورة رجلين كل منهما أنشأ فعلاً وبدأ فيه حيث أشهر كل منهما السلاح وبدأت المواجهة بينهما بالسلاح ووقوع القتال ، ولذا كانت المؤاخذة على الشروع فى الفعل وليس على مجرد العزم والقصد.

ما يؤخذ من الحديث

(١) تحريم قتال المسلم لأخيه المسلم .

(٢) تحريم رفع السلاح وإشهاره فى مواجهة الآخرين وإن لم يحدث ضرب أو قتال.

(٣) من نوى المعصية وأصر عليها كان آثماً وإن لم يعملها.

(٤) من عزم على المعصية بقلبه ووطن نفسه عليها أثم فى اعتقاده وعزمه ولهذا جاء بلفظ الحرص فى الحديث «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»

وأمّا ما ورد فى بعض الأحاديث الأخرى مما يفهم منه أن الله تعالى لا يحاسب على حديث النفس أو على الهمّ مثل حديث : «إن الله تجاوز عن أمتى ما حدثت به نفسها..» ومثل : «إذا همّ عبدى....» على أن هذا كله فى حالة ما إذا لم يوطن الإنسان نفسه على المعصية، وإنما كان الأمر مجرد فكرة عابرة من غير ثبوت ولا استقرار.

(٥) حرمة النفس الإنسانية والمحافظة عليها من العدوان والقتل وسائر أنواع البطش بها.

(٦) تحريم ترويع المسلم لأخيه .

(١) رواه مسلم.

٢٤- بابٌ
ظُلْمٌ دونَ ظُلْمٍ

حـدثنا أبُو الوليـد قَـالَ : حـدَّثنا شُـعْـبَـةُ ، ح . قـال : وحـدَّثـنى بشْرٌ قَـالَ : حدَّثنا مُحَمَّدٌ عَنْ شُعْبة عَنْ سُلَيْمانَ عن إبْراهيم عَنْ علْقَمةَ عَنْ عَبْد اللَّه ، قال : لَمَّا نَزَلَت ﴿ الَّذينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بظُلْمٍ ﴾ (١) قال أَصْحَابُ رسـول اللَّه ﷺ : أَيُّنَا لَـمْ يَظْلـمْ ؟ فَـأَنْـزَل اللَّـه ﴿ إنَّ الشِّـرْكَ لَظلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

فى هذا البـاب : توضيـح لمراتب الظلم ، وأن بعضـهـا أقل من بعض ، والبعض يغاير البعض ، فبيَّن أن هناك ظلماً دون ظلم ، وكل المعاصى التى هى غير الشرك لا ينسب صاحبها إلى الكفر ولا يكون خارجاً من الدين ، فعندما نزلت الآية الكريمة : ﴿ الَّذينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بظُلْمٍ ﴾ . . قال أصحاب الرسول ﷺ : أينا لم يظلم نفسه ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظلْمٌ عَظيمٌ ﴾ . . وفى رواية أخرى : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال : ليس بذاك ألا تسمعون إلى قول لقمان ، وفى رواية أخرى : «ليس كما تظنون» وفى رواية : «إنما هو الشرك ألم تسمعوا إلى ما قال لقمان ؟» .

وفى هذا ما يفيد أن الخاص يقضى على العام ، والمبيّن يوضح المجمل ، وأن درجات الظلم متفاوتة .

وأن المعاصى لا تكون شركاً ولا تسمى بالشرك ، وأن الذى لا يشرك بالله شيئاً له الأمن ، وإن عصى قد يلقى جزاءه فى الآخرة بالعذاب ، ويكون الأمن المراد من الآية بمعنى لهم الأمن من الخلود فى النار .

---

(١) سورة الأنعام : آية ٨٢ .
(٢) سورة لقمان : آية ١٣ .

٢٥ - بابُ

عَلاَمَة المُنَافق

٣١ - حدثنا سُلَيْمَانُ أَبُو الرَّبِيع قال: حدَّثنا إِسْمَاعِيلُ بنُ جَعْفَرٍ قال: حَدَّثَنَا نَافِعُ بنُ مَالكِ بنِ أبى عَامرٍ أَبُو سُهَيْلٍ عَنْ أَبيه عَنْ أَبى هُرَيْرةَ عنِ النبىِّ ﷺ قال: «آيةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

---

٣١ - النفاق: هو إظهار الإنسان لخلاف ما يبطنه فإن كان ذلك فى الاعتقاد بأن كان يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر فهذا هو نفاق الكفر، وإن كان فى غير ذلك فهو نفاق العمل، وتتفاوت درجاته، ويتضح من الحديث أن الطاعات تزيد الإيمان وأن المعاصى تنقص الإيمان، والنفاق علامة عدم الإيمان، وبعض النفاق كفر دون بعض.

ومعنى « آية المنافق ثلاث »: علامة المنافق ثلاث، إذا اجتمعن فيه كان منافقاً كامل النفاق، وكلمة «آية» وإن كانت مفردة إلا أنها مفردة مضافة فتعم، أو أنه أراد بالآية الجنس، ولذلك ترجم بما يفيد الجمع فى قول البخارى رحمه الله تعالى: «باب علامات المنافق» وجاء بالحديث الذى يفيد ذلك، وهناك حديث آخر بلفظ: «علامات المنافق ...» (١).

وجاء فى حديث آخر بلفظ: «أربع مَنْ كنّ فيه كان منافقاً خالصاً».. فكيف نوفق بين الروايتين؟ الجواب: أنه ﷺ بعد أن أخبر بالعلامات الثلاث استجدّ له من العلم بالخصال ما لم يكن معلوماً عنده فأخبر به.

---

(١) رواه أبو عوانة.

ومما يدل على عدم انحصار علامات النفاق فى الثلاث رواية فى صحيح مسلم بلفظ «من علامات المنافق ثلاث . . .» .

ويتضح لنا من هذا الحديث وتلك العلامات المذكورة أنه لابد للمسلم أن يقف على معالم دينه وأن يتحرر من كل ما يضر بسلوكه وعمله وما يضر بلسانه وقوله وما يضر بنيته وإخلاصه ولذا فإن الحديث ينبه على تلك الأمور التى يترتب عليها ما يضر بالإنسان المسلم قولاً وفعلاً ونية من كذب أو خلف أو خيانة ، وأشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه الخصال هى علامات النفاق التى لا يصح للمسلم أن يتصف بها ولا أن يكون فيه واحدة منها فإن النفاق هو إظهار ما يبطن الإنسان خلافه وهذا موجود فى صاحب هذه الخصال ويكون نفاقه فى حق من حدثه فكذبه أو وعده فأخلف وعده أو ائتمنه فخانه ، لا أنه منافق فى الإسلام بمعنى أنه يبطن الكفر ولكنه يشبهه حيث اتصف بصفاته على أن هذه الخصال المذمومة يخشى منها أن تفضى بصاحبها إلى حقيقة النفاق ، وذلك كما حدث فى قصة ثعلبة الذى عاهد ربه إن أعطاه من فضله ما يريد أن يقوم بأداء حق المال وأن ينفق منه ويتصدق فلما أنعم رب العزة سبحانه وتعالى عليه بما طلب بخل وأخلف الوعد مع ربه سبحانه وتعالى فكانت فيه خصال النفاق التى أخذت به إلى النفاق الحقيقى المؤكد والعياذ بالله فقد وعد أن يتصدق فلما جاء المال أخلف الوعد .

وقد قص القرآن الكريم ذلك فى قول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١) .. وهكذا يحذر الإسلام من النفاق والرياء ويطهر المجتمع من علامات النفاق حتى لا تشيع بين الناس وحتى لا تنتشر خصاله المذمومة بل يجب أن ينتشر الصدق فى القول والإخلاص فى العمل والوفاء بالوعد والأمانة فى كل ما أؤتمن عليه الإنسان المسلم ولقد كان =

(١) سورة التوبة : آية ٧٥ - ٧٨ .

= سلفنا الصالح أحرص ما يكونون على الإخلاص والبعد عن النفاق والرياء ولكثرة خشيتهم وشدة حيطتهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم كبشر والبشر عرضة للخطأ والصواب والمعصوم من عصم الله وكانوا يتساءلون فيما بينهم ثم يرجعون إلى رسول الله ﷺ ليخبرهم بحقيقة أمرهم. وإنما كانت الخصال السابقة التى أشار إليها الحديث من علامات النفاق لما فيها من مخالفة مبادئ الإسلام ولما يترتب عليها من قلب الحقائق واختلال توازن المجتمع وفقدان الثقة بين الناس قولاً وعملاً ونية وكانت أضداد هذه الصفات من الصدق والوفاء والأمانة من سمات المؤمنين الذين صدقوا فيما قالوا ووفوا بما وعدوا وكانوا أمناء فى كل ما استؤمنوا عليه - أنعم بها من خصال بها يظهر المسلم المخلص لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

وهكذا يوضح لنا هذا الحديث علامات النفاق التى إذا تحققت أو تحقق بعضها فى الإنسان كان منافقاً. «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب» الكذب فى الحديث من أولى علامات النفاق ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ : أيكون المؤمن بخيلاً قال : نعم. أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : نعم. أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا. فالكذب من أشنع الخصال التى تُخرج صاحبها عن حظيرة الإيمان.

«وإذا وعد أخلف» فخلف الوعد أيضاً من علامات النفاق ومن علامات المؤمنين الصادقين أن يكونوا أوفياء فى عهودهم وفى عقودهم. «وإذا أؤتمن خان» ألا يخون الأمانة لأن الله تعالى أمر بأداء الأمانات ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (١).

بل إنه لا يصح له أن يخون وألا يتعامل بالخيانة حتى مع من خان كما قال عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر: « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» (٢).

وإنما اقتصر على هذه العلامات، لأنها تنبه إلى غيرها من العلامات الأخرى، فأصل الديانة منحصر فى ثلاث: فى القول والفعل والنية، فنبه على فساد القول

(١) سورة النساء : آية ٥٨ .
(٢) رواه البخارى فى التاريخ والترمذى وأبو داود والحاكم .

بالكذب، وعلى فساد الفعل بالخيانة، وعلى فساد النية بالخلف.

ومع أن الوعد نوع من التحديث فيدخل في الخصلة الأولى: «إذا حدث كذب» إلا أنه خصه بالذكر في قوله: «وإذا وعد أخلف» فهو من ذكر الخاص بعد العام، ولكنه جاء بالخاص بعد العام وأفرده بالذكر، لينبه على زيادة قبح الخلف في الوعد على سبيل الادعاء وزيادة التحذير من خلف الوعد.

ما يؤخذ من الحديث

(١) على المسلم أن يحافظ على الصدق في القول، والوفاء بالوعد، وأداء الأمانة وأن يكون بعيداً عن الكذب والخلف والخيانة.

(٢) التحذير من التعود على هذه العلامات أو بعضها مخافة أن تفضي بمن تعوّد عليها إلى النفاق، أما إذا حدثت على سبيل الضرورة أو كانت عادة في الإنسان ومن غير اختيار واعتياد فعليه أن يتوب إلى ربه ولا يرجع إليها.

(٣) بيان خطورة هذه الرذائل حيث تفضي بأصحابها إلى النفاق.

(٤) إرشاد المجتمع الإسلامي وتحديد سمات المنافقين ليحذرهم المؤمنون.

(٥) خطورة الكذب وشناعته حيث كان أول علامات المنافقين لما يترتب عليه من أضرار كثيرة، ومخاطر لا حصر لها.

(٦) إذا وعد الإنسان بالهبة لآخر فعليه أن يفي بوعده، لأن ذلك نوع من الوفاء بالوعد.

٣٢ - حدثنا قُبيصَةُ بن عُقْبَةَ قال: حدَّثنا سُفْيَانُ عَنْ الأَعْمَش عَنْ عَبْدالله بن مُرَّةَ عَنْ مَسْرُوق عَنْ عَبْدالله بن عَمْرٍو أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كَانَ مُنَافقاً خَالصاً، ومَنْ كانتْ فيه خَصْلَة منهُنَّ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ منَ النِّفَاق حَتَّى يَدَعَهَا: إذَا اؤْتُمنَ خَانَ، وإذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذَا خَاصَمَ فَجَرَ»، تَابَعَهُ شُعْبَةُ عَنِ الأَعْمَش.

---

٢٣ - يوضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه، في هذا الحديث أربع خصال إذا اجتمعت في إنسان كان منافقاً خالصاً أي: متمكناً شديد الشبه بالمنافقين والمراد بالنفاق نفاق العمل لا نفاق الإيمان، ومن كانت فيه خصلة أي خلة منهن أي من هذه الخصال الأربع «كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها» أي: حتى يتركها.

والنفاق: هو مخالفة الباطن للظاهر، فإن وجد النفاق في الاعتقاد فهو نفاق الكفر، وإن لم يوجد في الاعتقاد والإيمان فهو نفاق العمل.

الخصلة الأولى: «إذا اؤتمن خان» أي: إذا ائتمنه أحد على شيء خانه ولم يكن أميناً، وقد نهى القرآن الكريم عن الخيانة في كل مجال من المجالات نهى عن الخيانة في جانب الله وفي جانب الرسول ﷺ ونهى عن الخيانة في معاملات الناس بعضهم مع بعض فقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(١).

ولأهمية الأمانة في ترسيخ أصول الإيمان والعقيدة والبعد عن النفاق، بيَّن رسول الله ﷺ أن الإيمان لا يكون كاملاً لمن لا أمانة له، فمن كان خائناً غير أمين لا يكون مؤمناً كامل الإيمان، فقال صلوات الله وسلامه عليه:

«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»(٢).

---

(١) سورة الأنفال: آية ٢٧.

(٢) رواه الترمذي.

الخصلة الثانية:

«وإذا حدث كذب» أى ، إذا أخبر عن أمر من الأمور كذب فى إخباره، فلا يخبر بالصدق الذى هو واقع الأمر وحقيقته، وقد يكون الدافع للكذب محاولة تبرير تقصيره، أو أن يمهد للاعتذار أو يؤكده. والكذب : هو مخالفة الخبر للحقيقة والواقع ومن الكذب قول الزور، وشهادة الزور، وهى من أكبر الكبائر وتظهر خطورة الكذب فى اهتزاز الثقة فى المجتمع، وانتشار الاضطراب وعدم الطمأنينة ؛ لأن الكذب ريبة إنه يجرد شخصية صاحبه من الفضائل، ومن المعانى النبيلة، ويسقط مكانة صاحبه فى المجتمع، فلا يوثق له بحديث، ولا تقبل له شهادة.

الخصلة الثالثة: «وإذا عاهد غدر» أى : إذا قطع عهداً مع أحد، أو أبرم موثقاً نقض عهده فلا يكون وفياً به، فنقض العهد، والغدر به ليس من سمات الإنسان المسلم، إنه يقضى على بناء الشخصية ويعمل على اهتزاز الثقة وتمزيق العلاقات، والمسلم الصادق الوفى هو الذى يكون عند عهده فيفى به فلا يغدر، فقد قال رسول الله ﷺ : «المسلمون عند شروطهم»(١).

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾(٢)

الخصلة الرابعة: «وإذا خاصم فجر» أى مال فى خصومته عن الحق، وقال الباطل، والفجور فى الخصومة هو ميل عن الحق واحتيال فى رده.

وهذه العلامة وهى الفجور فى الخصومة لا تكون إلا فى المنافقين، إنها تعنى شدة الخصومة ومن كان كذلك كان أبعد الناس عن الله وكان أبغض الناس لله ، عن =

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة النحل - آية : ٩١ - ٩٢

= عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»(١) واللدد فى الخصومة هو شدتها، ومن معانى الألد الكذاب؛ فإن من يُكثر المخاصمة يقع في الكذب كثيراً . ومن معانيه أيضاً: الأعوج لانحرافه عن الحق.

و «الخَصِم»: هو الحاذق بالخصومة، والألد الخصم حين يخاصم بالباطل ليرفع حقاً أو يثبت باطلاً فهو يكون حينئذ فاجراً فى خصومته ، وحين يأتى بالزور والبهتان ويدعى ادعاءات باطلة على خصمه فهو فاجر فى خصومته، وحين لا يبقى للصلح باباً ويقطع كل الحبال بينه وبين خصمه فهو فاجر فى خصومته وهكذا... فالفجور فى الخصومة هو إشعال الشر والفتنة وزيادة الفساد والغلو في العناد، بحيث لا يبقى للصلح بقية؛ ولذا كان من علامات النفاق ولا تعارض بين حديث: «آية المنافق ثلاث» وبين حديث: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً» لاحتمال أنه استجد للرسول ﷺ من العلم بخصالهم ما لم يكن عنده.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ليس بين الحديثين تعارض، لأنه لا يلزم من عدّ الخصلة المذمومة الدالة على كمال النفاق كونها علامة على النفاق؛ لاحتمال أن تكون العلامات دالات على أصل النفاق والخصلة الزائدة إذا أضيفت إلى ذلك كمل بها خلوص النفاق.

وهناك رواية فى صحيح مسلم تفيد عدم حصر الصفات فى العدد المذكور، وهى بلفظ: «من علامات المنافق ثلاث». وإذا أمعنا النظر فى هذه الخصال وجدنا بعضها متداخلاً فى بعض فغدر العهد هو خلف للوعود والفجور فى الخصومة من مظاهر الكذب فى الحديث ومن نتائجه التى يفضى الكذب إليها.

---

(١) رواه البخارى.

ما يؤخذ من الحديث

(١) التمسك بالإيمان وشُعَبه، والبعد عن النفاق وعلاماته.

(٢) التحذير من خيانة الأمانة، والكذب فى الحديث والغدر بالعهد، والفجور فى الخصومة.

(٣) أن علامات النفاق المذكورة فى الحديث إذا رسخت فى قلب إنسان أفسدت اعتقاده وأوردته موارد الضياع والهلاك.

(٤) كشف علامات النفاق، وكشف شخصيات المنافقين حتى يحذرهم المجتمع ويبتعد الناس عنهم.

٢٦- باب

قِيامُ لَيْلَةِ القَدْرِ منَ الإيمانِ

٣٣- حدثنا أَبُو اليَمَانِ قال: أَخبرنا شُعَيْبٌ قال: حدَّثنا أَبُو الزِّنَادِ عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيماناً واحْتِساباً غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

٣٣- وضح هذا الحديث أن قيام ليلة القدر من الإيمان ، وهناك أحاديث أخرى تبين أن صيام رمضان من الإيمان وأن قيامه من الإيمان، وجاء التعبير فى قيام ليلة القدر بالفعل المضارع فى الشرط وبالماضى فى الجواب؛ لأن قيام رمضان محقق الوقوع وكذا صيامه، بخلاف قيام ليلة القدر فإنه غير متيقن، فلذا ذكره بما يفيد الاستقبال وهو الفعل المضارع. واستعمال الماضى فى الجزاء للدلالة على تحقق الوقوع.

والمراد بقيام ليلة القدر: إحياء هذه الليلة بالعبادة فيها وبالصلاة وغيرها من الطاعات كالذكر وتلاوة القرآن والتهجد والاستغفار والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ والتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل.

ومعنى قوله «إيماناً» أى تصديقاً بأن الإخبار بها على لسان رسول الله ﷺ حق وصدق لا مرية فيه.

ومعنى «احتساباً»: أى أنه يؤدى العبادة فيها ويقوم بما يقوم به من إحيائها يبتغى بذلك وجه الله سبحانه وتعالى، لا للرياء ولا للسمعة.

ومن كان كذلك غفر له ما تقدم من ذنبه، أى من الذنوب الصغائر، ومن غير حقوق الآدميين، لأن الكبائر لا تسقط إلا بالتوبة النصوح التى يندم فيها العبد =

على ما فرط، ويعزم على ألا يعود للذنب ويقلع عن المعصية، ويرد الحقوق لأصحابها.

وحقوق بنى آدم لا تسقط إلا بأدائها أو بأن يعفو صاحب الحق.

ويرى البعض أن الحديث على إطلاقه وأن الغفران يشمل جميع الذنوب الصغائر والكبائر وفضل الله واسع ولا حرج على فضل الله ورحمته بعباده، خاصة أن الذى يوفقه الله لقيام ليلة القدر، أو للحج المبرور إنما يتم ذلك بالتوبة والاستغفار والتقرب إلى الله تعالى وكل ذلك مما يقرب الإنسان من ربه ويجعل توبته مقبولة إن شاء الله تعالى.

وأقل ما يصدق عليه القيام لتلك الليلة، أن يصلى العشاء فى جماعة ويعزم على صلاة الصبح فى جماعة، وأعلى من ذلك أن يقوم معظم ليلة القدر بالعبادة وأعلى مرتبة القيام أن يقوم الليلة كلها.

والجزاء المذكور يحصل لمن قام ليلة القدر وإن لم يرها، ولكن من رآها يكون أكثر وأعظم أجراً وعليه يحمل حديث: «لا يقوم أحدكم ليلة القدر فيوافقها إيماناً واحتساباً إلا غفر له» ومجىء فعل الشرط مضارعاً والجواب ماضياً فيه خلاف عند النحويين وأكثر العلماء يرون منع ذلك.

ولهذا رأى البعض أن ورود الحديث على هذه الصيغة وهى مجىء فعل الشرط مضارعاً والجزاء ماضياً إنما هو من تصرف الرواة، بدليل ورود الحديث فى طريق أخرى بلفظ المضارع فى فعل الشرط وفى الجواب: «من يقم ليلة القدر يغفر له».

وفى شأن مغفرة ما تقدم من الذنب، ورد أن هذا الغفران خاص بالصغائر. ويرى بعض العلماء أنه يجوز أن يخفف من الكبائر إذا لم يصادف صغيرة، ومن ليس له صغائر ولا كبائر يزاد فى حسناته، بمقدار ذلك.

ويرى البعض أن المطلق فى مثل هذا الحديث يحمل على المقيد فى غيره كالحديث الذى رواه مسلم «الصلوات الخمس كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».

= وأما عن ليلة القدر: فأرجح الأقوال أنها في الوتر من العشر الأواخر وأرجى الليالى عند الجمهور ليلة سبع وعشرين.

يقول زر بن حبيش : سألت أُبيَّ بن كعب رضى الله عنه فقلت: إن أخاك ابن مسعود يقول: «من يقم الحول يصب ليلة القدر» فقال رحمه الله: أراد ألا يتكل الناس ، أما إنه قد علم أنها في رمضان، وأنها في العشر الأواخر ، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف لا يستثنى:

إنها ليلة سبع وعشرين، فقلت: بأى شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال : بالعلامة أو بالآية التى أخبرنا رسول الله ﷺ أنها تطلع الشمس يومئذ لا شعاع لها.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل ليلة القدر على سائر الليالى، وفضل قيامها بسائر أنواع الطاعات.

(٢) الحث على قيام ليلة القدر، والحث على قيام العشر الأواخر والاعتكاف فيها حيث إنها تشتمل على ليلة القدر.

(٣) الإرشاد إلى تحين ليلة القدر، وأقرب الآراء وأرجاها أنها ليلة السابع والعشرين.

(٤) محبة الرسول ﷺ لأمته، حيث يوجهها إلى مواطن الخير، وإلى الأيام والليالى الكريمة التى تشتمل على نفحات الله سبحانه وتعالى.

(٥) فضل هذه الأمة، ومكانتها، حيث اختصها الله تعالى بهذه الليلة المباركة.

(٦) أن غفران ما تقدم من الذنوب يكون لمن قام ليلة القدر مؤمناً ومصدقاً بما جاء من إخبار بشأنها على لسان رسول الله ﷺ.

(٧) التأكيد على الإخلاص فى العبادة والتقرب إلى الله تعالى، وخاصة فى قيام ليلة القدر، بحيث يقومها مبتغياً وجه الله سبحانه، مخلصاً فى قيامه، لا تشوب قيامه شائبة سمعة ولا رياء، بل يكون متسماً بروح الصدق والإخلاص.

٢٧ - باب
الجِهادُ مِنَ الإِيمانِ

٣٤- حدثنا حَرَمِيُّ بنُ حَفْص قَالَ: حدَّثنا عبْدُ الواحد قال: حدَّثنا عُمَارَةُ قال: حدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ بنُ عَمْرِو بنِ جَرِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «انْتَدَبَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِه، لايُخْرِجُهُ إلاَّ إِيمانٌ بِي، وتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي، أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ، أَو غَنِيمَةٍ، أَوْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، ولَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ».

٣٤- أورد الإمام البخارى رحمه الله تعالى هذا الباب وهو باب الجهاد من الإيمان ليوضح أن الجهاد من خصال الإيمان وأعماله، كما أن قيام ليلة القدر كذلك، وجاء بهذا الباب بين قيام ليلة القدر وبين قيام رمضان وصيامه؛ ليشير إلى أن ما أورده من حديث عن الجهاد له مناسبة فى التماس ليلة القدر لأن التماسها يحتاج إلى مزيد حرص ومحافظة ومجاهدة كبرى ومع هذه المجاهدة فقد يوافقها وقد لا يوافقها كما أن المجاهد فى سبيل الله يلتمس الشهادة قاصداً إعلاء كلمة الله تعالى وقد يحصل له ذلك وقد لا يحصل، فتناسبا فى أن كلاً منهما مجاهدة.

وواضح أن من قام ليلة القدر كان له أجره على قيامه فإن وافق ليلة القدر كان أعظم أجراً والمجاهد فى سبيل الله تعالى مأجور ، فإن وافق الشهادة فى سبيل الله كان أعظم أجراً.

= والحديث فيه بيان لفضل الجهاد في سبيل الله، لمن خرج مخلصاً في جهاده صادقاً في إيمانه، وأن الله تعالى يمنحه فضلاً وأجراً في الدنيا وفي الآخرة وأنه إذا استشهد في سبيل الله تعالى، فإن رب العزة سبحانه يكافئه بالجنة، وأن فضل الشهادة لا يعادله فضل حيث تمناها رسول الله ﷺ مرات مما يشير إلى سموّ منزلة الشهادة وعظمتها قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (١).

وقد وضح الحديث أن المجاهد في سبيل الله قد استجاب لدعوة الله تعالى له بالجهاد، وأن الله تعالى قد تكفل بجزائه وسارع به لأن المجاهد خرج في سبيل الله تعالى لا يخرجه إلى الجهاد إلا الإيمان بالله والتصديق برسله، وجاء لفظ الحديث: «لا يخرجه إلا إيمان بي» ولم يقل: «لم يخرجه إلا إيمان به»؛ لأن في هذا التفاتاً بتغيير الأسلوب من الغيبة إلى التكلم؛ تأكيداً لعظم شأن المخلصين في الجهاد أو هو على تقدير حال محذوف أي قائلاً لا يخرجه إلا إيمان بي تكفل بأن يرجعه بما نال من أجر فقط إن لم يغنم أو أن يكون مع الأجر الغنيمة. ويحتمل أن تكون (أو) بمعني الواو أي: وعبر بالفعل الماضي في قوله: «بما نال...» ليشير إلى تحقق الوقوع.

«أو أدخله الجنة» وعد من الله تعالى بدخوله الجنة وهو وعد حق؛ إن الله لا يخلف الميعاد، ويكون حصوله على الجنة بلا حساب وبلا مؤاخذة على ما سبق من ذنوب لأن الشهادة تُكفرها إلا الدَّيْن؛ لحديث «يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن» كما يتضمن دخول الجنة نعيمه بها بعد موته لقول الله تعالى عن الشهداء: ﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٢)، ثم يقول الرسول ﷺ بعد ذلك: «ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم

(١) سورة التوبة: آية ١١١.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٦٩

أقتل ثم أحيا ثم أقتل» والسرية : هي طائفة من الجيش ليس فيهم الرسول ﷺ تبعث إلى العدو .

أي : لولا المشقة على الأمة ما قعد خلف سرية من السرايا ، و «لولا» أداة امتناع لامتناع أي : امتنع عدم قعوده لوجود المشقة عليهم بصعوبة تخلفهم، حيث لا يستطيعون المسير معه لضيق أحوالهم. فكان هذا إشفاقاً من رسول الله ﷺ بهم.

وتمنى رسول الله ﷺ للقتل في سبيل الله، يراد به حصول الشهادة له، وبيان منزلتها للناس وفضل من يستشهد في سبيل الله، ولا يفهم من ذلك أن يستمر الجهاد والاستشهاد، لبقاء الكفر وزيادته فهو لا يتمنى زيادة الكفر للناس، بل مراده حصول الشهادة، لا تمنى المعصية لغيره.

ومعلوم أن المجاهد في سبيل الله له ثلاث حالات :

الأولى: أن يستشهد. والثانية: أن يعود بأجر وغنيمة . والثالثة: أن يعود بأجر دون غنيمة، فللمجاهد كرامتان في الدنيا هما : الأجر والغنيمة، وثالثة في الآخرة وهي الجنة.

فإذا رجع المجاهد سالماً غانماً حصل له ثلثا الذى أعد للمجاهدين وهما : السلامة والغنيمة، ويبقى الثلث الآخر عند الله تعالى وهو الأجر.

وأما إن رجع سالماً بغير غنيمة فإن الله تعالى يعطيه من الأجر ما يعوضه عن الغنيمة التي فاتته.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثى أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث فإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم»[1]. ولا شك أن الأجور يتفاوت قدرها بمقدار المشقة والتعب.

---

(١) رواه مسلم.

ما يؤخذ من الحديث

(١) وجوب إخلاص النية فى الجهاد فى سبيل الله، والإخلاص معناه أن يكون الجهاد فى سبيل الله «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله».

(٢) رأفة الرسول ﷺ بأمته، وشفقته بها لقوله: «ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية».

(٣) استحباب طلب الشهادة فى سبيل الله تعالى.

(٤) جواز ترك بعض المصالح من أجل مصلحة أهم أو من أجل دفع مفسدة.

(٥) لا يلزم الثواب على عين العمل الصالح بل يحصل بنية فعله وبالإخلاص فيه.

(٦) فضل الجهاد ومنزلته فى الإسلام.

(٧) أن الجهاد فرض كفاية إلا فى بعض الأحوال كأن يدخل العدو بلاد المسلمين فيصبح الجهاد فرض عين.

٢٨- بابٌ
تَطَوُّعُ قيَام رَمضَانَ منَ الإيمَان

٣٥- حدثنا إسْمَاعيلُ قال: حدثنى مَالكٌ عَن ابن شِهَاب عَنْ حُمَيْد ابن عَبْد الرَّحْمن عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إيماناً واحْتِساباً غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه».

٣٥- يوضح الرسول ﷺ فى هذا الحديث فضل قيام شهر رمضان، بالطاعة وأداء النوافل إلى جوار العبادات المفروضة، والقيام المشار إليه فى الحديث يشمل صلاة التراويح وغيرها من أنواع الطاعات الأخرى فى شهر رمضان المبارك. والجزاء المذكور فى هذا الحديث، وهو غفران ما تقدم من الذنوب، إنما يكون لمن قام شهر رمضان مؤمناً بالله رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً، ومصدقاً بأن ذلك من عند الله تعالى، وهذا هو معنى «إيماناً» أى معتقداً فضل قيامه واستحبابه «واحتساباً» أى مبتغياً به وجه الله تعالى مخلصاً ومن نيته «غفر له ما تقدم من ذنبه» أى من الذنوب الصغائر، ويغفر الله تعالى الذنوب الكبائر بالتوبة النصوح التى يقلع فيها عن الذنب، ويعزم على عدم العودة إليه، وأن يندم على ما فات وأن يرد المظالم لأصحابها إن كان هناك مظالم، فالكبائر تُغفر بالتوبة، أو بإقامة الحد، أو بعفو الله سبحانه عن عبده.

ومعلوم أن أموراً كثيرة من العبادات ثبت لها تكفير الذنوب منها ما جاء فى هذا الحديث من قيام رمضان، ومنها ما ورد فى أحاديث أخرى مثل صيام شهر رمضان، وقيام ليلة القدر، وورد أن صيام يوم عرفة يُكفِّر سنتين وأن صيام يوم عاشوراء يُكفَر السنة الماضية، وأن رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما، والعمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، وأن الوضوء تخرج فيه الخطايا، وما جاء فى حديث: =

= «من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» وما ورد فى شأن الصلوات الخمس من تكفير الذنوب فكيف نجمع بين كل هذه الأحاديث التى أفادت غفران الذنوب بسبب هذه العبادات السابقة؟ مع العلم بأن الذنوب حين يؤدى المسلم واحداً من هذه العبادات تكون قد كفّرت فما الذى تفعله باقى العبادات المذكورة؟

● والجواب على هذا أن كل خصلة أو طاعة صالحة لتكفير الصغائر، فإن صادفت ذنوباً كفّرتها وإن لم تصادف ذنوباً بأن تكون قد كفّرت بواحد من تلك العبادات مثلاً أو يكون الله قد غفرها بتوبة صاحبها، أو يكون الإنسان لم يفعل معصية بأن وفقه الله تعالى، فإن الله سبحانه يرفعه بعمله درجات، ويكتب له زيادة فى الحسنات، ويخفف عنه بعض الذنوب الكبائر إن كانت هناك كبائر ولا حرج على فضل الله تعالى.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل قيام شهر رمضان المبارك بأداء صلاة التراويح وصلاة التهجد وسائر الطاعات الأخرى.

(٢) أن الله تعالى يغفر الذنوب بقيام شهر رمضان.

(٣) جواز قول «رمضان» بغير إضافة كلمة «شهر» إليه.

(٤) إن غفران الذنوب بقيام شهر رمضان لمن قامه مؤمناً بالله مصدقاً بوعده، ومحتسباً ذلك بإرادة وجه الله سبحانه وإخلاص النية.

٢٩- باب

صَوْمُ رَمَضَانَ احْتِسَاباً مِنَ الإِيمَانِ

٣٦- حدثنا ابنُ سَلَامٍ قالَ: أَخْبرنا مُحَمَّدُ بنُ فُضَيْلٍ قال: حدَّثنا يَحْيَى بنُ سَعِيدٍ عَنْ أَبِى سَلَمَةَ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صام رمضانَ إيماناً واحتِساباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه».

٣٦- فى هذا الحديث بيان لفضل صيام شهر رمضان حين يصومه المسلم مؤمناً ومصدقاً به، ومحتسباً وراغباً فى ثوابه، ويكون طيب النفس لا يستثقل أيامه ولا صيامه فإنه حينئذ يغفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه، من الذنوب الصغائر.

وأما الذنوب الكبائر فتكفرها التوبة النصوح بالندم على ما فات، والعزم على عدم العودة، والإقلاع عن الذنب، ورد المظالم لأصحابها.

وهذا الغفران للذنوب، إنما هو للصائم صوماً حقيقياً، لمن صام شهر رمضان معتقداً حق فرضية الصيام أى صامه إيماناً، واحتساباً بأن يصوم راغباً فى الثواب وطيبة بالصوم نفسه لا يستثقل أيامه ولا يستطيل صيامه.

وإنما قلنا: إن المراد بغفران الذنوب هى الذنوب الصغائر مع أن الحديث جاء باللفظ العام فى قوله: «غفر له ما تقدم من ذنبه» لأن التخصيص جاء من أحاديث أخرى منها: «ما اجتنبت الكبائر ..» ففى مثل تلك الأحاديث ما خصّص العام الذى هنا وعلم أن المراد هى الذنوب الصغائر، أما الكبائر فغفرانها كما سبق بالتوبة النصوح.

ويدعو الحديث إلى إخلاص النية فى الصيام حتى يكون مقبولاً وحتى تكون له ثمرته فى غفران الذنوب، والصوم والصلاة والعمرة والحج وغير ذلك من العبادات لها أثرها فى غفران الذنوب؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (١) لأن حلاوة الطاعة تدعو صاحبها إلى =

(١) سورة هود: آية ١١٤.

= الاستمرار فيها وإلى البعد عن المعاصي والذنوب، وإلى القرب من الله تعالى.

وقد قال رسول الله ﷺ :

«اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»[1].

فبيّن عليه الصلاة والسلام أن الطاعة أو الحسنة إذا وقعت بعد السيئة فإن الحسنة تمحو السيئة، وهذا أيضاً خاص بالصغائر وفيه توضيح لفضل الطاعات في محو السيئات، وكل ذلك إنما هو بفضل الله تعالي ورحمته، وكرمه وإحسانه، فهو الرحمن الرحيم.

والمسلم حين يعلم أن الله قد غفر ذنبه بطاعته واظب على الطاعة، وتذوق حلاوة الإيمان، ونأى بنفسه عن الذنوب، وازداد في القرب من الله تعالى.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل صيام شهر رمضان، ومنزلته العظيمة في الإسلام.

(٢) الحرص على صيام شهر رمضان إيماناً واحتساباً.

(٣) أهمية إخلاص النية في العبادات.

(٤) من ثمرات الصيام غفران الذنوب لمن صام صادقاً مخلصاً.

(٥) جواز قول رمضان من غير ذكر كلمة شهر.

(١) رواه الترمذي.

٣٠- بابٌ

الدِّينُ يُسْرٌ

وقول النَّبيِّ ﷺ : «أَحبُّ الدِّينِ إلى اللهِ الحَنيفيَّةُ السَّمْحَةُ».

٣٧- حدثنا عَبْدُ السلامِ بنُ مُطَهَّرٍ قال : حدَّثنا عُمَرُ بنُ عليٍّ عن مَعْنِ ابنِ مُحَمَّدٍ الغِفَارِيِّ عَنْ سَعيدِ بنِ أبي سَعيدٍ المَقْبُرِيِّ عن أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النبيِّ ﷺ قال : «إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، ولَنْ يُشادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وأَبْشِرُوا واسْتَعِينُوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ وَشَيءٍ مِن الدُّلْجَةِ».

٣٧- عنوان هذا الباب : الدين يسر أى : أن دين الإسلام ذو يُسْر أو سُمّى الدين يُسْراً لتأكيد التيسير فيه ومبالغة بالنسبة إلى الأديان التى قبله.

وقد أكرم الله تعالى هذه الأمة حيث رفع عنها الحرج والمشقة التى كانت على الأمم السابقة ، فقد كان الناس فيما مضى إذا أذنب أحدهم لا تقبل توبته إلا بقتل نفسه ؛ لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾[١].

أما توبة هذه الأمة فتكون بالتوبة النصوح وذلك بالإقلاع عن الذنب والندم على ما فات وعدم العود وردّ الحقوق لأصحابها. ويرى بعض المفسرين أن القتل ليس على ظاهره وإنما معنى : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أى : أكدوا وأكثروا من الطاعة فالمراد بالقتل المبالغة فى التوبة والطاعة.

ثم قال :

«وقول النبى ﷺ : (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة)».

أى : أحب خصال الإسلام ما كان يتسم بالسماحة واليسر والسهولة ، ولا شك أن كل خصال الإسلام محبوبة ومرغوبة ، وليس فيها إلا الخير ، ولكنه يريد =

---

(١) سورة البقرة : آية ٥٤ .

= توضيح أحبها لله تعالى وأكثرها فى القرب . « والحنيفية » : هى ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وإنما سُمِّى سيدنا إبراهيم عليه السلام حنيفاً لميله عن الباطل إلى الحق؛ لأن أصل الحنف الميل، فهى بعيدة عن الباطل وعن الميل إليه، بعيدة عن التشدد.

و «السَّمحة» هى السهلة الميسرة، لا تكلّف فيها ولا مشقة، ولا صعوبة فيها ولا حرج، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٨﴾﴾[1].

وكلمة «الحنيفية» مؤنثة وهى إخبار عن المبتدأ «أحب» وهو مذكر وذلك لأن الاسمية غلبت عليها لأنها علم على الدين ، وإنما أورد الإمام البخارى هذا الحديث المعلق فى الترجمة ولم يذكره متصلاً؛ لأنه ليس على شرطه فاستعمله فى الترجمة وقوّاه بما دلّ على معناه.

وقد أخرج البخارى حديث: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» فى كتاب « الأدب المفرد » ورواه أحمد وغيره موصولاً.

ويبدأ الحديث بقول الرسول ﷺ: «إن الدين يسر» فأكد يُسْر الدين وسماحته، ووسطيته ورحمته، فقد بعث الرسول صلوات الله وسلامه عليه رحمة للعالمين، فكانت شريعته التى جاء بها دعوة إلى الرحمة، وكان منهجها قائماً على اليسر قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2].

والتأكيد فى الإخبار عن يسر الدين الإسلامى؛ للرد على منكرى هذا الدين إن كان ثمّة منكر ولو على سبيل تنزيل البعض منزلة المنكر، وللاهتمام بشأن ما يتسم به الإسلام من اليسر وعدم العسر بخلاف ما قَبْلَهُ من الأديان السابقة حيث كانت توبتهم بقتل أنفسهم، وإزالة النجاسة بقطع موضعها، فكانت التوبة فى الإسلام بالرجوع إلى الله والندم على ما فات والإقلاع عن المعصية والعزم على عدم العودة وردّ المظالم لأصحابها، وكانت إزالة النجاسة بالتطهير بالماء.

---

(١) سورة الحج : آية ٧٨ .

(٢) سورة الأنبياء : آية ١٠٧

«ولن يُشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه» والمشادة: هى المغالبة أى أن الذى يغالى فى الدين غلواً شديداً ويتعمق فى أعماله، ويأخذ بالجانب المتشدد، ويترك الرفق والتيسير يعجز وينقطع فيُغلب.

«فسدّدوا» أى إذا كان الأمر كذلك فالزموا السداد، وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط.

«وقاربوا» أى إذا لم تستطيعوا أن تصلوا فى عبادتكم إلى درجة الكمال فتقربوا منها. أو قاربوا فى العبادات، ولا تباعدوا فيها، فإنكم إن بعدتم لم تبلغوا.

«وأبشروا» وفى هذا التوجيه بيان للبشرى التى يسوقها لمن طبقوا هذه التوجيهات ، إنهم يستبشرون بالثواب الجزيل على أعمالهم وإن قَلّتْ، ولم يقل - مثلاً - أبشروا بالثواب أو أبشروا بالجنة، لم يحدد الذى بشّر به ليشير إلى عظمة ما يبشر به وتفخيمه ولتذهب النفس فيه كل مذهب.

«واستعينوا بالغدوة» من الاستعانة وهى طلب العون فالسين والتاء للطلب، أى اطلبوا العَون بالغدوة بضم الغين وفتحها، وهى ما بين صلاة الصبح إلى طلوع الشمس «والروحة» هى السير بعد الزوال.

«وشىء من الدلجة» أى استعينوا كذلك بشىء من الدلجة وهى السير آخر النهار أو هى سير الليل جميعه، هذا معنى الدلجة ولذا قال: «وشىء من الدلجة» مشيراً إلى البعض وليس للكل، فهو يوجه إلى استمرار العبادة بوقوعها فى الأوقات المنشطة، فالأوقات المشار إليها فى الحديث هى أوقات النشاط وفراغ القلب لطاعة الله تعالى.

ولعل هذا الخطاب كان لأحد المسافرين فنبهه على أوقات النشاط؛ لأن المسافر إذا سافر النهار كله والليل كله عجز وانقطع ولا يمكنه أن يستمر، وإذا أمكنه أن يستريح ويمشى فى الأوقات المناسبة كان ذلك يتيح له الاستمرار وعدم الانقطاع.

وهذا الحديث يدعو إلى الاستمرار فى العبادة وعدم الغلو أو التشدد الذى يترتب عليه الانقطاع عنها فإن الإنسان المتشدد أو المتعمق الذى يترك الرفق لا بد أن يعجز، فالحديث يحذر من التشدّد والمغالاة، وليس فيه منع طلب الأكمل فإن =

= طلب معالى الأمور وكمالها من الأمور المحمودة، وإنما الممنوع هو الإفراط والتشدّد وكل ما يؤدى إلى الملال، وقد يترتب عليه ضياع فرض دون أن يعلم أو يحاول الزيادة فى النوافل فتضيع منه بعض الفروض.

فقد يتشدد إنسان على نفسه ويظل ساهراً متهجداً حتى تغلبه عيناه قرب صلاة الصبح فينام ويضيع منه الفجر فى جماعة، أو يظل نائماً حتى تطلع الشمس.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فى الحديث علم من أعلام النبوة فقد اتضح أن كل متشدد ينقطع عن العمل.

(٢) يسر الدين الإسلامى وسماحة تشريعه.

(٣) التحذير من الإفراط أو التفريط وعلى المسلمين أن يأخذوا بأواسط الأمور وألا يغالوا أو ينحرفوا.

٣١ - باب الصلاة من الإيمان

وقَوْلُ اللَّهِ تعالى (ومَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُمْ) [١] يَعْنِي صَلاَتَكُمْ عِنْدَ البَيْتِ.

٣٨ - حدثنا عَمْرُو بنُ خَالد قال: حدثنا زُهَيْرٌ قال: حدثنا أَبُو إِسْحَاقَ عَن البَرَاءِ أَنَّ النبيَّ ﷺ كان أَوَّلَ مَا قَدِم المدينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِه - أَوْ قَالَ أَخْوَالِه - مِنَ الأَنصارِ، وأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْراً، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْراً، وكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ، وأَنَّه صَلَّى أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلاَّهَا صَلاَةَ العَصْرِ، وصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ، وَهُمْ رَاكِعُونَ، فقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّه لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ، وكَانَت اليَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ، وأَهْلُ الكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ البَيْتِ أَنْكَرُوا ذلكَ».

قَال زُهَيْرٌ: حدّثنا أبو إسحاق عن البَرَاء في حَدِيثِه هذا أَنَّهُ مَاتَ عَلَى القِبْلَة قَبْلَ أن تُحَوَّلَ رِجَالٌ، وقُتِلُوا، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ومَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُمْ﴾.

---

٣٨ - لقد صلى رسول الله ﷺ وهو فى مكة متجهاً إلى الكعبة وبيت المقدس معاً، حيث كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس فى الاتجاه فلما هاجر إلى المدينة وتعذر الجمع بينهما وكان إرشاد الوحى الإلهى له بالاتجاه إلى بيت المقدس =

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

= استمر ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان اليهود يشغبون ويقولون يخالفنا ويتبع قبلتنا، وكان عليه الصلاة والسلام يقلّب وجهه في السماء راجياً أن يحوله الله إلى الكعبة المشرفة، وكان يقلب وجهه فقط ويستحى أن يطلب شيئاً خشية ألا يكون لله إرادة فيه ولذلك لم يسأل ربه، وإنما كان يتمنى فقط، ويقلب وجهه في السماء حتى نزل قول الله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[1] .

ونلاحظ في ترجمة الإمام البخاري وقوله في أول هذا الباب [باب الصلاة من الإيمان وقوله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» يعنى صلاتكم عند البيت] أراد بقوله هذا الإشارة إلى أصح الآراء بأن الصلاة التي كانت هي التي اتجه فيها إلى بيت المقدس واكتفى في ذلك بالإشارة إلى أصح الآراء في هذا، لأنه ورد أنه كان يصلي إلى بيت المقدس قبل الهجرة، وقال آخرون : كان يصلي إلى الكعبة، فلما هاجر إلى المدينة استقبل بيت المقدس والأصح: ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما وغيره: كان يصلي إلى بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس، ومعنى أنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً أي صلى جهة بيت المقدس.

وهناك روايات بغير حرف «أو» على أن المدة ستة عشر ورواية أخرى على أنها سبعة عشر وللجمع بين الروايتين قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: أن يكون من جزم بستة عشر لفّق من شهر القدوم وشهر التحويل شهرا وألغى الزائد، ومن جزم بسبعة عشر عدهما معاً ، ومن شك تردد في ذلك. وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: « أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَل مكة فداروا كما هم قِبَل البيت» .

وفي هذا بيان لأول صلاة صلاها متوجهاً إلى الكعبة وهي صلاة العصر، وعند

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٤ .

ابن سعد : حولت القبلة في صلاة الظهر أو العصر على التردد، والأصح : أن أول صلاة صلاها في بني سلمة عندما مات بشر بن البراء بن معرور هي صلاة الظهر. وأما أول صلاة صلاها بالمسجد النبوي فهي صلاة العصر. وأما صلاة الصبح فكانت بأهل قباء.

وللجمع بين هذه الآراء : بأن يكون الخبر وصل وقت العصر إلى من هو داخل المدينة وهم بنو حارثة والذي جاءهم بالخبر عباد بن بشر أو عباد بن نهيك، ووصل الخبر وقت الصبح إلى من هو خارج المدينة وهم بنو عمرو بن عوف أهل قباء وذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : «بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت». إلى آخر الحديث. قال : «أشهد بالله» أي أحلف بالله « لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت» أي أن المصلين لم يقطعوا الصلاة بل أتموها إلى جهة الكعبة فصلوا صلاة واحدة إلى قبلتين بدليلين «كما هم» أي : على ما هم «فالكاف» بمعنى «على» فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء، وهذا التحول يحتاج عملاً كثيراً في الصلاة قد يترتب عليه بطلانها في غير هذا الموضع والحال، لكن يجوز أن يكون هذا الذي حدث كان قبل تحريم العمل الكثير في الصلاة، كما كان قبل تحريم الكلام، أو أن هذا العمل المذكور من أجل هذه المصلحة، أو أن الخطوات أثناء التحويل لم تتابع بل وقعت مفرقة.

وعندما مرّ عبّاد على أهل مسجد بني حارثة وهم راكعون وأخبرهم سمعوا كلامه وتحولوا إلى جهة الكعبة وصلوا صلاة واحدة إلى جهتين، ويُعرف المسجد الآن بمسجد القبلتين.

(وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَل بيت المقدس وأهل الكتاب) وأهل الكتاب عام يشمل اليهود والنصارى وعطفه على اليهود من عطف العام على الخاص، أو أن المراد بأهل الكتاب النصارى فقط، لأنهم من أهل الكتاب، ولما اتجه رسول الله ﷺ جهة البيت الحرام أنكروا ذلك فنزل قول الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي = مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٢ .

ولما مات بعض الصحابة رضى الله عنهم قبل أن تتحول القبلة وقال إخوانهم من الصحابة ما ندرى ما نقول فيهم أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ (١) أى صلاتكم السابقة التى أديتموها من قبل وهى بيت المقدس.

وروى أبو داود والترمذى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما : «والذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس فبمكة من قريش : عبد الله بن شهاب والمطلب بن أزهر الزهريان والسكران بن عمرو العامرى ، وبأرض الحبشة منهم حطاب بن الحارث الجمحى وعمرو بن أمية الأسدى وعبد الله بن الحارث السهمى وعروة بن عبد العزى ، وعدى بن فضلة العدويان ، ومن الأنصار بالمدينة : البراء بن معرور وأسعد بن زرارة ، فهؤلاء العشرة متفق عليهم » .

ما يؤخذ من الحديث

(١) وجوب الصلاة إلى القبلة والإجماع على أنها الكعبة المشرفة.

(٢) ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ من الحب لإخوانهم والحرص على دينهم.

(٣) فى الحديث دليل على حجية خبر الواحد والعمل بمقتضاه حيث إن الذى أخبرهم بتحويل القبلة شخص واحد وعملوا بخبره.

(٤) الرد على المرجئة فى إنكارهم تسمية أعمال الدين إيماناً.

(٥) جواز تمنى تغيير بعض الأحكام إذا ظهرت المصلحة فى ذلك.

(٦) بيان شرف الرسول ﷺ وكرامته على ربه حيث أعطاه ما يحب وهو التحويل إلى الكعبة من غير تصريح بالسؤال.

(٧) جواز تعليم من ليس فى الصلاة من هو فيها وأن استماع المصلى لكلام من كان خارج الصلاة لا يبطلها.

(٨) جواز نسخ الأحكام خلافاً لليهود.

(٩) جواز الاجتهاد فى القبلة.

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

٣٢ - باب حسن إسلام المرء

قَال مَالكٌ أَخْبَرَني زَيْدُ بنُ أَسْلَمَ أَنَّ عَطَاءَ بنَ يَسَارٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ أخبره أَنَّهُ سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ «إِذَا أَسْلَمَ العَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ يُكَفِّرُ الله عنه كُلَّ سَيِّئَة كان زَلَفَهَا، وكان بَعْدَ ذَلكَ القِصَاصُ، الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إلى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ، والسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إلاَّ أَنْ يَتَجَاوَزَ الله عَنْهَا».

٣٩ ـ حدثنا إِسْحَاق بنُ مَنْصُورٍ قال حدثنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قال: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامٍ عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلاَمَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ، وكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا».

في عنوان هذا الباب «حسن إسلام المرء» ذكر قول مالك: أخبرني زيد بن أسلم أن عطاء بن يسار أخبره أن أباسعيد الخدري أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا أسلم العبد فحسن إسلامه يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفها» .. إلى آخر الحديث.. هكذا نرى أنه ذكر هذا الحديث معلقاً، ولذلك لم نعطه رقماً؛ لأنه ليس على شرط البخاري حيث جاء معلقاً وإن ثبت وصله من طرق أخرى حيث وصله أبو ذر الهروي، والنسائي والحسن بن سفيان والإسماعيلي والبيهقي والدارقطني.

وفي هذا الحديث بيان بأن الإنسان الذي يدخل في الإسلام ويحسن إسلامه =

= يُكفِّر الله عنه كل سيئة كان زلفها أى: قدمها وكل ذنب سلف منه قبل ذلك، وذلك إذا حَسُن إسلامه بأن كان صادق الإيمان ظاهراً وباطناً، وكان بعد ذلك القصاص أى كتابة المجازاة فى الدنيا فتكتب الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وفى بعض الروايات إلى أضعاف كثيرة..

«والسيئة بمثلها» أى تكون بمثلها من غير زيادة، «إلا أن يتجاوز الله» فيكون العفو من الله تعالى، وفى هذا دليل لأهل السنة أن العبد تحت المشيئة إن شاء الله تعالى تجاوز عنه، وإن شاء آخذه.

كما أن فيها رداً على من يقطع بالنار لأهل الكبائر كالمعتزلة، وفى رواية: «إذا أسلم العبد كتب الله له كل حسنة قدمها، ومحا عنه كل سيئة زلفها».

وبهذه الرواية يستدل على أن الكافر إذا فعل أفعالاً حسنة على جهة التقرب إلى الله تعالى كالصدقة والعتق وصلة الرحم ونحو ذلك ثم أسلم ومات على الإسلام أنه يكتب له ثواب ذلك خلافاً للبعض، أما إذا لم يسلم فقيل: لا يكتب له ثوابه، بل نفعه قاصر على الدنيا كزيادة مال وولد، والأصح أن أعمال الخير تنفعه فى الآخرة أيضاً بأن يخفف الله تعالى عنه من عذاب غير الكفر.

وقال النووى رحمه الله: الصواب الذى عليه المحققون بل نقل بعضهم فيه الإجماع أن الكافر إذا فعل أفعالاً جميلة كالصدقة وصلة الرحم ثم أسلم ومات على الإسلام أن ثواب ذلك يكتب له.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فى الحديث رد على من يقطع بالنار لأهل الكبائر كالمعتزلة.

(٢) أن العبد تحت مشيئة الله تعالى إن شاء تجاوز عنه وإن شاء آخذه، وهو رأى أهل السنة.

(٣) أن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله.

٣٩ - في هذا الحديث بيان من رسول الله ﷺ أن الإنسان الذى يحسن إسلامه فيؤمن إيماناً صحيحاً صادقاً ، لا يخامره شك ويعمل بما يأمره به الإسلام وينتهى عما ينهاه عنه فكل حسنة يعملها يضاعفها الله تعالى له إلى عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها ، بل إن التضعيف يتجاوز سبعمائة ، فقد روى البخارى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما :

« كتب له الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعْف إلى أضعاف كثيرة » وفى رواية مسلم : « حتى يلقى الله عز وجل » أى : أن هذا الجزاء والتضعيف يستمر إلى أن يلقى ربه فيكافئه ويضاعف له الجزاء الأوفى فضلاً منه وكرماً فهو أكرم الأكرمين .

ونلاحظ فى هذا الحديث تقييد للمطلق ففى الحديث السابق يُكفّر الله عنه كل سيئة . . وفيه : الحسنة بعشر أمثالها ، وهنا قيد المطلق هناك فقيّد الحسنة بالعمل وكذلك قيّد السيئة بالعمل حيث قال : « فكل حسنة يعملها . . وكل سيئة يعملها » .

وفى رواية عند الإمام مسلم ولإسحاق بن راهويه فى مسنده : « إذا حسُن إسلام أحدكم » ، والخطاب فى « أحدكم » لا يخص فقط الحاضرين بل هو عام لهم ولغيرهم لأن حكمه على الواحد حكم على الجماعة .

وهذا الحديث الذى معنا يقرر أن شرط مضاعفة الحسنة وكون السيئة بمثلها إنما هو لمن حسن إسلامه ، وكان مؤدياً للطاعات ، صادقاً فى إيمانه وعقيدته لا تشوب إيمانه أية شائبة .

ما يؤخذ من الحديث

(١) الحث على حسن إسلام المسلم بقوة عقيدته وإخلاصه فى طاعته واستجابته لأوامر الشرع وتوجيهاته .

(٢) فضل الله تعالى ورحمته بعباده المؤمنين حيث يضاعف الحسنة ولا يضاعف السيئة .

(٣) رحمة الرسول ﷺ بأمته ورفقه بهم وشفقته عليهم وحبه لهم حيث يوجههم إلى ما فيه سعادتهم .

٣٣ - باب
أحب الدين إلى الله أَدْوَمُهُ

٤٠ - حدثنا مُحَمَّدُ بنُ المُثَنَّى حدّثنا يحْيى عَن هشامٍ قال: أَخْبرَنِى أبى عَنْ عَائشَةَ «أنَّ النبىَّ ﷺ دخَلَ عليْهَا، وَعنْدَهَا امْرأَةٌ، قال: مَنْ هذه؟ قَالَتْ: فُلانَةُ تَذْكُرُ منْ صَلاَتِها، قَالَ: مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَ اللهِ لاَ يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا، وكَانَ أَحبَّ الدِّينِ إليْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْه صَاحِبُهُ».

---

٤٠ - فى هذه الترجمة ما يفيد أن الإيمان يطلق على الأعمال، لأن المراد بالدين هنا العمل، وارتباط هذا الحديث بسابقه، ليبين أن حُسْن إسلام المرء المطلوب ليس بحد المغالبة ولا بالتشدد فإن الدين يُسْر لا عُسْر، وأحب الدين إلى الله أدومه، وكلمة «أدومه» أفعل تفضيل من الدوام، والمراد به الدوام الممكن عرفاً، القابل للكثير والقليل.

وواضح أن الإسلام دين السماحة واليُسْر، لا حرج فيه ولا مشقة.

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (١).

فإن العمل الدائم ولو كان قليلاً ينمو ويصبح أكثر من الكثير المنقطع، أما الذى يترك العمل بعد الدخول فيه فهو كالمعرض بعد الوصل.

ولطالما وجه الرسول ﷺ المسلمين بأن يأتوا من الأعمال ما يوافق استطاعتهم كقوله «إذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم» وهذا عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال لى رسول الله ﷺ: يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ فقلت: بلى يا رسول الله قال: فلا تفعل، صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاً وإن لعينيك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإن لزورك - =

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

= أى لضيفك ـ عليك حقاً ـ وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها . . » رواه البخارى.

ومن المعلوم أن منهج الإسلام قام على الاعتدال والقصد فى الأمور كلها لا إفراط ولا تفريط، قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ (١) وقال ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٣) وقال ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٤) وقال ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم : «هلك المتنطعون» أى: الذين يبالغون ويتشددون فى الأمور، وقال: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا واغدوا وروحوا».

وهكذا يتبين لنا حرص الشريعة الإسلامية على اليسر فمعروف أن العمل القليل الذى يكون صاحبه منشرح الصدر نشيطاً للعبادة أفضل بخلاف الكثير الشاق فإنه بصدد أن يتركه الإنسان أو أن يفعله بتكلف وبغير انشراح، وقد ذم الله تعالى من اعتاد عبادة ثم أفرط فيها فقال: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (٥) .

وكثيراً ما نادى الإسلام بتواصل أعمال الخير ودوامها وعدم احتقار اليسيرمنها . قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخارى: « يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» والفرسن: هو عظم قليل اللحم ويطلق على الظلف. وقد قال تعالى: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾(٦) .

وقد قاوم الرسول ﷺ الذين يغالون فى أعمالهم، روى أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ دخل المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا : هذا حبل لزينب تقوم تصلى فإذا فترت قامت فتعلقت به، فقال النبى ﷺ «حلوه» ، ثم قال: «ليصلى أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد».

---

(١) سورة الأعراف : آية ٣١
(٢) سورة الفرقان : آية ٦٧
(٣) سورة البقرة : آية ١٨٥ .
(٤) سورة الحج : آية ٧٨ .
(٥) سورة الحديد : آية ٢٧ .
(٦) سورة البقرة :آية ٢٨٦ .

كما أخرج البخارى فيما روى أنس رضى الله عنه أيضاً قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها أى عدوها قليلة ـ وقالوا : أين نحن من النبى ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : «أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى» .

وقد حكى أن قوماً أتوا قيس بن عبادة يسألونه أن يعاونهم على أداء دية لزمتهم ، فنظروا إليه فرأوه وهو فى البستان يجمع ما يتساقط من الثمر ويميز بين الجيد والردىء ، فلما انتهى من عمله سألوه ما أرادوا فأعطاهم ما طلبوه ، فقال له بعضهم : لقد داخلنا بعض الشك فى جودك بعد أن رأينا ما تصنعه فى البستان فأجابهم إن ما رأيتم من حرصى على مالى هو الذى مكننى من تحقيق غرضكم .

أى : أن الاعتدال فى الأمور كلها ، والتوسط بين الإفراط والتفريط ، يحفظ على الإنسان ، مواصلة العمل ، والاستمرار فى وجوه الخير والنفع العام ، وقد كان منهج الإسلام فيما يتصل بهذا الجانب ـ عاماً وشاملاً لسائر العبادات ، والأعمال ، ووجوه النفع الشامل ، ولم يدع جانباً من تلك الجوانب إلا ووجه المسلم إلى الاعتدال فيه ، بحيث لا يكون هناك إفراط ولا تفريط ولا مغالاة ولا تقصير .

ففى جانب الأكل والشرب ، قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ (١) .

وفى جانب الإنفاق والصدقة نادى القرآن بالاعتدال بحيث لا يكون المسلم بخيلاً ولا مبذراً ، فقال تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (٢) .

وفى جانب العبادة لم يكلف الله الناس بما لا طاقة لهم به ، قال تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الأعراف : آية ٣١ (٢) سورة الإسراء : آية ٢٩ . (٣) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ (١) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله فى أثرها ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ (٢) فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (٣) .

وقد كشفت السنة الشريفة عن هذا الجانب من التجاوز والعفو. روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لى عن أمتى ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم».

وقد اجتهد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فى تثبيت منهج الاعتدال فى الأعمال والعبادات عند المسلمين، حرصاً منه على استمرارهم فى العمل ورأفة منه ورحمة بهم.

لقد حرص على ترسيخ هذا المنهج المعتدل، حتى إنه كان يترك فى بعض الأحيان - بعض الأعمال، فلا يقوم بأدائها أمام الناس مخافة أن يواظبوا عليها، فتفرض عليهم، عن عائشة رضى الله عنها قالت: «إن كان رسول الله ﷺ ليدع =

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٨٤ .

(٢) سورة البقرة: آية ٢٨٥ .

(٣) سورة البقرة: آية ٢٨٦ .

= العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل الناس به فيفرض عليهم، وما سبح رسول الله ﷺ سبحة الضحى قط وإني لأسبحها » وهي نافلة الضحى .

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (١) ومعنى الآية: إن الله تعالى يمتن على المؤمنين، حيث أرسل إليهم رسولاً من جنسهم، وعلى لغتهم كما دعا إبراهيم عليه السلام، كما قال الله تعالى حكاية عنه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾(٣).

وأنه يعز عليه ما يعنت أمته أو ما يشق عليها، لأنه بُعث بالحنيفية السمحة وهو حريص كل الحرص على هداية أمته، والتيسير عليها ووصولها إلى سعادة الدنيا والآخرة، وفيما رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس «إن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة، ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة جدة، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء تتبعونى؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لى إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعونى؟ فقالوا: بلى فقال: فإن بين أيديكم رياضاً هى أعشب من هذه، وحياضاً هى أروى من هذه فاتبعونى فقالت طائفة: صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه».

كل هذا يدل على رأفة الرسول ﷺ ورحمته بأمته، واتباعه معها طريق اليسر والتسامح، فإنه يعز عليه أن ترى شيئاً يشق عليها، أو حرجاً تلاقيه لأنه بعث رحمة للعالمين .

---

(١) سورة التوبة: آية ١٢٨ (٢) سورة البقرة: آية ١٢٩ .

(٣) سورة آل عمران: آية ١٦٤ .

وقال ﷺ : «إنما أنا رحمة مهداة» فالرحمة جوهر رسالته قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١) والطريق إلى هذه الرحمة يسير في اتجاهين مستقيمين.

أحدهما : في التيسير في التكاليف والعبادات، والرحمة بالأمة في كثير من أحكام الإسلام كما هو معروف.

والثاني : بدوام العمل والعبادة، واستمراره، وعدم انقطاعه، فكلما استمر المسلم في العبادة وداوم عليها وإن كانت قليلة داوم الله تعالى بإسباغ رحمته عليه، ورفقه به، ورعايته له وحبه إياه، لأن هذا المنهج من السلوك هو أحب الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى .

كما قال الرسول ﷺ : «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل» أما نتيجة هذا الحب من الله تعالى، فقد بيّنه فيما جاء في الحديث القدسي : «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه..» ومن مظاهر حرص الرسول ﷺ على أمته أمره لهم من جانب التكليف والعبادة ألا يفعلوا ما يتسببون به في الزيادة وما لا يستطيعون القيام به ، عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا» فقال رجل : أكُلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال النبي ﷺ : «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ذروني ما تركتكم» رواه أحمد ومسلم والنسائي.

وروى أحمد والنسائي بمعناه : عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «يا أيها الناس كتب عليكم الحج » فقام الأقرع بن حابس فقال : أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال «لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها، ولم تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع».

ومن مظاهر التيسير أن الرسول ﷺ كان لا يشق على المسلمين ويتحاشى ما يكون سبباً في تسرب الملل إلى نفوسهم حتى ولو كان ذلك من توجيهه

(١) سورة الأنبياء - آية : ١٠٧ .

وإرشاده فكان ﷺ يتخول المسلمين بالموعظة كراهة السآمة، عن ابن مسعود قال: « كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا » وكان يخشى إذا استمر فى التوجيه والتعليم أن يتسرب الملل إلى أصحابه أو يأخذ التعب طريقه إليهم فكان يعطيهم فرصة للراحة والاستجمام والتشويق لتتمكن معلوماتهم فيها من التثبيت والتركيز ولهذه الطريقة الرشيدة تدين مؤسسات التربية اليوم التى استمدت نظمها الناجحة من هذا المنهج النبوى الحكيم.

وحين بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن زوده بالتوجيه الكافى وأمره أن يسير على سنن التدريج معهم فيقول له «إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». (١)

ويتبادر هنا سؤال هو: أن الله تعالى قد أمرنا بالاقتداء بالرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾ ﴾ (٢) ومن المعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقوم الليل متهجداً راكعاً ساجداً حتى تتورم قدماه وتفيض عيناه بالدمع من خشية الله، وحتى يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، فتقول له فى ذلك السيدة عائشة رضى الله عنها: أتفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيجيبها: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وكان يواصل الصيام، والوصال: هو الترك فى ليالى الصيام لما يفطر به قصداً، ومع هذا فقد نهى عن الوصال بالنسبة للمسلمين. فلمَ لَمْ يكن الاقتداء به فى مثل هذه الأمور؟ أو بمعنى آخر كيف يأمر بالتيسير وهو يأتى مثل هذه الأعمال الشاقة؟ وللإجابة على هذا نقول: إن كل حكم يثبت فى حق النبى ﷺ =

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) سورة الأحزاب - آية: ٢١.

= فهو ثابت أيضاً في حق أمته إلا ما استثنى بدليل كبعض خصائصه ﷺ، فإن خصائص الرسول ﷺ لا يُتأسّى به في جميعها، وقد توقف في ذلك إمام الحرمين، وقال أبو شامة: ليس لأحد التشبه به في المباح كالزيادة على أربع نسوة، ويستحب التنزه عن المحرم عليه كالأكل من الصدقة ويستحب التشبه به في الواجب عليه كالضحى.

قال الحافظ ابن حجر - في فتح الباري: وأما المستحب - أي في حقه ﷺ فلم يتعرض له، والوصال منه أي: وصال الصيام من قبيل المستحب في حق النبي ﷺ فيحتمل أن يقال: إن لم ينه عنه لم يمنع الاتساء به فيه ا هـ.

ولعل مراد الحافظ بقوله: إن لم ينه عنه، أي بالنسبة لبعض الناس وفي بعض الأحوال وهذا نادر، وأما الأعم الأغلب فهو ما وردت به السنة الصحيحة الصريحة في ذلك من النهي عن الوصال.

روى الإمام البخاري رحمه الله قال: حدثنا يحيى: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن همام أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إياكم والوصال» مرتين، قيل: إنك تواصل. قال: «إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني فاكلفوا من العمل ما تطيقون».

ما يؤخذ من الحديث

(١) التيسير وعدم التعسير والرحمة بالأمة الإسلامية في سائر التكاليف الشرعية صلاة وزكاة وصياماً وحجاً وما إلى ذلك.

(٢) أن أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها.

(٣) يقوم منهج الإسلام على الاعتدال في العبادة والعمل دون إفراط أو تفريط.

(٤) أن الإيمان يطلق على الأعمال، لأن المراد بالدين في الحديث العمل.

(٥) الإسلام دين اليسر لا العسر

(٦) في الحديث شفقة الرسول ﷺ بأمته حيث أرشدهم إلى ما يصلحهم وما يمكنهم معه من الاستمرار على العبادة دون مشقة.

٣٤ - باب زيادة الإيمان ونقصانه

وقَولِ اللهِ تعالى ﴿ وزدْنَاهُمْ هدًى ﴾ (١). ﴿ ويزْدَادَ الَّذين آمنُوا إيمانًا ﴾ (٢) وقال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (٣) فإذا تركَ شَيْئًا من الكَمَالِ فهُو نَاقِصٌ.

٤١ - حدثنا مُسْلِمُ بنُ إبْرَاهِيمَ : قال : حدَّثنا هشَامٌ قال : حدثنا قَتادةُ عَنْ أَنَسٍ عن النبيِّ ﷺ قال : « يَخْرُجُ مِنَ النارِ مَنْ قال لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ ، وفي قَلْبِهِ وزْنُ شَعِيرَةٍ من خَيْرٍ ، ويَخرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قال لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وفي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ ، ويَخْرُجُ من النَّارِ مَنْ قال لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وفي قَلْبِهِ وزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ » .

قال أبُو عَبْدِ اللهِ : قال أَبانُ : حدَّثنا قَتَادَةُ حدَّثنا أنسٌ عَنِ النبيِّ ﷺ « مِنْ إيمانٍ » مَكَانَ « مِنْ خَيْرٍ ».

---

٤١ - الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بزيادة الأعمال الصالحة، وينقص بنقصانها، وفي قوله تعالى : ﴿ وزدْنَاهُمْ هدًى ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ ويزْدَادَ الَّذين آمنُوا إيماناً ﴾ ما يفيد زيادة الإيمان وما يجوز عليه الزيادة، يجوز عليه النقصان، وهاتان الآيتان الكريمتان تمهدان معنى الكمال المذكور في الآية الثالثة : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ فإذا ترك المسلم شيئاً من الكمال فهو ناقص.

(١) سورة الكهف : آية ١٣ .
(٢) سورة المدثر : آية ٣١ .
(٣) سورة المائدة : آية ٣ .

ويوضح هذا الحديث رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده الذين ماتوا على التوحيد، ولم يشركوا به شيئاً، وأنهم مهما فعلوا من المعاصي والذنوب فعُذّبوا بها في الآخرة، ودخلوا النار، فإن إيمانهم بالله، يكون شفيعاً لهم في الخروج من النار، وعدم الخلود فيها، بفضل الله تعالى، ورحمته التي وسعت كل شيء.

ومعنى قوله ﷺ: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله» أي: من آمن بالله مصدقاً بقلبه وآمن بأن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ، واقتصر على الجزء الأول من كلمة التوحيد؛ لأنه علم على المجموع مثل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عَلَم على السورة كلها.

(وفي قلبه وزن شعيرة من خير) أي: في قلبه وزن شعيرة من إيمان ولا يخفى صغر الشعيرة وقلتها، ولكنها تتضمن الإيمان بجميع ما جاء به النبي ﷺ.

وإذا حصل الخروج من النار بأقل ما يطلق عليه اسم الإيمان فالكثير من باب أَوْلَى.

(ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله) أي: وقال محمد رسول الله ﷺ قالها موقناً بها ومصدقاً (وفي قلبه وزن بُرّة من خير) والبرة هي: القمحة.

(ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير) والذرة واحدة الذر وهي صغار النمل وقيل: هو الهباء الذي يظهر في شعاع الشمس مثل رؤوس الإبر، وقيل: هو الساقط من التراب بعد وضع الكف عليه ونفضها.

والحديث بجملته يوضح حقيقتين هامتين:

أما الأولى: فهي أن الله تعالى يفعل ما يشاء وأنه حكم عدل، وما ربك بظلام للعبيد، فهو يدخل النار - إن شاء - بعض الموحدين، والذين ماتوا على الإيمان وعصوا الله، والذين يدخلون النار من عصاة الموحدين البعض وليس الكل، إذ

منهم من يعفو الله عنه، ويعفو عن كثير، ومنهم من يؤاخذه لنقص إيمانه، ولمخالفته وعصيانه، ولكنه مع دخوله النار بسبب عصيانه لا يخلد فيها، فإن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار.

ودخوله النار فيه ما يوضح أن مجرد التصديق لا يكفي.

وأما الحقيقة الثانية: فهي أن الله تعالى أرحم الراحمين، إنه يرحم الذين دخلوا النار من العصاة الموحدين، فيخرجهم من النار، ويدخلهم الجنة ما داموا على التوحيد، وماتوا عليه، وأشار الحديث إلى درجات الإيمان، وأنه يزيد بزيادة الأعمال الصالحة وينقص بنقصانها.

ولكن ما دام أصل الإيمان موجوداً فإنه ينجي صاحبه ويخرجه من النار وكما جاء في الحديث « وفي قلبه وزن شعيرة من خير » أو « وزن برة » أو « وزن ذرة ».

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن الإيمان يزيد وينقص على حسب الأعمال.

(٢) أن مرتكب الكبيرة لا يكفر ولا يخلد في النار.

(٣) لا يكفي مجرد التصديق في الإيمان بل لا بد مع التصديق من القول والعمل.

(٤) رحمة الله تعالى بالموحدين من هذه الأمة وأنهم لا يحرمون فضل الله تعالى.

(٥) أن العصاة الموحدين ـ وإن عصوا ـ فإن رحمة الله تتداركهم بفضله سبحانه وتعالى، وبشفاعة الرسول ﷺ لهم يوم القيامة حيث يشفعه الله تعالى في أمته في الموحدين الذين أذنبوا، فبعد عذابهم يخرجون من النار وقد يعفو الله تعالى عنهم ابتداء والله ذو فضل عظيم.

٤٢ - حَدَّثَنَا الحَسَنُ بنُ الصَّبَّاحِ سَمِعَ جَعْفَرَ بنَ عَوْنٍ حَدَّثَنَا أَبُو العُمَيْسِ أخبرنا قَيْسُ بنُ مسْلِمٍ عَنْ طَارِق بنِ شِهَابٍ عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ « أنَّ رَجلاً منَ اليَهُود قال لَهُ : يَا أميرَ المُؤمنينَ ، آيَةٌ في كتابكُمْ تقرأُونَها ، لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليَهُود نزَلَتْ لاتَّخَذْنَا ذَلكَ اليَوْمَ عيداً ، قَالَ : أيُّ آيَةٍ ؟ قَالَ : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ (١) قال عُمَرُ : قَدْ عَرَفْنَا ذَلكَ اليوم ، والمَكَانَ الَّذى نَزَلَت فيه عَلَى النبى ﷺ ، وَهُوَ قَائمٌ بعَرَفَةَ يومَ جُمُعَةٍ .

---

٤٢ - إن قائل هذه العبارة «يا أمير المؤمنين آية فى كتابكم....» هو كعب الأحبار وذلك قبل دخوله الإسلام، ويحتمل أن يكون معه جماعة وتكلم كعب الأحبار على لسانهم.

قال: (لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً) أى : لعظموه وجعلوه عيداً ، وذلك بسبب ما تم فيه من إكمال الدين.

والعيد من العود؛ لأنه يتكرر فى كل عام، ولعود السرور بعوده. فقال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أى آية هى؟

قال كعب: ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ أى : اختاره الله ديناً لنا فقال عمر رضى الله عنه: «قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذى نزلت فيه على النبى ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة» وسمى بيوم الجمعة لاجتماع الناس فيه.

فالله تعالى أكمل الدين بإظهاره على الأديان كلها. وباشتماله على ما فيه سعادة الفرد والمجتمع دنيا وأخرى.

---

(١) سورة المائدة : آية ٣ .

﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ وتمام النعمة يكون بتمام الهدى والرشد ، وقد يكون بإكمال الدين أو بفتح مكة .

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ أى : اختاره الله تعالى لنا .

وقد بيّن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه يعرف ذلك اليوم والمكان الذى نزلت فيه هذه الآية الكريمة على النبى ﷺ ، فأما اليوم : فهو يوم عرفة وكان يوم الجمعة ، وسُمّى بذلك لاجتماع الناس فيه ، وأما المكان ففى عرفة ، وكان نزول الآية حال كون الرسول ﷺ قائماً يصلي . وكان ذلك في حجة الوداع .

وقد تضمن الجواب أنهم اتخذوا ذلك اليوم عيداً وهو يوم الجمعة ، واتخذوا يوم عرفة عيداً ، لأنه ليلة عيد الفطر .

وإكمال الدين الذى ورد فى الآية الكريمة : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ يكون بالنصر والتأييد ، والنص على قواعد العقائد .

و «إتمام النعمة» كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ بالهداية وبإكمال الدين وإتمام أحكامه وتشريعاته ، أو بفتح مكة المكرمة وإزالة أمور الكفر والجاهلية ، وانتشار أمان الإسلام .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ بيان لأهمية الإسلام الذى اختاره الله تعالى لهذه الأمة من بين الأديان ، وكان نزول هذه الآية الكريمة فى حجة الوداع بعرفة فى آخر عهد البعثة حين تمت الشريعة وأركانها .

ولم ينزل بعد هذه الآية شيء من الحلال والحرام كما جزم السدى بذلك .

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل عرفة ويوم عرفة ويوم الجمعة .

(٢) منقبة عظيمة لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٣) معرفة أهل الكتاب لعظمة هذا الدين ورسوله ﷺ .

(٤) أهمية يوم عرفة ، وأنه يطلق عليه اسم العيد ، لأنه ليلة عيد .

(٥) كمال الدين الإسلامي ، وتمام النعمة بالهداية إليه فلسنا فى حاجة إلى مزاعم أهل الباطل وأن الرسول ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين .

٣٥ - باب
الزَّكَاةُ مِنَ الإِسْلاَمِ

وَقَوْلُه ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ (١) .

٤٣ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ : حَدَّثَنِى مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ عَمِّهِ أَبِى سُهَيْلِ بنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللهِ يَقُولُ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ، ثَائِرَ الرَّأْسِ ، يُسْمَعُ دَوِىُّ صَوْتِهِ ، وَلاَ يُفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِى الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ، فَقَالَ : هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ : لا ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : وَصِيَامُ رَمَضَانَ ، قَالَ : هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهُ ؟ قَالَ : لاَ ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ ، قَالَ : وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ ، قَالَ : هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ : لا ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ ، قَالَ : فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ ، وَهُوَ يَقُولُ : وَاللهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ » .

---

٤٣ - كون الزكاة من الإيمان على معنى أنها شعبة من شُعَب الإيمان ، واختص الزكاة بالذكر ، لأن باقى ما ذكر فى الآية الكريمة والحديث الشريف قد أفرد بتراجم أخرى .

لقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وهذا الرجل هو ضمام بن ثعلبة ثائر الرأس =

(١) سورة البينة : آية ٥

= أى : متفرق الشعر ؛ لعدم الرفاهية ولقرب عهده بالوفادة، كما جاء وصف ضمام بشدة صوته وبعده فى الهواء، بحيث لا يُفهم، وذلك فى نص الحديث.

«نسمع دوىّ صوته، ولا نفقه ما يقول..» أى : بسبب البعد وشدة الصوت.

«فإذا هو يسأل عن الإسلام» أى : يسأل عن شرائع الدين أو عن حقيقة الإسلام، إنه يسأل عن أركان الإسلام وشرائعه بعد التوحيد والتصديق فقال رسول الله ﷺ :« خمس صلوات فى اليوم والليلة» والمراد إقامة خمس صلوات فى اليوم والليلة وهى صلاة الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء.

ونلاحظ أنه لم يذكر له الركن الأول من أركان الإسلام وهو شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ لأنه علم أنه يعلم الشهادة وليس فى حاجة إلى ذكرها له ، أو علم أنه يسأل عن الشرائع الفعلية والعبادات العملية ويحتمل أن يكون قد ذكرها ولم ينقلها الراوى لشهرتها.

فعاد الرجل وسأل رسول الله ﷺ قائلاً: «هل علىَّ غيرها ؟ قال ﷺ : «لا إلاّ أنْ تطَّوّع» أى : لا شىء عليك غيرها إلا أن تؤدى التطوع والنفل فهذا مستحب، ومعنى هذا أن الوتر ليس فرضاً ، وهذا الحديث حجة على الحنفية الذين أوجبوا الوتر وحجة على بعض القائلين ـ من الشافعية ـ بأن صلاة العيدين فرض كفاية.

وبهذا يعلم أن التطوع مستحب، وعلى هذا لا تلزم النوافل بالشروع فيها، ولكن يستحب إتمامها، وقد روى أن الرسول ﷺ كان ينوى أن يصوم صوم التطوع ثم يفطر [1]، وروى أنه أمر جويرية بنت الحارث أن تفطر يوم الجمعة بعد أن شرعت فيه [2] وهذا يدل على أن الشروع فى النفل لا يلزم منه الإتمام.

ولا يرد عليه الحج، لأنه تميز عن غيره بوجوب المُضىّ فى فاسده، فكيف فى صحيحه؟ .

ويرى المالكية والحنفية أن الشروع فى التطوع يوجب إتمامه فالاستثناء متصـــل.

(١) رواه النسائي .   (٢) رواه البخارى .

وقال الشافعية : إن التطوع لا يجب بالدخول فيه ولكن يستحب إتمامه.

ومما يستدل به القائلون بلزوم أداء التطوع إذا شرع فيه الإنسان ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: أصبحت أنا وحفصة صائمتين، فأهديت لنا شاة، فأكلنا فدخل النبى ﷺ فأخبرناه فقال: صوما يوماً مكانه، والأمر للوجوب فدلّ هذا على أن من شرع فى نفل يلزمه إتمامه إلا لعذر مثلاً.

وأمامنا الآن بعض الأحاديث التى يُوهم ظاهرها التعارض.

أولاً: الأحاديث التى تدل على عدم لزوم الاستمرار فى التطوع إذا بدأه الإنسان منها: أن الرسول ﷺ كان ينوى أن يصوم صوم التطوع ثم يفطر، كما رواه النسائى، ومنها أن الرسول ﷺ أمر جويرية بنت الحارث أن تفطر يوم الجمعة بعد أن شرعت فيه، كما رواه البخارى، فهذان دليلان على أن الشروع فى النفل لا يلزم منه الإتمام.

ثانياً: الأحاديث التى تدل على لزوم التطوع إذا بدأ الإنسان الشروع فيه منها: قوله ﷺ للسيدة عائشة والسيدة حفصة رضى الله عنهما عندما كانتا صائمتين نفلاً وأفطرتا: «صوما يوماً مكانه» رواه أحمد، ومنها ما رواه الدارقطنى عن أم سلمة أنها صامت يوماً تطوعاً فأفطرت فأمرها النبى ﷺ أن تقضى يوماً مكانه.

ويمكن الجمع بين الأحاديث التى تدل على عدم لزوم الاستمرار فى التطوع بعد الشروع فيه، والأحاديث التى تدل على لزوم التطوع وإتمامه إذا شرع فيه، بأن نقول:

يُحمل الأمر على الندب إذا ثبت الخبر، وذلك فى حديث السيدة عائشة والسيدة حفصة رضى الله عنهما حيث كانتا صائمتين وأفطرتا فأمرهما النبى ﷺ بصوم يوم مكانه.

وأيضاً ما ورد من أن الرسول ﷺ أمر أم سلمة وكانت تصوم يوماً تطوعاً فأفطرت فأمرها أن تقضى يوماً مكانه فالأمر فى هذين الحديثين محمول على =

= الندب لا على الوجوب، والراجح عدم وجوب القضاء.

وقوله« إلا أن تطوع» أصلها تتطوع بتاءين فأدغمت.

قال رسول الله ﷺ : « وصيام رمضان» وهو معطوف على قوله :«خمس صلوات» والمراد صيام شهر رمضان، « قال : هل عليَّ غيره؟ قال : لا إلا أن تطوع» أي : إذا تطوع فيستحب له ذلك ولا يلزمه إتمامه إذا شرع فيه؛ أو على الرأى الآخر أنه يلزمه إتمامه إذا شرع فيه على الرأى الآخر القائل بلزوم إتمامه، ولقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (١) وهذا رأى الحنفية قال راوى الحديث - وهو طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه :« وذكر رسول الله ﷺ الزكاة» أى : المفروضة ضمن شرائع الإسلام، فقال الرجل: هل عليَّ غيرها؟ قال له الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « لا إلا أن تطوع ».

« قال : فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص» أى : أنه عزم على الاقتصار على أداء الفرائض فقط، «قال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق» أى فاز الرجل ونجا إن صدق فى قوله ، وفى بعض الروايات :« أفلح وأبيه إن صدق» ولا تعارض بين قوله فى هذه الرواية الأخرى:« وأبيه....» وبين ما ورد من النهى عن الحلف بالآباء، لأن هذا الوارد كان قبل النهى، أو لأنها كلمة جارية فى اللسان لا يقصد بها الحلف، وقيل: إن الكلام على إضمار اسم الرب وتقديره:«ورب أبيه».

وكيف أثبت للرجل الفلاح بمجرد الأمور المذكورة مع أن هناك أموراً أخرى واجبة لم تذكر وهناك أيضاً المنهيات؟

والجواب أنه ورد فى رواية أخرى من حديث إسماعيل بن جعفر المروى عن البخارى فى الصيام قوله :«فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام».

فيدخل تحت قوله :« .. بشرائع الإسلام » باقى الأمور المشروعة والمفروضة المأمور بها والأمور الأخرى المنهى عنها.

(١) سورة محمد - آية : ٣٣ .

= وقد أثبت له الفلاح إذا أتى بما عليه، وهذا لا يمنع أنه إذا أتى بزائد على ذلك أنه لا يكون مفلحاً، لأنه إذا ثبت له الفلاح بالأمور المذكورة والمفروضة، فإنه إذا أتى بزيادة من المندوبات ففلاحه ثابت من باب أولى، ولذا فلا يعترض بأن الفلاح إذا لم ينقص على الأمور المذكورة واضح ، أما إذا لم يزد كيف يصح؟ فالجواب أنه أثبت له الفلاح إذا أتى بما عليه ، وليس في هذا ما يدل على أنه إذا أتى بزائد لا يكون مفلحاً، بل يكون مفلحاً من باب أولى إذا جاء بالزيادة.

أو أنه قول على طريق المبالغة والتأكيد على التصديق والقبول، أى أنه قبل الكلام قبولاً لا زيادة ولا نقصان عليه من جهة القبول، أو أن الزيادة والنقصان تتعلقان بالإبلاغ لأنه كان وافد قومه ليتعلم ويعلمهم.

وهكذا يتضح من هذا الحديث أن الرسول ﷺ بشّر هذا الرجل بالنجاة والفلاح إذا أدى هذه الأمور الواجبة ، وفى هذا دلالة على يسر التشريع الإسلامى وسماحته.

ما يؤخذ من الحديث

(١) مشروعية السفر والرحلة لطلب العلم.

(٢) الرد على المرجئة حيث شرط فى فلاحه أن لا ينقص عن الأعمال والفرائض المذكورة.

(٣) وفيه دليل على عدم وجوب صلاة الليل وقيامه وإنما هو نافلة.

(٤) فى الحديث دليل على عدم وجوب صلاة العيدين.

(٥) عدم وجوب صوم يوم عاشوراء وغيره من الشهور سوى رمضان.

(٦) فى الحديث دليل على أن المال ليس فيه حق سوى الزكاة.

(٧) قبول خبر الآحاد والعمل به.

٣٦ - باب
اتِّبَاعُ الجَنَائزِ مِنَ الإيمَانِ

٤٤ - حَدَّثنَا أحْمَدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَلِيٍّ المَنْجُوفِيُّ قال : حَدَّثنَا رَوْحٌ قال : حدَّثنا عَوْفٌ عَنِ الحَسَنِ ومُحَمَّدٍ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلمٍ إيمانًا واحْتِسَابًا وكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا ، ويَفْرُغَ مِنْ دَفْنِها ، فَإنَّهُ يرجعُ مِنَ الأجْرِ بقيراطَيْنِ ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ ، ومَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رجعَ قَبْلَ أن تُدفَنَ فَإنَّهُ يرْجعُ بقيرَاطٍ » .

تَابَعَهُ عُثْمَانُ المُؤذِّنُ قَالَ : حَدَّثنا عَوْفٌ عَنْ مُحَمَّدٍ عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النبيِّ ﷺ نَحْوَهُ .

٤٤- إن اتباع الجنائز من خصال الإيمان ، لأن الاتباع عمل من الأعمال وطاعة من الطاعات الدالة على الإيمان ، بل هى جزء منه فكل عمل من الأعمال جزء من الإيمان ، إذ مفهوم الإيمان يشتمل على التصديق وعلى الأعمال إلى جانب النطق بالشهادتين.

وقد رغّب الرسول ﷺ فى اتباع جنازة الميت بإيمان وتصديق طاعة لله تعالى ، واحتساباً لوجه الله تعالى وابتغاء الثواب منه وحده لا شريك له ، وليس لمجاملة أهل الميت ، ولا خوفاً منهم ، ولا لسبب آخر دنيوى بل اتبع جنازة الميت المسلم مؤمناً محتسباً ، وظل مع جنازة الميت المسلم حتى يصلى عليها صلاة الجنازة ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين.

والقيراط فى اللغة : نصف دانق ، وعند الفقهاء : جزء من عشرين جزءاً من =

الدينار ، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين جزءاً ، وقد يطلق ويراد به بعض الشيء وهو المراد به هنا في هذا الحديث ، إذ المراد به هنا اسم لمقدار من الثواب يعلمه الله سبحانه وتعالى ويقع على القليل والكثير ، وقد بيّنه في الحديث بقوله :

« كل قيراط مثل أحُد » أى : في كثرته وعظمته ومقداره مثل جبل أحُد وهو في المدينة المنورة ، وسُمِّي بذلك لتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى في المدينة ، وفي رواية عند الإمام مسلم : « أصغرهما مثل أحد » .

فحصول القيراطين من الثواب ، وإنما يكون بمجموع الأمور الثلاثة : « الأول : الاتباع وهو اتباع الجنازة والسير معها .

والثاني : الصلاة على الميت ، وهي صلاة الجنازة أربع تكبيرات .

والثالث : حضور الدفن ، وإذا صلى فقط يحصل بالصلاة على الميت قيراط من الثواب ، فإذا ضم إلى الصلاة الاتباع حتى الفراغ حصل له قيراط ثان . ولا يحصل بالصلاة مع الدفن ثلاثة قراريط .

ولا شك أن هذا الثواب الوافر الذي يكون لمن اتبع جنازة أخيه المسلم وصلى عليه وبقي حتى دفن ، إنما يدل على رحمة الله تعالى الواسعة بعباده ، كما يدل على تكريم الإسلام للعلاقات الإنسانية بين المسلمين ، فالذي يصلي على الميت صلاته رحمة للميت ودعاء له ، وفي الوقت نفسه للمصلي هذا الثواب الجزيل من أرحم الراحمين سبحانه وتعالى .

وفي هذا الحديث يوجهنا سيدنا رسول الله ﷺ إلى أهمية اتباع الميت عندما يموت وتخرج جنازته فعلى المسلمين أن يُشيّعوا موتاهم وأن يكون ذلك إيماناً واحتساباً لا من أجل مجاملة ولا من أجل الظروف الاجتماعية ، وإنما يتبع الجنازة إيماناً واحتساباً يحتسب أجره وثوابه عند الله سبحانه وتعالى ، فإن من اتبع جنازة أخيه المسلم إيماناً واحتساباً محتسباً ذلك عند الله وظل معه حتى صلى عليه واستمر حتى فرغوا من الدفن فإنه حين يعود من هذا العمل يعود من الأجر بقيراطين كل قيراط يشبه جبل أحد ، ومن صلى عليها فقط ثم رجع قبل أن تدفن =

= فإنه يرجع بقيراط ، وهذا صريح فى أن مجموع الصلاة والاتباع وحضور الدفن يكون للإنسان على ذلك قيراطان . وأما إذا صلى فقط ولم يستمر حتى يدفن فله قيراط واحد وأن القيراط الثانى لا يحصل إلا لمن استمر من حين صلى إلى أن فرغ وقتها وهذا هو الصحيح ، وقد يستدل بلفظ الاتباع في هذا الحديث وفي غيره من الأحاديث الأخرى التى تشير وتوجه إلى اتباع الجنائز بأن من يقوم بالمشى وراء الجنازة أفضل من أمامها وهو قول على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو مذهب الأوزاعى وأبى حنيفة .

ولكن قال الجمهور من الصحابة والتابعين وهو قول مالك والشافعى وقول جماهير العلماء : إن المشى أمامها أفضل . وقال الثورى وطائفة : هما سواء فالذى يمشى أمام الجنازة كأنه شفيع لها سائل ربه سبحانه وتعالى الرحمة والمغفرة والذى يسير خلفها يعتبر ويتعظ ويتدبر ، وفيما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « من صلى على جنازة ولم يتبعها فله قيراط ، فإن تبعها فله قيراطان » قيل : وما القيراطان ؟ قال : أصغرهما مثل أحد .

وفى إطلاق هذا الحديث وغيره إشارة إلى أنه لا يحتاج المنصرف عن اتباع الجنازة بعد دفنها إلى استئذان وهو مذهب جماهير العلماء ، وفى قوله : « قيل : وما القيراطان ؟ » قال : مثل الجبلين العظيمين ـ فى بعض الروايات ـ القيراط مقدار من الثواب معلوم عند الله سبحانه وتعالى .

وهذا الحديث وغيره يدل على عظم المقدار فى هذا الموضع ـ قيل لابن عمر رضى الله عنهما إن أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من تبع جنازة فله قيراط من الأجر» فقال ابن عمر : أكثر علينا أبو هريرة فأرسل إلى عائشة رضى الله عنها فسألها فصدقت أبا هريرة . فقال ابن عمر رضى الله عنهما «لقد فرطنا فى قراريط كثيرة» أى : قصرنا ـ وفسر البخارى كلمة التفريط بالتضييع ، لقد ضيعنا قراريط كثيرة .

وفى كثير من الأصول أو فى أكثرها ضبطت فى قراريط بزيادة فى والأول وهو الظاهر والثانى صحيح على أن ضيعنا بمعنى فرطنا ، كما فى الرواية الأخرى ،

= وفيه ما كان الصحابة عليه من الرهبة فى الطاعات حين يبلغهم شىء والتأثر على ما يفوتهم من طاعة كان من الممكن أن يقوموا بها وإن كانوا لا يعلمون عظمتها ، فقد كانوا يتنافسون على الخيرات وكانوا يستجيبون لتوجيه رسولهم ﷺ ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ «من صلى على جنازة فله قيراط ، ومن اتبعها حتى توضع فى القبر فقيراطان قال : قلت : يا أبا هريرة وما القيراط؟ قال : مثل أحد».

ويرى جمهور العلماء أن الأفضل المشى أمام الجنازة ؛ لأن الرسول ﷺ وأبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا يمشيان أمامها (١).

ويرى الأحناف أن المشى خلفها أفضل ، لأنه هو المفهوم من قوله ﷺ :« من اتبع جنازة» فالاتباع لا يكون إلا بالمشى خلف الجنازة ، ويرى أنس بن مالك رضى الله عنه أن الكل سواء.

ما يؤخذ من الحديث

(١) الحث على صلاة الجنازة ، واتباع الميت وحضور دفنه.

(٢) ما أعده الله تعالى من ثواب وافر لمن اتبع جنازة وصلى عليها وكان معها حتى يفرغ من دفنها.

(٣) شرط هذا الثواب الكثير لاتباع الجنازة أن يفعل ذلك إيماناً واحتساباً ابتغاء وجه الله تعالى وليس لسبب من الأسباب الدنيوية.

(٤) فى الحديث بيان لتكريم الله تعالى للإنسان المسلم ورحمته الواسعة به .

(٥) الحث على الدعاء للميت ، لأن الصلاة طلب للرحمة والمغفرة.

(٦) فى الحديث دليل للأحناف على أن المشى خلف الجنازة أفضل ، ويرى البعض أن المشى أمام الجنازة أو خلفها سواء ، لكن الجمهور يرون المشى أمامها ، لما ورد فى ذلك من فعل رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما.

---

(١) رواه أحمد .

٣٧ - باب خَوْفِ المُؤْمِنِ
مِنْ أنْ يَحبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ

وقال إبْرَاهيمُ التَّيْميُّ : مَا عَرضْتُ قَوْلى على عَمَلى إلاَّ خَشيتُ أن أكُونَ مُكَذِّبًا ، وَقَالَ ابنُ أبى مُلَيْكَةَ : أدْرَكْتُ ثَلاَثين مِنْ أصْحَاب النبىِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفاقَ عَلَى نَفْسه ، مَا منْهُمْ أحَدٌ يَقُولُ : إنَّه عَلَى إيمان جبْريلَ وَميكَائيلَ ، ويُذْكَرُ عَنِ الحَسَنِ : مَا خَافَهُ إلاَّ مُؤْمنٌ ، وَلاَ أمنَهُ إلاَّ مُنَافِقٌ ، وَمَا يُحْذَرُ منَ الإصْرَارِ عَلَى النفَاقِ وَالعصْيَانِ منْ غَيْرِ تَوْبَةٍ ، لقَوْلِ الله تعالى ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (١).

٤٥ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَرْعَرَةَ قال : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عن زُبَيْدٍ قال سَألتُ أبَا وائل عن المُرْجئَة فقال : حدَّثنى عبدُ الله أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « سِبَابُ المُسْلمِ فسوقٌ ، وقِتَالُه كُفْرٌ » .

---

٤٥ - فى هذا الحديث ردٌّ على المرجئة ، والإرجاء هو التأخير ؛ لأنهم أخروا الأعمال عن الإيمان ، فقالوا : الإيمان هو التصديق بالقلب فقط ، وقالوا : لا يضر مع الإيمان ذنب أصلاً ، ولم يشترط جمهور المرجئة النطق ، ومناسبة هذه الترجمة بعد التى قبلها والتى وضح الحديث فيها فضل اتباع الجنائز وأن المثوبة والأجر =

(١) سورة آل عمران : آية ١٣٥ .

عليها لمن قام باتباعها احتساباً ليس من أجل أهلها أو من أجل الأمرين ، فجاء بالترجمة التى معنا الآن وبالحديث ليوضح ما قد يحدث للإنسان فيفسد قصده ويحرم بسببه الثواب وهو لا يشعر ؛ لأنه لا ثواب إلا على ما يؤدّيه الإنسان بإخلاص .

ويوضح الحديث خطورة السباب والمقاتلة ، وأن هاتين الرذيلتين قد تفضيان بصاحبهما إلى الفسوق والقرب من الكفر .

لقد حَرَّم الإسلام هذه الرذائل ، لما يترتب عليها من انتهاك حرمة الإنسان المسلم لأخيه ، والإسلام يدعو أتباعه أن يصونوا حرماتهم ، وأن يحافظوا على كراماتهم ، وألا يسب أحدٌ أحداً ، وألا يقاتل أحدٌ أحداً ، بل عليهم أن يكونوا عباد الله إخواناً .

فبيَّن الحديث أن سباب المسلم فسوق ، أى شتمه والتحدث فى شأنه وعرضه بما يؤذيه وبما يعيبه ، والفسوق : هو الفجور والخروج عن الحق وهو أشد العصيان وقد يراد بالسباب أشد من السب بأن يقول ما فيه وما ليس فيه يريد عيبه ، والتعبير بقوله : « سباب المسلم » ولم يقل « سبّ المسلم » فيه معنى المفاعلة أى اشتراك الطرفين فى السب وتشاتمهما وأيضاً التعبير بقوله : « وقتاله كفر » أى : مقاتلته فهو يفيد معنى المفاعلة باشتراك الطرفين أيضاً فى ذلك .

لأن الطرفين يكونان مهيئين لتناول السب أو القتل . وفى بعض الروايات : « سباب المؤمن .... » فكأنه رواه بالمعنى .

ولا يراد بالكفر فى قوله : « وقتاله كفر » الكفر الحقيقي الذى يُخرج صاحبه عن الدين والملّة ، بل ما يُقرب من الكفر أو ما قد يؤدى إليه ، وأطلق على ذلك لفظ الكفر لتأكيد المبالغة فى التحذير منه ، أو أطلقه عليه لأنه يشبه الكفر ، لأن قتال المسلم ليس من شأن أخيه المسلم ، بل عادة يكون من شأن الكافر .

= أو المراد بالكفر : هو المعنى اللغوى وهو الستر ؛ لأنه بقتاله له ستر ما له عليه من حق الأمانة والنصرة وكف الأذى ، فلما قاتله كأنه كشف عنه هذا الستر .

وقيل : المراد به الكفر بالله تعالى ، وأن ذلك في حق من فعله مستحلاً بلا موجب ولا تأويل ، وأما المؤول فلا يكفر ولا يفسق بذلك .

وهذا الحديث يوضح عظمة حق المسلم ، وأنه يحرم سبُّه بغير حق ، بل إن من سب أخاه المسلم حكم عليه بالفسق بنص هذا الحديث والفسوق من الكبائر التى كرّهها الله للمؤمنين ، قال تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (١) .

قال ابن كثير : « والمراد بالفسوق الذنوب الكبار ، وبالعصيان جميع المعاصى » .

والحديث يرد على المرجئة القائلين بأنه لا يضر مع الإيمان معصية ، كما أن الحديث لا يفهم منه تقوية مذهب الخوارج الذين يكفرون بالمعصية ؛ لأنه لا يراد بالكفر الوارد فى الحديث ظاهره وحقيقته وهى الخروج من الدين ، بل أطلق هذا الاسم عليه للمبالغة فى التحذير معتمداً على القواعد التى تفيد أن مثل ذلك لا يخرج عن الملة مثل حديث الشفاعة .

وبعض الأعمال يُطلق عليها الكفر تغليظاً ، ولا يخالف ذلك قول الرسول ﷺ : « لَعْنُ المسلم كقتله » (٢) ؛ فهو من باب التغليظ أيضاً والتحذير عن لعن المسلم ولأن المشبَّه به يكون فوق المشبه .

وقد حرم الإسلام اللعن مطلقاً حتى لَعْن غير الإنسان كما ورد في شأن

---

(١) سورة الحجرات : آية ٧ .

(٢) رواه مسلم .

= الريح ، فقد حدث أن رجلاً نازعته الريح رداءه فلعنها فقال رسول الله ﷺ : « لا تلعنها فإنها مأمورة مسخرة ، وأنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه » (١).

ولما كان للسب عاقبته السيئة كان المبتدئ به أكثر جرماً وتحملاً ، قال عليه الصلاة والسلام :

« المسْتَبّان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم » (٢).

إن شأن الإنسان المؤمن أن يكون بعيداً عن الرذائل وأن يكون لسانه عفّاً ، فلا يتناول أحداً بطعن أو لعن أو فحش أو سب أو أى لون من ألوان البذاءة ، فليس هذا من شيم الإسلام والمسلمين ، فقد قال ﷺ : « ليس المؤمن بطعّان ولا لعّان ولا فاحش ولا بذىء » (٣).

ما يؤخذ من الحديث

(١) تأكيد حق المسلم على أخيه المسلم فى المودة والمحبة والحكم على من سبّه بالفسق .

(٢) النهى عن الفسوق والقتال والخصام فهى من الرذائل الخطيرة التى تؤدى بصاحبها إلى ما لا تحمد عقباه ..

(٣) التحذير من الرذائل التى تؤثر على درجة الإيمان وتضعفه ، بل قد تذهب به .

(٤) فى الحديث ردٌّ على المرجئة القائلين بأن الإيمان لا تضر معه المعصية .

(٥) التحذير من المعاصى والرذائل التى قد يترتب عليها إحباط العمل من حيث لا يدرى الإنسان .

(١) رواه الترمذى .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه الترمذى .

٤٦ - أخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ بنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بنُ جَعْفَرٍ عن حُمَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ قال أخْبَرَنِى عُبَادَةُ بنُ الصَّامتَ « أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ يُخْبرُ بلَيْلَة القَدرِ . فَتَلاحى رَجُلاَن منَ المُسلمينَ . فقال : إنِّى خَرَجْتُ لأخبرَكُمْ بلَيْلَة القَدرِ . وإنَّهُ تَلاحَى فُلاَنٌ وفلاَنٌ ، فَرُفعَتْ ، وَعَسَى أنْ يَكُونَ خَيْراً لَكُمْ ، الْتَمِسُوهَا فِى السَّبْعِ والتِّسْعِ والخَمْسِ » .

٤٦ـ هذا الحديث يوضح أن الخصومة والخلاف من أسباب إخفاء الخير والبركة، وأن التواصل والتواد من أسباب إظهار الخير، فرسول الله ﷺ خرج ليخبر أمته بتعيين ليلة القدر، ليعرفوها ويغتنموا وقتها، فهو الرؤوف الرحيم بأمته، يحب لها الخير ويدل الناس عليه، فما إن عرف ليلة القدر إلا وأسرع ليخبر أمته بها، فحدثت خصومة بين رجلين هما عبد الله بن أبى حَدْرَد، وكعب بن مالك، حيث تلاحى الرجلان، وتنازع كل منهما وتخاصم مع الآخر، فترتب على ذلك أن رُفع بيانها وعلْمها من قلب رسول الله ﷺ فنسيها الرسول ﷺ؛ لأن الخصومات والخلافات من أسباب نزع الخير وإخفائه، ومن أسباب حضور الشيطان لمجالس الخلافات، ففى رواية أخرى من حديث أبى سعيد: « فجاء رجلان يحتقّان معهما الشيطان فنسيتها » . ومعنى «يحتقان» أى : يدّعى كل منهما أنه المحق.

قال القاضى عياض رحمه الله تعالى: فيه دليل على أن المخاصمة مذمومة، وأنها سبب فى العقوبة المعنوية أى الحرمان، وفيه أن المكان الذى يحضره الشيطان ترفع منه البركة والخير.

وإنما كانت المخاصمة فى طلب الحق مذمومة، لأنها وقعت فى المسجد، =

والمسجد مكان للصلاة والعبادة والذكر والدعاء، وليس مكاناً للغو، ووقع هذا التنازع أيضاً فى شهر رمضان وهو زمن العبادة والذكر، كما ترتب على منازعة الرجلين وخصومتهما رفع الصوت بحضرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ورفع الصوت بحضرته منهيٌّ عنه لقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ (١).

فذم التنازع المذكور فى الحديث وكونه كان سبباً فى نسيان ليلة القدر وإخفائها ليس لأن ذلك كان فى طلب الحق، بل لأنه كان فيه لغو لا يتناسب مع حرمة المسجد، ولأنه كان فى شهر رمضان، وأيضاً لأنه كان فيه رفع للصوت فى حضور رسول الله ﷺ وهذا قد نهى عنه القرآن الكريم.

ثم عاد الحديث موضحاً حقيقة أخرى وهى أن نسيان رسول الله ﷺ لتحديد ليلة القدر وعدم تعيينها، رجا به الرسول ﷺ الخير لأمته، حيث قال: «وعسى أن يكون خيراً لكم التمسوها فى السبع والتسع والخمس».

إن فى نسيانها وعدم تعيينها رجاء فى الخير للأمة، لأنه سيترتب عليه زيادة الاجتهاد فى العبادة والدعاء والذكر وطلبها الذى يقتضى زيادة الثواب لمن يطلبها، أما لو كانت محدّدة ومعينة لاقتصر الناس على الليلة المحدّدة فيها، فيكون عملهم قليلاً وبالتالى يكون الثواب أقل.

ثم أمر الرسول ﷺ المسلمين أن يلتمسوها فى السبع والتسع والخمس، أى فى ليلة سبع وعشرين وتسع وعشرين وخمس وعشرين، وذلك لأن الليلة المعنية =

(١) سورة الحجرات: آية ٢، ٣.

= التى نسيها رسول الله ﷺ لا يخرج عن هذه الليالى التى أشار إليها فى الحديث وأمر المسلمين أن يلتمسوها فيها.

وهكذا طلب التعبد والتقرب إلى الله تعالى فى هذه الليالى لأن القائم المتعبد فى مثل هذه الليالى ربما يصادف ليلة القدر فيحصل له الثواب الوافر، وإن لم يطلع عليها، لكن ثواب من اطلع عليها أكمل وأكثر.

ولا شك أن ليلة القدر ترجى أكثر ما ترجى فى ليلة السابع والعشرين، حيث بدأ فى الحديث بليلة سبع وعشرين، فرجاء المسلمين فى تحديد ليلة القدر أكثر وأقوى للاهتمام بتقديمه.

ما يؤخذ من الحديث

(١) ذم الملاحاة والخصومات

(٢) رفق الرسول ﷺ بأمته ورحمته بها .

(٣) فضل العشر الأواخر من شهر رمضان

(٤) تأنيس قلبه بما صُنع له ولأمته

(٥) أن عقوبة العامة قد تحصل بذنب الخاصة

(٦) أن المعاصى سبب فى رفع الرحمة

(٧) الحث على طلب ليلة القدر .

٣٨ - باب

سؤال جبريل النبيَّ ﷺ
عن الإيمان والإسْلاَمِ والإحْسَانِ وَعِلْمِ السَّاعَةِ

وبيانِ النبيِّ ﷺ لَهُ ، ثم قال : « جَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » فَجَعَلَ ذَلكَ كُلَّهُ دِينًا ، وما بَيَّنَ النبيُّ ﷺ لوَفْدِ عَبْدِ القَيْسِ مِنَ الإيمانِ ، وقَولِهِ تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (١) .

٤٧ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قال : حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بنُ إبْرَاهِيمَ أخبرنا أُبو حَيَّانَ التَّيْمِيُّ عَنْ أَبِى زُرْعَةَ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قال : « كان النبى ﷺ بَارِزًا يَوْمًا للنَّاسِ ، فأتاهُ جِبْرِيل ، فقال : ما الإيمانُ ؟ . قَالَ : الإيمانُ أنْ تُؤْمِنَ بالله وملائكَتِه وبلِقائه ، ورُسُله ، وتُؤْمِنَ بالبَعْثِ ، قال : ما الإسْلامُ ؟ قال : الإسْلاَمُ أنْ تَعْبُدَ الله ولا تُشْرِكَ به ، وتُقيمَ الصَّلاة ، وتُؤدِّى الزَّكاةَ المَفْرُوضَةَ ، وتَصُومَ رَمَضَانَ ، قال : مَا الإحْسانُ ؟ قال : أن تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تَراهُ ، فإنْ لَمْ تكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يرَاكَ ، قال : مَتَى السَّاعَةُ ؟ قال : مَا المسْئُولُ عَنْهَا بأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ، وَسَأخْبِرُكَ عَنْ أشراطها ، إذا وَلَدَتِ الأمَةُ رَبَّها ، وإذا تَطَاوَلَ رُعاةُ الإبِلِ البُهْمِ فِى البُنْيَانِ ، فى خَمْسٍ

---

(١) سورة آل عمران : آية ٨٥ .

لا يَعْلَمُهنَّ إلاَّ الله ، ثُمَّ تَلا النبيُّ ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾[1] الآية ، ثُمَّ أدبَرَ ، فقال : رُدُّوه ، فَلَمْ يروا شَيْئًا ، فقال : هذا جِبْريلُ جَاء يُعَلِّمُ الناسَ دِينَهُم .

قَالَ أبُو عَبْد الله : جَعَلَ ذلكَ كُلَّه مِنَ الإيمان .

٤٧-إن الظاهر من سؤال جبريل عليه السلام للرسول ﷺ وإجابة الرسول عليه الصلاة والسلام له يفهم منه تغاير الإسلام والإيمان، وبأن الإسلام قيام بأعمال ظاهرة مخصوصة، وأن الإيمان تصديق بأمور مخصوصة، وحقيقة الأمر أن الإيمان والإسلام يرجعان إلى معنى واحد وهو الدين، ولذلك نرى قول الرسول ﷺ في نهاية الحديث «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم» فسمّى جميع هذه الأمور ديناً.

من الصور التى تمثَّل فيها الملَك بالإنسان، تلك الصورة التى جاء فيها جبريل عليه السلام، إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ليسأله عن أصول هذا الدين الحنيف، وعن معالمه الأساسية، من عقيدة، وعبادة، وإخلاص.. وما يكون بعد الحياة من قيام الساعة، وعلاماتها، ليعرف المسلمون عن طريق السؤال والإجابة، محتوى هذا الدين الحق الذى ارتضاه الله لعباده.

ولقاء الملَك بالرسول صلوات الله وسلامه عليه فى هذه الصورة البشرية، وعلى مرأى ومسمع من أصحابه، ورؤية المسلمين له دون أن يعلموا أنه جبريل حتى أخبرهم النبى ﷺ بعد ذلك.. هذه القصة، تطلع الناس على حقيقة أمر الإسلام عن طريق محسوس ملموس، وعلى اتصال الوحى بالرسول صلوات الله وسلامه عليه فى أى زمان ومكان وما للرسول ﷺ من مكانة عظيمة عند الله وما =

---

(١) سورة لقمان : آية ٣٤ .

لأمته من منزلة عالية، تبوأتها بالإسلام، وفى هذا تأكيد للإيمان فى القلوب، وإشعار بمنزلة هذا الدين الحق، مما يستوجب الحفاظ عليه والغيرة على حدوده ومعالمه.

إن الإسلام هو الدين الكامل الحق، المطلوب عند الله تعالى أكمله الله، وأتم به النعمة فلا نعمة أجلّ ولا أعظم من نعمة الإسلام، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١) وكل اتجاه فى غير طريق الإسلام، أو سير على غير قواعده وهداه، فهو اتجاه خاسر، وسير غير مستقيم، ولن يقبل عمل ما من الأعمال إلا اذا كان نابعاً من هذا الدين، ومن طلب غير الإسلام ديناً، وعملاً واعتقاداً فلن يُقبل منه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾(٢).

وفى قصة مجىء جبريل عليه السلام وفى سؤاله للنبى ﷺ ليتعلم الناس دينهم فى هذا عناية بأصول هذا الدين وقواعده من الرسول ﷺ ومن الوحى نفسه ومن الحديث يتضح ارتباط العقيدة بالشريعة وارتباط الإيمان بالعمل، وأن الإيمان بلا عمل لا يكون صحيحاً ولا تاماً، وأن العمل بلا إيمان لا وزن له، وعن هذا الحديث قال القاضى عياض «اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان، ابتداء وحالاً ومآلاً ومن أعمال الجوارح، ومن اخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه متشعبة منه».

وفى رواية الإمام مسلم ما يفيد أن جبريل جاء وجلس على هيئة المتعلم، ولكنه حين كان يسمع الإجابة من الرسول ﷺ يصدقه فعجب منه المسلمون، لأن حاله على خلاف عادة من يسأل جاهلاً بالحكم، أخرج الإمام مسلم هذا الحديث - بسنده - عن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع =

(١) سورة المائدة - آية: ٣.

(٢) سورة آل عمران - آية ٨٥.

= علينا رجل، شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: وأخبرنى عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرنى عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرنى عن الساعة قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرنى عن أماراتها قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لى يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

فبيّن دعائم الإسلام التى يقوم عليها، وينهض بها، من الأساس الأول وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومن الركن الهام الذى يمثل صلة العبد بخالقه وهو إقام الصلاة ثم بيّن الركن الذى يليه وهو الذى يمثل أرفع جوانب التعاون والتكافل فى صلة المسلم بأخيه الفقير وهو أداء الزكاة ثم الصيام، الذى يصل بصاحبه إلى تقوى الله ومرضاته والإخلاص فى السر وفى العلانية، ثم الحج الذى يشتمل على العبادة البدنية والمالية والذى يمثل أكبر مؤتمر إسلامى يجتمع فيه المسلمون من شتى الأقطار الإسلامية للتشاور فى شئون دنياهم وأخراهم.

ونلاحظ فى حديث الإمام البخارى تقديم الإيمان، لأنه الأصل ثم ثنى بالإسلام، لأنه يظهر مصداق الدعوى، وثلّث بالإحسان لأنه متعلق بهما، وفى حديث الإمام مسلم، بدأ بالاسلام لأنه الأمر الظاهر، ثم الإيمان لأنه الأمر الباطن، ورجح بعض العلماء هذا الترتيب لما فيه من الترقى، وفى بعض الروايات أنه بدأ بالإسلام ثم

جاء بالإحسان ثم الإيمان ، والحق أن الواقع أمر واحد ، وأن التقديم والتأخير وقع من الرواة .

وتحديد الإسلام بهذه الأركان يفيد أن المراد به العمل الظاهرى ، وقد يطلق على معنى يرادف الإيمان ، فيسمى كل منهما باسم الآخر كما فى حديث وفد عبد القيس حيث قال لهم : هل تدرون ما الإيمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدوا خمساً من المغنم . . ويكون بمعنى التداخل ، وذلك بأن يطلق أحدهما ويراد به مسماه فى الأصل ، ومسمى الآخر وذلك كما فى الآية الكريمة ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (١) فقد أطلق الإسلام وأراد به التصديق والعمل ، ومن ذلك ما رواه ابن ماجه ، قال ﷺ « الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان » .

وأما الإجابة عن الإيمان بهذه الأمور . فهى أركان الإيمان وعناصره كما جاء بها القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) ﴾ (٢) .

أما الإيمان بالله : فهو التصديق بوجوده سبحانه ، ووحدانيته ، وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأنه تعالى متصف بصفات الكمال ، منزه عن صفات النقص «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» وأما الإيمان بالملائكة : فهو التصديق بوجودهم ، وأنهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وقدّم الإيمان بهم على الكتب والرسل ، نظراً للترتيب فى واقع الأمر ، فإن الله سبحانه وتعالى يرسل المَلَك بالكتاب إلى الرسول .

(١) سورة آل عمران – آية : ١٩ .

(٢) سورة البقرة – آية ٢٨٥ .

= وأما الإيمان بكتب الله فالمراد به التصديق بأنها كلامه تعالى، وما تضمنته حق وما تدعو إليه فيه النجاة والخير، والفوز والسعادة، ونقصد بالكتب تلك الكتب الصحيحة التي لم يدخلها التحريف ولا التزييف، وأما الإيمان باللقاء فهو ما بعد القيام من القبور وقبل اللقاء، وهو الانتقال من دار الدنيا، وقيل: رؤية الله تعالى وأما الإيمان بالرسل فهو التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله، ولقد دعا القرآن إلى الإيمان بالرسل جميعاً دون تفريق بينهم، ومن صدق إيمانه على هذا النحو كان له عند ربه أجره كاملاً، وكان الله غفوراً له، رحيماً به، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) ﴾ (١).

كما يجب الإيمان بأن سيدنا محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾ (٢) وأن رسالته عامة وخالدة إلى جميع الناس: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٣).

والإيمان بالبعث وفي حديث مسلم «واليوم الآخر» وقيل له ذلك، لأنه آخر أيام الدنيا، أو آخر الأزمنة المحدودة، والإيمان به: هو التصديق بما يحدث من الحساب والميزان والجنة والنار، والحكمة في إعادة لفظ «وتؤمن» عند ذكر البعث للإشارة إلى أنه نوع آخر مما يؤمن به، لأنه سيوجد بعد وأما ما ذكر قبله فهو موجود، وللتنويه بذكره لكثرة من ينكره من الكفار، ولذا ورد الحديث عنه كثيراً في القرآن.

ولقد روى أن جماعة من الكفار منهم أُبيّ بن خلف تكلموا في ذلك وأخذ أبي

---

(١) سورة النساء – آية ١٥٢.
(٢) سورة الأحزاب – آية ٤٠
(٣) سورة سبأ – آية ٢٨.

عظماً بالياً فجعل يفته بيده ويقول : يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما رم - أى بلى - قال ﷺ : «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم» فنزل قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١) .

كما كان التأكيد بالنسبة للقدر بإعادة «وتؤمن» إشارة إلى ما سيقع فيه من الاختلاف والمراد به : أن الله تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ، ثم اشتمل الحديث على الإحسان فى العبادة ، والإخلاص الكامل فيها كأن العبد يرى ربه بعينه فإن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه ويطلع عليه وهاتان الحالتان هما نتيجة مترتبة على الخشية من الله سبحانه وتعالى ، ثم كان البيان الحق بأن علم الساعة عند الله تعالى وأما علاماتها فمنها «اذا ولدت الأَمَة ربها أو ربتها كما فى صحيح مسلم ، وذلك باتساع الإسلام واستيلاء أهله على بلاد الشرك وسبى ذراريهم . فإذا ملك الرجل الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة ربها لأنه ولد سيدها ، أو أن يبيع السادة أمهات أولادهم ويكثر ذلك فيتداول الملاك المستولدة حتى يشتريها ولدها ولا يشعر بذلك أو أن تلد الأمة حراً من غير سيدها بوطء شبهة أو رقيقاً بنكاح أو زنا ثم تباع الأمة فى الصورتين بيعاً صحيحاً وتدور فى الأيدى حتى يشتريها ابنها أو ابنتها أوأن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته ، ومن علاماتها أن يتطاول فى البنيان الحفاة العراة من أهل الحاجة والفاقة ، وأن تبسط لهم الدنيا حتى يكاثروا ويتباهوا فى البنيان . . ثم تلا النبى ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢) =

---

(١) سورة يس - آيات ٧٧-٧٩ .

(٢) سورة لقمان - آية ٣٤ .

(١) استحباب جلوس العالم بمكان خاص وعال ليعرفه القادم والسائل، وليتمكن من توصيل المعلومات إلى السامعين.

(٢) جواز سؤال العالم ما لا يجهله السائل ليعلمه الحاضرون والسامعون.

(٣) أن العالم إذا وُجِّه إليه سؤال لا يعلم الإجابة عليه، يصرح بأنه لا يعلمه وليس فى هذا نقص من منزلته بل فيه دلالة على شدة ورعه وحيطته فى الدين.

(٤) كما يستنبط من هذه القصة: التعريف بأصول الإسلام وقواعده، من الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج، وأركان الإيمان وعناصره، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. ومن الإحسان فى العبادة. وأن علم الساعة عند الله فهو وحده علام الغيوب.. وإذا كانت أصول هذا الدين بهذه المثابة من التأكيد عليها فى الكتاب والسنة، وفى طريقة الوحى بها، وفى مناهج تعليمها، وفى آثارها فى حياة الأفراد والجماعات فإن هذه الأهمية تفيء علينا تمسكاً قوياً بديننا، وغيرة شديدة عليه، تدفعنا لأن نكافح عنه ونجاهد فى سبيله بالنفس والمال والكلمة، وبالدعوة إليه ورد كل التيارات المنحرفة التى تحاول بلبلة الفكر وإثارة الشبهات، وأنّى لأعداء الإسلام هذا والدين فى وضوح سبيله لا حرج فيه ولا غموض به ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (١).

---

(١) سورة الأنعام - آية: ١٥٣

٣٩ - باب

حَدَّثنَا إِبْرَاهِيمُ بن حَمْزَةَ قال : حَدَّثنا إِبْراهيمُ بن سَعْد عن صالحٍ عنِ ابنِ شِهَابٍ عن عُبَيْد الله بن عَبْد الله أنَّ عَبْدَ الله بنَ عَبَّاسٍ أخبره ، قال : أخبرني أبُو سُفْيَانَ « أن هِرَقْلَ قال لَهُ : سَأَلْتُكَ : هَلْ يَزِيدُونَ أم يَنْقُصُونَ ؟ فَزَعَمْتَ أنَّهُم يزيدُون ، وكَذَلكَ الإيمانُ حَتَّى يتمَّ ، وسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أحَدٌ سَخْطَةً لدينه بَعْدَ أنْ يَدْخُلَ فيه ؟ فَزَعَمْتَ أنْ لاَ ، وكذلكَ الإيمانُ حِينَ تُخالطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ ، لا يَسْخَطُهُ أحدٌ » .

٤٠ - باب

فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرأَ لدينه

٤٨ - حَدَّثنَا أبُو نُعَيْمٍ حَدَّثنا زَكريَّاءُ عن عامرٍ قال : سَمعْتُ النُّعْمَانَ ابنَ بَشيرٍ يقولُ : سَمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : « الْحَلالُ بَيِّنٌ والحَرَامُ بَيِّنٌ ، وبَيْنَهمَا مُشَبَّهَات ، لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ منَ النَّاس ، فَمَن اتَّقَى المُشَبَّهات اسْتَبْرأ لدينه وعرضه ، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَات كَرَاعي يَرْعَى حَوْلَ الحمَى ، يُوشكُ أنْ يُواقعَهُ ، ألاَ وإنَّ لكُلِّ مَلك حمى ، ألاَ إنَّ حمَى الله في أرْضه مَحَارِمُهُ ، ألاَ وإنَّ في الجَسَد مُضغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وإذَا فَسَدَتْ فَسدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، ألاَ وَهِيَ الْقَلْبُ » .

= « باب » ذكر كلمة « باب » ولم يذكر ترجمة ؛ لأنه بمثابة الفصل من الباب الذى قبله ، فله تعلق بسابقه ، فى قوله هناك :

« جعل ذلك كله ديناً » والعلاقة بينه وبين حديث هرقل هى أنه سمى الدين إيماناً فى حديث هرقل ، فتم مراد البخارى يكون الدين هو الإيمان قال هرقل : « سألتك هل يزيدون أم ينقصون ؟ فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حين يتم » أى : أن أمر الإيمان حين يتم ، يظهر نوراً و يزداد ، ولا يزال فى زيادة حتى يتم بالأمور الأخرى المعتبرة من التصديق والقول والأعمال من صلاة وزكاة وصيام وغير ذلك ، وهذا هو معنى الدين ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ (١).

« وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوب لا يسخطه أحد ». أى : يخالط الإيمان انشراح الصدور.

وواضح أنه سبق ذكر هذا الحديث كاملاً مشروحاً ، ولكن الإمام البخارى جعل هذا الباب ، ليوضح ما يتعلق بالإيمان حين يتم ، وأن الكل يسمى ديناً كما جاء فى حديث جبريل وسؤاله للنبى ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وظاهر السؤال والجواب يدل على التغاير ، والأمر كذلك بالنسبة للمدلول اللفظى لكل واحد من الإسلام والإيمان والإحسان ، ولكن المضمون الكلى للجميع يلتقى فى كلمة « الدين » ، وكذلك لما ذهب جبريل - وكان قد جاء فى صورة رجل - قال الرسول ﷺ : « رُدُّوه » فلم يروا شيئاً فقال عليه الصلاة والسلام : « هذا جبريل جاء يعلّم الناس دينهم ». فسمى أمور الإيمان وغيرها ديناً.

٤٨- فى هذا الباب « باب فضل من استبرأ لدينه » بيان بأن الورع من الأمور التى يكمل بها الإيمان عند الإنسان ، وهذا هو السبب فى إيراد هذا الحديث فى أبواب الإيمان.

---

(٣) سورة المائدة : آية ٣ .

فقد وضح الحديث أن الحلال بيِّن فى عينه وفى وصفه ، وأن الحرام كذلك بيِّن وواضح فى شكله وعينه ووصفه ، وأدلة كل من الحلال والحرام واضحة لا تخفى على أحد ، وبينهما « مُشَبَّهات » أى : أنها شُبِّهتْ بغيرها من الأمور التى لم يتضح حكمها على جهة التحديد والتعيين ، وفى رواية أخرى : « مُشْتَبِهات » وهى رواية ابن ماجه أى : أنها اكتسبت الشبه من وجهين مُتَعَارِضَيْن. وفى رواية أخرى : « وبينهما مُتَشَابهات » وهى رواية الدارمى.

ومعنى « لا يعلمها كثير من الناس » أى : لا يعلم حكم هذه الأمور المشتبهة كثير من الناس ، وجاء فى رواية الإمام الترمذى : « لا يدرى كثير من الناس أَمِنَ الحلال هى أم من الحرام » ، ومفهوم هذا أن معرفة حكمها يمكن أن يعلمه قليل من الناس وهم أرباب الاجتهاد من أهل العلم والمعرفة والفقه الغزير.

(الحلال بيِّن والحرام بيِّن) :

الحلال : هو ما لم يرد دليل بتحريمه، فيشمل ما سكت عنه ، وقيل : ما ورد دليل بحله فلا يشمل المسكوت عنه، « والحرام » ما ورد دليل بالمنع منه، وقيل : ما لم يرد دليل بحله ومعنى «بيِّن» أى ظاهر بالنسبة إلى ما دل عليه بلا شبهة.

(وبينهما مشتبهات) : أى أمور مشكلة، لما فيها من شبه الطرفين المتعارضين، فمرة تشبه هذا، وأخرى تشبه ذاك، وفى رواية : «مشبهات» بكسر الباء : أى شبهت نفسها بالحلال.

(لا يعلمها كثير من الناس) : أى لا يعرفون حكمها، أمن الحلال هى أم من الحرام؟ ومفهوم العبارة، أن القليل من الناس وهم العلماء المجتهدون يعرفون حكمها بنص أو إجماع أو قياس أو نحو ذلك، بل قد تقع الشبهة حيث لا يظهر لهم ترجيح أحد الدليلين.

(فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه) : أى تحفّظ منها، وابتعد عنها، وجعل بينه وبينها وقاية «استبرأ» أى برأ دينه من النقص وعِرْضه من الطعن فيه. =

= فابتعاده عن المشبهات جعله يطلب البراءة ويحصلها، وفي رواية « فمن اتقى الشبهات » وهي جمع شبهة بمعنى مشتبهة.

(ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى): و«من» تكون شرطية وعلى هذا ففعل الشرط: هو قوله «وقع» وجوابه: وقع في الحرام ويصح أن تكون «من» موصولة وعلى هذا فتكون مبتدأ والخبر «كالراعي» والمعنى: مثله مثل راعي مواشيه حول «الحمى» وهو كل ما يحمى.

(يوشك أن يرتع فيه): أي يقرب أن يقع فيه.

(ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه): «ألا» أداة تنبيه تشير إلى أن ما بعدها من الأمور المهمة التي ينبغي أن يلتفت إليها و«الواو» عاطفة على محذوف والتقدير: ألا إن الأمور كذلك وإن لكل ملك حمى، أي مكان خصب جعله خاصاً لرعي دوابه وحذر وأنذر من رعى فيه بالعقوبة « ألا وإن حمى الله محارمه » وفي رواية البخاري بدون أن تعقبها واو العطف، لبعد المناسبة بين حمى الملوك وحمى ملك الملوك سبحانه وعند مسلم بواو العطف، لوجود المناسبة من جهة ذكر الحمى فيهما.

(ألا وإن في الجسد مضغة...) «المضغة»: هي القطعة من اللحم بمقدار ما يمضغ.

الإسلام هو دين العلم والعمل، يدعو أتباعه لمعرفة أصوله وفروعه، والوقوف على الظاهر منها والخفي، حتى إذا ما جاء دور العمل كان منبعثاً من نور، وسائراً على هدى ... كما ينبه إلى مستقر العقيدة في الإنسان، ومصدر أعماله كلها، وهو «القلب» فبصلاحه يتم صلاح سائر الجسد، وبفساده يكون فساد سائر الجسد.

وهذا الحديث يوضح بيان الحلال والحرام وما بينهما. ويضع الضوابط الدقيقة لمنع أية شبهة تتسرب إلى المال وغيره، فالمال يمثل أقصى شهوات النفس البشرية، ولهذا يأمر الله بتناول الحلال الطيب قبل أن يأمر بعمل الصالحات.

قال تعالى: ﴿ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [1] ، إذ كيف تقبل عبادة، أو يستجاب دعاء والمال من الحرام؟! قال ﷺ «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [2] وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [3] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذّى بالحرام فأنى يستجاب لذلك»؟.

والحديث الذى معنا يقطع طريق الريبة إلى النفوس، ويحد من أطماع المتلاعبين بالكسب والعمل، أو العابثين بشتى الوظائف الاجتماعية: فيقرر حقيقة هى من الوضوح بمكان بحيث لا يغفلها أحد، ولا تغيب عن ذهن عاقل.

«الحلال بين والحرام بيّن» إنه واضح للخاصة والعامة معلوم من الدين بالضرورة أى لا يجهله أحد ما بداهة، فلا شبهة فيه ولا غموض.

ومن أمثلة الحلال: أكل الطيب المباح، وشرب الطيب المباح، ولبس الأثواب المباحة...

ومن أمثلة الحرام أكل الربا، وشرب الخمر، والسرقة وما إلى ذلك...

ومن رحمة الله بالإنسان أنه بيّن له الحلال من الحرام، والطيب من الخبيث وتكفل سبحانه بشأن التحليل والتحريم عن طريق الوحى الإلهى المعصوم، فقال سبحانه ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [4] وقامت السنة الشريفة كمصدر ثان للتشريع بجوار القرآن فى تفصيل ما أجمل، وبيان ما يحتاج إلى توضيح، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [5] قال العباس: «والله ما مات رسول الله ﷺ حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً وأحل الحلال وحرم الحرام» قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [6] =

(١) سورة المؤمنون – آية ٥١ .
(٢) سورة المؤمنون – آية ٥١ .
(٣) سورة البقرة – آية ١٧٢ .
(٤) سورة النحل – آية ٨٩ .
(٥) سورة المائدة – آية ٣ .
(٦) سورة النحل – آية ٤٤ .

ثم ينتقل الحديث بعد ذلك إلى بيان أمر ثالث : وهى الأمور المشتبهة ، «وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس» أى بين الحلال والحرام أمور مشتبهة على كثير من الناس حكمها فلا يقطعون فيها برأى ولا يقفون على حكمها بالتعيين أتكون من الحلال أم لا ؟ والسبب فى هذا ، أنه يتنازعها دليل الحل فيظن أنها حلال ، ودليل الحرمة فيظن أنها حرام من جهة عموم الأدلة .

ولكن ما حكم مثل هذه الأمور ؟ .

ذهب بعض العلماء إلى أنها حرام ، وقال البعض : إنها مكروهة وقيل : الوقف فلا يحكم فيها بحل ولا حرمة ، لأنها غير واضحة .

والذى نراه : هو الأخذ بالأحوط ، فبالنسبة لمن لم يقطع فى هذه الأمور برأى واضح الدليل معين ، عليه أن يسأل الراسخين فى العلم وهم القلة الذين أوتوا بصيرة مستنيرة ، وعقلية علمية راجحة ولديهم القدرة على الجمع بين الأدلة التى ظاهرها التعارض ، قال تعالى :﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[1] .

أما إذا اختلفت آراء العلماء باختلاف استظهار الأدلة فعلى المسلم أن يحتاط لدينه فيتوقف عن هذه الأمور ، ومن أمثلة ذلك فى عصرنا الحاضر :

«فوائد صناديق التوفير» ، «شهادات الاستثمار» وما يشبه ذلك من المعاملات الأخرى ، لأن الرسول ﷺ يقول فى تتمة الحديث «فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه» أى : أن من حذر من الشبهات وتوقى الاقتراب من مواطنها فقد طلب البراءة وحصل عليها فحافظ على دينه من النقص ، وعلى عرضه من الطعن فيه ، وبهذا يفهم أن من اقترب من هذه الأمور فقد تعرض للطعن فيه ، فعلى المسلم أن يحافظ على أمور دينه ومروءته .

---

(١) سورة النساء : آية ٨٣ .

وفى الحديث: «إنى لأنقلب إلى أهلى فأجد التمرة ساقطة على فراشى فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها».

وعلى العالم ألا يفعل شيئاً قد يكون ظاهره مدعاة لسوء الظن به حتى يبين وجه الحقيقة فيه، وعلى الناس عامة ألا يعرضوا أنفسهم للقيل والقال، بل عليهم إذا أحسوا بشىء من هذا القبيل أن يبينوه حتى لا تظن بهم الظنون.

وفى الصحيحين: أن صفية بنت حيىّ زوج رسول الله ﷺ جاءت تزوره حين اعتكافه فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان ثم قامت فقام معها يودعها، فمر بها رجلان من الأنصار، ورأياه واقفاً معها، فقال: على رسلكما إنها صفية بنت حيىّ فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وهل نظن بك إلا خيراً. فقال: إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وقد خشيت أن يقذف فى قلوبكما شراً.

ثم يبين الحديث بعد ذلك مغبة ما يؤول إليه أمر هذه الأمور المشتبهة، بأن من وقع فيها وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، فإن فعل الشبهات يقرب من الحرام، لأن الكثرة منها تجعل صاحبها يصادف الحرام دون أن يشعر أو أن كثرة تعاطى الشبهات والتساهل فى أمرها تجعله يجرؤ على الوقوع فى الحرام.

وإنما آثر التعبير بقوله: «... ومن وقع» دون أن يقول «ومن فعل الشبهات» مثلاً لينبه على أن تعاطى الحرام والوقوع فيه يكون نتيجة الإكثار من الشبهات والرغبة فيها حتى يسقط فلا يستطيع التخلى عنها وعندئذ يقع فى الحرام.

وإذا كان لكل ملك حمى يحميه عن الناس، ويمنع أحداً ما أن يدخل فيه ومن دخل أوقع به العقوبة، ومن أجل هذا لا يقاربه أحد رهبة وخوفاً، وإذا كان الحال كذلك فإن حمى الله تعالى - وهى محارمه - أولى بالبعد عنها، وأجدر ألا يقربها =

= الناس، فالمعاصى من قتل أو زنا أو سرقة أو غيبة وغير ذلك كل هذا يمثل حمى الله من دخلها وارتكب شيئاً منها كان موضع غضب الله وعذابه، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[1] .

أما مستقر الصلاح فى الإنسان، ومبعث الخير والبر فيه، فهو القلب ولهذا يبرز الحديث أهميته كأساس فى توجيه صاحبه إلى الحلال والبعد عن الحرام، فيقول: «ألا وإن فى الجسد مضغة ...» فالقلب السليم هو مركز الدائرة فى الإنسان، ونظرة الإسلام إلى القلب من أدق الحكم السامية فعليه مدار العمل كله، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[2] . بل إن الإيمان نفسه لا يستقيم إلا إذا كان التصديق نابعاً من القلب السليم، قال ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه».

وهكذا نرى ما لهذا الحديث من منزلة مهمة فى الدين، لدرجة أن قال جماعة: هو ثلث الإسلام وأن الإسلام يدور عليه وعلى حديث « الأعمال بالنية » وحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وقال أبو داود السختيانى: يدور على أربعة أحاديث هذه الثلاثة وحديث: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وقيل حديث «ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد ما فى أيدى الناس يحبك الناس» وقيل فى هذا:

عمدة الدين عندنا كلمات	مسندات من قول خير البرية
اترك المشبهات وازهد ودع من	ليس يعنيك واعملن بنية

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٧ .

(٢) سورة الشعراء - آيتا: ٨٨ ، ٨٩ .

ما يؤخذ من الحديث

(١) رحمة الله بعباده وهدايته لهم حيث لم يكلهم إلى عقولهم البشرية وأفكارهم المتضاربة القابلة للخطأ والصواب بل بيَّن لهم الخير والشر والحلال من الحرام ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾(١) . كما جعل دينه يُسراً سمحاً ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٢) .

(٢) إن من ترك الأشياء المشتبهة بعزم وإخلاص كان أشد حرصاً على ترك المحرمات الظاهرة والذنوب الكبيرة بل الصغيرة ، ففى الحديث : «من ترك ما يشتبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك» .

(٣) استدل بعض العلماء بهذا الحديث على قاعدة : «سد الذرائع» وهى تحريم كل ما يؤدى إلى معصية ، فتحرم الوسائل والطرق التى من شأنها أن توصل إلى المحرمات فتحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية وإن لم تحدث معصية ، وفى عصرنا هذا أمثلة كثيرة تؤدى وسائلها للمحرمات مثل دور السينما والمسرح ، وأماكن الترفيه المختلطة .. وغير ذلك كثير .

(٤) أهمية القلب ، والعمل على تزكيته وإصلاحه عن طريق العبادات والتمرس على مكارم الفعال والنزعات النقية ، وصقله بالقرآن والسنة حتى يتم صلاحه فيتم صلاح سائر الجسد . ومن أهم وسائل الإصلاح أكل الحلال والبعد عن الحرام .

(٥) احتج بعض العلماء بهذا الحديث على أن العقل فى القلب لا فى الرأس على خلاف بينهم وبين البعض الآخر .

(٦) الدعوة إلى الابتعاد عن الأمور المشتبهة .

(٧) بصلاح القلب تصلح سائر الجوارح وبفساده تفسد .

(٨) الحث على صفاء القلوب ونقائها .

(٩) الحث على الحلال والابتعاد عن الحرام فبالحلال يصلح القلب وبالحرام يفسد القلب .

---

(١) سورة التوبة : آية ١١٥ .

(٢) سورة الحج - آية ٧٨ .

٤١ - باب

أداء الْخُمْسِ مِنَ الإيمَانِ

٤٩ - حَدَّثنَا عليٌّ بن الجَعْد قال : أخبرنا شُعْبَةُ عن أبى جمْرَة قال : كُنْتُ أقْعُدُ مَعَ ابْنِ عباسٍ ، يُجْلسُنى على سَريره ، فقال : أقِمْ عنْدى حَتَّى أجْعَلَ لَك سَهْمًا منْ مَالى ، فأقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْن ، ثم قال : « إنَّ وَفْدَ عَبْد القَيْسِ لَمَّا أتوُا النبىَّ ﷺ ، قال : مَن القَوْمُ ؟ أوْ مَن الوَفْدُ ؟ قالوا : رَبيعَةُ ، قال : مَرحَبًا بالقَومِ ، أوْ بالوَفْد ، غَيْرَ خَزَايَا ، ولاَ نَدَامَى ، فقالُوا : يا رسول الله ، إنَّا لاَ نَسْتَطيعُ أنْ نَأتيَكَ إلاَّ فى شَهْرِ الحَرَامِ ، وَبَيْنَنَا وبَيْنَكَ هَذَا الحَىُّ منْ كُفَّارِ مُضَرَ ، فمُرْنَا بأمرٍ فَصْلٍ ، نُخْبرْ به مَنْ وراءنَا ، ونَدْخُل به الجَنَّةَ ، وَسَألُوهُ عَنِ الأشْرِبَة ، فأمَرَهُمْ بأرْبَعٍ ، ونَهَاهُمْ عن أرْبَعٍ : أمَرَهُمْ بالإيمان بالله وحْدَهُ ، قال : أتدْرُونَ ما الإيمانُ بالله وحْدَهُ ؟ قالوا : الله ورسولُهُ أعْلَمُ ، قال : شَهادَةُ أنْ لاَ إله إلاَّ الله وأن مُحمداً رسُولُ الله ، وإقامُ الصَّلاة ، وإيتاءُ الزَّكاة ، وصِيامُ رَمضانَ ، وأن تُعْطُوا منَ المغْنَم الخُمُسَ ، ونَهاهُمْ عن أرْبَعٍ : عن الحَنْتَمِ ، والدُّبَّاء ، والنَّقير ، والمُزَفَّت ، ورُبَّما قال المُقَيَّرِ وقال : احْفَظُوهُنَّ ، وأخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وراءكُمْ » .

---

٤٩ - ذكر « باب .. أداء الخمس من الإيمان » والمراد بالخمس المذكور فى قول الله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ (١) فأداء الخمس على =

(١) سورة الأنفال : آية ٤١ .

هذا من الإيمان حيث سأل الوفد عن الأعمال التى يدخلون بها الجنة ، وأجيبوا بأشياء منها أداء الخمس والأعمال التى تدخل الجنة هى أعمال الإيمان فيكون أداء الخمس من الإيمان .

لقد حقق الله تعالى النصر والفتح للدعوة الإسلامية ، بعد جهاد طويل ، جاهد فيه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وجاهد أصحابه والمسلمون خير جهاد ، فدعوا للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، بالنفس وبالمال وبالدعوة والكلمة ، حتى تم النصر والفتح من الله العزيز الحكيم .

ولما تم فتح مكة ، وفرغ رسول الله ﷺ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، ضربت إليه وفود العرب من كل مكان ، قال ابن إسحاق : حدثنى أبو عبيدة أن ذلك فى سنة تسع ، وأنها كانت تسمى سنة الوفود ، حيث وفد على رسول الله ﷺ وفود كثيرة ، يتعلمون منه ، ويأخذون عنه ، ويدخلون في دين الله أفواجاً ..

ومن هذه الوفود : وفد عبد القيس ، وكانت مساكنهم بالبحرين وما والاها من أطراف العراق ، ووفد عبد القيس هؤلاء تقدموا قبائلهم للمهاجرة إلى رسول الله ﷺ ، وكانوا أربعة عشر راكباً ، الأشج العصرى رئيسهم .. وهو المنذر بن عائذ ، ومنهم : منقذ بن حيان .. وروى ابن منده من طريق هود العصرى عن جده لأمه قال : بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه ، إذ قال لهم : سيطلع لكم من هذا الوجه ركب هم خير أهل المشرق ، فقام عمر ، فلقى ثلاثة عشر راكباً .. » فيجمع بين هذه الرواية والسابقة بأن يكون أحد المذكورين غير راكب أو مرتدفاً ، وأما ما رواه الدولابى وغيره من طريق أبى خيرة الصباحى قال : « كنت فى الوفد الذين أتوا رسول الله ﷺ من وفد عبد القيس وكنا أربعين رجلاً ... » فيجمع بين هذه الرواية وبين الرواية الأخرى ، بأن الثلاثة عشر كانوا رؤوس الوفد ، ولهذا كانوا ركباناً ، وكان الباقون أتباعاً ..

أما عن سبب وفودهم : فهو أن منقذ بن حيان أحد بنى غنم بن وديعة ، كان متجره إلى يثرب فى الجاهلية ، فشخص إلى يثرب ، بملاحف وتمر من هجر ، بعد =

= هجرة النبى ﷺ فبينا منقذ بن حيان قاعد ، إذ مر به النبى ﷺ ، فنهض منقذ إليه فقال النبى ﷺ : أمنقذ بن حيان ، كيف جميع هيئتك وقومك ؟ ثم سأله عن أشرافهم رجل رجل ، يسميهم بأسمائهم ، فأسلم منقذ ، وتعلم سورة الفاتحة واقرأ باسم ربك ، ثم رحل قبل هجر ، فكتب النبى ﷺ معه إلى جماعة عبد القيس كتاباً ، فذهب به ، وكتمه أياماً ، ثم اطلعت عليه امرأته ، وهى بنت المنذر ابن عائذ ، والمنذر هو الأشج ، سماه رسول الله ﷺ به لأثر كان فى وجهه ..

وكان منقذ رضي الله عنه يصلى ويقرأ ، فأنكرت امرأته ذلك ، فذكرته لأبيها المنذر فقالت : أنكرت بعلى منذ قدم من يثرب ، إنه يغسل أطرافه ويستقبل الجهة ، تعنى القبلة ، فيحنى ظهره مرة ، ويضع جبينه مرة ، ذلك ديدنه منذ قدم ، فتلاقيا ، فتجاريا ذلك ، فوقع الإسلام فى قلبه ، ثم سار الأشج إلى قومه عصر ومحارب بكتاب رسول الله ﷺ ، فقرأه عليهم فوقع الإسلام فى قلوبهم وأجمعوا على السير إلى رسول الله ﷺ ، فسار الوفد ، فلما دنوا إلى المدينة ، قال النبى ﷺ لجلسائه : « أتاكم وفد عبد القيس ، خير أهل المشرق ، وفيهم الأشج العصرى غير ناكثين ولا مبدلين ولا مرتابين » . فلما أتوا النبى ﷺ قال : من القوم أو من الوفد ؟ قالوا : ربيعة ، قال : « مرحباً بالقوم أو بالوفد ، غير خزايا ولا ندامى » .. أى أنهم لا يصيبهم الخزى فقد أسلموا طوعاً من غير حرب أو سبى يخزيهم ويفضحهم وإذا كان هذا شأنهم فى الدنيا ، فإنهم فى الآخرة لا تلحقهم الندامة ولا الحسرة ، وفى هذا القول النبوى الحكيم بشرى لهم بالخير العاجل ، والآجل ، لأن الندامة إنما تكون فى العاقبة فإذا انتفت ثبت ضدها . ثم وضحوا لرسول الله ﷺ موقفهم ، وأنهم لا يستطيعون الوصول إليه إلا فى شهر حرام من الأشهر الحرم وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وذلك خوفاً من أعدائهم الكفار ، وفى رواية الإمام مسلم : « وقد حالت بيننا وبينك كفار مضر فلا نخلص إليك إلا فى شهر الحرام فمرنا بأمر نعمل به وندعو إليه من وراءنا » .

وكان أعداؤهم لا يتعرضون إليهم فى هذه الأشهر ، كما كانت عادة العرب من تعظيم الأشهر الحرم ، وامتناعهم من القتال فيها ، فأمرهم بأربع ونهاهم عن

أربع ، أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال : أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس ، ولكننا إذا نظرنا إلى الأمور التى أمر بها وجدناها خمساً لا أربعاً ، وأظهر ما أجيب به عن ذلك أنه أمرهم بالأربع التى وعدهم بها ثم زادهم خامسة وهى : أداء الخمس ، لأنهم كانوا مجاورين لكفار مضر فكانوا أهل جهاد وغنائم وقيل : إنه لم يذكر الحج فى هذا الحديث ، لكونه لم يكن نزل فرضه « ونهاهم عن أربع عن : الحنتم والدباء والنقير والمزفت وربما قال : المقير ...» أما الدباء : فهو القرع اليابس أى الوعاء منه . وأما الحنتم فأقوى الآراء فيه أنه : جرار خضر ، وأما النقير : فهو جذع ينقر وسطه . وأما المقير : فهو المطلى بالقار وهو الزفت والمراد النهى عن الانتباذ فى هذه الأربعة بأن يجعل فى الماء حبات من تمر أو زبيب أو نحوهما ليحلو ويشرب ، وخصت هذه بالنهى لأنه يسرع إليها الإسكار فيها فيصير حراما نجساً وتبطل ماليته ..

وجاء فى بعض الروايات بيان ما يترتب عليه من الإسكار ، وما يترتب على الإسكار من المفاسد قالوا : يا نبى الله ما علمك بالنقير ؟ قال : بلى جذع تنقرونه فتقذفون فيه من القطيعاء قال سعيد - أو قال من التمر - ثم تصبون فيه من الماء حتى إذا سكن غليانه شربتموه حتى أن أحدكم أو أن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف ، قال : وفى القوم رجل أصابته جراحة كذلك ، قال : وكنت أخبئها حياء من رسول الله ﷺ

ومعلوم أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يستوعب لهم جميع الأوامر وجميع المنهيات ، وذلك لأنهم سألوه أن يخبرهم بما يدخلون به الجنة فاقتصر لهم على ما يمكنهم فعله فى الحال ولم يقصد إعلامهم بجميع الأحكام التى تجب عليهم فعلاً وتركاً ، واقتصر فى المنهيات على الانتباذ فى الأوعية مع أن فى المنهيات ما هو أشد فى التحريم من الانتباذ ، لكن اقتصر عليها ، لكثرة تعاطيهم لها .

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن الإيمان بالله هو مجموع هذه الخصال من القول والعمل.

(٢) ويستنبط وجوب أداء الخمس من الغنيمة وأنه من الإيمان.

(٣) النهى عن الانتباذ فى هذه الأوعية. قال العلامة ابن القيم: وهل تحريمه باق أو منسوخ؟ على قولين، وهما روايتان عن أحمد، والأكثرون على نسخه بالحديث الذى رواه مسلم: «وكنت نهيتكم عن الأوعية فانتبذوا فيما بدا لكم ولا تشربوا مسكراً» ومن قال بأحكام أحاديث النهى وأنها غير منسوخة قال: هى أحاديث تكاد تبلغ التواتر، فى تعددها، وكثرة طرقها، وحديث الإباحة فرد فلا يبلغ مقاومتها، وسر المسألة: أن النهى عن الأوعية المذكورة من باب سد الذرائع، إذ الشراب يسرع إليه الإسكار فيها.

(٤) مدح صفتى الحلم والأناة، وأن الله يحبهما وضدهما الطيش والعجلة، وهما خلقان مذمومان مفسدان للأخلاق والأعمال.. واستنباط مدح الحلم والأناة، مأخوذ من بعض الروايات الأخرى، فعند مسلم:

« وقال نبىّ الله ﷺ لأشج عبد القيس: « إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة » وسبب قول النبى ﷺ ذلك له: ما جاء فى حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة، بادروا إلى النبى ﷺ. وأقام الأشج عند رحالهم، فجمعها، وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبى ﷺ فقربه النبى ﷺ وأجلسه إلى جانبه ثم قال لهم النبى ﷺ : تبايعون على أنفسكم وقومكم فقال القوم: نعم فقال الأشج:

يا رسول الله، إنك لم تزاول الرجل عن شىء أشد عليه من دينه نبايعك على أنفسنا، ونرسل من يدعوهم فمن اتبعنا كان منا، ومن أبى قاتلناه قال: صدقت، إن فيك خصلتين الحديث.. فالأناة على هذا: هى تربصه حتى نظر فى مصالحه ولم يعجل، والحلم: هذا القول الذى قاله الدال على صحة عقله، وجودة نظره للعواقب.

ولا يخالف هذا ما روى أنه لما قال رسول الله ﷺ للأشج: إن فيك خصلتين.. قال: يا رسول الله كانا فىَّ أم حدثا؟ قال: بل قديم، قال: قلت: الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما.

(٥) كما يستنبط من الحديث وفادة الرؤساء والأشراف إلى الأئمة عند الأمور

المهمة وتقديم الاعتذار بين يدى المسألة وفيها : بيان مهمات الإسلام وأركانه ما سوى الحج وفيها استعانة العالم فى تفهم الحاضرين والفهم عنهم ببعض أصحابه كما فعله ابن عباس رضى الله عنهما .

(٦) جواز الثناء على الإنسان في وجهه إذا لم يخف عليه فتنة بإعجاب ونحوه ، وأما النهى عن المدح فى الوجه ، فهو فى حق من يخاف عليه الفتنة .

وفي بعض روايات القصة من التفصيل ما يفيد وصف الأشج بالحلم والأناة : ثم نزل الأشج فعقل راحلته وأخرج عيبته – وهى التى يضع فيها ثيابه وزاده – ففتحها فأخرج (ثوبين) أبيضين من ثيابه فلبسهما ، ثم أتى رواحلهم فعقلها وجمع متاع القوم ثم جاء يمشى حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبلها فقال رسول الله ﷺ : يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله عز وجل ورسوله الحلم والأناة ، فقال : يا رسول الله أنا تخلقتهما أو جبلنى الله عليهما ؟ فقال : بل الله جبلك عليهما ، قال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله .

وهكذا نرى أن هذا الحديث قد اشتمل على العديد من الأحكام والحكم ، والمأمورات والمنهيات ، والتوجيهات السديدة التى تأخذ بأيدى الناس إلى صراط ربهم المستقيم ، وتجنبهم طرق الغواية والضلال ، وهذه التوجيهات التى زودهم بها رسول الله ﷺ عليه لها أهميتها وأثرها فى بناء حياتهم ، واستقامة أمرهم ، ولهذا قال لهم رسول الله ﷺ : احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم . . إنها دعوة الإسلام الصادقة ، التى تفيض بها قلوب المؤمنين المخلصين ، وتنطلق داعية إلى الله على هدى وبصيرة ، لتفوز برضوان من الله ، وذلك هو الفوز العظيم .

(٧) كما اشتمل الحديث على أن الله تعالى يحب من عبده ما جبله عليه من خصال الخير ومكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال كالحلم والأناة ، والشجاعة والذكاء ، وغير ذلك لا سيما إذا سخر مواهبه فى البر والتقوى ، والتعاون والمعروف والدعوة إلى الخير والإسلام .

(٨) الأمر بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام وخمس الغنيمة .

(٩) العمل بخبر الآحاد .

٤٢ - باب

ما جاء أن الأعمال بالنية والحِسْبة

وَلِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى ، فَدَخَلَ فِيه الإِيمانُ والوضُوءُ والصَّلاةُ والزَّكاة والحَجُّ والصَّوْمُ والأحْكَامُ ، وقال الله تعالى ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِه ﴾(١) عَلَى نِيَّته « نَفَقَةُ الرجل على أَهْلِه يحْتَسِبُها صَدَقَةٌ » وقال : « وَلَكِنْ جِهادٌ ونِيَّةٌ » .

٥٠ – حَدَّثَنا عَبْدُ الله بنُ مَسْلَمَةَ قال : أخبرنا مالِكٌ عن يَحْيَ بن سعيد عن مُحمد بن إبْرَاهيمَ عن عَلْقَمَةَ بن وَقَّاصٍ عن عُمَرَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « الأَعْمالُ بالنِّيَّة ، ولِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُه إلَى الله وَرَسُوله ، فَهِجْرَتُهُ إلى الله وَرَسُوله ، ومَنْ كانَتْ هِجْرَتُه لِدُنْيَا يُصِيبُهَا ، أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إلَيْه » .

٥٠– قبل إيراد هذا الحديث جاءت الترجمة لهذا الباب بقوله : « باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة » أى أن الأعمال الشرعية بالنية والحسبة ، ومعنى الحسبة طلب الثواب والأجر من الله سبحانه وتعالى ، واستدل بحديث « الأعمال بالنية » على أهمية النية ، وبحديث أبى مسعود على أن الأعمال بالحسبة وذلك فى لفظ الحديث : « نفقة الرجل على أهله يحتسبها صدقة » أما حديث « الأعمال بالنية » فقد سبق شرحه قبل ذلك ، ولكننا نورد هنا زيادة فى شرحه استكمالاً =

(١) سورة الإسراء : آية ٨٤ .

للفـائدة. ونلاحظ فى هـذه الرواية لحديث: « إنما الأعمـال بالنيـات » أنه جاء بلفظ «الأعمال بالنية» فجمع الأعمال وأفرد النية، وقد وجه الإمام الحافظ ابن حجر هذه الرواية بقوله: «إن محل النية القلب وهو متحد فناسب إفرادها، بخلاف الأعمال فإنها متعلقة بالظواهر، وهى متعددة فناسب جمعها، ولأن النية ترجع إلى الإخلاص، وهو واحد للواحد الذى لا شريك له» وأما رواية « إنما الأعمال بالنيات » فواضحة وظاهرة ففيها مقابلة جمع الأعمال بجمع النيات فالأعمال جمع والنيات كذلك، فكل عمل بنيته، وأما رواية: « العمل بالنية » فتفيد استغراق أفراد جنس العمل وأنواعه.

وفى هذا الحديث توضيح لأهمية النية فى الإسلام، ومنزلتها فى سائر الأعمال، ومعلوم أن العمل الذى يثاب عليه الإنسان، هو الذى يكون صحيحاً وكاملاً، فبيّن الحديث أولاً: أساس صحة العمل وأساس كماله وذلك فى قوله: «إنما الأعمال بالنيات»

وبيّن ثانياً: جزاء كل إنسان على عمله وذلك فى قوله: « وإنما لكل امرىء ما نوى » ولذا فقد كان هذا الحديث من الأحاديث الهامة التى تقوم عليها أصول الإسلام، ويرى أئمة الحديث أن مدار الإسلام على هذا الحديث، وحديث: « الحلال بيّن والحرام بيّن .. » وحديث: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »، وحديث: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »، وقيل: حديث « ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس ».

وقد قيل فى هذا:

عمدة الدين عندنا كلمات ... مسندات من قول خير البريه

أترك المشبهات، وازهد ودع ما ... ليس يعنيك، واعملن بنيه

وتنقسم الأعمال إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الطاعات.

والقسم الثانى: المعاصى.

والقسم الثالث: المباحات.

= فأما الطاعات : فترتبط بالنية فى أصل صحتها وكمالها ، وفى مضاعفة الثواب عليها ، وذلك كطلب العلم ، فإذا نوى طالب العلم - مثلاً - أن يتعلم ، ليتفقه فى أمور دينه ، وليعلّم غيره ، وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولينشر تعاليم الإسلام فإن كل هذه المقاصد تضاعف من مثوبة العمل ، ويكون له بكل نية ثواب .

وإن نوى الإنسان فعل الطاعة ، ثم حال حائل دون تحقيق ما نواه ، وكان خارجاً عن إرادته ، فإن له ثواب ما نواه ، كمن سعى مثلاً للجهاد أو للحج ، ثم منعه العذر عن فعل ما يريد .

روى الإمام مسلم من حديث جابر رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فقال : « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض » وفى رواية : « إلا شركوكم فى الأجر » .

وفيما رواه الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال :

« إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بيّن ذلك ، فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هَمَّ بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هَمَّ بها وعملها كتبها الله له سيئة واحدة » وإنما كتبت الحسنة لمن همّ بالسيئة فلم يعملها لكونه قد تركها خوفاً من الله تعالى .

ويمكن أن تؤثر النية فى الطاعة فتقلبها إلى معصية كما إذا نوى صاحبها الرياء ، فإنها تصبح معصية ، وتجلب على صاحبها الويل .

فالصلاة مثلاً : من أسمى العبادات لكنها إذا داخلها الرياء كان الويل لصاحبها . قال الله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝ ﴾(1) ، وكذلك الحال بالنسبة للزكاة ، فإنها إذا خالطها الرياء أو المن والأذى بطلت ، وأصبحت لا وزن لها قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي

(1) سورة الماعون : آية ٤-٧ .

يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾(١) .

وأما المعاصى : فلا تتغير عن موضعها بنية صاحبها ، ولا يمكن أن تنقلب المعصية طاعة بالنية ، والذى يتصدق أو يبنى مسجداً بمال حرام ، ويقصد الخير فإن نيته فى مثل هذا العمل ، وإن قصده للخير حينئذ لا يؤثر فى كونه ظلماً ومعصية ، فالمعصية لا يمكن أن تنقلب بنية الخير طاعة أبداً ، ولا تأثير لها بحال اللهم إلا إذا انضم إليها قصد آخر خبيث ، فإنها تضاعف الوزر والعقوبة .

وأما المباحات : فإنها يمكن أن تكون بالنية طاعة ، ويمكن أن تكون معصية ، على حسب قصد صاحبها .

فأما المباح الذى يكون طاعة بالنية فمثاله : الأكل والشرب والنكاح . فمن قصد من الأكل والشرب الاستعانة على الطاعة وقصد من النوم الراحة ليتقوى للعبادة والعمل ، وقصد من النكاح تحصين دينه ودين زوجته ، وقصد إعفاف نفسه ، وإعفاف زوجته ، والرغبة فى ولد صالح كان كل ذلك بالنية الحسنة طاعة يثاب الإنسان عليها .

قال ﷺ « وفى بضع أحدكم صدقة » . قالوا : يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » (٢) .

وكذلك ما يطعمه لأولاده وزوجته فله ثواب عليه ، ما دامت نية الخير تقارنه .

عن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال له : « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعله فى فم امرأتك » رواه البخارى .

وإن نفقة المرأة لواجبة على زوجها ، وإن إطعامها لواجب عليه ، ومحبب إليه ، ومع هذا فإن الإسلام يقرر أن إخلاص النية فى هذا الواجب طريق إلى حسن القبول ومضاعفة المثوبة ، فأى تشريع يبلغ فى سموه ودقته وحرصه ما بلغه الإسلام حين جعل من النية الحسنة سبيلاً إلى مرضاة الله ، وكثرة الأجر ؟ .

(١) سورة البقرة : آية ٢٦٤ .　　(٢) رواه مسلم .

وأما عمل المباح الذى يكون معصية بنية الشر فمثاله : من أخذ دَيْناً وفى نيته ألا يقضيه . أما لو أخذ الدين وفى نيته أن يؤديه فلم يتمكن لعذر ففى شأنه قال ﷺ : « من ادَّانَ دَيْنا ينوى قضاءه أدَّاه اللهُ عنه يوم القيامة » رواه الطبرانى عن ميمونة .

ثم فصّل الحديث الحكم على القاعدتين السابقتين : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله .. الخ » .

فبيَّن أن المهاجر إذا كانت هجرته فى سبيل الله فهو المهاجر إلى الله ورسوله حقاً ، وأما إذا كان طالباً من طلاب الدنيا أو راغباً فى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه تحقيراً لرغبته .

وقد قيل فى سبب ورود هذا الحديث بأن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر فسمى مهاجر أم قيس ، ولئن قيل : إن هذا هو سبب ورود الحديث فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإن الحكم فيه قام لكل صاحب نية على حسب ما نواه .

هذا وقد كانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال من مكة إلى المدينة ، إلى أن فتحت مكة ، فانقطع الاختصاص وبقى عموم الانتقال من دار الكفر لمن كان قادراً عليه بعد الفتح ، محافظة على الدين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴿٩٧﴾ ﴾[١] .

وفى معنى الهجرة العامة الهجرة لكل ما نهى الله عنه ، كما قال الرسول ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »[٢] .

وقد أبرز القرآن الكريم أهمية النية ، وإخلاص العمل لله وحده ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴿١١٠﴾ ﴾ [٣] .

---

(١) سورة النساء : آية ٩٧ .

(٢) رواه البخارى وأبو داود والنسائى .

(٣) سورة الكهف : آية ١١٠ .

= كما حذر الإسلام من عدم الإخلاص، ومن الشرك في العمل، عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: يقول الله تبارك وتعالى: [أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى تركته وشركه] رواه مسلم.

وليس في النص على الهجرة تخصيص لها، فما الهجرة إلا مثال يقاس عليه كل عمل آخر، كالجهاد مثلاً: فمن المجاهدين من يذهب من أجل غنيمة، ومنهم من يطمح في شهرة أو سمعة أو ليقال عنه أو يرى مكانه، كل هذه أغراض قد تشد المجاهد أما من كان في سبيل الله فهو المجاهد لإعلاء كلمة الحق.

كما روى عن أبي موسى الأشعري أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »(١).

وكذلك النية تكون مطلوبة في كل عمل من صدقة أو معروف، أو إصلاح بين الناس، فإذا ابتغى المسلم بتلك الأعمال وجه الله تعالى ضاعف الله له الأجر والمثوبة، قال تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾(٢).

وأما إذا فقد العمل روح الإخلاص، وحسن النية، وكان قصد صاحبه الرياء، فلا جدوى من عمله، ولا قيمة له، بل إنه يكون من أول من يقضى عليه يوم القيامة، حتى ولو قُتل في ساحة الجهاد، أو كان جواداً لدرجة أنه لم يترك سبيلاً في الخير إلا وأسدى فيه الإنفاق. عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى في النار ».

« ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها، فقال =

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم.
(٢) سورة النساء: آية ١١٤.

= ما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ثم أُمِر به فَسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار».

«ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أُمِر فَسُحِبَ على وجهه ثم ألقى فى النار». رواه مسلم.

وقد ذكر الإمام أحمد رضى الله عنه أن مدار الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث «إنما الأعمال بالنيات ..» وحديث: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

وحديث: «الحلال بيّن والحرام بيّن ..» ووجه هذا الحديث أن الدين فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه. فحديث: «الحلال بيّنٌ ..» فيه بيان ما نهى عنه والذى أمر الله به نوعان:

أحدهما: العمل الظاهر، وهو ما كان واجباً أو مستحباً.

والثانى: العمل الباطن وهو إخلاص الدين لله.

فقوله: «من عمل عملاً» ينفى التقرب إلى الله بغير ما أمر الله به أمر إيجاب أو أمر استحباب.

وقوله: «إنما الأعمال بالنيات» يبيّن العمل الباطن وأن التقرب إلى الله إنما يكون بالإخلاص فى الدين لله. قال الفضيل فى قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾(١) قال: أخلصه وأصوبه فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

وعلى هذا دل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾(٢). فالعمل الصالح هو ما أمر الله به ورسوله ﷺ أمر إيجاب

(١) سورة الملك: آية ٢.

(٢) سورة الكهف: آية ١١٠.

أو أمر استحباب وأن لا يشرك العبد بعبادة ربه أحداً وهو إخلاص الدين لله اهـ.

ونخلص من هذا الحديث الجامع العظيم بعدة نتائج نجملها فيما يأتى :

أولاً: إن هذا الحديث يعتبر من جوامع الكلم التى اختص بها رسول الله ﷺ ، كما قال فى بعض أحاديثه : « بعثت بجوامع الكلم » وذلك لأن كل عمل يقوم به الإنسان من خير أو شر يكون على حسب ما نواه فإن كان ما نواه خيراً كان له الخير الذى نواه ، وإن كان ما نواه شراً أو سيئاً كان له ما نواه.

ثانياً: إن هناك تلازماً بين الظاهر والباطن ، فلا يكون الظاهر مستقيماً إلا إذا استقام الباطن ، وإذا ما استقام الباطن فلا بد أن يستقيم الظاهر . ولذا قال الرسول ﷺ :

« .. ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » [1] .

وقال عمر - رضى الله عنه - لمن رآه يعبث فى صلاته : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه . وفى الحديث : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه »[2] .

ثالثاً: التحذير من الدنيا - وخاصة من النساء - فقد عطف المرأة على الدنيا فى قوله : « فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها » مع أن المرأة داخلة ضمن الدنيا . فإن المراد بالدنيا : كل ما فى هذه الحياة من المال والشهوات والنساء والبنين إلى غير ذلك مما ورد فى قول الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾[3] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم . (٢) رواه أحمد .

(٣) سورة آل عمران - آية ١٤

= ولكن خص المرأة بالذكر وعطفها على الدنيا تخصيصاً بالتحذير منها بعد التعميم لشدة أثرها وفتنتها . فقد جاء في الحديث : « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » رواه الشيخان .

رابعاً: للإخلاص وحسن النية أكبر الأثر فى الدنيا وفى الآخرة .

أ ـ فأما نتيجة الإخلاص فى الدنيا فبه تنفرج الأزمات ويجعل الله للمخلص من ضيقه فرجاً ، ومن همه مخرجاً ويعيش فى طمأنينة ورضاً ، ومما يدل على أن الإخلاص يفرج الأزمات ما جاء فى الحديث المتفق عليه :

عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى بى طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى فاستيقظا فشربا غبوقيهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه .

وقال الآخر: اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلىّ ، وفى رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجل النساء ، فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت حتى إذا قدرت عليها .

وفى رواية : فلما قعدت بين رجليها ، قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىّ ، وتركت الذهب الذى أعطيتها اللهم إن

كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين، فقال يا عبد الله أدِّ إليَّ أجرى فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال : يا عبد الله لا تستهزىء بى فقلت : لا أستهزىء بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون »[1] . هذا ما أثمره إخلاص العمل لله فى الدنيا .

ب ـ وأما نتيجة الإخلاص ، وحسن النية فى الآخرة ، فذلك بحسن قبول العمل ، ومضاعفة المثوبة والأجر ودخول الجنة .

قال رسول الله ﷺ : « إذا كان آخر الزمان صارت أمتى ثلاث فرق :

فرقة يعبدون الله خالصاً .

وفرقة يعبدون الله رياء .

وفرقة يعبدون الله ليستأكلوا به الناس .

فإذا جمعهم الله يوم القيامة قال للذى يستأكل الناس : بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟ فيقول : وعزتك وجلالك أستأكل الناس .

قال : لم ينفعك ما جمعت ، انطلقوا به إلى النار ، ثم يقول للذى كان يعبد رياء : بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟

قال : بعزتك وجلالك رياء الناس قال : لم يصعد إليّ منه شىء انطلقوا به إلى النار . ثم يقول للذى كان يعبده خالصاً : بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟

قال : بعزتك وجلالك أنت أعلم بذلك من أردت به ، أردت به ذكرك ووجهك .

قال : صدق عبدى ، انطلقوا به إلى الجنة »[2] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه الطبرانى .

ما يؤخذ من الحديث

(١) أهمية النية، والإخلاص في جميع الأعمال والبعد عن الرياء والتظاهر.

(٢) أن ثواب كل إنسان لما يؤديه من أعمال بحسب نيته وإخلاصه.

(٣) أهمية استيفاء العمل لشروط صحته حتى يكون مقبولاً.

(٤) أن للإنسان ثواب ما نواه حتى ولو حال مانع دون تنفيذه.

(٥) الهجرة من أماكن الكفر والظلم والخوف.

٥١ - حَدَّثنَا حَجَّاجُ بنُ مِنْهَال قال : حَدَّثنا شُعْبَةُ قال : أخبرني عَدِيُّ بنُ ثابت قال : سمِعْتُ عبدَ الله بنَ يَزِيدَ عن أبي مَسْعُودٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قال : « إذا أَنْفَقَ الرَّجُلُ على أَهْله يحتَسِبُهَا فهوَ لَهُ صَدَقَةٌ » .

٥١ـ «عن أبي مسعود» هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي البدري المتوفى سنة إحدى وثلاثين أو إحدى واثنتين وأربعين بالمدينة أو بالكوفة، رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إذا أنفق الرجل على أهله» أي نفقة من أي أنواع الإنفاق من المال أو من الطعام أو الكساء أو نحو ذلك ولم يذكر معمول الفعل وهو (نفقة) ليفيد العموم في جميع أنواعها ومقاديرها، كثيرة كانت أو قليلة وفي قوله: «يحتسبها» بيان لحال إنفاقه أي أنه ينفق ما ينفق حال كونه يحتسب ذلك، بأن يريد بالإنفاق وجه الله سبحانه وتعالى «فهو» أي الإنفاق وفي بعض الروايات: «فهي» أي النفقة «له صدقة» أي أنها كالصدقة وتشبهها في أصل الثواب وليس في الكم ولا في الكيف، وهو مجاز وليس حقيقة، وإلا فلو كان الإنفاق صدقة حقيقة لحرمت على الزوجة الهاشمية، لأن بني هاشم وآل البيت تحرم الصدقة عليهم. وفي هذا الحديث ردّ على المرجئة الذين يقولون بأن الإيمان إقرار باللسان فقط.

وهكذا يوضح لنا سيدنا رسول الله ﷺ ما يجب على الرجال تجاه نسائهم من الإنفاق ومن القيام بحق النفقة وما يجب على الرجل تجاه زوجته من رعاية حق البيت ومن قيامه بحق القوامة والإنفاق، فيوضح أن هذا وإن كان واجباً على الإنسان وإن كان محبباً إلى نفسه إلا أن الله سبحانه وتعالى يثيب الذين يقومون به بإخلاص ويحتسبونه عند الله .

«إذا أنفق الرجل» وفي رواية أخرى للحديث «إذا أنفق المسلم» ليفيد أن المراد بالرجل هنا المسلم لأن الثواب لا يكون إلا له «إذا أنفق الرجل على أهله» أي على زوجته وأقاربه نفقة حُذف هنا المفعول به وهو ما ينفقه ليشمل كل أنواع النفقة =

= ويعم الكثير والقليل ، فمن أنفق كثيراً فله ثواب ومن لم يستطع أن ينفق إلا بقدر ما عنده من القليل فله أيضاً ثواب « إذا أنفق الرجل » أى المسلم «على أهله» أى على زوجته وأقاربه نفقة قليلة أو كثيرة «يحتسبها» أى والحال أنه يقصد بهذه النفقة التى يقوم بها والتى يسعى لأدائها يقصد بذلك الاحتساب وهو طلب الثواب من الله سبحانه وتعالى كانت له صدقة .

وإطلاق الصدقة على الثواب مجاز والصّارف عن حقيقته الإجماع على جواز النفقة على الزوجة الهاشمية التى حرمت الصدقة عليها ، ويفهم من قوله ﷺ «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها» يُفهم من هذا القول أن الذى لا تكون عنده نية التقرب لا تكون له صدقة، وكذا النفقة على النفس وعلى الدابة إذا نوى بها وجه الله سبحانه وتعالى أثيب عليها وإلا فلا ، وتَسْمِيَةُ النفقة صدقة كتسمية « الصداق نحلة » فلما كان احتياج المرأة للرجل كاحتياج الرجل إليها فى التحصين وطلب الولد كان الأصل أنه لا يلزمه لها شىء لكنه تعالى خصّه بالفضل والقيام عليها ، ومن ثم أطلق على الصداق والنفقة صدقة، وفى ذلك حث على الإخلاص وعلى إحضار النية فى كل عمل سواء كان هذا العمل ظاهراً أو كان خفياً حتى اللقمة تضعها فى فم زوجتك لك بها صدقة .

وفى حديث آخر يقول الرسول ﷺ « وفى بضع أحدكم صدقة قيل : يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم إن وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إن وضعها فى حلال كان له أجر » [1] وهكذا بيّن لنا الرسول ﷺ أننا حين ننفق على أهلنا نفقة نحتسبها يكتبها الله لنا بثواب الصدقة، وذلك ليقوم الإنسان بحق أهله عليه وليؤدى الإنسان واجبه حيال أسرته وليسعى الإنسان ويعمل ويكدح فى الحياة من أجل أن يوفر ذلك لأنه لا يتأتى له القيام بهذا إلا إذا سعى وإلا إذا عمل .

والإنفاق على الأهل وإن كان واجباً وإن كان الإنسان يرغب فيه ويحبه بل هو أحب شىء إلى نفسه لكن الله تعالى يجعله طاعة من الطاعات يتقرب بها من

(١) رواه مسلم .

يحتسبها عند الله ويجعل رب العزة سبحانه هذا الإنفاق على الأهل من أعظم أنواع الإنفاق أجراً وقد قال ﷺ « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقت على أهلك »[1] .

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل الإنفاق على الأهل، ومنزلة ثوابه العظيم عند الله سبحانه وتعالى .

(٢) أن الإنفاق على الأهل يكون عبادة وينال المنفق مثل ثواب الصدقة إذا قصد بإنفاقه وجه الله سبحانه وتعالى .

(٣) فضل صلة الأرحام وأهمية القيام بها .

(٤) الدعوة إلى العناية بالأسرة والأهل والقيام بالإنفاق عليهم وأداء حقوقهم .

(٥) في الحديث ردٌّ على المرجئة الذين يقولون بأن الإيمان إقرار باللسان فقط ، بل إن الإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان .

(١) رواه مسلم .

٥٢ - حَدَّثَنَا الحَكَمُ بنُ نافعٍ قال : أَخبرنا شُعَيْبٌ عنِ الزهْرِيِّ قال : حَدَّثَنِى عامر بنُ سعْد عنْ سعْد بنِ أَبِى وقَّاصٍ أَنَّه أَخْبره أَنَّ رسول الله ﷺ قال : « إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِى بِهَا وَجْهَ اللهِ ، إِلاَّ أُجِرتَ علَيْهَا ، حَتَّى ما تَجْعلُ فِى فِى امْرأَتكَ » .

٥٢- فى هذا الحديث خطاب من رسول الله ﷺ خاطب به سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وهو أيضاً خطاب ينطبق على كل من يصح منه الإنفاق .

وقد بدأه بقوله « إنك . . » لإفادة تأكيد الأمر الذى يخاطبه من أجله ويوجهه إليه «لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله» أى تبتغى بها ما عند الله سبحانه وتعالى من الثواب الجزيل والأجر العظيم (إلا أُجرت عليها حتى ما تجعل فى فِى امرأتك) وهذا جزء من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى مرضه وهو فى مكة المكرمة عند عيادة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إليه ، وقول سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : «أوصى بشطر مالى. . . .» الحديث.

واستنبط الإمام النووى من هذا، أن الحظ إذا وافق الحق لا يقدح فى ثوابه، لأن وضع اللقمة فى فِى الزوجة يقع غالباً فى حالة المداعبة، ولشهوة النفس في ذلك مدخل ظاهر، ومع ذلك إذا وجه القصد فى تلك الحالة إلى ابتغاء الثواب حصل له بفضل الله.

ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ : «وفى بضع أحدكم صدقة» (١) .

قالوا: يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويُؤْجر؟ قال: نعم أرأيتم لو وضعها فى حرام؟ أفلا يكون عليه وزر؟ كذلك إن وضعها فى حلال يكون له أجر.

ونلاحظ أن الحديث خص المرأة من بين الأهل فى قوله ﷺ :

«حتى ما تجعل فى فِى امرأتك»؛ وذلك لأن منفعة الإنفاق تعود على الزوج

---

(١) رواه مسلم .

الذى أنفق بحسن المعاشرة والمودة، كما أن منفعة الإنفاق تعود عليه أيضاً بما تؤثر فى حسن ملبس المرأة وغير ذلك، والزوجة من أحظ حظوظ الزوج الدنيوية، والأغلب الأعم عند الناس أن ينفقوا على زوجاتهم لحصول الرغبة والشهوة وقضاء الوطر، بخلاف غير الزوجة من سائر الأهل، فإن النفقة ربما يخرجها الرجل بتكلف ومشقة، فأخبر الحديث بأن اللقمة التى يضعها الزوج فى فم زوجته إذا قصد بها وجه الله تعالى كان له أجر على ذلك مع وجود الداعى إلى ذلك، فما بالنا حين يكون الإنفاق دون داع أوحظ للنفس أو تكلف مشقة؟ لا شك أن الثواب على ذلك كثير وعظيم.

ولاشك أن النفقة على الزوجة، من الحقوق الواجبة على الزوج، فيجب على الرجل أن ينفق على امرأته من كسبه إذ من أسس قوامة الرجل على المرأة «الإنفاق» قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (١).

وتكون النفقة على حسب حالة الرجل، على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره لأن النفقة تختلف باختلاف الناس يسراً وعسراً، قال الله تعالى:

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧ ﴾ (٢).

وفى هذه الآية الكريمة بشارة لمن كان فى عسر، ويجتهد فى الإنفاق قدر استطاعته، بأن الله تعالى سيجعل له بعد العسر يسراً، وسيفتح عليه أبواب الرزق، وسيخلف الله عليه، وسيوسع عليه الرزق حين يقوم بواجب الإنفاق على زوجته.

وفى الحديث: «وحقهن عليكم: أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن» (٣).

(١) سورة النساء (٣٤). (٢) سورة الطلاق (٧). (٣) رواه ابن ماجه والترمذى.

= والإنفاق على الأهل هو أعظم أنواع الإنفاق أجراً عند الله تعالى، مهما كان محبباً للإنسان وواجباً عليه، ولكنه حين يؤديه الإنسان محتسباً إياه ومخلصاً فيه يكون أعظم أنواع الإنفاق أجراً، كما قال عليه الصلاة والسلام:

«دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك[1]» .

ما يؤخذ من الحديث

(١) وجوب النفقة على الزوجة والأهل .

(٢) فضل الإنفاق وما له من أجر عظيم عند الله تعالى حين يبتغى الإنسان به وجه الله تعالى .

(٣) فضل الإنفاق على الزوجة ، وحسن معاشرتها .

(٤) ما يؤديه الإنسان من أعمال أو إنفاق له فيه حظ لا يقدح فى ثوابه إذا وافق الحق .

(١) رواه مسلم .

٤٣ - باب

قول النبى ﷺ : « الدين النصيحة »

« لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (١) .

٥٣ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قال : حَدَّثَنَا يَحْيَى عن إِسْمَاعِيلَ قال : حَدَّثَنِى قَيْسُ بنُ أَبِى حَازِمٍ عن جَرِيرِ بن عَبْدِ اللهِ قال : « بَايَعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلاةِ ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ » .

٥٣- فى ترجمة هذا الباب جاء هذا الحديث : « الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » ولم يُذكر مسنداً مثل سائر الأحاديث المسندة ، لأنه ليس على شرط البخارى رحمه الله تعالى ، ولكنه بإيراده يُنبّه على صلاحية هذا الحديث فى الجملة ، وما أورده بعد ذلك من الآية القرآنية الكريمة وهى : « .. إذا نصحوا لله ورسوله » وحديث جرير بن عبد الله رضى الله عنه : « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » يشتمل ذلك على ما تضمّنه .

وقد أخرج الحديث المشار إليه فى الترجمة الإمام مسلم - بسنده - عن تميم الدارى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « الدين النصيحة » قلنا : لمن ؟ قال : لله عز وجل ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » (٢) .

(١) سورة التوبة : آية ٩١ .

(٢) رواه مسلم .

وقوله ﷺ : «الدين النصيحة » معناه :

● معظم الدين النصيحة ، فهو على سبيل المبالغة والتأكيد على أمر النصيحة ، لأهميتها ، وإلاَّ فإن الدين له أركانه وعباداته ومعاملاته وأخلاقه إلى غير ذلك من الأمور وليس فقط النصيحة ، ولكن لما كان للنصيحة أهميتها فى معرفة أمور الدين وتوضيح تشريعاته وأحكامه للناس عبر بها عن الدين فقال « الدين النصيحة » كما قال عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر : « الحج عرفة » .

● وقد يحمل معنى الحديث على ظاهره وهو أن الدين النصيحة على معنى الإخلاص ، لأن كل عمل لم يُرد به عامله الإخلاص فليس من الدين .

وقال المازرى : النصيحة مشتقة من نصحت العسل إذا صفيتُه ، يقال : نصح الشيء إذا خلص ، ونصح له القول إذا أخلصه له ، فعلى هذا تكون بمعنى الإخلاص ولا شك أن أمر الدين لا يكون صحيحاً ولا كاملاً ولا مقبولاً إلا بالإخلاص ، فصح أن الدين النصيحة .

أو أن النصيحة مشتقة من النصح وهى الخياطة بالمنصحة وهى الإبرة والمعنى أنه بالنصيحة يلمّ شعث أخيه المسلم ، ومنه التوبة النصوح كأن الذنب يمزق الدين والتوبة تخيطه وتجمعه .

وأوفى ما يُراد بالنصيحة ما قاله الخطابى : « النصيحة كلمة جامعة معناها : حيازة الحظ للمنصوح له » .

وقال الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله : وهذا الحديث من الأحاديث التى قيل فيها : إنها أحدُ أرباع الدين .

وقال الإمام النووى رحمه الله : « بل هو وحده محصل لغرض الدين كله ، لأنه منحصر فى الأمور التى ذكرها ، فالنصيحة لله وصفه بما هو له أهل والخضوع له ظاهراً وباطناً والرغبة فى محابه بفعل طاعته ، والرهبة من مساخطه بترك معصيته ، والجهاد فى رد العاصين إليه» .

وروى الثورى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبى ثمامة صاحب علىّ قال : قال الحواريون لعيسى عليه السلام : يا روح الله من الناصح لله ؟ قال : الذى يقدم حق الله على حق الناس .

• والنصيحة لكتاب الله تعلمه وتعليمه ، وإقامة حروفه فى التلاوة ، وتحريرها فى الكتابة ، وتفهم معانيه ، وحفظ حدوده ، والعمل بما فيه ، وذب تحريف المبطلين عنه .

• والنصيحة لرسوله : تعظيمه ونصره حياً وميتاً وإحياء سنته بتعلّمها وتعليمها ، والاقتداء به فى أقواله وأفعاله ومحبته ومحبة أتباعه .

• والنصيحة لأئمة المسلمين : إعانتهم على ما حملوا القيام به وتنبيههم عند الغفلة ، وسدّ خلتهم عند الهفوة ، وجمع الكلمة عليهم ، وردّ القلوب النافرة إليهم ، ومن أعظم نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتى هى أحسن ، ومن جملة أئمة المسلمين : أئمة الاجتهاد ، وتقع النصيحة لهم ببث علومهم ونشر مناقبهم ، وتحسين الظن بهم .

• والنصيحة لعامة المسلمين : الشفقة عليهم والسعى فيما يعود نفعه عليهم ، وتعليمهم ما ينفعهم ، وكف وجوه الأذى عنهم ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه . . » اهـ .

أما راوى حديث : « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » فهو : جرير بن عبد الله البَجَلىّ بفتح الموحدة والجيم وهو منسوب إلى بجيلة وهى قبيلة من أحمس وتوفى سنة إحدى وخمسين رضى الله عنه .

قوله : « بايعت رسول الله ﷺ » أى : عاهدته وعاقدته وكان قدوم جرير رضى الله عنه سنة عشر فى شهر رمضان وأسلم وبايع الرسول صلوات الله وسلامه عليه على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم .

= واقتصر على الصلاة والزكاة دون باقي الأركان، لدخول باقي الأركان في السمع والطاعة المذكورتين في رواية أخرى، حيث قال فيها:

(بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فلقنني: فيما استطعت والنصح لكل مسلم).

وقال بعض العلماء: اقتصر على الصلاة والزكاة لأنهما أهم أركان الدين وأظهرهما وهي العبادات البدنية والمالية.

والنصح لكل مسلم يشمل أيضاً النصح لكل مسلمة، لأن النساء شقائق الرجال في التشريع إلا ما كان خاصاً بهن. وعلى الناصح أن ينصح وألا يكتم النصيحة ما دام يعلم أن نصيحته مقبولة ويأمن على نفسه المكروه.

فإن خاف على نفسه المكروه بسبب النصيحة فهو في سعة، فعلى من علم في المبيع - مثلاً - عيباً من العيوب أن يبينه بائعاً كان أو مشترياً، وعلى الإنسان أن ينصح نفسه بامتثال الأوامر، واجتناب المناهي.

واقتصر على هذه الأمور دون غيرها لأنها أهم من غيرها، أو لأن هذا الغير كان معلوماً له.

وقد كان جرير رضى الله تعالى عنه بعد أن بايع رسول الله ﷺ وفياً كل الوفاء لهذه البيعة ومطبقاً للنصيحة بأسمى معانيها، وبكل دقة، فكان جرير رضى الله عنه إذا اشترى شيئاً أو باع يقول لصاحبه: اعلم أن ما أخذنا منك أحب إلينا مما أعطيناكه فاختر. ومما يروى في ترجمة جرير أن غلامه اشترى له فرساً بثلاثمائة، فلما رآه جاء إلى صاحبه فقال: إن فرسك خير من ثلاثمائة فلم يزل يزيده حتى أعطاه ثمانمائة.

وفي هذا الحديث بيان لأهمية الصلاة والزكاة والنصيحة، فقد روى جرير بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال « بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء

الزكاة والنصح لكل مسلم » . إنه بايعه على أن يكون وفياً فى إقام الصلاة مؤدياً للزكاة ، ناصحاً لكل مسلم .

وواضح أن إقام الصلاة يعنى أن يكون الإنسان فى طاعة ربه أن يؤديها كاملةً غير منقوصة ومستقيمة بكل أركانها وشروطها وسننها وهيئاتها مقبلاً بإخلاص على خالقه سبحانه وتعالى وإقام الصلاة على هذا النحو يجعل مقيم الصلاة فى قرب من الله سبحانه وتعالى وفى صلة وثيقة مع خالقه جل شأنه وإيتاء الزكاة يوثق الصلة بالمجتمع :

أحْسِنْ إلى الناس تَسْتَعْبِدْ قلوبهُمو فطالما استعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ

فإيتاء الزكاة يوثق الصلة بين الغنى والفقير .

وأما النصح لكل مسلم فالنصيحة كلمة جامعة ومعناها حيازة الحظ للمنصوح له وقد أمر بها النبى ﷺ ومما ورد من أحاديث أخرى من توجيه الرسول ﷺ فى النصيحة ما رواه تميم الدارى أن النبى ﷺ قال : « الدين النصيحة . قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » .

ومعنى هذا أن النصيحة هى عماد الدين وهى قوامه لأن بها يعرف الإنسان صلته بالله ويعرف صلته بالخلق فهى تسمى ديناً وإسلاماً ، والنصيحة فرض يجزئ فيه من قام به ويسقط الطلب عن الباقين فهو من فروض الكفاية وأما إذا لم يفعله أحد أثم الجميع ، والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه ويطاع أمره وأمن على نفسه المكروه فإن خاف على نفسه أذى فهو فى سعة .

ونلاحظ فى حديث جرير رضى الله عنه قوله : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم أنه عاهده عهداً لا يخلفه ، وسيظل وفياً به وفى رواية أخرى على السمع والطاعة يقول جرير فلقّننى « فيما استطعت » . وإنما اقتصر على الصلاة والزكاة لكونهما قرينتين فالصلاة قرينة للزكاة وهى تدل على صلة الإنسان بمولاه والزكاة تدل على توثيق الصلة بالمجتمع ، وهى العبادة =

= المالية والصلاة والزكاة أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين وأظهر أركان الإسلام بعد الشهادتين ولم يذكر الصوم ولا غيره ضمن هذه العبادات لدخول هذه العبادات فى السمع والطاعة ، لأنه قال : على السمع والطاعة فما دام قد بايعه على السمع والطاعة فإنه يُطيعه فى سائر العبادات الأخرى ويكون قد خصّ هاتَيْن العبادتين لأهميتهما ولوقوع كثير من الناس فى المخالفة بالنسبة لهما والتقصير فى شأنهما ولأنهما أظهر هذه العبادات.

وقوله ﷺ : « فيما استطعت » تلقين هذه الكلمة موافق لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (١) . فيما استطعتَ بفتح التاء الرواية إنه لقنه ذلكَ وهذا من كمال شفقة رسول الله ﷺ ورحمته بأمته إذ قد يعجز الإنسان فى بعض الأحوال فلو لم يقيده بقوله : فيما استطعت لأخل بما التزم فى بعض الأحوال ومما يتعلق بحديث جرير أنّ فيه منقبة عظيمة له ، حيث بايع رسول الله ﷺ كما يستنبط من هذا الحديث أهمية هذه العبادة وهى الصلاة والزكاة والنصح لكل مسلم ، وفى هذا ما يدل على أهمية هذه الأمور فى حياة الناس والأخذ بيدهم إلى الرشد وإلى السداد.

ما يؤخذ من الحديث

(١) التزام أصحاب رسول الله ﷺ تعاليم دينهم ومبايعتهم للرسول ﷺ تأكيداً لهذا الالتزام والطاعة.

(٢) أهمية الصلاة والزكاة فهما عبادتان هامتان إحداهما بدنية ، والثانية مالية.

(٣) وجوب النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

(٤) أن الدين يطلق على العمل حيث ورد تسمية النصيحة ديناً.

(٥) كمال شفقة الرسول ﷺ بأمته ورحمته بها ، حيث جاء فى الرواية الأخرى للحديث « فلقننى فيما استطعت ».

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٨٦ .

٥٤ - حَدَّثَنَا أَبو النُّعْمَانِ قال : حَدَّثَنا أبو عَوانَةَ عن زِيادِ بنِ عَلاَقَةَ قال : سَمِعْتُ جَرِيرَ بنَ عبدِ اللهِ يَقُولُ يَوْمَ ماتَ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ قامَ ، فَحَمِدَ اللهَ ، وأَثْنَى عَلَيْه ، وقال : « عَلَيْكُمْ باتِّقَاءِ اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، والوَقَارِ والسَّكِينَةِ ، حَتَّى يَأْتِيَكُمْ أَمِيرٌ ، فإِنَّمَا يَأْتِيكُمُ الآنَ ، ثم قال : اسْتَعْفُوا لأَمِيرِكُمْ ، فإِنَّه كان يُحِبُّ العَفْوَ ، ثُمَّ قالَ : أَمَّا بَعْدُ ، فإِنِّي أَتيتُ النبيَّ ﷺ قُلْتُ : أُبَايِعُكَ عَلَى الإِسْلاَمِ ، فَشَرَطَ عَلَيَّ والنُّصحِ لكُلِ مُسْلِمٍ ، فَبَايَعْتُهُ على هَذَا ، ورَبِّ هَذَا المَسْجِدِ إِنِّي لَنَاصِحٌ لَكُمْ ، ثم اسْتَغْفَرَ ونَزَلَ » .

---

٥٤ ـ كان المغيرة بن شعبة رضى الله عنه والياً على الكوفة فى خلافة معاوية، وأناب عند موته ابنه عرفه، وقيل: استناب جريراً المذكور؛ ولهذا خطب الخطبة المذكورة فحمد الله، وأثنى على رب العزة سبحانه وتعالى بالجميل وذكره بالخير ووصفه بالكمالات والتخلي عن أي نقص لا يليق بذاته العلية، وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له والوقار، ومعناه: السكينة والرزانة والسكون والهدوء، وهذا التوجيه من جرير رضى الله عنه لأهل الكوفة كان مناسباً لحالهم؛ لأن الغالب أن وفاة الأمراء تؤدى إلى الاضطراب والفتنة، ولا سيما ما كان عليه أهل الكوفة إذ ذاك من مخالفة ولاة الأمور.

«حتى يأتيكم أمير» أى : بدل هذا الأمير الذى مات وهو المغيرة بن شعبة، فوجههم جرير إلى ما فيه صلاح الدين وصلاح الدنيا، فأما صلاح الدين فقدمه أولاً وهو الأمر باتقاء الله فأمرهم أولاً بتقوى الله تعالى؛ لأن تقوى الله تعالى هى ملاك الأمر كله، وبها استقامة كل شيء، ولأن صلاح الدين مُقدَّم على صلاح =

= الدنيا ، والعلاقة بالله تعالى أهم وأسبق من العلاقة بالدنيا .

وقوله : «الآن» إشارة إلى قرب المدة الزمنية تسهيلاً عليهم وكان كذلك ؛ لأن معاوية لما بلغه موت المغيرة كتب إلى نائبه على البصرة وهو زياد أن يسير إلى الكوفه أميراً عليها .

(ثم قال : استعفوا لأميركم) : أى اطلبوا للأمير العفو من الله سبحانه وتعالى ، وفى بعض الروايات «استغفروا» رواه ابن عساكر .

(فإنه كان يحب العفو) وفى هذا إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل . قال ابن بطال : جعل الوسيلة إلى عفو الله بالدعاء بأغلب خلال الخير عليه وما كان يحبه فى حياته وكذلك يجزى كل أحد يوم القيامة بأحسن أخلاقه وأعماله .

(ثم قال : أما بعد ، فإنى أتيت النبى ﷺ قلت : أبايعك على الإسلام فشرط علىَّ والنصح لكل مسلم) أى شرط عليه الإسلام والنصيحة لكل إنسان مسلم ، وفى هذا بيان لكمال رحمة الرسول ﷺ وشفقته بأمته . قال : «فبايعته على هذا» أى على ما ذكر من الإسلام والنصيحة لكل مسلم . وتقييد النصيحة بالمسلم جرياً على أغلب الأحوال والأمور ، وإلا فإن النصح لغير المسلم وارد ومعتبر ، بأن يدعى إلى الاسلام ، وإذا طلب المشورة نشير عليه بالصواب .

قوله : «ورب هذا المسجد إنى لناصح لكم ثم استغفر ونزل» هذا قسم برب المسجد وهو يدل على أن خطبته كانت فى المسجد الحرام ويجوز أن تكون إشارة إلى جهة المسجد ويدل عليه رواية الطبرانى بلفظ :

«ورب الكعبة» وفى قوله : « إنى لناصح لكم » إشارة إلى أنه وفّى بما بايع النبى ﷺ عليه .

وقوله « استغفر ونزل » يشعر بأنه خطب على المنبر أو المراد قعد لأنه فى مقابلة قوله : قام فحمد الله تعالى .

ما يؤخذ من الحديث

(١) تسابق الصحابة رضى الله عنهم على مبايعة الرسول ﷺ لحبهم له وطاعتهم إياه .

(٢) وجوب النصيحة وأهميتها وتعميمها لجميع المسلمين وكذا لغيرهم بدعوتهم للإسلام وإرشادهم والتقييد بالمسلم على الغالب .

(٣) وجوب النصيحة فى سائر المجالات كما ورد فى حديث آخر « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

٣ كتاب : العلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ - باب فضل العلم

وَقَوْلُ الله تعالى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (١) . وقوله عزَّ وجلَّ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (٢) .

باب

مَنْ سُئِلَ عِلْمًا وَهُوَ مُشْتَغِلٌ فِى حَدِيثِهِ ، فَأَتَمَّ الحَدِيثَ ، ثُمَّ أجابَ السَّائِلَ .

٥٥ - حَدَّثَنا مُحمدُ بنُ سنَانٍ قال : حَدَّثَنا فُلَيْحٌ ، ح وحَدَّثَنى إبْرَاهِيمُ ابنُ المُنْذِرِ قال : حَدَّثَنَا مُحمدُ بنُ فُلَيْحٍ قال : حَدَّثَنى أبى قال : حَدَّثَنى هلاَلُ بنُ عَلىٍّ عَنْ عَطاءِ بن يَسَارٍ عن أبى هُرَيْرَةَ قال : « بَيْنَمَا النبىُّ ﷺ فى مَجْلِسٍ يُحدِّثُ القَوْمَ ، جَاءهُ أعْرَابىٌّ ، فَقَالَ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ يُحَدِّثُ ، فقال بعْضُ القَوْمِ : سَمِعَ ما قالَ ، فَكَرِهَ مَا قالَ ، وقالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حتَّى إذا قَضَى حَديثَهُ ، قال : أيْنَ - أراهُ - السَّائِلُ عن السَّاعةِ ؟ قال : ها أنا يا رسولَ الله ، قال : فإِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ ، فانْتَظِرِ السَّاعَةَ ، قال : كَيفَ إضاعَتُها ؟ قال : إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غَيْرِ أهْلِه ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » .

---

(١) سورة المجادلة آية ١١ .
(٢) سورة طه آية : ١١٤ .

«باب فضل العلم» أورد الآيتين الكريمتين الدالتين على فضل العلم، أما الآية الأولى فتدل على أن الله تعالى يرفع المؤمن العالم على غير العالم فرفعة الدرجات تدل على الفضل، فالمراد بها كثرة الثواب والرفعة تكون فى الدنيا والآخرة . وأما الآية الثانية: فتدل على فضل العلم، لأن الله تعالى لم يأمر نبيه بطلب الزيادة من شيء إلا من العلم والمراد به العلم الشرعي.

٥٥- وهذا الباب، «باب من سُئل علماً وهو مشتغل فى حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل» فيه تنبيه على أدب العالم والمتعلم، أما أدب العالم فعدم زجر السائل والاكتفاء بالإعراض عنه لتأديبه وتعليمه، حيث توجه بالسؤال حال الانشغال، كما أن فيه العناية بجواب سؤال السائل ولو لم يكن السؤال متعيناً ولا الجواب.

وأما المتعلم فلما تضمنه من أدب السائل أن عليه ألا يسأل العالم عندما يكون منشغلاً بغيره، لأن حق الأول مُقدّم «بينما النبى يحدث القوم» والمعنى يحدث الرجال، وقد يدخل النساء فى كلمة القوم مع الرجال تبعاً.

«جاءه أعرابى» قال الحافظ ابن حجر: لم أقف على تسميته وقيل: اسمه رفيع، والأعرابى نسبة للأعراب وهم سكان البادية وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه.

«فقال: متى الساعة؟» استفهام عن وقت قيام القيامة «فمضى رسول الله ﷺ يحدث» أى مضى يحدث القوم «فقال بعض القوم» أى: من الحاضرين فى المجلس «سمع ما قال فكره ما قال» أى: كره الذى قاله، فالعائد محذوف.

«وقال بعضهم: بل لم يسمع» و« بل » حرف للإضراب أى للإبطال «حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه» بضم الهمزة أى: أظنه «السائل عن الساعة» أى: المستفهم عن وقت قيام القيامة « قال: ها أنا يارسول الله» و«ها» حرف تنبيه أى: قال الأعرابى السائل عن زمن الساعة ووقت القيامة ها أنا يا رسول الله مُعرِّفاً بنفسه ومجيباً على سؤال رسول الله ﷺ حين سأل عنه، فأجابه رسول الله ﷺ بقوله:

«فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» و«إذا» متضمنة معنى الشرط، وجاء جوابها مقترناً بالفاء، لأن جملة جواب الشرط طلبية «فانتظر الساعة» لأنها اشتملت على فعل الأمر «.. فانتظر» فهي جملة طلبية فوجب اقترانها بالفاء.

ولما سأل الأعرابى رسول الله ﷺ قائلاً: «كيف إضاعتها»؟ أجابه الرسول ﷺ بقوله: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

ومعنى «وسّدَ»: أسند وجُعِل «إلى غير أهله» أى: إلى الذين ليسوا كفؤاً، والمراد بالأمر هنا: هو الأمر الذى يتعلق بالدين كالخلافة والقضاء والإفتاء.

والفاء فى قوله: «فانتظر الساعة» للتفريع ويصح أن تكون جواباً لشرط محذوف وتقدير الكلام: إذا كان الأمر كذلك فانتظر الساعة وليس جواباً لإذا المذكورة، لعدم تضمنها معنى الشرط هنا بل هى لمجرد الظرفية.

وقال الحافظ ابن حجر: ومناسبة هذا المتن لكتاب العلم أن إسناد الأمر إلى غير أهله إنما يكون عند غلبة الجهل ورفع العلم وذلك من جملة الأشراط، ومقتضاه: أن العلم مادام قائماً ففى الأمر فسحة.

ولقد كان لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه، مجالسه العلمية المشرقة، يُعلِّم فيها أصحابه ويرشدهم ويوجههم إلى ما فيه الخير والرشد، ويتلو عليهم آيات الله ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.. وكان يرشدهم بقوله وفعله، وبالكتاب والسنة، وبالقدوة الحسنة التى كانوا يشاهدونها ويرون أفعاله الكريمة رأى العين.. وكانت مجالسه الكريمة حبيبة للنفوس، تتسم باليسر والتسامح، وباللين والعطف، وبالأدب الجم، والخلق الرفيع، وبالتعليم الأمثل، وبالطرق التربوية العالية، التى تدين لها كل المؤسسات العلمية، وكل الدوائر التربوية على مر أدوار الحياة.

وكان للين جانبه، ورحمة قلبه ورأفته، أكبر الأثر فى انضواء الأفراد والجماعات تحت لواء مجلسه النبوى العظيم، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١) ..

(١) سورة آل عمران - آية ١٥٩ .

وبينما كان رسول الله ﷺ في مجلس من مجالسه الطيبة الكريمة، يحدث أصحابه جاءه أعرابى فقال: متى الساعة؟ لقد وجه هذا الأعرابى سؤاله عن القيامة أثناء مجلس الرسول ﷺ وأثناء حديثه للقوم، فلم يلتفت إليه، ولم يصغ لسؤاله، حتى يكمل الحديث الذى هو فيه، ولكونه كان يكره السؤال عن هذه المسألة بخصوصها أو أنه أخر جوابه، ليوحى إليه به.. فلم يجبه على سؤاله، وإنما مضى فى حديثه الذى كان فيه، ولما كان الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - يعلمون كراهيته للسؤال عن ذلك، ورأوه لم يجب السائل، قال بعضهم: سمع ما قال، فكره ما قال وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ أى أظنه، قال: ها أنا يا رسول الله، فأجابه رسول الله ﷺعلى سؤاله قائلاً له: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد - أى أسند - الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

وواضح أن مثل هذا لا يكون إلا إذا تفشى الجهل، ورفع العلم، وذلك من جملة أشراط الساعة.

أما عن الأمانة وأهميتها فقد أمر الله تعالى بأداء الأمانات فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (١).

وحذر سبحانه وتعالى من الخيانة فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢). والخيانة تتنافى مع الإيمان، فلا يطبع مؤمن عليها، عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب» رواه الإمام أحمد.

وقد وضحت هذه القصة، أن ضياع الأمانة من أشراط الساعة، وأن كيفية إضاعتها تكون حيث يقوم غير الأمناء على الأمر، ويوسد إليهم .. وبحيث يكون =

---

(١) سورة النساء - آية ٥٨.

(٢) سورة الأنفال - آية ٢٧.

= الأمين معدوماً أو شبه معدوم، والمراد بالأمر جنس الأمور التى تتعلق بالدين كالخلافة، والإمارة والقضاء والإفتاء وغير ذلك.

وفى هذه القصة: تنبيه على ما ينبغى أن يراعيه العالم والمتعلم، فأما بالنسبة للعالم: فلما تضمنه من ترك زجر السائل، فلم يزجره الرسول ﷺ، وإنما أعرض عنه - أولاً - حتى استوفى ما كان فيه، ثم رجع إلى جوابه رفقاً به وإرشاداً له، لأن الرجل كان من الأعراب، وأما بالنسبة للمتعلم: فلما تضمنه من أدب السائل أن لا يسأل العالم وهو مشتغل بغيره، لأن حق الأول مقدم.

ولطالما وجه الإسلام أتباعه إلى الآداب الرفيعة، التى يجب مراعاتها، وسن الآداب والتعاليم الكريمة للعالم والمتعلم، ففى الحديث: «تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ولا تكونوا جبابرة العلماء» رواه الطبرانى فى الأوسط وابن عدى فى الكامل.

وصيانة صاحب العلم لنفسه، تقتضى صيانته للعلم، وطلبه له، وحرصه عليه، والمحافظة على أصوله من كتاب وسنة وفقه ونحو، يقول الشافعى رحمه الله: «من حفظ القرآن عظمت حرمته، ومن طلب الفقه نبل قدره، ومن عرف الحديث قويت حجته، ومن نظر فى النحو رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم يصنه العلم».

ولقد وعى السلف مكانة العلم وكرامته، ومنزلة العلماء وحسن توقيرهم، فتعلموا آداب الطلب، والسؤال، وعلموا أبناءهم وأجيالهم تلك الآداب الرفيعة، وعدم المقاطعة للحديث . قال الحسن بن على لابنه:

يا بنى إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت ولا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يمسك.

وهكذا نرى أن فى هذه القصة أموراً هامة تتعلق ببيان آداب العالم والمتعلم وتوجيه طلاب العلم إلى أمثل المناهج فى التلقى وطلب العلم، وهى مناهج تربوية حكيمة. كان للإسلام فيها فضل السبق على سائر الطرق التربوية الحديثة.

وكان لهذه المناهج التربوية أكبر الأثر فى المجتمع الإسلامى المتعلم ، وهى مناهج مستوحاة من صاحب السنة المطهرة عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولنا فيه الأسوة الحسنة ، اقتداء واهتداء وسيراً على الجادة ، كما قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾ ﴾ (١) .

ما يؤخذ من الحديث

(١) وجوب إجابة السائل وتعليمه .

(٢) من آداب المتعلم ألا يسأل المعلم ما دام مشتغلاً بحديث أو بشخص غيره .

(٣) الرفق بالمتعلم وإن جهل فى سؤاله .

(٤) التنبيه على تقديم الأسبق فى السؤال .

(٥) أهمية يوم القيامة وأن من علامات الساعة إسناد الأمر إلى غير أهله .

(٦) لا تقوم الساعة حتى يؤتمن الخائن .

(٧) مراجعة العالم عند عدم فهم السائل لما يقول .

---

(١) سورة الأحزاب - آية ٢١ .

٣ - باب

مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْعِلْمِ

٥٦ - حَدَّثنَا أبُو النعمان عارِمُ بنُ الفَضْلِ قال : حَدَّثنا أبُو عَوانَةَ عَنْ أَبِى بِشْرٍ عن يُوسُف بنِ ماهَكَ عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو قال : « تَخَلَّفَ عَنَّا النبىُّ ﷺ فى سَفْرَةٍ سافَرْناها ، فَأَدْرَكَنا وَقَدْ أرْهَقَتْنَا الصَّلاةُ ، وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ ، فَجَعَلْنا نَمْسَحُ على أَرْجُلِنَا ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ : وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ » مَرَّتَيْنِ أَو ثَلاثاً .

٥٦- عنوان هذا الباب هو : من رفع صوته بالعلم، ويتضح من الحديث الاستدلال على عنوان الباب والترجمة به، فى قوله فى الحديث : «فنادى بأعلى صوته : ويل للأعقاب من النار» مرتين أو ثلاثاً، ويتم الاستدلال بذلك حيث تدعو الحاجة إليه بسبب بعد المسافة المكانية أو بسبب كثرة الناس والجمع الحاضرين إلى غير ذلك من الأسباب.

وقول عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : (تخلف عنا النبى ﷺ فى سفرة سافرناها) أى: تأخر خلفنا فى سفرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

(فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة) أى: لحق بهم النبى ﷺ ، وقد غشيتهم الصلاة أى: حملتهم الصلاة على أدائها وأعجلتْنا لضيق وقتها.

وقد كانوا فى الطريق فتعجل قوم عند العصر فتوضأوا وهم على عجل وقد ظهرت أعقابهم لم يمسها الماء، فقال النبى ﷺ : «ويل للأعقاب من النار» مرتين أو =

= ثلاثاً، والمراد بالصلاة في قوله: «وقد أرهقتنا الصلاة» هي صلاة العصر كما جاء في رواية مسلم وإنما أرهقتهم الصلاة لأنهم أخّروها وقوله: «فجعلنا نمسح على أرجلنا» أي: نغسلها غسلاً خفيفاً مبقعاً حتى يرى كأنه مسح.

(فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار) مرتين أو ثلاثاً، ومعنى «ويل»: عذاب وهلاك. والأعقاب: جمع عقب وهو مؤخر القدم الذى يمسك شراك النعل، والمعنى: عذاب أو هلاك لأصحاب الأعقاب المقصرين فى غسلها.

وقد جاء هذا الحديث مبيّناً فى بعض طرق روايات مسلم: «رجعنا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة حتى إذا كنا فى الطريق تعجل قوم عند العصر فتوضأوا وهم عجال فانتهينا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء فقال النبى ﷺ: ويل للأعقاب من النار اسبغوا الوضوء» اهـ.

ما يؤخذ من الحديث

(١) وجوب غسل الرجلين فى الوضوء ولا يكفى المسح.

(٢) وجوب تعميم الأعضاء بالماء وأن ترك بعضها غير مجزىء.

(٣) تعليم الجاهل وإرشاده.

(٤) على العالم إذا رأى إهمالاً فى أداء الفرض أن يبادر بالنصح والتوجيه والإنكار على من يضيع الفرائض.

(٥) تكرار التوجيه أو الوعيد للتأكيد.

(٦) جواز رفع الصوت فى توجيه الناس عند تعليمهم ومناظرتهم.

(٧) أن الجسد يُعذَّب وهو مذهب أهل السنة.

٤ - باب

قَوْلِ المُحَدِّث حَدَّثنا أوْ أخبرَنا وَأنْبأنا ، وقال لَنا الحُمَيْدِىُّ : كان عنْدَ ابنِ عُيَيْنَةَ حَدَّثَنَا وأخبَرنا وأنْبَأنا وسَمِعْتُ وَاحدًا ، وقال ابنُ مَسْعُودٍ : حَدَّثنَا رسولُ اللهِ ﷺ ، وهو الصَّادقُ المَصْدُوقُ ، وقال شَقيقٌ : عن عَبْدِ اللهِ سَمِعْتُ النبىَّ ﷺ كلمَةً ، وقال حُذيْفَةُ : حَدَّثنَا رسولُ اللهِ ﷺ حَديثَيْنِ ، وقال أبُو العَالِيَة : عن ابنِ عَبَّاس عن النبيِّ ﷺ فيمَا يَرْوى عَنْ ربِّه ، وَقالَ أنَسٌ : عَنِ النبىِّ ﷺ يَرْوِيه عَن رَبِّه عَزَّ وَجَلَّ ، وقالَ أبُو هُرَيْرةَ : عن النبىِّ ﷺ يَرويه عن رَبِّكُمْ عزَّ وجَلَّ .

٥٧ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثنا إسْمَاعيلُ بنُ جَعْفَر عن عَبْدِ اللهِ بنِ دينَار عن ابنِ عُمَرَ قال : قال رسول اللهِ ﷺ « إنَّ منَ الشَّجَرِ شَجَرةً لا يَسْقُطُ ورقُها ، وإنَّها مَثَلُ المُسْلِم ، فَحَدِّثُونى ما هى ، فَوَقَعَ النَّاسُ فى شَجَرِ البَوَادى ، قال عبد الله : ووقَعَ فى نَفْسى أنَّها النَّخْلَةُ ، فاسْتَحْيَيْتُ ثُمَّ قالوا : حَدِّثنَا ما هِىَ يا رسول اللهِ ، قال : هِىَ النَّخلَةُ » .

عنوان هذا الباب، كما جاء فى ترجمته : « باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا و أنبأنا » وبهذه الترجمة أشار إلى أنه بنى كتابه وهو صحيح البخارى على الأحاديث المسندات المرويات عن النبى ﷺ . . ومراده بإيراد (حدثنا ، أو أخبرنا و أنبأنا) هل هذه الألفاظ بمعنى واحد ؟ أم لا ؟ وإيراد الإمام البخارى قول ابن عيينة دون غيره دالٌّ على أنه مختاره ، وقول ابن عيينة هو : (كان عند ابن عيينة حدثنا وأخبرنا وأنبأنا وسمعت واحداً) أى : بمعنى واحد فى إفادة إسناد الحديث .

وأما ذكره قول ابن مسعود في قوله: «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق» فهذا التعليق طرف من الحديث المشهور في خلق الجنين «... إن أحدكم يُجمع خَلْقُه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ...» إلى آخر الحديث.

وقد ذكره البخارى بسنده متصلاً فى كتاب «القدر» وكذا قول شقيق هو أبو وائل عن عبد الله بن مسعود «وقال شقيق عن عبد الله سمعت» وكذا «وقال حذيفة حدثنا رسول الله» ذكر هذه الأحاديث المعلقة ليشير إلى أن الصحابى قال تارة حدثنا وتارة: سمعتُ فدل على أنهم لم يفرقوا بين الصيغ.

وأما إيراده أحاديث ابن عباس وأنس وأبى هريرة فى رواية النبى ﷺ عن ربه فقد وصلها - كما قال ابن حجر - فى كتاب التوحيد، وأراد بذكرها هنا التنبيه على «العنعنة» وهى قوله: «عن ..» وأن حكمها الوصل عند ثبوت اللقى أى حكم تكرار «عن» دون حدثنا أو سمعت الحكم باتصال الحديث عند ثبوت اللقاء بين من روى ومن روى عنه.

٥٧- فى هذا الحديث يأتى التوجيه النبوى الكريم للمسلمين على طريقة السؤال، ليؤكد أهمية الموضوع وليجذب انتباههم، ويختبر معلوماتهم، ولهذه الطريقة التربوية فضل السبق فى نظريات التربية الحديثة التى تدين فيها إلى الهدى النبوى العظيم، لقد قال صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه «إن من الشجر شجرة» أى من جنس الشجر «شجرة لا يسقط ورقها» أى لا تقع أوراقها كسائر أوراق الشجر التى تتساقط عند هبوب الرياح «وإنها مثل المسلم» أى تشبه المسلم الكامل فى دوام الانتفاع به، وعموم الانتفاع منه «فحدثونى ما هى» أى: إن عرفتموها فحدثونى ما هى:

«فوقع الناس فى شجر البوادى» أى أخذت أفكارهم تذهب كل مذهب وتجول بين أشجار البوادى، وراح كل واحد منهم يفسر الشجرة بنوع خاص من أنواع شجر البوادى ولكنهم لم ينتبهوا إلى أنها النخلة فقال عبد الله بن عمر رضى الله =

عنهما « ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت » أى : استحيا أن يقول هى النخلة ، وسبب استحيائه عن الكلام والقول بأنها النخلة هو وجود كبار الصحابة أمثال أبى بكر وعمر وغيرهما توقيراً لهم واحتراماً وهيبة من هذا المجلس الذى يضم رسول الله ﷺ وكبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

«ثم قالوا : حدِّثنا ما هى يا رسول الله؟ قال : هى النخلة» وفى بعض الروايات : « أخبرونى بشجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها » ، وفى رواية أخرى «إن من الشجر ما بركته كبركة المسلم» .

ومن هذه الروايات يتضح لنا وجه الشبه بين النخلة وبين المسلم ، فكما أن النخلة لها خيرها الموجود فى جميع أحوالها من حين تطلع إلى أن تيبس وتنتهى ، تؤكل أنواعاً وينتفع بجميع أجزائها حتى النوى ينتفع به فى علف الدواب وحتى الليف ينتفع به فى الحبال ، فكذلك الإنسان المسلم خيره عام فى جميع أحواله ونفعه مستمر له ولغيره ، وكما أن النخلة لا يسقط ورقها ـ خوصها ـ فإن المسلم لا تسقط له دعوة بل ينتفع بها إما فى دنياه بأن تتحقق حسبما أراد أو أن يرد الله عنه بها البلاء وإما فى الآخرة بأن تدخر له يوم القيامة فينتفع بها .

فى رواية مجاهد فى «باب الفهم فى العلم» قال : صحبت ابن عمر إلى المدينة فقال : كنا عند النبى ﷺ فأتى بجمارٍ وقال «إن من الشجر ..» وفى البيوع : «كنت عند النبى ﷺ وهو يأكل جُمّاراً» .

وكما جاء فى بعض الروايات أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : « فأردت أن أقول : هى النخلة فإذا أنا أصغر القوم» وفى رواية أخرى فى الأطعمة : «فإذا أنا عاشر عشرة أنا أحدثهم» .

وفى رواية مالك عن عبد الله بن دينار فى باب الحياء فى العلم : قال عبد الله فحدثت أبى بما وقع فى نفسى فقال : «لأن تكون قلتها أحب إلىّ من أن يكون لى كذا وكذا» ، زاد ابن حبان فى صحيحه : أحسبه قال «حُمْر النَّعَم» .

وإذا كان هذا الحديث يوضح ما عليه الإنسان المسلم من المنافع فى جميع

الوجوه، فإن الحديث فى الوقت نفسه فيه حَثٌّ لمن لا يتسم بذلك أو ببعض ذلك أن يتحلى بهذه المنافع فجدير بالإنسان المسلم أن يكون عوناً للناس جميعاً وأن يكون مصدر خير للمجتمع فى جميع الأحوال فى السراء والضراء فى السلم والحرب فى الشدة والرخاء بقوله وفعله وبكل جانب يمكن أن يكون مصدر خير لعباد الله ولنفسه، فخير الناس أنفعهم للناس، والمؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

لقد شبه الرسول ﷺ النخلة بالمسلم ولم يشبه المسلم بالنخلة، وفى هذا إشارة إلى عظمة الإنسان المسلم ومكانته، ولا شك أن المشبه به يكون وجه الشبه فيه أكثر من المشبه، فالمعهود أن تكون وجوه الخير المشار إليها فى الحديث موجودة فى الإنسان المسلم بأسمى معانيها، وأن يكون كل قوله وفعله وسلوكه خيراً دائماً لنفسه ولغيره متعاوناً مع الناس على البر والتقوى .

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل الإنسان المسلم ومكانته .

(٢) فضل النخل وثمراته الكثيرة .

(٣) إلقاء العالم السؤال لاختبار فهم السامعين وتشويقهم وجذبهم لحديثه .

(٤) توقير الصغير للكبير .

(٥) استحباب الحياء ما لم يؤدِ إلى تفويت مصلحة .

(٦) جواز ضرب الأمثال لزيادة التوضيح والفهم .

(٧) قد يدرك الصغير ما لا يدركه الكبير ؛ لأن العلم منحة ربانية وفضل يؤتيه الله من يشاء من عباده .

(٨) ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان المسلم مِنْ خلال الخير ومن صنائع المعروف ووجوه التعاون والنفع مع المسلمين .

(٩) فى الحديث دليل على أن بيع الجمّار جائز ؛ لأن كل ما جاز أكله جاز بيعه .
«والجُمّار» بالضم والتشديد هو شحم النخل وله طعم يستطاب .

٥ - باب

طَرْحِ الإمامِ المسْألة على أصْحابه ليَخْتبرَ ما عندَهمْ منَ العلْمِ

٥٨ - حَدَّثنا خَالدُ بنُ مَخْلَد حَدَّثنَا سليمان حَدَّثنا عبدُ الله بنُ دينارٍ عن ابنِ عمرَ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « إنَّ منَ الشَّجرِ شَجرَةً لا يَسْقُطُ ورقُها ، وإنَّها مَثلُ المُسْلمِ ، حَدِّثُوني ما هيَ ؟ قال : فَوَقَع النَّاسُ في شَجرِ البَوَادي ، قال عبد الله : فَوقَعَ في نَفْسي أنَّها النَّخْلَةُ ، ثُمَّ قالُوا : حَدِّثنا ما هيَ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : هيَ النَّخلَةُ » .

---

٥٨ ـ **هذا الباب:** طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، والحديث في هذا الباب وفي الباب الذي قبله واحد وعن صحابي واحد وهو عبدالله بن عمر رضي الله عنهما إلا أن الاختلاف جاء في الترجمة، ولذلك أعاد الحديث بلفظ قريب من الباب السابق، ولكنه أورده بإسناد آخر إيثاراً لابتداء فائدة تدفع اعتراض من يدعي عليه التكرار بلا فائدة.

وأما التفاوت بين المتْنَين فشيء يسير وهو وجود الفاء في «فحدثوني» في الباب الأول، وفي هذا الباب بدون الفاء، وفي الباب الأول كانت الفاء كأن الجملة وقعت جواباً لشرط محذوف تقديره: إن عرفتموها فحدثوني.

وأما تغيير رجال الإسناد فلاختلاف المقامات، فرواية قتيبة في الأول في مقام بيان معنى التحديث. وأما رواية خالد في الثاني ففي مقام بيان طرح المسألة فلهذا ذكر البخاري في كل موضع شيخه الذي روى الحديث عنه.

وهناك فائدة أخرى وهي التنبيه على تعدد مشايخه وواضح أن طرح المسألة على المسلمين لاختبار ما عندهم من العلم لها أثرها فى جذب الانتباه وفى تثبيت المعلومات ، وقد سبق شرح الحديث باستفاضة وسبق توضيح ما يؤخذ منه من الأحكام والفوائد.

ونزيد هنا فى هذا الموضع الذى ساق البخارى فيه هذا الحديث بهذا الإسناد وبهذا اللفظ، والذى أورده فى الباب الذى ترجم له بقوله: «باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم» نزيد هنا التأكيد على تعرف العلماء والدعاة والأئمة لهذا المنهج النبوى الحكيم ليقتدوا برسول الله ﷺ فى توجيهاتهم ودروسهم، فهو الأسوة الحسنة لنا فى كل الأمور وخاصة فى شرح الأحكام، وبيان أمور الإسلام، وفى طريقة التوجيه والإرشاد التى يرهف الناس فيها الإحساس، ويلقون السمع والقلب وكل إحساسهم لما يرشدهم إليه.

ما يؤخذ من الحديث

(١) ما ينبغى على العلماء والأئمة من توجيه الأمة والأخذ بالأسلوب الذى يجمع الناس عليهم ويجذبهم إليهم.

(٢) ما كان عليه رسول الله ﷺ من حب أصحابه وتوجيههم والرفق بهم.

(٣) ما ينبغى أن يكون عليه المسلم من النفع للغير ومن التعاون على صنائع المعروف.

٦ - باب

ما جاء فى العلم

وقَوْله تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [١] القراءَةُ والعَرْضُ على المُحَدِّث ، ورأى الحَسَنُ والثَّوْرِيُّ ومَالك القِراءَةَ جَائزَةً ، واحْتَجَّ بَعْضُهُم فى القراءة على العالِم بِحَديث ضِمَام بن ثَعْلَبَةَ قال للنبى ﷺ : آللّهُ أمَرك أن نُصَلِّىَ الصَّلَوات ؟ قال : نَعمْ ، قال : فَهذه قِرَاءَةٌ على النبىِّ ﷺ ، أَخبَرَ ضِمَامٌ قَوْمَه بذلك ، فأَجَازُوهُ ، واحْتَجَّ مالكٌ بالصَّكِّ يُقْرأُ على القَوْمِ ، فيَقُولُونَ : أَشْهَدَنا فُلانٌ ، ويُقْرأُ ذلكَ قِراءةً عليهِمْ ، ويُقْرأُ على المُقْرِىءِ فيقول القَارِىءُ : أَقْرَأَنى فُلانٌ .

باب ما جاء فى العلم وبيان حكم القراءة والعرض على المحدث ذكر فى الباب السابق قراءة الشيخ فى قوله : (باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا وأنبأنا) والمذكور هنا فى هذا الباب هو القراءة على الشيخ والسماع عليه فقال (باب القراءة والعرض على المحدث) وأراد به الرد على طائفة لا يعتدون إلا بما يسمع من ألفاظ المشايخ دون ما يقرأ عليهم ولهذا قال عقب الباب مباشرة : ورأى الحسن

---

(١) سورة طه - آية ١١٤ .

حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ سلامٍ حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ الحسَنِ الواسطيُّ عَنْ عَوْفٍ عَنِ الحسَنِ قال : لا بَأسَ بالقِراءَةَ على العالِمِ ، وأخبرنا مُحَمَّدُ بنُ يُوسُفَ الفرَبْرِيُّ وحَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ إسْماعيلَ البُخارِيُّ قال : حَدَّثَنا عُبَيدُ اللهِ بنُ مُوسَى عن سُفْيَانَ قال : إذَا قُرِىءَ على المُحَدِّث فَلاَ بَأس أَنْ تَقُولَ : حَدَّثَنى ، قال : وسَمِعْتُ أَبَا عَاصِمٍ يَقُولُ عَنْ مَالك وسفيانَ : القِرَاءَةُ عَلَى العَالِمِ وَقِراءتُه سَوَاءٌ .

والثورى ومالك القراءة جائزة .. والقراءة والعرض متساويان ، وعطفهما بالواو هو ما يسمى بالعطف التفسيرى ، وقال البعض : غاير بينهما بالعطف لما بينهما من العموم والخصوص ، لأن الطالب إذا قرأ كان أعم من العرض ومن غيره ولا يقع العرض إلا بالقراءة ، لأن العرض عبارة عما يعارض به الطالب أصل شيخه معه أو مع غيره بحضرته فهو أخص من القراءة ، قال العلامة البدر العينى : والتحقيق فى هذا الموضع أن العرض بالمعنى الأخص مساو للقراءة ، وبالمعنى الأعم يكون بينهما عموم وخصوص مطلق ، لاستلزام صدق أحدهما صدق الآخر اهـ.

٥٩ - حَدَّثنَا عَبْدُ الله بنُ يُوسُف قال : حَدَّثنَا اللَّيْثُ عن سَعِيد - هو المقْبُرِىُّ - عن شَرِيك بن عبد الله بنِ أَبِى نَمِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بنَ مَالكٍ يَقُولُ : « بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النبىِّ ﷺ فى المَسْجِد ، دَخَلَ رَجُلٌ على جَمَلٍ فأَنَاخَهُ فى المَسْجِد ، ثُمَّ عَقَلَهُ ، ثم قال لَهُمْ : أَيُّكُمْ مَحَمَّدٌ ؟ والنبىُّ ﷺ مُتَّكِىءٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ ، فَقُلْنا : هذا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ المُتَّكِىءُ ، فقال لَهُ الرَّجُلُ : ابنَ عَبْدِ المُطَّلِب ؟ فقال لَهُ النبى ﷺ : قَدْ أَجَبْتُكَ ، فقال الرَّجُلُ للنَّبِىِّ ﷺ : إِنِّى سائلك ، فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فى المَسْأَلَة ، فلا تَجدْ عَلَىَّ فى نَفْسكَ ، فقال : سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ ، فقال : أَسْأَلُكَ بربِّكَ وربِّ مَنْ قَبْلَكَ ، آللهُ أَرْسَلَكَ إِلَى الناسِ كُلِّهِمْ ؟ فقال : اللَّهُمَّ نَعَمْ ، قال : أَنْشُدُكَ بالله ، آللهُ أَمَرَكَ أَن نُصَلِّىَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ فى اليَوْمِ وَاللَّيْلَة ؟ قال : اللَّهُمَّ نَعَمْ ، قال : أَنْشُدُكَ باللهُ ، آللهُ أَمرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ من السَّنة ، قال : اللهم نَعَم ، قال : أنشدُكَ بالله ، آللهُ أمرك أنْ تَأْخُذَ هذه الصَّدَقَةَ منْ أَغْنيَائنَا فَتَقْسمَهَا عَلَى فُقَرَائنَا ؟ فقال النبىُّ ﷺ : اللَّهُمَّ نَعَمْ ، فقال الرَّجُلُ : آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ به ، وأَنَا رسولُ مَنْ ورائى من قَوْمِى ، وأنا ضِمَامُ بنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِى سَعْد بن بَكْر » .

رواه مُوسَى وعَلِىُّ بنُ عبدِ الحَميد عن سليمان عن ثابت عن أَنسٍ عنِ النبىِّ ﷺ بهذَا .

٥٩- يخبر أنس بن مالك رضى الله عنه بأن الصحابة كانوا جلوساً مع النبى ﷺ فى المسجد ، وهو مسجد رسول الله ﷺ ، فدخل عليهم رجل على جمل فأناخه ، أى : أبركه فى المسجد ثم عقله ، واستنبط البعض من كونه أناخه فى =

المسجد طهارة أبوال الإبل وأرواثها إذ لا يُؤْمَن ذلك من الجمل الذى أناخه فى المسجد مدة كونه موجوداً فيه، ولكنها دلالة غير واضحة بل هذا مجرد احتمال يرده ما جاء فى بعض الروايات الأخرى مثل رواية أبى نعيم: « أقبل على بعير له حتى أتى المسجد فأناخه ثم عقله، فدخل المسجد » فهذه الرواية تدل على أنه ما دخل به المسجد، بل هناك رواية صريحة فى أنه لم يدخل بالبعير المسجد وهى رواية ابن عباس عند الإمام أحمد والحاكم: « فأناخ بعيره على باب المسجد فعقله ثم دخل ».

ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبى ﷺ متكىء بين ظهرانيهم؟ فيه جواز اتكاء الإمام بين أتباعه، وفيه ما كان عليه الرسول ﷺ من عدم التكبر لقوله «بين ظهرانيهم» أى: بينهم فهم يحيطون به من الجانبين.

وقولهم: « هذا الرجل الأبيض المتكىء»: المراد بالبياض هنا هو النيّر الزاهر، وفى رواية الحارث بن عمير: «فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقالوا: هو الأمغر المرتفق» والأمغر: هو الذى فى وجهه حمرة مع بياض صاف، فقال الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبى ﷺ: قد أجبتك، فقال الرجل للنبى ﷺ: «إنى سائلك فمشدّد عليك فى المسألة فلا تجد علىّ فى نفسك» أى فلا تغضب علىّ، يقال: وجد عليه مَوْجدة فى الغضب، ووجد مطلوبه وجوداً، ووجد ضالته وجداناً، ووجد فى الحزن وجداً، ووجد فى المال جدة أى استغنى، فهذه خمسة مصادر من مادة «وجد» متحدة الماضى والمضارع مختلفة المصادر، فقال الرسول ﷺ: «سَلْ عما بدا لك» ومعنى «أنشدك بالله» أى أسألك بالله.

لقد كان قدوم ضمام، فى سنة تسع، كما جزم بهذا ابن إسحاق وأبو عبيدة، وغيرهما، وكان وفوده بناء على رغبة بنى سعد بن بكر الذين أرسلوه إلى رسول الله ﷺ وصادف مجيئه وسؤاله هوى فى نفوس المسلمين. حيث إنهم نهوا عن سؤال ما لا ضرورة إليه، فكان يعجبهم أن يجىء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأل الرسول ﷺ وهم يسمعون.. ولما جاء ضمام سأل عن الرسول ﷺ قائلاً:

أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكىء بين ظهرانيهم، فقالوا له: هذا الرجل الأبيض المتكىء، ولم يكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أبيض صرفاً، وإنما المراد: الأبيض المشرب بحمرة، كما ورد في صفته ﷺ أنه لم يكن أبيض ولا آدم.

أما أسئلة الرجل: فقد اشتملت على السؤال عن عموم رسالته، وذلك في قوله: آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ ثم عن الصلوات الخمس، ثم الزكاة.. وفي رواية الإمام مسلم: سؤاله عن الحج وفيها كذلك ما يدل على حسن سؤاله وترتيبه، ومنطقه وعقله، حيث سأل أولاً عن صانع المخلوقات من هو؟ ثم أقسم عليه به أن يصدقه في كونه رسولاً للصانع، ثم لما وقف على رسالته وعلمها، أقسم عليه بحق مرسله وهذا الترتيب في الأسئلة يدل على تفتح عقليته، وقوة منطقه وحكمته.

ففي رواية مسلم أنه قال: يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق، قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله. قال: فمن نصب هذه الجبال؟ وجعل فيها ما جعل؟ قال: الله قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال: نعم لقد وجَّه الرجل أسئلة تتصل بكتاب الكون المفتوح من أرضه وسمائه وجباله، سائلاً عن خالقها وصانعها، مستدلاً من الصنعة على الصانع، ومن الخلقة على الخالق، مصدقاً لما أجابه به الرسول ﷺ وهذه الأسئلة احتوت أدلة كونية، شاهدة بوجود الله ووحدانيته وقدرته وعظمته، وأنه الذي خلق فسوَّى وقدَّر فهدى.

وهي أدلة واضحة وضوح الشمس، ويمكن لكل من كان بعيداً عن الإسلام أن يستدل بها على ربه، وأن يدع المكابرة والمراوغة، فهي أدلة مبثوثة في الكون، شاهدة بوحدانية الخالق العظيم:

وفي كل شيء له آية.. تدل على أنه الواحد

أما قول الرجل: أيكم محمد؟ فقد قيل: إنما لم يقل الرسول ﷺ له: نعم، لأنه لم يخاطبه بما يليق بمنزلته من التعظيم، لاسيما مع قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾،(١) وقال الحافظ ابن حجر: والعذر عنه =

---

(١) سورة النور - آية ٦٣.

ـ أن قلنا إنه قدم مسلماً أنه لم يبلغه النهى، وكانت فيه بقية من جفاء الأعراب وقد ظهرت بعد ذلك فى قوله:

«فمشدد عليك فى المسألة»

ولما أجابه رسول الله ﷺ عما سأل عنه وشفى قلبه بتثبيت علمه وعقيدته، قال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائى من قومى، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد. وفى رواية أنه قال: «وسأؤدى هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتنى عنه، لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف راجعاً، فقال رسول الله ﷺ حين ولّى: إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين، ثم أتى بعيره، فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا عليه، وكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى، فقالوا: صه يا ضمام، اتق البرص والجنون والجذام، قال: ويلكم إنهما ما يضران ولا ينفعان إن الله بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً، أستنقذكم به مما كنتم فيه، وأنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنى قد جئتكم من عنده بما أمركم به، ونهاكم عنه فوالله ما أمسى فى اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً» رواه ابن إسحاق وقال: فما سمعنا بوافد قوم أفضل من ضمام بن ثعلبة.

لقد كان الرجل صوت حق وصدق إلى قومه، حيث حمل لهم مشعل النور والمعرفة، بعد أن استقى ينابيع الحكمة والهداية من رسول الله ﷺ، فثار على الأصنام والمعبودات الباطلة ونشر دعوة الحق فى ربوع قومه حتى تفيئوا جميعاً ظلال الإسلام، وسعدوا به، ورضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً.

وقد استدل علماء السنة بهذه القصة على القراءة على العالم فإن ضماماً قال للنبى ﷺ: آلله أمرك أن تصلى الصلوات؟ قال: نعم، فهذه قراءة على النبى ﷺ أخبر ضمام قومه بذلك فأجازوه وفى القصة أيضاً: العمل بخبر الواحد، وتأكيد الدعوة إلى دعائم الإسلام من الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج.

ما يؤخذ من الحديث

(١) في الحديث دليل على قبول خبر الواحد وعلى العمل به .

(٢) أن العوام المقلدين مؤمنون ويكتفى منهم باعتقاد الحق من غير شك وتزلزل خلافاً للمعتزلة .

(٣) عظم تواضع الرسول ﷺ .

(٤) جواز أن يعرف الإنسان ببعض صفاته الخلقية مثل البياض والحمرة والطول والقصر ونحو هذا .

(٥) الاستحلاف على الخبر للوصول إلى يقين العلم .

(٦) جواز النسبة إلى الأجداد ، لقوله : ابن عبد المطلب .

(٧) طلب الإسناد العالي حيث إن الرجل لم يكتف بما بلغه عن رسول الله ﷺ حتى رحل بنفسه إليه وسمع ما بلغه عنه بنفسه .

(٨) استدل العلماء بهذا الحديث على القراءة على العالم والمحدث .

(٩) تأكيد الدعوة إلى دعائم الإسلام من الشهادتين والصلاة والزكاة والحج وهو وإن لم يكن مذكوراً في الحديث إلا أنه ثابت في صحيح مسلم ، وقيل : لأنه لم يكن فرض بناء على أن قدوم ضمام كان سنة خمس ، وهو مردود بما في صحيح مسلم أن قدومه كان بعد نزول النهي عن السؤال بما في القرآن وهو ما في المائدة ونزولها متأخر جداً ، أو بما قد علم أن إرسال الرسل للدعاء إلى الإسلام إنما كان ابتداؤه بعد الحديبية ومعظمه بعد فتح مكة والصواب أن قدوم ضمام كان في سنة تسع وبه جزم ابن إسحاق وأبو عبيدة وغيرهما .

٧- باب ما يُذكر فى المناولة
وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان

وقال أنسٌ : نَسَخَ عثمانُ المَصَاحِفَ ، فَبَعَثَ بِهَا إِلى الآفَاقِ ، ورَأَى عبدُ الله بنُ عُمَرَ ويَحْيى بنُ سَعيد ومالك ذَلكَ جائزًا ، واحْتَجَّ بعْضُ أَهْلِ الحجَازِ فى المُنَاوَلَة بحَديث النبىِّ ﷺ ، حَيْثُ كَتَبَ لأَميرِ السَّرِيَّة كتَابًا ، وقال : لاَ تقْرأْهُ حَتَّى تبلُغَ مكانَ كذَا وكَذَا ، فلمّا بلغَ ذَلكَ المكَانَ قَرأَهُ على الناسِ ، وأَخْبَرَهُمْ بأَمْرِ النبىِّ ﷺ .

٦٠ – حَدَّثنا إِسْمَاعيل بنُ عبد الله قال : حدَّثنى إبْراهيمُ بنُ سَعْدٍ عن صَالحٍ عن ابنِ شهابٍ عن عُبَيْد الله بنِ عبد الله بن عُتْبَةَ بنِ مَسْعُودٍ أنَّ عبدَ الله بنَ عَبَّاسٍ أخبره « أنَّ رسولَ الله ﷺ بعَثَ بكتابه رَجُلاً ، وأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلى عَظِيمِ البَحْرَيْنِ ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ البَحْرَيْنِ إلى كسْرَى ، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ . فحَسبْتُ أَنَّ ابنَ المُسَيَّب قال : فَدَعَا عَلَيْهِمْ رسولُ الله ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ » .

٦٠- فى هذا الباب بيان لبقية وجوه التحمل المعتبرة عند الجمهور، فبعد أن انتهى من السماع والعرض ذكر هنا «المناولة» وهى: أن يعطى الشيخ الطالب الكتاب فيقول له: هذا سماعى من فلان أو هذا تصنيفى فارْوِه عنى، وأجاز الجمهور الرواية بها.

وفى هذا الحديث بعث رسول الله ﷺ بكتابه رجلاً وهو عبد الله بن حذافة السهمى وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين المنذر بن ساوى و«البحرين» بلد بين البصرة وعمان، وإنما جاء التعبير بكلمة «عظيم» دون «ملك» لأنه لا إقرار للكفار بسلطنة ولا ملك بعد بعثة رسول الله ﷺ، فذهب به إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى واسمه ابرويز بن هرمز بن أنو شروان، فلما قرأ كسرى الكتاب مزقه وخرقه، فلما بلغ رسول الله ﷺ أنه مزق كتابه غضب ودعا عليهم أن يُمزَّقوا كل مُمزَّق، فسلط الله على كسرى ابنه شيرويه، فقتله فتمزق ملكه كل ممزق.

ما يؤخذ من الحديث

(١) إرسال الكتب والرسل إلى الملوك والبلدان لدعوتهم إلى الإسلام.

(٢) جواز الدعاء على الكفار إذا أساءوا الأدب وأهانوا الدين.

(٣) فى الحديث دلالة على العمل بخبر الواحد وجواز حمل الواحد كتاب الحاكم إلى الحاكم وليس بلازم أن يحمله شاهدان.

(٤) جواز الكتابة بالعلم إلى البلاد.

٦١ - حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن مقاتلٍ أبو الحَسَنِ أخبرنا عَبْدُ الله قال : أَخبرنا شُعْبَةُ عن قَتَادَةَ عن أَنَسِ بنِ مَالك قـال : كَتَبَ النبيُّ ﷺ كتَابًا ، أَو أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ ، فَقيلَ لَهُ : إِنَّهُمْ لاَ يَقْرَءُونَ كتَابًا إِلاَّ مَخْتُومًا ، فَاتَّخَذَ خَاتَمًا منْ فضَّة « مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله » كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضه في يَده .

فَقُلْتُ لقَتَادَةَ : مَنْ قَالَ نَقْشُه مُحَمَّدٌ رسول الله ؟ قال : أَنَسٌ .

٦١- يخبـر أنس رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ « كـتـب كـتـاباً أو أراد أن يكتب » ، والمعنى : أنه أمر الكاتب أن يكتب ، لأن رسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، والأمية توضح معجزة الرسول ﷺ وترد شبهات أهل الزيغ وارتياب المبطلين فمع أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب وما كان يتلو كتاباً قبل القرآن وما كان يخط بيمينه أو يكتب ومع هذا جاء بما أعجز الإنس والجن والفصحاء والبلغاء مما يشهد له على أنه مُرْسَل من عند الله وأن القرآن من عند رب العالمين .

ولما قيل لرسول الله ﷺ إن الروم والعجم لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً ، مخافة كشف أسرارهم ولأن فى ختم الكتاب تعظيماً للمرسل إليه ، فاتخذ الرسول ﷺ خاتماً من فضة نقشه « محمد رسول الله » ﷺ ، وكانت كل كلمة فى سطر « محمد » ثم تحتها « رسول » ثم تحتها « الله » وقيل بالعكس بأن تكون الكلمة الأعلى الأولى لفظ الجلالة « الله » والوسطى كلمة « رسول » والأخيرة كلمة « محمد » ولعل هذا الرأى أقرب لتعظيم لفظ الجلالة .

قال أنس رضى الله عنه : « كأنى أنظر إلى بياضه فى يده » أى أصبعه فهو من إطلاق اسم الكل على اسم الجزء .

وإنما كانوا لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً ، ليحصل الأمن من بعض التغيير ، وقد يستغنى عن الختم إذا كان الذى يحمل الكتاب عدلاً مؤتمناً .

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز الكتابة بالعلم إلى البلاد.
(٢) صحة الكتابة إلى الكفار ودعوتهم إلى الحق.
(٣) ختم الكتاب للحاكم أو القاضي ونحوهما.
(٤) أن الفضة حلال للرجال.
(٥) جواز نقش الخاتم ونقش اسم صاحبه عليه.
(٦) توثيق الكتب والمراسلات.

٨ - باب

من قعد حيث ينتهي به المجلس

وَمَنْ رأَى فُرْجَةً فى الحَلْقَة فَجَلَسَ فيهاَ .

٦٢ - حَدَّثنا إسْمَاعيلُ قال : حَدَّثَنى مَالكٌ عن إسْحَاقَ بن عَبْدِ الله ابنِ أَبى طَلْحَةَ أَنَّ أَبَا مُرَّةَ مَوْلَى عَقيلِ بنِ أَبِى طَالبٍ أَخْبَرَهُ عن أَبى وَاقدٍ اللَّيْثىِّ « أَنَّ رَسولَ الله ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جالسٌ فى المَسْجد ، والنَّاسُ مَعَهُ ، إذْ أقْبَلَ ثلاثَةُ نَفَرٍ ، فأقْبَلَ اثْنَان إلَى رَسُولِ الله ﷺ ، وَذَهَبَ واحدٌ ، قال : فَوَقَفَا عَلَى رسول الله ﷺ ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فى الحَلْقَة فَجَلَسَ فيهَا ، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهم ، وأَمَّا الثالثُ فأدْبَرَ ذَاهباً ، فلما فرغ رسُولُ الله ﷺ قال : أَلاَ أُخبركُمْ عَنِ النفر الثَّلاثة ؟ أَمَّا أحدُهم فأَوَى إلى الله فآوَاهُ اللهُ ، وَأَمَّا الآخَرُ فاستَحْيَا فاسْتَحْيَا اللهُ منهُ ، وأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عنه » .

٦٢ـ فى هذا الباب بيان لأدب طالب العلم، فى الإقبال على مجلسه، وفى الجلوس حيث وجد مكاناً للجلوس، وحيث انتهى به المجلس، ومن هنا تتضح علاقة هذا الباب بكتاب العلم، فالمجلس المشار إليه فى الترجمة هو مجلس العلم، والمراد بالحلقة هى حلقة العلم. فيروى أبو واقد الليثى، وهو الحارث بن مالك أو

ابن عوف الليثى البدرى رضى الله عنه، وليس له فى صحيح البخارى إلا هذا الحديث يروى أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس فى المسجد المدنى والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، وكلمة «نفر» اسم جمع للرجال من ثلاثة إلى عشرة أى أقبل ثلاثة رجال فدخلوا المسجد، ولم تذكر أسماؤهم، فأقبل اثنان من الثلاثة، إلى مجلس رسول الله ﷺ وذهب واحد، فوقفا على مجلس رسول الله ﷺ، وفى رواية الإمام الترمذى: «فلما وقفا سَلَّما» ولم يرد رد السلام، لأنه أمر معهود معروف، أو لأن من كان مستغرقاً فى مجلس العلم أو العبادة لا يجب عليه الرد، ولم يرد فى الحديث أن الرجلين اللذين أقبلا على مجلس رسول الله ﷺ فى المسجد، قد صليا ركعتين تحية المسجد، فيحتمل أن تكون صلاة تحية المسجد لم تكن شرعت بعد، أو لأنهما كانا على غير وضوء.

فأما أحد الرجلين: فوجد فرجة، وهى الفراغ أو الخلل بين الشيئين، فى الحلقة، وهى الموقع المستدير الخالى من الوسط وجمعها حلق بفتح الحاء واللام. وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، أى تولى ذاهباً ولم يرجع.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من مجلسه العلمى الذى كان يعلّم فيه المسلمين العلم قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة» و«ألا» أداة تنبيه، وهى مكونة من همزة الاستفهام و«لا» النافية، أى ألا أوضح لكم أحوال هؤلاء النفر الثلاثة؟ «أما أحدهم فأوى إلى الله» أى: لجأ إلى الله تعالى وذلك حيث انضم الى مجلس رسول الله ﷺ عندما وجد مكاناً خالياً فجلس فيه «فأواه الله» أى جازاه الله على فعله وضمه إلى رحمته ورضوانه، أو أن الله تعالى يؤيه يوم القيامة إلى ظل عرشه، والتعبير بالإيواء من باب المشاكلة، لاستحالته فى حقه، ومعناه فى جانب رب العزة سبحانه وتعالى المجازاة».

وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه» حيث ترك المزاحمة حياء من رسول الله ﷺ، أو استحيا من ترك مجلس رسول الله ﷺ، والاستحياء فى جانب الله تعالى محال لأنه تغيُّر وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يذم به، فهو فى جانب الله =

= تعالى من قبيل المشاكلة فهو تعبير مجازى بمعنى ترك المعاقبة، و«أما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه» وهذا من قبيل المشاكلة أيضاً كسابقه، أى: جازاه الله بأن سخط عليه، وهذا فى حق من ذهب من غير عذر أما من كان له عذر فلا ينطبق عليه ذلك، ويحتمل أن يكون الرجل الذى أعرض منافقاً وأطلع الله تعالى رسوله ﷺ على شأنه، ويحتمل أن يكون قوله ﷺ: «فأعرض الله عنه» إخباراً أو دعاء.

وهكذا نرى أن هذا الحديث وضح معادن الناس حيال العلم، وأن منهم المقبل الجرىء، ومنهم الحيى، ومنهم المعرض الذى أعرض الله عنه، لأن طلب العلم فريضة ومجالسه تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة، وتتنزل عليها السكينة.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل مجالس العلم ومنزلتها وفضل أهلها وأنهم فى رعاية الله تعالى.

(٢) سخط الله تعالى على المعرضين عن مجالس العلم.

(٣) من آداب طالب العلم أن يجلس حيث انتهى به المجلس.

(٤) من آداب طلب العلم سد الفراغ الذى يكون فى المجالس والحلق.

(٥) فضل طلاب العلم والمتنافسين فيه.

(٦) جواز الإخبار عن بعض العصاة وأحوالهم للزجر عنهم وعن معاصيهم ولا يعد هذا من الغيبة.

(٧) فضل ملازمة مجالس العلم والذكر والجلوس فى المسجد والثناء على المستحى.

(٨) استحباب الاقتراب من الشيخ أو الإمام أو الكبير ليسمع الإنسان كلامه.

(٩) ابتداء العالم الجالسين بالعلم قبل أن يسألوه عنه.

(١٠) أن المكان فى مجالس العلم لمن سبق.

(١١) جواز التخطى لسد فراغ فى المجلس أو الحلقة ما لم يؤذ أحداً من الجالسين.

٩ - باب

قول النبى ﷺ رُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع

٦٣ – حَدَّثنا مُسَدَّدٌ قال : حَدَّثنا بِشْرٌ قال : حَدَّثنا ابنُ عَوْنٍ عن ابن سيرينَ عنْ عبد الرَّحْمَنِ بنِ أَبى بَكْرَةَ عن أَبيه « ذَكَرَ النبيَّ ﷺ قَعَدَ على بَعيرِه ، وأَمْسَكَ إنسَانٌ بخطَامه ، أَوْ بِزمَامه ، قَالَ : أَيُّ يَوْمٍ هذا ؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه سوَى اسْمه ، قال : أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحر ؟ قُلْنَا : بَلَى ، قال : فَأىُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ فسَكَتْنَا حتَّى ظَنَنّا أنه سَيُسَمِّيه بغَيْر اسْمه ، فقَالَ : أليْسَ بذى الحِجَّة ؟ قُلْنَا : بلَى ، قالَ : فإِنَّ دمَاءَكُمْ وأَموَالَكُمْ وأَعْرَاضَكُمْ بيْنَكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَة يَوْمكُمْ هذا ، فِى شَهْركُمْ هذا ، فِى بَلَدكُمْ هذا ، ليُبَلِّغِ الشَّاهدُ الغائبَ ، فَإِنَّ الشَّاهدَ عَسَى أَن يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ منهُ » .

---

٦٣ ـ فى هذا التبويب دلالة على جواز أن يتحمل العلم من ليس بعالم ولا فقيه إذا كان ضابطاً لما يسمعه وما يحدث به، وفى هذا الحديث يخبر أبو بكرة نفيع بن الحارث عن قعود رسول الله ﷺ على بعيره بمنى، وذلك فى يوم النحر وهو اليوم العاشر من شهر ذى الحجة، وذلك فى حجة الوداع، والسبب فى =

= جلوسه ﷺ على البعير ليستطيع أن يسمع الناس توجيهه إليهم، وأما ما ورد من النهى عن اتخاذ ظهور الإبل منابر فهذا محمول على ما إذا لم تكن هناك ضرورة أو حاجة، وأمسك إنسان بخطام البعير أو بزمامه وهو الخيط أو الحبل الذى تشد فيه الحلقة، ثم قال: أى يوم هذا؟

وقد ورد اسم من أمسك بالخطام فقيل: هو أبو بكرة، وقيل: بلال، وقيل: عمرو بن خارجة.

ثم وجَّه الرسول ﷺ أسئلته للمسلمين قائلاً: أى يوم هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فأى شهر هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس بذى الحجة؟ قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا».

والمعنى: فإن سفك دمائكم، وأخذ أموالكم، وثلب أعراضكم حرام، إذ إن الذوات لا تحرم فذات كل من الدم والمال والعرض لا تحرم، إنما الذى يحرم هو العدوان على هذه الحرمات التى صانها الإسلام وشرع العقوبة المحددة لمن اعتدى عليها كالقصاص والرجم والجلد وقطع اليد، وهكذا.

والأعراض: جمع عرض وهو موضع المدح والذم من الإنسان، وإنما جعل اليوم والشهر والبلد مشبهاً به، لاشتهار تحريم اليوم والشهر والبلد عندهم.

ثم وجههم رسول الله ﷺ إلى أن يبلغ الشاهد وهو الحاضر المستمع لخطبته، الغائب، والأمر هنا للوجوب فعلى الحاضر أن يبلغ الأحكام المذكورة للغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه أى: الذى يكون أوعى للحديث والأحكام منه.

ما يؤخذ من الحديث

(١) التأكيد على حرمة النفس والمال والعرض .

(٢) وجوب تبليغ العلم لمن لم يبلغه .

(٣) قد يأتى فى آخر الزمان من يكون له من الفهم فى العلم ما ليس لمن تقدم .

(٤) يؤخذ الحديث من حامله وإن لم يكن عالماً أو فقيهاً إذا كان ضابطاً لما يحمله .

(٥) جواز القعود على ظهر الدواب عند الحاجة إلى ذلك .

(٦) الحث على تبليغ العلم ، وجواز التحمل قبل كمال الأهلية .

(٧) أن تكون الخطبة على مكان عال ليتمكن الناس من الاستماع والرؤية .

١٠ - باب

العلم قبل القول والعمل

لقَوْل الله تعالى: ﴿فاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (١) فَبَدأَ بالعلم، وأَنَّ العُلَمَاء هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبياء، وَرثُوا العلْمَ، مَنْ أَخذَهُ أَخَذَ بحظٍّ وافرٍ، ومَنْ سَلَكَ طَريقاً يَطْلُبُ به علْمًا سهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إلى الجَنَّة، وقال جَلَّ ذكْرُهُ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٢) وقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾(٣)، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾(٤) وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(٥) وقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ يُرد اللهُ به خَيْراً يُفَهِّمْهُ(٦) وَإِنما العِلْمُ بالتَّعلُّم» وقال أَبُو ذرٍّ: لَوْ وَضَعْتمُ الصَّمْصَامَةَ على هذه - وأَشارَ إلى قَفَاهُ - ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّى أُنفذُ كَلمَةً سَمعْتُها منَ النبى ﷺ قَبْلَ أَنْ تُجيزُوا عَلَيَّ لأَنْفَذْتُهَا، وقال ابنُ عَبَّاسٍ: كُونوا رَبَّانيِّينَ حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ، ويُقالُ: الرَّبَّانى الَّذى يُرَبِّى الناسَ بِصغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ.

فى باب العلم قبل القول والعمل لم يورد البخارى رحمه الله تعالى حديثاً موصولاً واقتصر على ما أورده من بعض الآيات والأحاديث وليس فيها حديث

(١) سورة محمد - آية ١٩ (٢) سورة فاطر - آية ٢٨ (٣) سورة العنكبوت - آية ٤٣ .
(٤) سورة الملك - آية ١٠ (٥) سورة الزمر - آية ٩ . (٦) فى بعض النسخ: يُفقِّهه .

= موصول على شرط البخارى، فإما أن يكون بيَّض له ليورد فيه ما يثبت على شرطه، أو يكون تعمد ذلك اكتفاء بما ذكر.

وقد أراد أن يوضح بهذه الترجمة وبهذا التبويب أن العلم مقدم أولاً، وبعد العلم يكون القول، وبعد أن يقال يعمل به.

وأيضاً ففى هذا التبويب بيان بأن العلم شرط فى صحة القول والعمل، وأشار إلى أن الله تعالى بدأ بالعلم حين خاطب رسوله ﷺ وأمته تبع له حيث قال: «فاعلم أنه لا إله إلا الله» ثم قال: «واستغفر لذنبك» والاستغفار إشارة إلى القول والعمل، وفى كل ما أورد من أحاديث يستدل بها على فضل العلم والتعلم والتعليم، والعمل بما يعلم.

١١ - باب

ما كان النبى ﷺ

يتخولهم بالموعظة والعلم كى لا ينفروا

٦٤- حَدَّثنا مُحَمدُ بنُ يُوسُفَ قال: أَخبرنا سُفْيَانُ عَنِ الأَعْمَشِ عن أَبى وَائِل عن ابنِ مَسْعُودٍ قال: «كان النبىُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بالْمَوْعِظَة فِى الأَيامِ، كَراهَةَ السَّآمةِ عَلَيْنَا».

---

٦٤ - فى هذا الباب بيان ما كان يتخولهم به أى يتعهدهم به مراعياً الأوقات فى تذكيرهم ووعظهم كى لا ينفروا.

والحديث يوضح أن النبى ﷺ كان يتعهد أصحابه بالموعظة فى الأيام، فيتحرى الأوقات والأحوال التى ينشطون فيها للموعظة ولا يقوم بهذا معهم فى كل يوم وفى كل وقت بل فى الوقت المناسب، ولا يكثر عليهم كراهة السآمة، أى مخافة أن يسأموا ويملوا، ويكون ذلك شاقاً عليهم، وكان يفعل معهم ذلك شفقة عليهم.

وهذا من حسن أدبه العالى وحكمته العالية، ورحمته بالمسلمين، فكان يعلم أصحابه ويعظهم فى أوقات معلومة، ولم يستغرق جميع الوقت خوفاً من أن يتسرب الملل إليهم، فهو الرءوف الرحيم بأمته، وفى هذا المنهج النبوى الحكيم ما يرشد العلماء والمربين، ومؤسسات التعليم والتربية أن تنهض بهذا المنهج حتى يستفيد طلاب العلم والمعرفة، وحتى تتركز المعلومات ولا تكون هناك سآمة ولا ملل من الدارسين والمتعلمين.

ما يؤخذ من الحديث

(١) تعهد المتعلمين فى أوقات النشاط كراهة أن يسأم أهل العلم من الطلاب .
(٢) ما كان عليه رسول الله ﷺ من الرفق والرحمة بأمته .
(٣) الاهتمام بتعليم الناس العلم ، ومراعاة أهم الأوقات والأحوال المهمة

٦٥- حَدَّثَنا مُحمدُ بن بشَّارٍ قال : حَدَّثَنا يَحيَى بن سَعِيد قال : حَدَّثَنا شُعْبَةُ قال : حدَّثنى أَبُو التَّيَّاح عن أَنَسٍ عنِ النبىِّ ﷺ قال : «يَسِّرُوا ، وَلا تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا ، وَلاَ تُنَفِّرُوا» .

---

٦٥ - فى هذا الحديث توجيه نبوى حكيم يأمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه فيه أمته باليسر وعدم العسر ، والأمر باليسر يقتضى عدم العسر ولكنه نهى عن العسر بقوله : «ولا تعسروا» للتأكيد ، إذ لو اقتصر على الأمر بالتيسير لصدق على من يسَّر ولو مرة واحدة وأتى بالتعسير فى غالب الأوقات ، ولكنه حين نهى عن التعسير بقوله : «ولا تعسروا» دل هذا على نهيه عن التعسير فى جميع الأوقات والأحوال ومن جميع الوجوه ، ويقال مثل هذا فى قوله : «بشروا ولا تنفروا» .

وفى قوله : «وبشروا» بعد قوله : «يسروا» فيه الجناس الخطى لقرب التشابه فى الخط والكتابة .

ومعلوم أن الذى يقابل البشارة النذارة ، ومع هذا لم يقل وبشروا ولا تنذروا بل قال : «وبشروا ولا تنفروا» ، لأن النذارة هى الإخبار بالشر وفى ابتداء التعليم قوبلت البشارة بالتنفير والقصد من الإنذار التنفير فصرح بما هو المقصود منه .

يوجه رسول الله ﷺ أمته أن ييسروا وألا يعسروا وأن يبشروا وأن لا ينفروا ، وهذا التوجيه النبوى الذى يأمر فيه رسول الله ﷺ أمته بذلك يبتغى من ورائه أن تكون هذه الأمة سائرة على منهاج الحق مستقيمة على الجادة فلا تكليف بما لا طاقة لها به ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (١) .

لا حرج ولا مشقة فى هذه التكاليف أو تلك العبادات ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(٢) .

ويبين رب العزة سبحانه وتعالى أن الله حين شرع العبادات وكلف بها العباد

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٨٦ .

(٢) سورة الحج - آية ٧٨ .

= لا يُريد من ورائهـا المشـقـة بل يـريد من ورائهـا اليـسـر لأن فى كل عـبادة رحـمـة بنا ولأن في كل ما كلفنا الله تعالى به اليسر كل اليُسْر ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [1]. ولذلك من لم يستطـع أن يصلى من قـيام صلى من قعـود، ومن لم يجد الماء تيمم ومن لم يستطع الصيام لمشقة فى السفر أو المرض فعدة من أيام أخر والحج لمن استطاع إليه سبيلاً، وهكذا لا نـرى عبـادة فيـهـا شـىء مـن الحـرج أو العسر أو المشقة. وكما جاء شرع الله تعالى كتاباً وسنة بهذا التيسير فإنه يأمر أيضاً الأمة فيما بينها أن تتعامل بهذا الأسلوب نفسه، وبهذا المنهاج ذاته فيأمر الرسول ﷺ أمته إذا أمروا وإذا وجهوا وإذا دعوا غيرهم أن يكونوا ميسرين، ففى حديث آخر يقول: «إنما بعثتم مُيسِّرين ولم تبعثوا معسرين».

وقال ذلك فى واقعة كان فيها أعرابى قد بال فى المسجد وهو عمل استفزّ الكثيرين حتى نهروه فنهاهم النبى ﷺ وأمرهم أن يتركوا الرجل حتى ينتهى من بوله ثم بعد ذلك وجههم بالحكمة والموعظة الحسنة وبيَّن له أن المساجد لا يصح فيها شىء من هذا ثم أمرهم أن يلقوا على هذا الموضع الذى بال فيه دلواً من ماء ثم قال لأصحابه: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».

نعم، إن هذا التوجيه يأمُرنَا فيه بأن نُيسّر على الناس وأن لا نعسر وأن نبشر الناس وأن لا ننفرهم لأن الإنسان الذى يبشر حين يدعو غيره إلى الخير أو إلى الطاعة يُقبل من يدعوه على الطاعة ويتجاوب لكنه حين ينفره ويقنطه لا يراه يستجيب بل يراه قنوطاً يئوساً بعيداً عن كل عمل من أعمال الخير.

ومن أوضح السمات التى يستدل بها على شخصية الإنسان المسلم سماحته ويسره فى علاقاته ومعاملاته فهو هادئ فى حديثه بعيد عن كل ما يسيء إلى الناس، فالتسامح واليُسْر والبشرى من صميم العقيدة، ولذا نجد القرآن الكريم فى توجيهه لرسول الله ﷺ مع الذين نازعوه وجادلوه يأمر بالسير على الجادة والبعد عن الجدال. =

(1) سورة البقرة - آية 185.

ولقد كان الرسول ﷺ الأسوة الحسنة فى اليسر والتسامح حتى مع من أعرضوا عنه ووقفوا له بالمرصاد، لقد انطلق وهو مهموم فناداه جبريل كما جاء فى الحديث المتفق عليه فقال: «إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». يقول الرسول ﷺ «فنادانى ملَك الجبال فسلم علىّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربى إليك فتأمرنى بأمرك فما شئت إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين». فقال النبى ﷺ «بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً» (١).

ما يؤخذ من الحديث

(١) الأمر بالتيسير وعدم التعسير والبشارة وعدم النذارة.

(٢) الأمر للولاة بالرفق.

(٣) هذا الحديث من جوامع كلم الرسول ﷺ فهو يشتمل على كثير من المعانى مع القليل من الألفاظ والكلمات فاشتمل على خيرى الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه مسلم.

١٢ - باب

من جعل لأهل العلم أياماً معلومة

٦٦- حَدَّثَنا عثمانُ بنُ أَبى شَيْبَةَ قال : حَدَّثَنا جَريرٌ عنْ مَنْصُورٍ عن أَبى وَائلٍ قَالَ : « كانَ عَبْدُ الله يُذَكِّرُ الناسَ فِى كُلِّ خَميسٍ ، فقال لَه رَجلٌ : يا أَبا عَبْد الرَّحْمنِ لَوَددتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنا كُلَّ يومٍ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنى مِنْ ذَلكَ أَنّى أَكْرَهُ أَنْ أُملَّكُمْ ، وَإِنّى أَتخَوَّلُكُمْ بِالمَوْعِظَةِ ، كَما كَانَ النبىُّ ﷺ يَتَخوَّلُنا بِهَا ، مَخافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا » .

---

٦٦ - كان الباب السابق فى التعهد بالموعظة والعلم كراهة السآمة والملل ، وهذا الباب أيضاً جعل أياماً لأهل العلم معلومة حتى لا يمل الناس ، حيث كان ابن مسعود يتعهد بالتذكير كل خميس .

فلقد كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يذكِّر الناس فى كل خميس فيوجههم ويعظهم ، «فقال له رجل» ، وهذا المبهم قال عنه الحافظ ابن حجر : يشبه أن يكون هو يزيد بن معاوية النخعى . وكان الناس يحبون موعظته حتى قال له يزيد بن معاوية النخعى : يا أبا عبد الرحمن ، وهذه هى كنية عبد الله بن مسعود «لوددت أنك ذكّرتنا كل يوم» واللام جواب قسم محذوف وتقدير الكلام : والله لوددت أنك ذكّرتنا كل يوم قال : أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملّكم .

وإنى أتخولكم بالموعظة كما كان النبى ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا ، فهو يكره أن يملهم أى يضجرهم مخافة أن يتسرب إليهم الملل والسآمة .

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن المنهج النبوى فى التعليم هو فى التدرج وعدم التطويل، وعدم الاستمرار الذى يؤدى إلى السآمة والملل.

(٢) ما يتمتع به المنهج الإسلامى من السماحة واليسر.

(٣) أهمية التذكير والموعظة وينبغى أن يختار الزمان المعقول.

١٣ - باب
مَنْ يُرِدِ اللّٰهُ بِهِ خَيراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ

٦٧- حَدَّثنَا سَعيدُ بنُ عُفَيْرٍ قال: حَدَّثنَا ابنُ وَهْبٍ عن يُونُسَ عن ابن شِهَابٍ قال: قال حُمَيْدُ بنُ عبدالرَّحْمَنِ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ خَطِيبًا يَقُولُ: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ اللّٰه به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ، وإِنَّمَا أنا قَاسِمٌ وَاللّٰه يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هذه الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللّٰه لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللّٰه».

٦٧- بعد أن ذكر قبل ذلك مَنْ يُذكّر الناس بأمور دينهم بتوضيح ما ينفعهم وما يضرهم ولا يقوم بهذا إلا الفقيه في الدين، ذكر في هذا الباب مكانة من تفقّه في الدين، وأن الله تعالى قد أراد به خيراً حيث جعله فقيهاً في الدين.

أما مطابقة الحديث للترجمة، فواضحة كل الوضوح، لأنها من عين الحديث ومعنى: «من يرد الله به خيراً» من يرد الله سبحانه وتعالى به جميع الخيرات، أو خيراً عظيماً، لأن كلمة [خيراً] نكرة وقعت في سياق الشرط فتفيد العموم، ويحتمل أن يكون التنكير للتعظيم، والإرادة: هي صفة تخصص أحد طرفي الممكن بالوقوع. «يُفقهه في الدين» أي يفهمه. والفقه لغة: الفهم، واصطلاحاً: العلم بالأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية، وقال الحسن البصري: الفقيه: هو الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بأمر دينه المداوم على عبادة ربه.

= وفى قوله: «وإنما أنا قاسم والله يعطى» دليل على أن الرسول ﷺ إنما يعطى بالوحى، وتقديم لفظ الجلالة فى قوله: «والله يعطى» لإفادة التأكيد والتقوية، ويحتمل أن يكون التقديم والتأخير للتخصيص على معنى: الله يعطى لا غيره.

ولا إشكال فى الحصر بإنما فى قوله: «وإنما أنا قاسم» فيقال مثلاً: أن للرسول ﷺ صفات أخرى غير القسمة لا إشكال فى هذا لأن المراد بالحصر هنا الحصر الإضافى، جاء ردًّا لاعتقاد السامع فلا ينتفى إلا ما كان معتقداً له لا كل صفة من الصفات.

وراوى هذا الحديث: هو الصحابى العظيم، معاوية بن أبى سفيان، صخر بن حرب كاتب الوحى لرسول الله ﷺ صلوات الله وسلامه عليه، وله فضائله الكثيرة ومناقبه الجمة، وكانت وفاته فى شهر رجب سنة ستين، وتوفى عن ثمان وسبعين سنة وله فى البخارى ثمانية أحاديث وقوله: «سمعت رسول الله ﷺ» أى سمعت كلامه، أى أن مفعول سمعت محذوف تقديره: «كلامه» وجملة: «يقول» فى محل نصب حال «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» والمراد بالإرادة أنها صفة تخصص أحد طرفى الممكن بالوقوع، و«خيراً» مفعول به وهى نكرة وقعت فى سياق الشرط فتفيد العموم. فالمعنى: من يرد الله به جميع الخيرات، أو أن التنكير للتعظيم، وعلى ذلك يكون المعنى من يرد الله به خيراً عظيماً ومعنى: «يفقهه فى الدين» أى يفهمه، فالفقه فى اللغة: الفهم، ويقال فقه بالكسر إذا فهم، وبالفتح إذا سبق غيره إلى الفهم، وبالضم إذا صار الفقه له سجية، وهو مختص بعلم الفروع لاستنباطه بالأدلة والنظرة الدقيقة.

والمناسب فى الحديث حمله على المعنى اللغوى، ليعلم كل فقه فى الدين. ومفهوم الحديث: أن من لم يتفقه فى الدين ويتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع وغيرها فقد حُرم الخير كله، وهذا يوضح لنا مكانة العلماء ومنزلتهم وفضلهم على سائر الناس، ولفضل تعلم أمور الدين وتفهمها قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: تفقهوا قبل أن تسودوا، أى: لأنه ربما منعتكم السيادة من

التفقه، ولا ينافي هذا القول أنه ينبغي التفقه بعدها أيضاً. «وإنما أنا قاسم» أي أقسم بينكم ما أوحى إليّ مما أمرت بتبليغه إليكم، ولا أخص به بعضاً دون بعض «والله يعطى» أى يعطى الله الفهم للناس كل إنسان على قدر ما تعلقت إرادة الله تعالى به فيتفاوتون في الفهم منه سبحانه، ولقد كان البعض يسمع الحديث فيفهم الظاهر منه ويسمعه آخر فيستنبط المسائل الكثيرة منه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فالرسول ﷺ يسوى بينهم في إلقاء العلم، والله تعالى يعطى كلاً منهم من الفهم على قدر ما أراد الله.

وقيل: الواو في قوله: «وإنما أنا قاسم» للحال من فاعل يفقهه، والمعنى أن الله يعطى استعداداً لدرك المعاني على ما قدّر ثم يلهمني بإلقاء ما هو لائق باستعداد كل واحد. وقيل: المراد قسمة المال لأن مورد الحديث كان عند قسمة مال فخص بعضهم بزيادة لمقتضى يقتضي ذلك فاعترض البعض ممن خفيت الحكمة عليه فرد عليه بقوله: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» فالرسول ﷺ قاسم بأمر الله وليس معطياً حتى تنسب إليه الزيادة والنقصان، والحصر في الحديث بـ «إنما» إنما هو حصر إضافي لأن له صفات أخرى سوى القسم وإن اعتقد الجمع بين الوصفين فهو حصر الإفراد «ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله».

والمراد بهم: أهل العلم بالآثار، وقال الإمام أحمد: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى من هم أى أنه يرجح أنهم أهل الحديث، وقيل: أراد أهل السنة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث ويحتمل - كما قال النووى - أن تكون هذه الطائفة فرقة من أنواع المؤمنين، ممن يقيم أمر الله من مجاهد وفقيه ومحدث وزاهد وآمر بالمعروف وغير ذلك من أنواع الخير. ولا يلزم اجتماعهم في مكان واحد، بل يجوز أن يكونوا متفرقين.

والمراد بمجيء أمر الله هو يوم القيامة، وأما المراد بأمر الله الذى ورد أولاً في الحديث في قوله: «قائمة على أمر الله» أى: التكاليف، ومعلوم أن يوم القيامة ليس

زمان تكليف، وأما أمر الله الثانى الوارد فى قوله. «حتى يأتى أمر الله» إما أن يكون يوم القيامة وتكون الغاية فى قوله «حتى» لتأكيد عدم المضرة، أو المراد به بلاء الله والمراد به فتنة الدجال وقيل المراد به: الريح اللينة التى تأتى قبل يوم القيامة فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة فلا تعارض حينئذ بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ «لا تقوم الساعة حتى لا يقول أحد الله الله» ولا تعارض بينه أيضاً وبين حديث «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس» لأن تلك الريح تأتى قريب يوم القيامة وما هو فى هذين الحديثين عند القيامة.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل التفقه فى الدين.

(٢) أن المعطى فى الحقيقة هو الله تعالى.

(٣) أن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبداً.

(٤) محبة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لأمته ورفقه بهم، وعطفه عليهم.

(٥) أن الناس يتفاوتون فى أفهامهم، فمنهم من يفهم من الحديث ظاهره ومنهم من يستنبط الأحكام الكثيرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

(٦) أهمية العلم وفضله وفضل التفقه فيه ليحظى العبد بسعادة الدنيا والآخرة إذ به يتعرف المسلمون على الحلال والحرام ويفهمون أمور دينهم على حقيقتها.

(٧) فى الحديث دلالة على حجية الإجماع، لأن مفهومه أن الحق لا يعدو الأمة.

(٨) فى الحديث دلالة على امتناع خلو العصر عن المجتهد.

(٩) فضل العلماء على سائر الناس.

(١٠) إخباره ﷺ بالمغيبات وقد وقع ما أخبره به.

(١١) استنبط بعض الأئمة أن القائمين على أمر الله أهل الحديث.

١٤- باب

الفَهْمِ فِى العِلْم

٦٨- حَدَّثَنَا عليٌّ حَدَّثَنا سُفْيَانُ قَالَ: قَالَ لِى ابنُ أَبِى نَجِيحٍ: عن مجاهد قال: صَحِبْتُ ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعه يُحَدِّثُ عنْ رسولِ الله ﷺ، إلاَّ حَديثًا واحداً قال: «كُنَّا عنْدَ النبىِّ ﷺ، فَأُتِىَ بجُمَّارٍ، فقال: إنَّ منَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مَثَلُهَا كَمَثَلِ المُسْلِمِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هى النَّخْلَةُ، فإذَا أنَا أَصْغَرُ القَوْمِ، فَسَكَتُّ، قال النبىُّ ﷺ: هى النَّخْلَةُ».

٦٨- هذا الباب فيه بيان فضل الفهم في العلم، ويتضح ارتباط هذا الباب بسابقه، فالباب السابق «من يرد الله به خيراً يُفقهه فى الدين» والفقه هو الفهم، وعلى ذلك فالفهم فى العلم داخل فى قوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين». ومطابقة الحديث للترجمة واضحة لأن قوله ﷺ: «إن من الشجرة شجرة» كان على طريقة الاستعلام منهم، وابن عمر رضى الله عنهما فَهِم السؤال وعرف الجواب ولكن منعه الحياء وصغر السن.

قال مجاهد: «صحبت ابن عمر إلى المدينة» والألف واللام للعهد أى مدينة النبى ﷺ «فلم أسمعه يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً» أراد بذلك الحديث المذكور بعد قال: «كنا عند النبى ﷺ فأتى بجمّار» هو شحم النخل وهو الذى يؤكل منه، فقال: «إن من الشجر شجرة مثلها كمثل المسلم فأردت أن أقول: هى النخلة فإذا أنا أصغر القوم فسكتّ، قال النبى ﷺ: «هى النخلة»

وكان سكوت عبدالله بن عمر وعدم جوابه مع أنه كان يعرف أنها النخلة حياء فى حضرة كبار الصحابة، وتعظيماً واحتراماً لكبار الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين. وفى رواية : فإذا أنا عاشر عشرة أنا أحدثهم.

وإنما فهم عبدالله بن عمر أنها النخلة من قرينة إحضار الجمار فعرف وتذكر أن الشجرة التى يسأل الرسول ﷺ عنها هى النخلة، وقد سبق شرح هذا الحديث قبل ذلك، وإنما جاء وروده هنا لإيضاح فضل الفهم فى العلم. ويتضح من الحديث فضل المنهج النبوى وحكمته، وما كان عليه رسول الله ﷺ من جذب قلوب سامعيه إليه وسؤالهم، كما يوضح الحديث أهمية الفهم فى العلم وكيف أن للقرينة أثراً فى معرفة بعض العلم، وأن الله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء، وأنه سبحانه قد يعطى الفهم لمن كان صغيراً فى السن، وقد يدرك ما لا يدركه الكبير ولذا كان طلباً غير محدد، ولا نهاية له، ولا يصح أن يمتنع أحد عنه وعن أخذه حتى ولو كان ذلك عمن هو أقل سناً من الإنسان، ففى علوم الحديث : رواية الأكابر عن الأصاغر ومما قاله سلفنا : لا ينبل الرجل حتى يأخذ العلم عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل الفهم فى العلم.

(٢) وأن الفهم ومعرفة المسائل الإلهية عطاء من الله تعالى والله يعطى من يشاء.

(٣) منقبة عظيمة لعبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

(٤) الحياء وعدم التحدث فى وجود من هم أكبر من الإنسان أدباً وتواضعاً واحتراماً.

(٥) ما كان عليه رسول الله ﷺ من شفقة ومحبة لأصحابه وجذبهم وتوجيههم لأحاديثه.

١٥ - باب

الاغتباط في العلم والحكمة

وقَالَ عُمَرُ : تَفقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدوا .

٦٩- حَدَّثَنا الحُمَيديُّ قال : حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قال : حدَّثني إسْمَاعِيلُ ابنُ أَبِي خَالدٍ عَلَى غيْرِ مَا حَدَّثَنَاه الزُّهْرِيُّ قال : سَمِعْتُ قَيْسَ بنَ أَبي حَازمٍ قال : سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بنَ مَسْعود قال : قال النبيُّ ﷺ : « لاَ حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً ، فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِه فِي الحَقِّ ، ورَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا ويُعَلِّمُهَا » .

٦٩- الاغتباط : هو أن يتمنى الإنسان أن يكون له مثل ما عند الغير دون أن يتمنى زوال النعمة عن الغير .

والحكمة : هي معرفة الأشياء على ما هي عليه فهي مرادفة للعلم فعطفها على العلم من باب العطف التفسيري .

ومناسبة هذا الباب للذي قبله أن في الباب الأول الفهم في العلم ، وفي هذا الباب الاغتباط في العلم والحكمة .

وأما قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : «تفقهوا قبل أن تُسَوَّدُوا» أي : قبل أن تُجعلوا سادة ، وفي رواية أخرى قال أبو عبدالله البخاري «وبعد أن تُسَوَّدُوا» وأراد عمر رضي الله عنه أن السيادة قد تكون سبباً للمنع من

= التفقه فقد يرى الإنسان مانعاً يمنعه من الجلوس فى مجلس العلم وهو فى منصبه الرفيع ويستحى من طلب العلم.

ويرى البعض مطابقة قول عمر رضى الله عنه للترجمة أنه جعل السيادة من ثمرات العلم وأوصى الطالب بالزيادة قبل بلوغ السيادة.

ومراد البخارى أن الرياسة وإن كانت مما يغبط بها صاحبها فى العادة لكن الحديث دل على أن الغبطة لا تكون إلا بأحد أمرين: العلم أو الجود، ولا يكون الجود محموداً إلا إذا كان يعلم.

إن النعم الإلهية كثيرة لا تقع تحت حصر ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[1] ... وتجاه كل نعمة واجب، على المسلم أن يقوم به، وحق يجب عليه أن يؤديه، فإذا قام المسلم بما يجب تجاه نعم الله، فقام بالواجبات، وأدى الحقوق، وشكر الله المنعم الوهاب، كان أهلاً لزيادة النعم، ولرحمة الله ورضوانه، فهو بهذا قد أدى ما يمليه عليه إيمانه الصحيح من الشكر لربه. أما إن تمرد ولم يؤد ما عليه، فقد جحد النعمة، وأخذ فى أسباب الكفر بها، وعندئذ ينتظره العذاب الأليم: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾[2].

ومن أجلِّ النعم الإلهية: نعمتان، تتعلق الأولى منهما بما هو قوام الحياة الدنيا، وتتحقق به ممارسة العمل والكسب والمعاش وهى نعمة «المال»!.

وأما الثانية: فتتعلق بما هو قوام الدين، وعلى ضوئه يكون موقف العبد يوم لقاء الله، وهى نعمة «الحكمة».

ويتجه الحديث الشريف فى توضيح أهمية هاتين النعمتين اتجاهاً يحرك الأشواق الكامنة إلى معالى الأمور، والتنافس الشريف المحمود إلى مكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، فيقول: «لا حسد إلا فى اثنتين»... فما الحسد وما المراد به هنا؟ الحسد قسمان: حقيقى ومجازى. فأما الحسد الحقيقى: فهو تمنى زوال النعمة عن صاحبها سواء تمنى أن تكون النعمة له أم لا، ومتى تحقق هذا النوع فهو حرام

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٣٤

(١) سورة إبراهيم - آية ٧

= بالإجماع قولاً كان هذا الحسد أو فعلاً أو تصميماً، واستثنى العلماء من ذلك، ما إذا كانت النعمة لكافر أو فاسق يستعين بها على معصية الله.

وأما النوع الثاني: وهو الحسد المجازى - وهو المراد فى الحديث - فمعناه الغبطة بأن يتمنى مثل النعمة التى لغيره من غير أن يتمنى زوالها عن صاحبها، وهذا النوع يسمى منافسة، فإن كان فى الطاعات فهو عمل محمود ومنه ﴿ ﴾[1] وإن كان فى المعصية فهو الحرام، وقد حذر منه الرسول ﷺ بقوله: «.. ولا تنافسوا» وإن كان فى الأمور الجائزة فهو مباح، فالحديث يبين لنا أنه لا غبطة أعظم ولا أفضل من الغبطة فى هذين الأمرين:

الأول: رجل آتاه الله مالاً فسلط على هلكته فى الحق. وفى رواية: «فسلطه» وهذا التعبير يدل على قهر شهوة النفس البشرية التى طبعت على الحرص الشديد، وأن المؤمن الذى يثق بما عند الله، فهو من ينفق ماله على هذه الصورة، وعبر بقوله: «هلكته» أى هلاكه، لبيان أنه لا يبقى شيئاً منه.

ويضع الحديث الشريف ضابطاً هاماً من ضوابط إنفاق المال على هذه الصورة هو قوله: «فى الحق» أى فى الطاعات والوجوه المشروعة، ليزيل ما قد يلتبس على بعض الأفهام من الإسراف المذموم، والتبذير المنهى عنه فى قوله تعالى: ﴿ ﴾[2] ولا يغيب عن أذهاننا أن تقييد الإنفاق فى الحق يحتفظ لصاحب المال بجانب كبير منه، ليؤدى به واجباته، ويقوم به على رعاية أهله ومن تلزمه نفقتهم.

كما يشترط فى هذا المال الذى يُغْتَبط عليه صاحبه، أن يكون مجموعاً من الحلال، لا غش فيه ولا شبهة، وهذا الشرط نلمحه فى قوله: «رجل آتاه الله مالاً» فإسناد الإتيان بالمال إلى الله يشير إلى أنه رزق منه سبحانه، وقد ساقه للعبد جزاء وفاقاً.. أما إن اكتسب إنسان مالاً من حرام أو شبهة، وحاول أن ينفق منه فى سبيل الله أو فى أى عمل من أعمال البر، فإن إنفاقه منه غير مقبول، ولا غبطة فى هذا المال، قال عليه الصلاة والسلام: «لا تغبطن جامع المال من غير حلِّه، أو من غير حقه؟ فإنه إن تصدق به لم يقبل منه، وما بقى كان زاده إلى النار».

---

(١) سورة

(٢) سورة

ولكن ما أفضل النفقات؟ وبمن يبدأ الإنسان أولاً؟

على هذا يجيبنا رسول الله ﷺ فيما رواه حكيم بن حزام أن رسول الله ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله» رواه البخارى.

هذا هو منهج الإسلام فى الإنفاق، بعد إخراج حق الله تعالى من المال، فيبدأ بنفسه ثم بمن يعول ممن تلزمه نفقتهم من أهله، فالإنفاق على الأهل مقدم على غيره، ففى الحديث «دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك» رواه مسلم.

ويجعل الإسلام الصدقة على القريب الفقير مضاعفة الأجر فهى صدقة وصلة فيقول ﷺ «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم اثنتان: صدقة وصلة» وبعد الأهل وذى الرحم يأتى دور الإخوان والأصدقاء.. هذا ما يتعلق بالأمر الأول فى الحديث.

الثانى: «ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويُعلِّمها» والمراد بالحكمة: القرآن الكريم، وقيل: المراد بها كل ما منع من الجهل وزجر عن القبيح. وفى حديث آخر ما يفيد المراد بالحسد المذكور وهو الغبطة، ولفظه:

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا فى اثنتين رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له فقال: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه فى الحق، فقال رجل: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل».

ما يؤخذ من الحديث

(١) لا بأس بالغبطة فى الأمور، وهى تمنى أن يكون للإنسان مثل ما لغيره.
(٢) فضل الإنفاق، ومنزلة من ينفق ماله فى الحق.
(٣) فضل قراءة القرآن وفهمه، ومنزلة العالم وطالب العلم عند الله.
(٤) إن نعم الله كثيرة لا تحصى، ومن أجلّها نعمة المال ونعمة الحكمة فبهما قوام الدين والدنيا.
(٥) فضل المال الحلال حين ينفقه صاحبه فى الوجوه المشروعة.
(٦) الدعوة إلى قهر النفس التى جُبِلت على الشح.
(٧) التحذير من التبذير الذى يكون إهلاك المال فيه فى غير الحق.
(٨) إذا قام الغني بشروط المال وجمعه من حلال وأنفقه فى الوجوه المشروعة وفعل فيه ما يُرضِى ربه فهو أفضل من الفقير.

١٦ - باب

ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [١]

٧٠- حَدَّثَنى مُحَمَّدُ بنُ غُرَيْرٍ الزُّهْرِيُّ قال : حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بنُ إِبْرَاهِيمَ قال : حدَّثنى أَبى عن صَالِحٍ عَنِ ابنِ شِهَابٍ حَدَّثَ أَنَّ عُبَيْدَ اللهِ ابنَ عَبْدِ اللهِ أَخْبَرَهُ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ والحُرُّ بنُ قَيْسِ بنِ حِصْنٍ الفَزَارِيُّ في صَاحِبِ مُوسَى قالَ ابنُ عَبَّاسٍ : هُوَ خَضِرٌ ، فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ ، فَدَعَاهُ ابنُ عَبَّاسٍ ، فقال : إِنِّى تَمَارَيْتُ أنا وَصَاحِبِي هذا في صَاحِبِ مُوسَى الَّذى سَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ ، هَلْ سَمِعْتَ النبيَّ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ ؟ قال : نَعَمْ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « بَيْنَمَا مُوسَى فى مَلأٍ مِن بَنى إِسْرَائيلَ ، جَاءَهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ : هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ قال مُوسى : لاَ . فأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى : بَلَى . عَبْدُنَا خَضِرٌ ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً ، وَقِيلَ لَهُ : إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجِعْ ، فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ ، وكان يَتَّبِعُ أَثَرَ الحُوتِ فى البَحْرِ . فَقَالَ لِمُوسَى فَتَاهُ : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ؟ فَإِنِّى نَسِيتُ الحُوتَ ، ومَا

(١) سورة الكهف - آية ٦٦ .

= أنسانيه إلا الشَّيْطانُ أن أَذْكُرَهُ، قَالَ: ذلكَ مَا كُنَّا نَبْغي، فارتَدَّا عَلى آثارِهِمَا قَصَصًا، فَوَجَدَا خَضِراً، فكانَ مِنْ شأْنِهِمَا الَّذى قَصَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في كِتابِهِ».

٧٠ ـ فى هذا الباب ترغيب فى تحمُّل المشقة فى سبيل طلب العلم، فلم يمنع موسى عليه السلام ما بلغه من منزلة السيادة والنبوة من طلب العلم، وركوب البحر والبر لأجله، وتتضح مطابقة الحديث للترجمة فى ذهاب موسى عليه السلام إلى الخضر وركوبه البحر وسؤاله أن يتبعه لأجل التعلم منه.

فى هذا الحديث بيان وترغيب فى طلب العلم وتحمل المشقة فى سبيله، فقد ركب موسى عليه السلام البحر متوجهاً فى طلب الخضر.

لقد تمارى وتجادل ابن عباس رضى الله عنهما هو والحُرّ بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خَضِر.

وهذا الجدل بين ابن عباس والحر بن قيس غير الذى وقع بين سعيد بن جبير ونوف البكالى فإن هذا فى صاحب موسى، هل هو الخضر أو غيره، وأما هناك فكان الجدل فى موسى: هل هو موسى بن عمران الذى أنزلت عليه التوراة أو موسى بن ميشا.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: إنى تماريت أنا وصاحب هذا فى صاحب موسى الذى سأله موسى السبيل إلى لُقيِّه: هل سمعتَ النبيَّ ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما موسى فى ملأ بنى إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا فأوحى الله إلى موسى «بلى عبدُنا خضر» أى: أن الخضر هو أعلم، وإضافة عبد إلى الله تعالى فى قوله: «عبدنا خضر» إضافة للتعظيم.

« فسأل موسى السبيل إليه » أى : طلب من ربه سبحانه وتعالى أن يدله عليه «فجعل الله له الحوت آية» أى علامة على مكان الخضر ولقائه فوضح الله لموسى أن يطلب الخضر على الساحل عند الصخرة، قال: يا رب كيف لى به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك.. وقال موسى لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني، وكان يمشي ويتبع أثر الحوت أى: ينتظر فقدانه فرقد موسى ﷺ فاضطرب الحوت ووقع في البحر.

«فقال لموسى فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره» أى نسى تفقّد أمره وما يكون منه مما يجعل أمارة على لقاء الخضر، قال موسى: ذلك ما كنا نبغي أى أن فقدان الحوت هو ما نبغيه لأنه علامة على الوصول إلى المقصود من لقاء الخضر «فارتدا على آثارهما قصصاً» أى: رجعا يقصان الأثر. فوجدا خضراً فكان من شأنهما الذى قص الله عز وجل في القرآن الكريم، وفي هذا إشارة إلى ما حكاه القرآن في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾[1].

ولقد قص الله تعالى هذه القصة في سورة الكهف، وبيّن ما أشكل على موسى عليه السلام فأنكر ظاهره - ولكن الله جَلَّتْ حكمته، قد أطلع الخضر على الحكمة الخفية من هذه الأفعال التى فعلها، من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار.

فأما عن السفينة: فإنه قد خرقها ليعيبها، لأنهم كانوا يمرون على ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة وجيدة غصباً، فأراد أن يعيب السفينة حتى يرده عنها، فينتفع بها أصحابها المساكين، فإنهم لم يكن لهم من عمل أو مورد ينتفعون به سوى السفينة.

وأما الغلام: فقد جاء في رواية مسلم «وأما الغلام فطُبع يوم طُبِع كافراً، وكان أبواه قد عطفا عليه فلو أنه أدرك أرهقهما طغياناً وكفراً» فيحملهما على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قُتل ولو بقى لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره

(١) سورة الكهف - آية ٦٦

= خير له من قضائه فيما يحب، وجاء فى الحديث: «لا يقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له» وقال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (١).

وأما الجدار: فأصلحه، لأنه كان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً، وفى هذا دليل على أن الله تعالى يحفظ للرجل الصالح ذريته من بعده، ويشملهم بعنايته، ويكلؤهم برعايته، ويحيطهم برحمته دنيا وأخرى، لتقر عينه بهم..

ويُفصِّل القرآن الكريم أسباب ما فعله الخضر فيقول عن لسانه لموسى: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾(٢).

فقد فعل ما فعل فى الأحوال الثلاثة رحمة من الله تعالى بأصحاب السفينة ووالدى الغلام، وولدى الرجل الصالح، ثم إنه ما فعله عن أمره ولكنه أمر به ووقف عليه.

ويستنبط من هذه القصة بعض العبر والدروس، التى لها أهميتها وأثرها فى حياة الأفراد والجماعات، وفيما ينتفع به الناس فى دنياهم وأخراهم.

ومن هذه الدروس الهامة: الدعوة إلى طلب العلم واحتمال المشقة فى سبيل تحصيله، ولا يمنع الإنسان من طلب العلم مكانته فى قومه، أو منصبه فى المجتمع، إذ أن طلب العلم فريضة، فموسى عليه السلام لم يمنعه من طلب العلم كونه نبياً، ولم يمنعه بلوغه فيه ما بلغ.. فقد رحل وسافر وركب البحر وتحمل المشاق، من أجل أن يحصل على ما لم يعلمه.. ولقد كان طلب العلم والرحلة من أجله أشهى

---

(١) سورة البقرة - آية ٢١٦

(٢) سورة الكهف - آية: ٧٨ - ٨٢.

= أماني سلفنا الصالح، وكم تحملوا في سبيله ما تحملوا من شظف العيش، وخشونة الحياة، قال رسول الله ﷺ :

«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة» رواه مسلم.

- وفي هذه القصة من الدروس، ما ينبغي أن يراعيه العالم، فإذا ما سئل: أي الناس أعلم؟ فعليه أن يكل العلم إلى الله العليم الحكيم، الذي أحصى كل شيء عدداً، وأحاط بكل شيء علماً.. كما ينبغي للمتعلم أن يتواضع في طلب العلم مهما كانت مكانته، فموسى عليه السلام وقف من العبد الصالح موقف المتعلم المتواضع، فاستأذنه في اتباعه، ليتعلم منه قائلاً له: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [1] وإذا ما بدرت منه بادرة أسرع بالاعتذار، وأبدى حسن الطاعة، تعليماً لقومه أن يتأدبوا بأدبه، وتنبيهاً لمن زكى نفسه أن يسلك مسلك التواضع ومكارم الأخلاق.

- ومن الدروس المستفادة من هذه القصة كذلك: أن في العديد من حادثات الحياة، التي يتبرم بها الناس، خيراً لا يعلمونه، وأسراراً لا يتطرق إليها فهمهم، وليس يعلمها إلا علام الغيوب، الذي يعلم السر وأخفى.. والذي لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.. كما أن في العديد من الأمور التي يفرح لها الناس، شراً مستطيراً، وخطراً كامناً قال الله تعالى:

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [2] ومن هنا يظهر أثر الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومُرِّه، كركن هام من أركان الإيمان.. كما أن الله تعالى، يصون عقيدة الإنسان المؤمن المخلص، فلا يتركه في مهب الفتن، وعواصف الأحداث، وإنما يبعد الله عن طريقه أسباب الضلال والضياع، ما دام مخلصاً لربه، صادقاً في إيمانه، فقد شاء الله تعالى للغلام أن يقتل، لأنه إن عاش سيرهق والديه طغياناً وكفراً، لأن

(١) سورة الكهف - آية : ٦٦ .

(٢) سورة البقرة - آية : ٢١٦

= الآباء مفطورون على محبة الأبناء، وقد يطغى فساد الابن على صلاح الوالدين فيكون سبباً في كفرهما وطغيانهما، ففى الأبناء فتنة للآباء.

- ومن دروس هذه القصة أيضاً: المحافظة على أموال اليتامى والمساكين، وأن الله تعالى يرعاهم ويرزقهم، ففى تشويه السفينة نجاة لها من الغصب حتى تبقى مِلْكاً للمساكين الذين يعملون عليها..

- ومن العبر كذلك: أن للبيئة الصالحة المستقيمة أثراً بالغاً فى حياة أبنائها وأن الله تعالى يتولى ذرية الصالحين إذا كانوا مؤمنين واتبعوا منهج الحق وساروا على الجادة، ولا تلحقهم فتن الحياة ولا فسادها الذى يستشرى بين الناس بل يمهد الله للأبناء طريق الخير والهناء، ويذلل لهم الصعاب حتى تسير بهم الحياة آمنة مطمئنة..

فعلى المجتمعات البشرية، أن تهتدى بهدى الكتاب والسنة، وتسير على صراط ربها المستقيم، منتهجة منهج الحق، آخذة من العطاء الغامر الذى يفيئه القرآن الكريم، وتفيض به السنة الشريفة، حتى يفتح الله عليها بركات من السماء والأرض، والله ذو الفضل العظيم.

ما يؤخذ من الحديث

١ـ جواز الجدل فى العلم إذا كان من أجل طلب الحق ولم يكن تعنتاً .

٢ـ على الإنسان أن يسأل أهل الذكر عند الخلاف أو التنازع

٣ـ وجوب طلب الزيادة من العلم .

٤ـ وجوب تواضع العلماء ، لأن الله تعالى عتب على موسى أنه لم يرد العلم إليه .

٥ـ مشروعية الرحلة فى طلب العلم .

٦ـ قبول خبر الواحد .

٧ـ صلاح الآباء ينفع الأبناء

٨ـ فى العديد من حادثات الحياة التى يتبرم منها الناس خير لا يعلمونه وقد يكون فيما يسرون به شر لا يعلمونه ، والله وحده علام الغيوب .

٩ـ المحافظة على أموال اليتامى والمساكين .

١٧ - باب

قول النبيِّ ﷺ : «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكتَابَ»

٧١- حَدثَّنَا أَبُو مَعْمَرٍ قَالَ : حَدَّثَنا عَبدُ الوَارِث قال : حَدَّثَنا خَالدٌ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابنِ عَبَّاس قال : «ضَمَّنى رَسُولُ الله ﷺ ، وقال : اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ» .

٧١ـ فى هذا الباب بيان لسبب غزارة علم ابن عباس وفضله ، وذلك ببركة دعاء رسول الله ﷺ له . والحديث هو عين الترجمة فالمطابقة بينهما واضحة .

لقد ضم رسول الله ﷺ ابن عباس رضى الله عنهما إلى صدره ، كما أخبر ابن عباس ، حباً له ورفقاً به ، واهتماماً بشأنه ، ودعا له قائلاً : «اللهم علمه الكتاب» أى القرآن الكريم ، فاللام فى الكتاب للعهد ، وفى بعض الروايات بدل الكتاب «الحكمة» وقد يراد بالحكمة القرآن .

وعند ابن ماجه : «اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب» . ولا شك فى قبول دعاء رسول الله ﷺ لابن عباس ، فقد كان عالماً بالكتاب ، حبر الأمة ، بحر العلم ، ترجمان القرآن ، وجاء فى سبب هذا الدعاء لابن عباس ما ذكره البخارى ومسلم فى الرواية الأخرى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «دخل النبى ﷺ الخلاء فوضعت له وضوءاً» زاد مسلم : فلما خرج ثم اتفقا قال : من وضع هذا فأخبر ، وعند مسلم : قالوا : ابن عباس ، فدعا له رسول الله ﷺ .

ما يؤخذ من الحديث

(١) مكانة ابن عباس فى العلم وفضله.

(٢) بركة دعاء الرسول ﷺ وإجابته.

(٣) فضل العلم والحث على تعلمه والحرص عليه.

(٤) أن العلم بالقرآن وفهمه وحفظه أعظم ما ينبغى أن يحرص عليه الإنسان المسلم.

(٥) استحباب السلام وضم المسلم لأخيه القادم من سفر وكذا للطفل إشفاقاً ومحبة له.

(٦) محبة الرسول ﷺ لابن عباس.

١٨ - باب

مَتى يَصِحُّ سَماعُ الصَّغير ؟

٧٢- حَدَّثَنا إسْمَاعيلُ بنُ أَبي أُوَيْسٍ قال : حدَّثني مَالكٌ عن ابنِ شهَابٍ عن عُبَيْد بن عَبْد الله بنِ عُتْبَةَ عن عَبْد الله بن عَبَّاسٍ قال : «أَقْبَلْتُ راكبًا على حمَار أتانٍ، وأنا يوْمَئذ قَدْ نَاهَزْتُ الاحْتلامَ، ورسول الله ﷺ يُصَلِّي بمنى إلى غَيْرِ جدار، فَمَرَرْتُ بَيْن يَدَيْ بَعْضِ الصَّفِّ، وأَرْسَلْتُ الأَتَانَ تَرْتَعُ، فَدَخَلْتُ في الصَّفِّ، فَلَمْ يُنْكَرْ ذلكَ عَلَيَّ».

٧٢ـ أراد بهذا التبويب توضيح أن البلوغ ليس شرطاً في التحمل، وأنه يقبل ما سمعه الصبي المميز، وفي الباب السابق كان دعاء الرسول ﷺ لابن عباس وهو غلام مميز، وفي هذا الحديث بيان لحال الغلام المميز في السماع حيث يكون قد ناهز الاحتلام، ومطابقة الحديث للترجمة في جواز المرور بين يدي المصلي بلا سترة برواية ابن عباس وتحمل هذا في حالة الصبي فعلم منه قبول سماع الصبي إذا أداه بعد البلوغ.

يخبر ابن عباس أنه أقبل راكباً على حمار أتان وهي الأنثى من الحمير وإنما لم يقل «حمارة» لأنها في الأنثى شاذة، وفائدة النص على ذلك لإفادة أن الأنثى من بني آدم لا تقطع الصلاة لأنها أشرف، وقد رُدَّ هذا لأن العلة ليست مجرد الأنوثة

= فقط بل هى بقيد البشرية، لأنها مظنة الشهوة قال: «وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام» أى: قاربت الاحتلام، «ورسول الله ﷺ يصلى بمنى» سميت بذلك لكثرة ما يمنى أى يراق فيها من الدماء (إلى غير جدار) أى إلى غير سترة أصلاً كما قاله الشافعى، وأورد ابن عباس هذا فى معرض الاستدلال على أن المرور بين يدى المصلى لا يقطع صلاته.

وأخبر بأنه مر بين يدى بعض الصف أى مرّ قدّامه، وأرسل الأتان ترتع أى تأكل، ودخل فى الصف ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ ذلك.

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز سماع الصغير المميز، ويشترط عند أدائه كمال الأهلية.

(٢) جواز الركوب إلى صلاة الجماعة.

(٣) إذا حدث فعل شيء أمام الرسول ﷺ ولم ينكره فهو حجة.

(٤) أن المرور بين يدى المصلى لا يقطع صلاته.

٧٣- حدثنى مُحمدُ بنُ يُوسُفَ قال: حَدثَّنا أَبُو مُسْهِرٍ قال: حدَّثنى مُحمدُ بنُ حَرْبٍ حدَّثنى الزُّبَيْدىُّ عنِ الزُّهْرِىِّ عن مَحْمُود بنِ الرَّبِيعِ قال «عَقَلْتُ منَ النَّبىِّ ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا فى وَجْهِى، وأَنا ابنُ خَمْسِ سِنِينَ من دَلْوٍ».

٧٣-راوى هذا الحديث هو محمود بن الربيع بن سراقة الأنصارى الخزرجى المدنى، توفى ببيت المقدس سنة تسع وتسعين وله ثلاث وتسعون سنة.

يخبر أنه عرف وحفظ من النبى ﷺ مَجَّةً مَجّها فى وجهه من فيه أى: رمى بها فى وجهه، والمجّة أو المج: إرسال الماء من الفم مع النفخ، وهو ابن خمس سنين من ماء دلو، وإنما فعل الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذا مع محمود بن الربيع على سبيل الملاعبة والملاطفة أو التبريك عليه أى حصول البركة لمحمود بن الربيع من فم رسول الله ﷺ، كما كان يفعل ﷺ مع أبناء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ملاطفة لهم وشفقة بهم، وحبًا لهم، فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وهذا من حسن معاشرته، وكريم لطفه وسماحته صلوات الله وسلامه عليه.

ما يؤخذ من الحديث

١- جواز حضور الأطفال مجالس العلم والحديث.

٢- استدل البعض بالحديث على أن أقل سن للسماع خمس سنين فصاعداً وقيل: أربع سنين. والذى ينبغى أن يُعوّل عليه هو اعتبار التمييز والفهم فمن فهم وميَّز سمع وإن كان دون خمس سنين.

٣- ملاطفة رسول الله ﷺ للأطفال وحبه لهم.

٤- بركته ﷺ كما جاء أنه كان يحنّك الأطفال.

٥- ثبوت الصحبة لمحمود بن الربيع رضى الله عنه.

١٩ - باب

الخروج في طلب العلم

وَرحَلَ جَابِرُ بْنُ عَبْدالله مَسيرةَ شَهْرٍ إلَى عَبْد الله بنِ أُنيْسٍ في حَديثٍ واحدٍ.

٧٤- حَدَّثنا أبو القاسم خالدُ بنُ خَليٍّ قال: حَدَّثنا مُحمدُ بنُ حَرْب قال: قال الأوزاعيُّ: أَخبرنا الزُّهْريُّ عن عُبَيْد الله بن عَبْدالله بن عُتْبَة بن مَسْعُود عَن ابن عَبَّاسٍ أَنَّهُ تَمارى هُوَ والحُرُّ بنُ قَيْس بن حصْنٍ الفَزَاريُّ في صَاحب مُوسَى، فمرَّ بهما أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ، فدعاهُ ابنُ عَبَّاسٍ، فقال: إنِّي تماريْتُ أنا وصَاحبي هذا في صَاحب مُوسَى الَّذي سأَلَ السَّبيلَ إلى لُقيِّه،

هَلْ سَمعْتَ رَسُول الله ﷺ يذْكُرُ شأْنَه؟ فقالَ: أُبَيٌّ نعَمْ، سَمعْتُ النبيَّ ﷺ يَذْكُرُ شأْنَهُ يقُولُ: «بَيْنَما مُوسَى في ملأٍ منْ بَني إسْرَائيلَ، إذْ جاءَهُ رَجُلٌ، فقَالَ: أتعْلَمُ أَحدًا أَعْلَمَ منْكَ؟ قال مُوسى: لاَ. فأوْحَى الله عزَّ وجلَّ إلى مُوسَى: بَلَى. عَبْدُنا خَضرٌ، فسَأَلَ السَّبيلَ إلَى لُقيِّه، فَجعَلَ اللهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً، وقيل لَهُ: إذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجع، فإنَّكَ ستَلْقَاهُ، فكَانَ مُوسَى عليه السلام يتَّبعُ أثَرَ الحُوت في البَحْرِ، فَقال فَتَى مُوسَى لمُوسَى: أرأَيْتَ إذْ أَويْنا إلَى الصَّخْرَة؟ فإنِّي نَسيتُ الحُوتَ،

= ومَا أَنسَانيه إِلا الشَّيْطانُ أن أَذْكُرَهُ، قالَ مُوسَى : ذلكَ مَا كُنَّا نَبْغى ، فَارتدَّا عَلى آثَارِهمَا قَصَصاً ، فَوَجَدَا خَضِراً ، فكانَ مِنْ شَأْنِهمَا مَا قَصَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فى كِتَابه» .

٧٤ـ أراد البخارى فى التبويب إيضاح فضل السفر والرحلة فى طلب العلم براً وبحراً ، وفى حديث جابر دليل على طلب علو الإسناد ، لأنه بلغه الحديث عن عبد الله بن أنيس فلم يقنعه حتى رحل فأخذه عنه بلا واسطة .

وقد سبق شرح هذا الحديث وبيان ما يؤخذ منه فى الحديث رقم (٧٠) .

وهنا أراد المصنف ، بيان فضل الخروج فى طلب العلم والرحلة من أجله .

٢٠ - باب

فَضْل مَنْ عَلِمَ وعَلَّمَ

٧٥- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ العَلاَءِ قال: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بنُ أُسَامَةَ عن بُرَيْد ابن عبدالله عَنْ أَبِى بُرْدَةَ عنْ أَبِى مُوسَى عن النبىِّ ﷺ قال «مَثَلُ مَا بَعَثَنى اللهُ به منَ الهُدَى والعلْم، كمَثَلِ الغَيْث الكَثير أَصَابَ أَرْضاً، فَكَانَ منْها نَقيَّةٌ قَبلَت الماءَ، فأنْبَتَت الكَلأَ والعُشْبَ الكَثيرَ، وكانتْ منْها أَجَادبُ أَمْسكَت المَاءَ، فَنَفعَ اللهُ بهَا النَّاسَ، فَشَربُوا، وسَقَوْا، وزَرَعُوا، وأَصَابَتْ منْهَا طَائفةً أُخْرَى، إنَّمَا هىَ قيعَانٌ لا تُمْسكُ ماءً، ولا تُنْبتُ كلأً، فذَلكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فى دينِ الله ونَفعَهُ مَا بَعثَنى اللهُ به، فَعلمَ وعلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذى أُرْسلْتُ به».

قال أَبُو عَبْد الله: قال إسْحَاقُ: وكان منها طَائفَةٌ قَيَّلت المَاءَ، - قَاعٌ: يَعْلُوهُ الماءُ، والصَّفْصَفُ: المُسْتَوى منَ الأَرْضِ.

٧٥- فى هذا الباب بيان لفضل العالم والمعلم، بعد أن أورد فى الباب الذى قبله بيان حال العالم والمعلم.

ومعنى قوله: «باب فضل من علم» أى صار عالماً «وعلّم» أى علّم غيره من الناس العلم.

ومطابقة الحديث للترجمة واضحة، لأن الحديث في بيان فضل من باشر العلم والتعليم لقوله: «فعلمَ وعلّم» والباب معقود على ذلك.

روى هذا الحديث أبو موسى واسمه عبد الله بن قيس الأشعرى رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «مثلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم» يراد بالمثل الصفة العجيبة وليس المراد بالمثل القول السائر أى: أن الصفة العظيمة التى بعث بها رسول الله ﷺ للناس وما جاء هم به من الهدى وهى الدلالة التى تصل بالناس للقصد، والعلم وهو المدلول، ويراد به هنا الأحكام الشرعية التى جاء بها، ويحتمل أن يكون المراد بالهدى نفس العلم فتكون الكلمتان بمعنى واحد يشبه الرسول صفة هذا بصفة المطر الذى يأتى فى وقت يكون الناس فى أشد الحاجة إليه فأصاب أرضاً كان منها طائفة طيبة قبلت الماء أى شربت من القبول، وفى رواية «قيلت الماء» أى شربت القيل وهو مشرب نصف النهار، وقال البعض: هو تصحيف.

فأنبتت الكلأ وهو النبات يابساً ورطباً والعشب الكثير وهو الرطب منه فهو من عطف الخاص وهو العشب على العام وهو الكلأ «وكانت منها أجادب وهى التى لا تشرب ماء ولا تنبت» وهذه الأجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا دوابهم وزرعوا أرضاً تنبت ورعوا كما جاء فى بعض الروايات حيث نبت المرعى بسبب الماء.

وأصاب الغيث طائفة أخرى من الأرض هى عبارة عن قيعان من الأرض مستوية ملساء أو سبخة لا تمسك فوقها ماء فهذه الأقسام مثل من فقُه وصار فقيهاً فى دين الله تعالى، ونفعه ما جاء به الرسول ﷺ فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى جاء به رسول الله ﷺ، وعدم انتفاعه لتكبره وعدم التفاته لهدى الله تعالى.

فيُضرب هذا الحديث مثلاً لأنواع الناس بالنسبة لطلب العلم فيشبههم بالأرض ومعنى هذا التمثيل فى الحديث أن الناس كالأرض ثلاثة أنواع: فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر فتحيا بعد أن كانت ميتة، وتنبت الكلأ فينتفع به

= الناس والدواب والنوع الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم فيحفظه ويهدى قلبه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع وينفع.

والنوع الثانى من الأرض ما لا تقبل الانتفاع فى نفسها لكن فيها فائدة وهى إمساك الماء لغيرها فينتفع به الناس وكذلك النوع الثانى من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أذهان ثاقبة ولا رسوخ لهم فى العلم يستنبطون به المعانى والأحكام، وليس لهم اجتهاد فى العمل به فهم يحفظون حتى يجىء أهل العلم للنفع والانتفاع، فيأخذونه منهم، فينتفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم.

والثالث من الأرض هو السباخ التى لا تنبت فهى لا تنتفع بالماء ولا تمسكه لينتفع به غيرها وكذلك الثالث من الناس ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لنفع غيرهم فالأول : إشارة إلى العلماء، والثانى : إلى النقلة ، والثالث : إلى من لا علم له اهـ.

فالرسول ﷺ شبه فى هذا الحديث ما جاء به من الدين بالغيث العام الذى يأتى الناس فى وقت حاجتهم إليه، وكذلك كان الناس قبل مبعثه ﷺ ، فكما أن الغيث يحيى البلد الميت، فكذلك علوم الدين تحيى القلوب الميتة، ثم شبه السامعين له بالأراضى المختلفة التى ينزل بها الغيث ومعنى الهدى: الدلالة الموصلة للقصد، والعلم هو المدلول والمراد به هنا الأحكام الشرعية، ويحتمل أن يراد بالهدى العام نفسه فيكون من عطف المرادف وهما كلمتان بمعنى واحد.

ومعنى الغيث المطر الذى يغيث الناس لمجيئه عند شدة الحاجة إليه وجملة «فكان منها . .» فى محل نصب حال بتقدير «قد» والضمير فى «منها» يعود إلى الأرض. والنقية: هى الطيبة التى قبلت الماء فأنبتت الكلأ وهو النبات اليابس والرطب والعشب وهو الرطب منه، والأجادب جمع جدب بفتح الدال أو جديب من الجدب وهو القحط والأرض الجدبة: هى التى لا تشرب ماء ولا تنبت ومفعول شربوا: الماء، وسقوا دوابهم، وزرعوا أرضاً وأما الثالثة: وهو القيعان: فهى الأرض المستوية أو السبخة لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فالعالم العامل المعلم كالأرض الطيبة تشرب الماء فتنتفع فى نفسها وتنبت فتنفع غيرها وهذا هو النوع الأول.

= وأما الثانى : فهو الجامع للعلم الذى يستغرق زمانه فيه الذى يعلم غيره ولكنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع فهو كالأرض التى يستقر فيها الماء فينتفع الناس به ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسه لتكبره وعدم التفاته وهو الذى دخل فى دين الله ولم يسمع العلم أو سمعه ولم يعمل به ولم يعلمه فهو كالأرض السبخة التى لا تقبل الماء وتفسده على غيرها . ويحتمل أن يكون النوع الثالث إشارة إلى من لم يدخل فى الدين أصلاً ، بأن يكون بلغه فكفر به ، وهو كالأرض الصماء الملساء التى يمر عليها الماء فلا تنتفع به . والنوع الثانى الذى شبهه بالأرض التى يستقر عليها الماء لنفع الناس هو المشار إليه بقوله ﷺ فى الحديث الآخر : «نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فأداها كما سمعها» .

وتبين من أقسام الناس قسمان : أحدهما : الذى انتفع بالعلم فى نفسه ولم يعلمه غيره والثانى : من لم ينتفع به فى نفسه وعلمه غيره . قال العلماء : الأول داخل فى القسم الأول من الناس ، لأن النفع حصل فى الجملة وإن تفاوتت مراتبه وكذلك ما تنبته الأرض فمنه ما ينتفع الناس به ومنه ما يصير هشيماً وأما الثانى : فإن كان عمل الفرائض وأهمل النوافل فقد دخل فى النوع الثانى ، وإن ترك الفرائض فهو فاسق لا يجوز الأخذ عنه ، ولعله يدخل فى عموم من لم يرفع بذلك رأساً .

ما يؤخذ من الحديث

١ـ الدعوة إلى التفقه فى الدين، وإلى العمل بما يعلم الإنسان وإلى تعليم الغير، فالعلم يجب العمل به وتعليمه للغير تلك هى المرتبة العليا للعلماء والعاملين المعلمين.

٢ـ وأن الناس حيال العلم أنواع منهم من يعلم ويعمل ويعلّم، ومنهم من يحفظ ولا يستنبط ويستخرج الأحكام، ومن الناس من لا علم له ولا حفظ.

٣ـ أن خير الناس وأنفعهم هو العالم والمعلّم.

٤ـ فضل العلم ومكانة العلماء.

٥ـ الحث على نشر العلم وتبليغه.

٢١- باب
رفع العلم وظهور الجهل

وقال رَبيعَةُ : لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ عِنْدَهُ شَيءٌ مِنَ العِلْمِ أَن يُضَيِّعَ نَفْسَهُ .

٧٦ - حَدَّثَنَا عِمْرانُ ابنُ مَيْسَرَةَ قال : حَدَّثَنا عَبدُ الوارِثِ عنْ أَبي التَّيَّاحِ عن أَنَسٍ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إن منْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ . ويَثْبُتَ الجَهْلُ ، ويُشْرَبَ الخَمْرُ ، ويَظْهَرَ الزِّنَا » .

٧٦ـ في هذا الباب حثٌّ على طلب العلم وتعليمه ، لأن العلم لا يرفع إلا بقبض أهله وموتهم وهم العلماء ، فإذا وُجد من يتعلم العلم لا يحدث الرفع ، كما أن في الباب بياناً بأن رفع العلم من علامات القيامة .

وفي الحديث توضيح لبعض علامات يوم القيامة ، «إن من أشراط الساعة» أي من علامات قيام القيامة أن يرفع العلم ويكون رفع العلم بموت العلماء وليس برفعه من صدورهم ، كما جاء ذلك في حديث آخر أخرجه البخاري ـ بسنده ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء» .

«ويثبت الجهل» من الثبوت وهو ضد النفي ، وفي رواية عند مسلم : « ويبث الجهل » من البث ، وهو النشر أي ينتشر ويظهر .

«ويشرب الخمر» والمراد انتشار شرب الخمر وكثرة شربه ، فالمطلق هنا وهو شرب الخمر يحمل على المقيَّد فيما جاء عن قتادة : «ويكثر شرب الخمر» «ويظهر الزنا» أي يفشو ، فوجود كل واحد من الأمور الأربعة علامة لوقوع الساعة ، وقيل : مجموعها هو العلامة .

ما يؤخذ من الحديث

(١) بيان بعض علامات الساعة وهي : رفع العلم وثبوت الجهل وشرب الخمر وظهور الزنا .

(٢) اجتناب هذه الأمور حيث إن ارتكابها وإشاعتها إيذان بفساد الناس والدنيا ونهايتها .

٧٧ - حَدَّثنا مُسَدَّدٌ قال : حدَّثنا يَحْيى عن شُعْبَةَ عن قَتادَةَ عن أَنَسٍ قال : لأُحدِّثَنَّكُمْ حَديثًا لاَ يُحَدِّثُكم أَحَدٌ بَعْدى ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « مِنْ أَشْراطِ السَّاعَةِ أَنْ يَقِلَّ العِلْمُ ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ ، وَيَظْهَرَ الزِّنا ، وَتَكْثُرَ النِّساءُ وَيَقِلَّ الرِّجالُ ، حَتَّى يكونَ لِخَمْسينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الواحِدُ » .

٧٧ـ فى هذا الحديث يُقسم أنس رضى الله تعالى عنه ، لأن اللام فى قوله : «لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكم أحد بعدى» للقسم أى والله لأحدثنكم وأكّد القسم بالنون ، وحمل على أنه قاله لأهل البصرة فقد كان آخر من مات بها من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين. يقول أنس رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ أى سمعت كلامه يقول : «من أشراط الساعة أن يقل العلم» أى من علامات قيام القيامة قلة العلم ، وفى الحديث السابق «أن يرفع العلم» وذلك بقبض العلماء ، فلعل قلة العلم فى بداية ظهور علامات الساعة وأن رفع العلم عند الانتهاء أو أن يكون المراد بقلة العلم العدم.

«وأن يظهر الجهل» : لأنه إذا قل العلم أو رفع فلا شك فى انتشار الجهل «ويظهر الزنا» لقلة العلم وضعف الإيمان «وتكثر النساء» بسبب كثرة الفتن وقتل الرجال «ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» وكثرة النساء وقلة الرجال لكثرة القتل للرجال بسبب الفتن ، وقيل : هو إشارة إلى كثرة الفتوحات فتكثر السبايا فيتخذ الرجل الواحد عدة من الموطوءات وقيل : لكثرة ولادة الإناث أكثر من الذكور فى آخر الزمان .

وبسبب كثرة النساء وقلة الرجال تحدث الفوضى الأخلاقية بقلة العلم وظهور الجهل والزنا ، «حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» وهو من يقوم بأمر النساء ،

= ويحتمل أن يكون ذلك فى الزمان الذى لا يبقى فيه من يقول : الله الله ، فيتزوج الشخص الواحد بغير حصر جاهلاً الحكم الشرعى ، وإنما خص الحديث هذه الأمور الخمسة بالذكر ، لأن تحققها يدل على عدم قيام الضروريات الخمس التى يجب الحفاظ عليها فى جميع الشرائع والملل وهى : الدين والعقل والنفس والنسل والمال ، فرفع العلم يُخلُّ بحفظ الدين ، وشرب الخمر يخل بالعقل وبالمال ، وقلة الرجال بسبب القتل فى الفتن وظهور الزنا يخل بالنسب وأيضاً يخل بالمال .

وفى هذا البيان ما يدعو إلى الحفاظ على العلم والحرص على تعلمه وتعليمه وعلى تلك الضروريات والتمسك بالعبادات وبالأخلاق ، حتى لا يختل نظام الكون وحتى تقوم أمور الدين بين البلاد والعباد .

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن اختلال الضروريات الخمس الواجب رعايتها فى جميع الأديان من علامات الساعة .

(٢) توضيح العلامات من الرسول ﷺ لأمته لِتَتَنَبَّه ، ولتتقى الله ، ولتحذر الفتن .

(٣) الحث على تعلُّم العلم وتعليمه ، ونشره وتبليغه .

٢٢ - باب

فَضل العِــلْم

٧٨ - حَدَّثَنَا سَعِيدُ بنُ عُفَيْرٍ قال : حَدَّثَنِي اللَّيْثُ قال : حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ عَنِ ابنِ شِهَابٍ عن حَمْزَةَ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ أَنَّ ابنَ عُمَرَ قال : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ قال « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ ، فَشَرِبْتُ حَتَّى إِنِّي لأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي ، ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ، قالُوا : فما أَوَّلْتَهُ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : العِلْمَ » .

في التبويب بفضل العلم بيان لمعنى الفضل وهو الزيادة أى ما فضل عنه ، وأمّا ما مضى من قبل فالفضل بمعنى الفضيلة فلا تكرار في التبويب.

٧٨ـ في الحديث رؤيا لرسول الله ﷺ وهو نائم رأى فيها أنه أُتى بقدح لبن فشرب من اللبن حتى إنه رأى الرّىّ يخرج من أظفاره ، ثم أعْطَى ما فضل من القدح الذى شرب منه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فسأله الصحابة رضى الله عنهم أجمعين قائلين : فما أوّلته يا رسول الله؟ أى : ما فسرت هذا الذى رأيتَ؟ قال : العلْم ، وتفسير اللبن بالعلم لاشتراك العلم واللبن فى كثرة المنافع أما اللبن فمنافعه فى الجسد ، وللعلم منافعه فى الروح وتهذيب النفس.

وفى قوله ﷺ : «حتى إنى لأرى الرىَّ يخرج من أظفارى» مُعبِّرا بالفعل المضارع مع أن الرؤيا تمت ومضت ، فلم يقل : «رأيت الرى خرج» بل قال : «إنى لأرى الرىّ

يخرج» فآثر التعبير بالمضارع فى الموضعين، لاستحضار تلك الصورة العجيبة، كما نلاحظ فى قوله: «حتى إنى لأرى» أنه جعل الرىّ شيئاً منظوراً ويُرى مع أنه شيء لا يرى بالعين بل يحسه الإنسان، ولكن جاء التعبير هكذا تنزيلاً له منزلة الشيء المحسوس المرئى فشبَّه الرىّ بالجسم المرئى وأثبت الرؤية له.

وفى إعطاء رسول الله ﷺ فضله لعمر رضى الله عنه ما يدل ويشير إلى ما حصل لعمر رضى الله عنه من العلم بالله سبحانه وتعالى بحيث كان لا تأخذه فى الله لومة لائم.

وأما علم الرسول ﷺ فلا يبلغ أحد منتهاه، لأنه شرب حتى رأى الرى يخرج من أظفاره.

وإنما اختص عمر رضي الله عنه بذلك، لطول المدة التى مكثها بالنسبة للمدة التى استمر فيها أبو بكر، وباتفاق الناس على طاعته بالنسبة لعثمان.

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن رؤية اللبن فى الرؤيا خير وقال البعض: إن رؤية اللبن تدل على السنة والفطرة والعلم والقرآن.

(٢) فضل العلم ومكانته فى الإسلام.

(٣) فى الحديث منقبة عظيمة لعمر رضى الله عنه.

٢٣ - باب

الفُتْيَا وَهُوَ واقِفٌ على الدَّابَّةِ وغَيرِها

٧٩ - حَدَّثنَا إسْماعيلُ قال : حَدَّثَني مَالكٌ عن ابنِ شِهَاب عَنْ عيسَى ابنِ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْد الله عَنْ عَبْد الله بن عَمْرو بن العَاصِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ « وَقَفَ في حَجَّة الوَدَاع بمِنًى للنَّاسِ يَسْأَلُونَهُ ، فَجَاءَهُ رَجُل ، فقال : لَمْ أَشْعُرْ فَحلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ ، فقال : اذْبَحْ ولا حَرَجَ ، فَجاءَ آخَرُ فقالَ : لَمْ أَشْعُرْ ، فَنَحَرْتُ قبْل أَنْ أَرْمِيَ ، قال : ارْمِ ولا حَرجَ ، فما سُئلَ النبيُّ ﷺ عن شيءٍ قُدِّمَ ولا أُخِّر إلاَّ قال : افْعلْ ولا حرَجَ » .

في البـاب بيـان للفتـيـا والمفتي في حال الركوب على الدابة، ويقاس عليـها غيرها من الأحوال الأخرى، وفيه إشارة إلى جواز سؤال العالم وإن كان مشتغلاً راكباً وماشياً وواقفاً وعلى كل أحواله، والباب السابق كان في فضل العلم، وهذا الباب عن الفتيا وهي من العلم.

٧٩ـ ويوضح الحديث أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، ويستفسرون منه، وجملة «يسألونه» يصح أن تكون حالاً أي حال كونهم يسألونه أو على الاستئناف بياناً لعلة وقوفه ﷺ أي أنه وقف من أجل أن

= يتلقى أسئلة الناس ليجيب عليها «فجاءه رجل فقال : يا رسول الله لم أشعر » أى لم أفطن ولم أتذكر «فحلقت قبل أن أذبح» أى حلق شعره قبل أن يذبح هديه ، فأجابه الرسول ﷺ بقوله :

«اذبح ولا حرج » أى لا إثم عليك، فجاء آخر فقال: يا رسول الله «لم أشعر فنحرت قبل أن أرمى» أى نحر هديه قبل أن يرمى جمرة العقبة يوم النحر فقال له عليه الصلاة والسلام: «ارمِ ولا حرج» أى : ارم الجمرة ولا إثم عليك فى التقديم والتأخير.

«فما سئل النبى ﷺ عن شيء قُدم ولا أخر الا قال: «افعل ولا حرج» أى لا حرج فى التقديم والتأخير، وهذا مذهب الشافعى وأحمد وغيرهما، وقال مالك وأبو حنيفة: الترتيب واجب يجبر بدم لما روى ابن عباس رضى الله عنهما أنه ﷺ قال: «من قدم شيئاً فى حجه أو أخره فليهرق لذلك دماً» وأولوا حديث «افعل ولا حرج» على معنى: لا إثم فيما فعلتم عن جهل منكم للحكم دون قصد فعذرهم لنسيانهم وعدم معرفتهم بدليل قول السائل: «لم أشعر».

ما يؤخذ من الحديث

١ـ جواز سؤال العالم فى جميع الأحوال راكباً وماشياً وواقفاً.
٢ـ الأفضل فى أعمال الحج الترتيب خروجاً من الخلاف.
٣ـ لا حرج فى التقديم والتأخير فى الأمور المذكورة للتيسير.
٤ـ جواز الجلوس على الدابة أو نحوها من أى وسيلة أخرى أو مكان عَالٍ ليشرف على الناس ويسمعوا كلامه.

٢٤ - باب

مَنْ أَجَابَ الفُتْيَا بِإِشَارَةِ اليَدِ وَالرَّأْسِ

٨٠ - حَدَّثَنَا مُوسَى بنُ إِسْمَاعِيلَ قال : حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ قال : حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عن عِكْرِمَةَ عن ابنِ عَبَّاسٍ « أَنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ في حَجَّتِه ، فقال : ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ ، فأَوْمَأَ بِيَدِه ، قال : ولا حَرَجَ ، قال : حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ ، فأَوْمَأَ بِيَدِه ولا حَرَجَ » .

---

* هذا الباب يوضح بيان المفتى عندما يجيب بإشارة يده أو رأسه.

٨٠- يخبر ابن عباس رضى الله عنهما بأن النبى ﷺ سئل فى حجته وهى حجة الوداع وكان هذا فى منى يوم النحر فقال له السائل : ذبحتُ قبل أن أرمى ؟ فيريد أن يعلم هل عليه وزر؟ هل عليه شيء؟ فكانت الإجابة : «فأومأ الرسول ﷺ بيده قال : «لا حرج» أى أشار بيده للسائل، ويحتمل أن يكون التقدير : فأومأ بيده قائلاً : لا حرج، فجمع بين الإشارة والنطق.

قال : حلقت قبل أن أذبح؟ يحتمل أن يكون السائل عن هذا السؤال هو الأول ويحتمل أن يكون شخصاً آخر غيره، «فأومأ» أى أشار «بيده ولا حرج» وهذا من سماحة التشريع الإسلامى ويُسْره.

ما يؤخذ من الحديث

(١) لا شيء فى التقديم والتأخير .

(٢) جواز الافتاء والاستعانة فى الإجابة بإشارة اليد .

٨١ - حَدَّثنا المَكِّيُّ بنُ إبْرَاهيمَ قال : أَخبرنا حَنْظَلَةُ بنُ أبى سفْيَان عَنْ سَالمٍ قال : سَمعْتُ أَبا هُرَيْرَةَ عنِ النبيِّ ﷺ قال : « يُقْبَضُ العلْمُ ، ويَظْهَرُ الجَهْلُ ، وَالفتَنُ ، ويَكْثُرُ الهَرجُ ، قيلَ : يا رسـولَ الله : وما الهَرْجُ ؟ فقال هَكَذا بيَده ، فَحَرَّفَهَا ، كَأَنَّهُ يُريدُ القَتْلَ » .

٨١- يوضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه رفع العلم، وقبضه وأنه يكون بقبض العلماء وموتهم، فالمراد بقوله: «يُقبض العلم» أى يموت العلماء، والقبض هنا توضيح وبيان لما ورد فى الرواية الأخرى السابقة برفع العلم، ويترتب على قبض العلماء قبض العلم ورفعه، ويترتب على ذلك الجهل «ويظهر الجهل والفتن» وهو من ذكر اللازم بعد الملزوم لزيادة التوضيح والتأكيد، وفى رواية أخرى: «وتظهر الفتن» «ويكثر الهرْج» وهو اختلاط الأمر من كثرة الفتن، والمراد كثرة الشرور وهو بلغة الحبشة ولسانها: القتل« قيل : يا رسول الله وما الهرج؟ قال هكذا بيده فحرّفها كأنه يريد القتل» وتحريف اليد إشارة لضرب العنق وفى هذا التعبير اطلاق القول على الفعل.

ما يؤخذ من الحديث

(١) علَم من أعلام النبوة وإخبار بما سيحدث من الفتن.
(٢) التحذير من الفتن ما ظهر منها وما بطن.
(٣) قبض العلم بقبض العلماء.

٨٢ – حَدَّثنا مُوسَى بنُ إسْمَاعيل قال : حَدَّثنا وُهَيْبٌ قال : حَدَّثنَا هشَامٌ عنْ فَاطمَةَ عن أسْمَاءَ قالَتْ : أَتَيْتُ عائشَةَ ، وهْيَ تُصَلِّى ، فَقُلْتُ : مَا شَأْنُ النَّاس ؟ فَأَشَارَتْ إلَى السَّمَاء ، فَإِذَا النَّاسُ قيَامٌ ، فقالَتْ : سُبْحَانَ الله ، قُلْتُ : آيَةٌ ؟ فأَشَارَتْ برأْسها ، أى نَعَمْ ، فَقُمْتُ حَتَّى تَجَلاَّنى الغَشْىُ ، فَجَعَلْتُ أَصُبُّ على رَأْسى المَاءَ ، فحمدَ اللهَ عزَّ وجلَّ النبىُّ ﷺ ، وأَثْنَى عَلَيْه ، ثُمَّ قال : « مَا منْ شَىء لَمْ أَكُنْ أُريتهُ إلاَّ رَأَيْتُهُ فى مَقامى حَتَّى الجَنَّةَ والنَّارَ ، فَأُوحِىَ إلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فى قُبُوركُمْ ، مثْلَ – أَوْ قَريبَ – لا أَدْرى أَىَّ ذلكَ قالتْ أسْمَاءُ – منْ فتْنَة المَسيح الدَّجَّال ، يقالُ : مَا علْمُكَ بهذا الرَّجُل ، فَأَمَّا المُؤْمنُ – أو المُوقنُ ، لاَ أَدْرى بأَيِّهمَا قَالتْ أَسْمَاءُ فيقُولُ : هُوَ مُحمد رسُولُ الله جَاءنَا بالبينات والهُدَى ، فَأَجَبْنَا واتَّبَعْنَا ، هُوَ محمد ، ثلاثاً ، فيقالُ : نَمْ صَالحًا قَدْ عَلمْنَا إنْ كُنْتَ لَمُوقناً به ، وأَما المُنَافقُ – أَو المُرْتَابُ ، لاَ أَدْرى أَىَّ ذَلكَ قالتْ أَسْمَاءُ – فَيَقُولُ : لاَ أَدْرى ، سَمعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ » .

٨٢ـ تخبر السيدة أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها ذات النطاقين قالت أتيت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وهى تصلى ، أى حال كون السيدة عائشة رضى الله عنها تصلى ، فقالت لها : ما شأن الناس ؟ أى : لماذا كانوا قائمين فزعين ؟ فأشارت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى السماء ، تعنى بإشارتها كسوف الشمس ، فإذا الناس قيام ، ليؤدوا صلاة الكسوف كأنها نظرت من حجرة السيدة عائشة رضى الله عنها إلى من فى المسجد فوجدت الناس قائمين فى صلاة الكسوف .

فقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : سبحان الله فقالت لها السيدة أسماء رضى الله عنها : أية ؟ مستفهمة منها ، أى هل ما نرى آية وعلامة على عذاب الناس كالمقدمة ؟ أو علامة على قرب قيام القيامة ؟

فأشارت السيدة عائشة رضى الله عنها برأسها : أى نعم وهذا تفسير للإشارة ، قالت السيدة أسماء رضى الله عنها : فقمت فى الصلاة حتى علانى - أى غلبنى - وفى رواية : «تجلانى» «الغَشْىُ» بمعنى الغشاوة والغطاء الذى يشبه الإغماء ، قالت : «فجعلت أصب على رأس الماء» أى من أجل أن يذهب عنها ذلك .

وبعد الصلاة حمد الله النبى ﷺ وأثنى عليه ثم قال الرسول ﷺ : «ما من شىء لم أكن أريته إلا رأيته فى مقامى هذا حتى الجنة والنار» أى : .ما من شىء تصح رؤيته عقلاً مثل رؤية الحق تبارك وتعالى إلا رآه رؤية عينية حقيقية وهو فى مقامه هذا حتى الجنة والنار .

ثم وضح رسول الله ﷺ ما يتعرض إليه الناس من الفتن وأنه أوحى إليه أنهم يُفتنون فى قبورهم أى يختبرون فى قبورهم فتنة تقرب من فتنة المسيح الدجال ، فيقال لمن يفتن أو يختبر : ما علمك بهذا الرجل ، وفى هذا تفصيل فى الكلام لما سيحدث ، فأما المؤمن أو الموقن المصدق بنبوة الرسول ﷺ فيقول : هو محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات أى المعجزات الدالة على نبوته ، والهُدَى وهى الدلالة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة . «فأجبناه واتبعناه» أى آمنا به وبما جاء به وقبلنا وسمعنا وأطعنا «هو محمد ثلاثاً» أى أن المؤمن يقول ذلك ثلاث مرات تأكيداً لإيمانه ، فيقال : نم صالحاً قد علمنا أن كنت لموقناً به ، أى : ما كنت إلا مؤمنا صادق الإيمان موقناً .

«وأما المنافق» وهو الذى لم يصدق بقلبه أو المرتاب فيقول : «لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته» أى : قال ما قاله الناس ، ولم يكن لديه الإيمان ولا التصديق كشأن المؤمن .

ما يؤخذ من الحديث

١ـ إثبات عذاب القبر .

٢ـ ثبوت سؤال الملكين للميت فى القبر .

٣ـ من شك فى رسالة رسول الله ﷺ فهو كافر .

٤ـ وأن الغشْى أى الإغماء لا ينقض الوضوء إذا ظل العقل باقياً .

٥ـ أن الجنة والنار مخلوقتان

٦ـ أن الصلاة لا تبطل بالعمل اليسير ، حيث أشارت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى السماء وهى تصلى .

٧ـ استحباب صلاة الكسوف .

٨ـ ثبوت نعيم القبر وعذابه .

٩ـ نجاة المؤمن الصالح من عذاب القبر .

١٠ـ ثبوت عذاب الكافر والمنافق .

١١ـ الإشارة بالرأس فى الإجابة حيث أشارت السيدة عائشة برأسها أى نعم عندما سألتها السيدة أسماء : «آيةٌ» وفيها مطابقة لما جاء فى الترجمة والتبويب «باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس» .

٢٥ - باب

تَحْرِيضِ النبيِّ ﷺ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ على أَنْ يَحْفَظُوا الإيمانَ والعِلْمَ، ويُخْبِرُوا مَنْ وَرَاءَهُمْ، وقال مالكُ بنُ الحُوَيْرِث: قال لَنَا النَّبيُّ ﷺ: ارْجِعُوا إلى أَهْلِيكُمْ، فَعَلِّمُوهُمْ.

٨٣ - حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ بَشَّارٍ قال: حَدَّثَنا غُنْدَرٌ قالَ: حَدَّثَنا شُعْبَةُ عن أبي جَمْرَةَ قال: كُنْتُ أُتَرْجِمُ بَيْنَ ابنِ عَبَّاسٍ وبَيْنَ النَّاس، فقالَ: «إنَّ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ أَتَوُا النَّبيَّ ﷺ، فقال: مَنِ الوَفْدُ؟ - أَوْ مَنِ القَوْم؟ - قالوا: ربيعة فقال: مَرْحباً بالقومِ - أَوْ بالوفد غَيْرَ خزايا، ولا نَدَامَى، قالُوا: إنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ، وبَيْنَنَا وبَيْنَكَ هذا الحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، ولاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إلاَّ في شَهْرٍ حَرَامٍ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نُخْبِرْ بِه مَنْ وَرَاءَنا، ندخُلُ بِه الجَنَّة، فَأَمَرَهُم بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بالإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، قال: هَلْ تَدْرُونَ مَا الإيمانُ بالله وحْدَهُ؟ قالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قالَ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِله إلاَّ الله، وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، وإِقَامُ الصَّلاَة، وإِيتَاءُ الزَّكَاة، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وتُعْطُوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ، ونَهَاهُمْ عن الدُّبَّاءِ، والحَنْتَم، والمُزَفَّت، قَالَ شُعْبَةُ: رُبَّمَا قال: النَّقِيرِ، وَرُبَّما قال: المُقَيَّر، قال: احْفَظُوهُ وأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُمْ».

---

* هذا الباب في توضيح تحريض النبي ﷺ أي حثه وفد عبد القيس على أن =

= يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا مَنْ وراءهم وقد مر هذا الحديث وشرحه فى باب أداء الخمس من الإيمان وفيه السؤال والجواب ولا يخلوان من الحث على العلم، لأن السؤال والجواب تعلّم وتعليم وفيهما حث على العلم وتحريض عليه.

٨٣ ـ وتتضح مطابقة هذا الحديث للترجمة حيث أمر الرسول ﷺ الوفد بعد أن وجهوا أسئلتهم إليه وأجابهم على جميع ما سألوه عنه فقال لهم: «احفظوه وأخبروه مَنْ وراءكم» ففى هذا تحريض لهم على أن يحفظوا الإيمان والعلم، وما أمرهم به وما نهاهم عنه، وألا يكتفوا بتعلمهم ومعرفتهم، بل عليهم أن يخبروا مَنْ وراءهم، وأن يرجعوا إلى أهليهم وأن يعلموهم، لينشروا العلم وليبلغوا ما عرفوه وما سمعوه من رسول الله ﷺ.

وإنما أجاب وفد عبد القيس الرسول ﷺ عندما سألهم من الوفد؟ بقولهم: ربيعة، لأن عبد القيس من أولاده فعبَّر باسم الكل عن البعض، ومعنى قولهم: «إنا نأتيك من شقة بعيدة» أى من سفر بعيد، والشُّقّة: البُعد أو الناحية يقال: هذا بعيد الشقة أى بعيد السفر وقد سألوا رسول الله ﷺ عما يدخلهم الجنة قالوا: «فمُرْنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده ثم فسره لهم قائلاً: هل تدرون ما الإيمان بالله وحده. قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة ألا إله الا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وتعطوا الخمس من المغنم، وإنما أمرهم بالإيمان مع أنهم كانوا مؤمنين ليعلمهم أن العمل من الإيمان، ونص على الخمس، لأنهم كانوا أهل حرب وجهاد، ولم يذكر الحج، لأنه أراد توضيح ما يمكنهم أن يفعلوه فى الحال، ولم يقصد إعلامهم بجميع ما يجب عليهم فعله وتركه، تقديماً للأهم وعملاً بالتدرج معهم.

ونهاهم عن الانتباذ فى تلك الأوعية، واقتصر عليها لكثرة تعاطيهم لها.

ولم يذكر الحج، لأنه قصد ما يمكنهم أن يؤدوه فى الحال، أو لكونهم لم يستطيعوه من أجل كفار مضر أو لأنه على التراخى.

ونهاهم عن الانتباذ في الدباء وهو القرع اليابس والنَّقِير وهو ما ينقر في أصل النخلة فيجعل كالوعاء ينبذ فيه العصير ، وفي المزفّت أي ما طلى بالزفت أو المقير أي ما طلى بالقار وهو نبت يحرق إذا يبس يطلى به السفن وغيرها .

ما يؤخذ من الحديث

(١) استعانة العالم في تفهيم الحاضرين والفهم عنهم .
(٢) لا يكره الثناء على الإنسان في وجهه إذا لم يُخْشَ عليه الإعجاب بالنفس .
(٣) الأمر بالإيمان والعمل .
(٤) الانتهاء عن الأمور المذكورة .
(٥) تعلم العلم والتحريض على تعليمه ونشره
(٦) التحريض على حفظ الإيمان والعلم والتبليغ وقد مرّ شرحه مفصلاً قبل ذلك .

٢٦.باب

الرِّحْلة فِي المَسْأَلةِ النَّازِلَةِ، وتَعْلِيمِ أَهْلِهِ

٨٤ ـ حدثنا محمَّد بن مُقَاتِلٍ أَبُو الحَسَنِ قال: أَخْبرنا عَبْدُالله قَالَ: أَخْبرنَا عُمَرُ بنُ سَعِيد بنِ أَبِي حُسَيْنٍ قال: حدَّثني عَبْد الله بنُ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ عُقْبةَ بنِ الحَارِث «أَنَّهُ تزَوَّجَ ابْنَةً لأَبِي إِهَاب بنِ عَزِيزٍ، فأَتَتْهُ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ والَّتِي تزوَّجَ، فقال لَها عُقْبَةُ: ما أَعْلَمُ أَنَّكِ أَرْضَعْتِنِي ولا أَخْبرْتِنِي، فَرَكِبَ إِلَى رسول الله ﷺ بالمَدِينَة فَسَأَلَهُ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ؟ فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ، ونَكَحَتْ زَوْجاً غَيْرَهُ».

يراد بباب الرحلة فى المسألة النازلة: الارتحال للعلم من أجل طلبه فى بعض المسائل الخاصة التى تنزل بالإنسان، وما سبق من الخروج فى طلب العلم كان عاماً فى تحصيله، ويتضح هذا الأمر بما جاء فى الحديث: «فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة».

٨٤ـ وفى الحديث أن عقبة بن الحارث تزوج ابنة لأبى إهاب بن عزيز ويقال إن اسم ابنته «غنية» وكنيتها «أم يحيى» فأتته امرأة فقالت: إنى أرضعت عقبة والتى تزوج بها، فقال لها عقبة: ما أعلم أنك أرضعتنى ولا أخبرتنى، فأراد عقبة أن يستوثق للحكم فرحل من أجل هذه المسألة إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فسأله عن حكم هذه المسألة، فقال رسول الله ﷺ: «كيف وقد قيل»؟ ففارقها.

ومعنى العبارة: كيف يستمر زواجك بها وكيف تفضى إليها وقد قيل: أنك أخوها من الرضاعة؟ إنها إذاً لا تحل له، فبادر عقبة ففارقها أو طلقها، أخذاً بالأحوط، فليس قول امرأة واحدة شهادة يحكم بها، لكن عمل بظاهر هذا الحديث الإمام أحمد فقال: الرضاع يثبت بشهادة المرضعة وحدها بيمينها، ونكحت «غنية» زوجاً غيره، هو ظريب بن الحارث.

ما يؤخذ من الحديث

(١) الرحلة فى المسألة النازلة من أجل التعرف على الحكم فيها.
(٢) تجنب مواقف الريبة والتهم.
(٣) احتج بهذا الحديث من أجاز شهادة المرضعة وحدها، وأما من منع شهادة الواحدة فحمل هذا الحديث على الورع دون التحريم.
(٤) عند الإمام أحمد يثبت الرضاع بشهادة المرضعة وحدها ويرى البعض بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين وعند الشافعى بأربع نسوة وعند مالك بامرأتين.

٢٧.باب

التَّناوُب فِى العِلْم

٨٥ ـ حدثنا أَبُو اليَمَان أخبرنَا شُعَيْبٌ عنِ الزُّهْرِىِّ، ح.

قال أَبُو عَبْدالله: وقال ابنُ وهْبٍ: أَخْبرنا يُونُسُ عنِ ابنِ شهَابٍ عنْ عُبَيد الله بنِ أَبِى ثَوْرٍ عنْ عَبد الله بن عبَّاس عنْ عُمَرَ قال: «كُنْتُ أنا وجارٌ لِى منَ الأَنْصارِ فى بَنِى أُمَيَّةَ بنِ زيْد، وَهْىَ منْ عَوَالى المَدينَة، وكُنَّا نَتَناوَبُ النُّزُولَ علَى رسول الله ﷺ، يَنْزِلُ يوْماً وأَنْزِلُ يوْماً، فإذا نزَلْتُ جِئْتُهُ بخَبَرِ ذلك اليوْمِ من الوَحْىِ وغَيْرِه، وإذا نزل فَعَل مثْلَ ذَلكَ، فنزَلَ صَاحبى الأَنْصَارِىُّ يوْمَ نوْبَته، فَضَربَ بَابِى ضَرْباً شَديداً، فقال: أَثَمَّ هُوَ؟ ففَزِعْتُ، فَخرَجْتُ إِلَيْه، فقال: قَدْ حَدَثَ أَمرٌ عَظِيمٌ. قال: فَدَخلْتُ علَى حَفْصَةَ، فإِذَا هىَ تَبْكِى، فَقُلْتُ: طَلَّقَكُنَّ رسولُ الله ﷺ؟ قالَتْ: لاَ أَدْرِى، ثُمَّ دَخلْتُ علَى النبىِّ ﷺ، فقُلْتُ، وأَنَا قَائمٌ: أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ قال: لاَ، فقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبرُ».

فى هذا الباب توضيح للمشاركة فى أخذ العلم فالتناوب «تفاعل» وهذه الصيغة تفيد الاشتراك فى تلقى العلم وأخذه بأن يقوم كل واحد مقام الآخر، حرصاً على الطلب وحتى لا يفوت شيء من العلم إذا ما غاب طرف وُجد الآخر

= حرصاً على تلقى العلم، ويأخذ من لم يحضر ممن حضر ما كان قد فاته.

٨٥- يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه «كنت أنا وجار لى من الأنصار».

- وهذا الجار هو عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الخزرجي «فى بنى أمية» أى فى مكان يسمى باسم من نزله وهم من بنى أمية، فسمى المكان باسم هذه القبيلة، وهى قبيلة بنى أمية بن زيد.

(وهى من عوالى المدينة) وعوالى المدينة: هى قرى قريبة من مدينة رسول الله ﷺ من فوقها من جهة الشرق، وأقرب العوالى إلى المدينة على ميلين أو ثلاثة أميال وأربعة وأبعدها ثمانية.

وكان عمر رضى الله عنه وجاره يتناوبان النزول من العالية لسماع ما نزل من وحى ولغيره من العلم من رسول الله ﷺ وكل واحد منهما يجىء الآخر بما سمع من الوحى وغيره، فنزل الأنصارى يوم نوبته، فسمع أن رسول الله ﷺ اعتزل نساءه أمهات المؤمنين، فنزل الأنصارى يوم نوبته، فضرب باب دار عمر ضرباً شديداً فقال: أثَمَّ هو؟ إشارة إلى المكان البعيد قال عمر رضى الله عنه: ففزعت: أى خفتُ لكون الضرب شديداً وعلى خلاف العادة، ثم لما حُكى أنهم كانوا يتخوّفون ملكاً من ملوك غسان يريد أن يسير إليهم فتوهم أن يكون جاء إلى المدينة فقال: حدث أمر عظيم، وظن أن رسول الله ﷺ طلّق نساءه فجاء عمر من العوالى ودخل على حفصة ابنته وهى أم المؤمنين فإذا هى تبكى فقلت: طلقكن رسول الله ﷺ؟ قالت حفصة: لا أدرى ثم دخل على رسول الله ﷺ وسأله: أطلّقت نساءك؟ قال عليه الصلاة والسلام: «لا» فقال عمر رضى الله عنه: الله أكبر، تعجباً من ظن الأنصارى أن اعتزاله للنساء طلاق لهن.

ما يؤخذ من الحديث

(١) قبول خبر الواحد، والعمل بمرسل الصحابة.

(٢) على طالب العلم ألا يتهاون فى طلبه وألا يغفل عن أمر معاشه ليستعين على طلب العلم وغيره مع تداركه لما يفوته بسبب غيابه.

(٣) جواز ضرب الباب ودقّه.

(٤) جواز دخول الآباء على بناتهم المتزوجات بغير إذن الأزواج.

(٥) الحرص على طلب العلم والتناوب فى أخذه وتلقّيه والعناية فى تحصيله.

٢٨. باب

الغَضَبِ فِى المَوْعِظَةِ والتَّعْلِيمِ إِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ.

٨٦ - حدثنا مُحَمَّدُ بنُ كَثِيرٍ قال: أَخبرنا سُفْيَانُ عنِ ابنِ أَبى خَالدٍ عنْ قَيْسِ بنِ أَبى حَازِمٍ عن أَبى مَسْعُودٍ الأَنْصارىِّ قَالَ: قال رَجُلٌ: يارسولَ الله، لا أَكَادُ أُدْرِكُ الصَّلاَةَ ممّا يُطَوِّلُ بنَا فُلاَنٌ. فَمَا رَأَيْتُ النبىَّ ﷺ فى مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَباً من يَوْمئذ، فقال: «أَيُّها النَّاسُ، إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ، فَمَنْ صَلَّى بالناسِ فَلْيُخَفِّفْ، فإِنَّ فِيهِم المَرِيضَ والضَّعِيفَ وَذَا الحاجَةِ».

---

* هذا الباب فى بيان لما يكون لمن يدعو ويعظ من انفعال وغضب إذا رأى القائم بالتعليم أو الوعظ ما يكرهه، إذ فيه التأثر مما يرى والتأثير على الذين يعلمهم أو يعظهم.

٨٦- فى هذا الحديث يخبر أبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى الخزرجى البدرى رضى الله عنه أن رجلاً هو حزم بن أبى كعب قال: «يا رسول الله لا أكاد أدرك الصلاة مما يطوّل بنا فلان» والمقصود بفلان الإمام الذى كان يصلى بهم آنئذ وهو معاذ بن جبل رضى الله عنه وفى رواية أخرى بلفظ: «لأتأخر عن الصلاة» وهذه الرواية الأخرى تفسر المراد من الرواية التى معنا بمعنى أن تطويل الإمام كان سبباً فى تأخير الرجل عن حضوره مع الجماعة فى أول الوقت فكان يتأخر من أجل تطويل الإمام.

وقد يُفهم من الحديث أن المأموم إذا اعتاد التطويل من الإمام لم يعد المأموم =

يبادر ويسرع بل يتباطأ ركوناً إلى تطويل الإمام وحصول الإدراك فيتأخر بسبب ذلك.

قال أبو مسعود راوى الحديث: فما رأيت النبى ﷺ فى موعظة أشد غضباً من يومئذ فقال: «أيها الناس إنكم منفرون» أى تنفّرون الناس من صلاة الجماعة وجاء خطابه ﷺ عاماً على عادته الحسنة فى عدم تحديد الشخص الذى كان سبباً فلم يخاطب المطول بل خاطب عامة الناس من حسن توجيهه وسماحته ثم وجه من صلى إماماً بالناس أن يخفف، لأن فيهم المريض والضعيف والمسن وصاحب الحاجة وهذه الأعذار الثلاثة وهى: المرض، والضعف والحاجة تجمع أسباب التخفيف، لأنها إما أن تكون فى ذات الشخص كالضعف أو تكون عارضة عليه كالمرض أو لا كالحاجة.

ويرى بعض العلماء أن الأمر فى قوله: «فليخفف» للندب، أى التخفيف مندوب وليس واجباً.

ويرى البعض أن الأمر للوجوب، لئلا يترتب على التطويل الإخلال ببعض الصلاة أو سننها.

وفى قوله «فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة» الفاء للسببية فالجملة لبيان الحكمة وللتعليل أى عليه أن يخفف لأن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة وهذا الوصف الأخير وهو «ذو الحاجة» يشمل الأوصاف المذكورة وغيرها فهو من عطف العام على الخاص.

وإذا كان هذا التوجيه من رسول الله ﷺ بقوله، فإنه قد طبقه بفعله فكان يختصر الصلاة إذا سمع بكاء طفل صغير رحمة بأمه، وكان لا يطيل فى الصلاة، فكان يؤدى بسلوكه وقدوته ما يوجه المسلمين إليه.

ما يؤخذ من الحديث

(١) التأثر فى الموعظة أو الانفعال فى التعليم إذا رأى العالم أو الواعظ ما يكره.

(٢) التخفيف فى صلاة الجماعة بشرط عدم الإخلال بها.

(٣) كريم سجايا رسول الله ﷺ وسماحة منهجه فى التعليم حيث لا يسمى من يوجهه ستراً عليه.

(٤) مراعاة الإمام لأحوال المأمومين وتخفيفه فى صلاة الجماعة إلا إذا كان الذين وراءه راضين بالتطويل.

(٥) صلاة الجماعة ليست فرض عين.

(٦) جواز الإنكار على من ارتكب ما ينهى عنه وإن كان مكروهاً غير محرم.

(٧) جواز الغضب لما ينكر من أمور الدين.

(٨) قال النووى: فيه جواز التأخر عن صلاة الجماعة إذا علم من عادة الإمام التطويل الكثير.

٨٧ـ حدثنا عَبْدُ الله بنُ مُحمد قال: حدثنا أبو عَامِر قال: حدثنا سُلَيْمانُ بنُ بلالٍ المَدينيُّ عنْ رَبيعَةَ بنِ أبي عَبْدِ الرَّحْمنِ عنْ يَزِيدَ مَوْلَى المُنْبَعِثِ عنْ زَيْدِ بنِ خَالد الجُهَنِيُّ «أنَّ النبيَّ ﷺ سَألَهُ رَجُلٌ عنِ اللُّقَطَة؟ فقال: اعْرِفْ وِكاءَها ـ أو قال وِعَاءَهَا ـ وَعِفَاصَهَا، ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً، ثُمَّ اسْتَمْتِعْ بِهَا، فَإنْ جَاءَ رَبُّها فأدِّهَا إليه، قال: فَضَالَّةُ الإبلِ؟ فَغَضِبَ حَتَّى احمرتْ وَجْنَتَاهُ ـ أو قال: احْمَرَّ وَجْهُهُ ـ فقال: ومَالَكَ ولَهَا، مَعَهَا سِقَاؤهَا وَحِذَاؤُها، تَرِدُ الماءَ، وتَرْعَى الشَّجَرَ، فَذَرْهَا حَتَّى يَلْقَاها رَبُّها، قال: فَضَالَّةُ الغَنَمِ؟ قال: لَكَ أوْ لأخيك أو للذِّئْبِ».

٨٧ـ سأل رجل رسول الله ﷺ عن حكم اللقطة، وهذا الرجل قيل: هو عمير والد مالك وقيل: بلال مؤذن الرسول ﷺ وقيل: هو زيد بن خالد الجهني.

واللقطة- لغة: الشيء الملقوط من الأرض وشرعاً: ما وجد من حق محترم غير محرز ولا يعرف واجده صاحبه، أو هي كل ما ضاع من الناس دون معرفة مالكه.

وقد أجاب رسول الله ﷺ من سأله عن اللقطة بقوله: «اعرف وكاءها» وهو ما تربط به من خيط أو حبل أو نحو ذلك. أو قال «وعاءها» أي ظرفها وما هي موجودة فيه من إناء ونحوه. أو «عفاصها» وهو الإناء أيضاً، أو هو الجلد الذي يلبس رأس القارورة.

وإنما أمره الرسول ﷺ بمعرفة هذه الأمور ليميزها عن ماله الخاص حتى لا تختلط بماله وليكون عارفاً لأوصافها إذا جاءه من يدّعي أنه صاحبها فيكون على يقين من صدقه أو كذبه حسب وصفه لها ولتلك العلامات الدالّة عليها، وذلك قبل أن يعرّفها، ومعرفة ذلك مندوبة على الراجح عند الشافعية.

ثم قال له بعد ذلك: «ثم عرّفها سنة» وهذا التعريف واجب على من وجدها وأخذها، وإن لقطت لحفظ على الراجح.

وطريقة التعريف أن يُعرّفها أولاً: كل يوم مرتين في أول النهار وفي آخره لمدة أسبوع، ثم بعد ذلك يُعرّفها كل يوم مرة طرف النهار لمدة أسبوع أو أسبوعين، ثم يُعرّفها بعد ذلك كل أسبوع مرة أو مرتين إلى مدة سبعة أسابيع ثم كل شهر إلى آخر السنة.

ويندب أن يذكر بعض صفاتها ولايذكر جميع صفاتها حتى لا يأتي كاذب يدعي أنه صاحبها.

ثم قال بعد ذلك: «ثم استمتع بها» أي يستفيد منها إلى أن يظهر صاحبها فإن ظهر صاحبها ومالكها فعليه أن يعطيه إياها.

فإن لقطت لحفظ أولتملك أو لم يرض المالك ببدلها فإن رضي به رد بدلها من مثل أو قيمة.

أما إن تلفت وكان قد لقطها لحفظها ضاعت على مالكها أو لتملك غرم الملتقط بدلها وقت التملك.

ثم سأل الرسول ﷺ عن حكم ضالة الإبل؟ فغضب الرسول ﷺ حتى احمرت وجنتاه، والوجنةُ: ما علا وارتفع من الخد، أو قال احمّر وجهه وسبب غضبه سوء الفهم من السائل وقصر الفهم حيث قاس الشيء على غير ما يماثله فلا يكون حكمه مثله، ولذا كان الجواب أن قال له:

«مالك ولها» أي: ما تصنع بها ولِمَ تأخذها؟

«معها سقاؤها» أي: الماء الذي تختزنه الإبل في جوفها فيكفيها أياماً كثيرة «وحذاؤها» وهو خفّ الإبل الذي تمشي عليه «تردُ الماء» أي تذهب إليه وتشربه «وترعى الشجر» أي: تأخذ منه وتأكل ما تحتاجه «فذرها» أي فدعها واتركها حتى يأتي مالكها فيأخذها، والفاء في جواب شرط محذوف تقديره: إذا كان الأمر كذلك فدعها.

قال: فضالّة الغنم؟ أي: ما حكم ضالة الغنم؟ هل هي مثل الإبل أم لا؟ فأجابه

= عليه الصلاة والسلام بقوله: «لك أو لأخيك أو للذئب» ومعنى «لك» أى إذا أخذتها «أو لأخيك» أى إذا تركتها وجاء غيرك فأخذها من اللاقطين لمثلها «أو للذئب» إذا لم يأخذها أحد فهى بصدد أن يأكلها الذئب وتكون نهباً للضياع وفى هذا ما يدل على الإذن فى أخذها دون ضالة الإبل التي قال عنها: «ما لك ولها..» ومثل ضالة الغنم كل ما لا يمتنع من صغار السباع كعجل أو فصيل ونحو ذلك.

ما يؤخذ من الحديث

(١) معرفة أوصاف اللقطة.

(٢) وجوب تعريف اللقطة لمدة سنة.

(٣) إعطاء اللقطة لصاحبها إن ظهر بعد ذلك.

(٤) لا تؤخذ ضالة الإبل وهو قول الشافعى ومالك وأحمد وعند الأحناف: يصح التقاط البهيمة مطلقاً من أى جنس كان لأنها مال يتوهم ضياعه والحديث محمول على ما كان فى ديارهم إذ كان لا يخشى عليها من شىء.

٨٨- حَدَّثنا مُحمَّدُ بنُ العَلاءِ قال: حَدَّثنا أبو أُسامَةَ عن بُرَيْدٍ عنْ أَبي بُرْدَةَ عن أَبي مُوسَى قَالَ: سُئِلَ النبيُّ ﷺ عَنْ أَشْيَاءَ كَرِهَهَا ؟ فَلَمَّا أُكْثِرَ عليه غَضِبَ، ثُمَّ قال للنَّاسِ: سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ، قال رَجُلٌ: مَنْ أَبي ؟ قال: أَبُوكَ حُذَافَةُ، فَقَامَ آخَرُ فقال: مَنْ أَبي يا رسولَ الله ؟ فقال: أَبُوكَ سَالِمٌ مَوْلَى شَيْبَةَ، فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا فِي وَجْهِهِ قال: يا رسولَ اللهِ إِنَّا، نَتُوبُ إِلَى اللهِ عزَّ وجَلَّ ».

٨٨- سئل النبي ﷺ عن أشياء كره السؤال عنها، لما يترتب على السؤال من تحريم شيء على الناس فتكون في ذلك المشقة وكان من بين ما سئل عنه: قيام الساعة، فلما أكثر الناس السؤال عليه غضب لتشدّدهم على أنفسهم في المسألة وهو الذى نصحهم وقال لهم: ذروني ما تركتكم.

ثم قال للناس «سلوني عما شئتم» فقال رجل وهو عبد الله بن حذافة السهمى المهاجرى: من أبى يا رسول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام: أبوك حذافة، وفي بعض الروايات أنه كان يدعى لغير أبيه ولما سمعت أمه سؤاله قالت: ما سمعت بابن أعق منك، أأمنت أن تكون أمك قارفت ما يقارف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟

فقال: والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقت به، فقام آخر فقال: من أبى يا رسول الله؟ فقال: أبوك سالم مولى شيبة بن أبى ربيعة، وكان سبب السؤال هو طعن بعض الناس فى نسبه على عادة الجاهلية.

وإنما علم رسول الله ﷺ والد كل من الرجلين «عبد الله بن حذافة» وسعيد بن سالم إما بالوحى وهذا هو الظاهر أو بحكم الفراسة أو بالقياس أو بالاستلحاق.

فلما رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما فى وجه رسول الله ﷺ من أثر الغضب قال: يا رسول الله إنَّا نتوب إلى الله عز وجل أى مما يغضبك، وفى بعض =

= الروايات أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه برك على ركبتيه وقال : «رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً فسكت» وسكن غضب الرسول ﷺ وذلك لما سمعه من عمر رضى الله عنه وحسن إجابته .

فقد كان صلوات الله وسلامه عليه رؤوفاً رحيماً بأمته لا يحب أن يكثروا من الأسئلة عن الأمور التى ربما تجب عليهم فيشق عليهم أداؤها .

ما يؤخذ من الحديث

(١) الغضب فى الموعظة والتعليم من الواعظ والمعلم إذا رأى ما يستدعى ذلك .. أما الحكم فلا يحكم الحاكم وهو غضبان والفرق بين الواعظ أو المعلم ، وبين الحاكم هو أن الواعظ من شأنه أن يكون فى صورة الغضبان عندما يرى أمراً يجب إنكاره ، لأنه فى صورة المنذر وكذلك الحال أيضاً بالنسبة للمعلم إذا أنكر على من يتعلم منه سوء فهم أو نحو ذلك لأنه قد يكون أدعى للقبول منه والحاكم بخلاف ذلك .

(٢) كراهة السؤال حين لا تكون إليه حاجة أو حين يتسم بالتعنت .

(٣) معجزة النبى ﷺ ومعرفته لأنساب البعض والإخبار بالحقيقة .

(٤) فهم سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفضل علمه وحكمته .

٢٩ - باب

مَنْ بَرَكَ على رُكْبَتَيْهِ عِنْدَ الإمام أوِ المُحَدِّث .

٨٩ - حَدَّثَنا أبُو اليَمَانِ قال : أخبرنا شُعَيْبٌ عَن الزُّهْرِيِّ قال : أخبرني أَنَسُ بنُ مالك « أنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرجَ، فَقامَ عبدُالله بنُ حُذَافَة، فَقالَ : مَنْ أَبي ؟ فَقالَ : أَبُوكَ حُذَافَةُ ، ثُمَّ أكْثَرَ أنْ يَقُولَ : سَلُوني ، فَبَرَكَ عُمَرُ على رُكْبَتَيْه فقال : رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا ، وبالإسْلامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّد ﷺ نَبِيًّا ، فَسَكَتَ » .

٨٩ـ هذا التبويب فيه بيان لأدب المتعلم عند العالم حيث مَنْ برك على ركبتيه يكون محافظاً على آداب المتعلم ويدل على إقباله على العلم وإجلاله لمن يتعلم منه خاصة عندما يكون عند الإمام أو المحدث.

وقد سبق بيان سؤال عبد الله بن حذافة، وإجابة الرسول ﷺ عليه، ثم أكثر أن يقول: «سلوني» فبرك عمر رضى الله عنه على ركبتيه فقال «رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً فسكت» لأن عمر رضى الله عنه فهم أن هذه الأسئلة قد تكون على سبيل التعنّت أو الشك، فخاف أن تنزل عقوبة بسبب ذلك فقال: «رضينا بالله رباً..» فرضى النبى ﷺ بذلك فسكت.

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز الجلسة مع المعلم كالهيئة الواردة فى الحديث «من برك على ركبتيه».

(٢) كراهة السؤال الذى يكون من شأنه التشديد أو التعنت.

(٣) الغضب فى الموعظة أو التعليم إذا رأى المعلم أو الواعظ ما يدعو إلى ذلك.

(٤) منقبة عظيمة لسيدنا عمر رضى الله عنه.

٣٠ - باب

مَنْ أَعادَ الحَديثَ ثلاثاً لِيُفْهَمَ عنه ، فقال : « أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ » فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا ، وقال ابنُ عُمَرَ : قال النبيُّ ﷺ : « هَلْ بَلَّغْتُ ؟ ثَلاثًا » .

٩٠ - حَدَّثَنا عَبْدَةُ قال : حَدَّثَنا عَبْدُ الصَّمَدِ ، قال : حَدَّثَنا عبْدُ اللهِ ابنُ المُثَنَّى قال : حَدَّثَنا ثُمَامَةُ بنُ عَبْدِ اللهِ عن أَنَسٍ عن النبيِّ ﷺ « أَنَّهُ كان إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثَلاَثًا ، وإِذَا تَكلَّمَ بكَلِمَةٍ أَعَادَها ثَلاَثًا » .

٩٠ـ إعادة الحديث ثلاث مرات ليُفهم أو ليُفهم المتحدث غيره، فقد يكون من الحاضرين من يقصر فهمه فيكرر الحديث له أو ليؤكد فى التعليم والفهم والحفظ وحتى لا يفوت السامع شىء.

وجاء المصنف بمثالين لحديثين فيهما الإعادة للحديث ثلاث مرات فى حديث: « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وجلس وكان متكئاً، فقال: ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» رواه البخارى.

وفى حديثه فى حجة الوداع، وقوله: «ألا هل بلغت» ثلاثاً.

فقد كان منهج رسول الله ﷺ فى تعليم المسلمين، وفى السلام للاستئذان أن يكرر ذلك ثلاث مرات.

فكان إذا سلم سلم ثلاثاً، وهذا السلام يحتمل أمرين:

الأول: للداخل على القوم لزيارتهم.

الثانى: عند الاستئذان أولاً.

فأما الأول : فيسلم للاستئذان عند الدخول ، والثانى : يسلم على القوم تحية إليهم حيث دخل عليهم . والثالث : يسلم عليهم عند الوداع أثناء خروجه من المجلس .

وأما الثانى : فهو عند الاستئذان أول أمره ، فيسلم ثلاث مرات قبل الدخول ، فإن أذن له فبها وإلا فينصرف .

وقد روى عن سعد رضى الله عنه أن النبى ﷺ جاءه وهو فى بيته ، فسلم ، فلم يجبه ، ثم سلم ثانياً ، ثم ثالثاً ، فانصرف ، فخرج سعد وتبعه ، وقال : يا رسول الله بأذنى تسليمك ، ولكن أردت أن أستكثر من بركة تسليمك .

«وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً» أى أعادها ثلاث مرات . وفى بعض الروايات ما يوضح العلة من إعادة الكلمة وهو قوله : «حتى تفهم عنه» أى لكى يفهمها الناس ويعقلوها ، فإن رسول الله ﷺ قد أمره ربه سبحانه وتعالى أن يبلغ الناس وأن يبين لهم ما نزل إليهم ، فمن أجل ذلك كان يعيد القول ليفهم وليتضح .

وفى ترجمة هذا الباب ، وهى «باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه» ردٌّ على من كره إعادة الحديث ، وأنكر على الطالب الاستعادة ، ولكن الأمر يختلف باختلاف العقول والقرائح ودرجة الذكاء .

وواضح أن هذا التكرار إنما هو فى سلام الاستئذان للداخل على القوم وليس للمار عليهم المسلم سلام تحية الإسلام فهذا لا يشرع له الإعادة .

ما يؤخذ من الحديث

(١) ما كان عليه سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من الأدب العالي ونشر هدايته وحديثه، وتكرار مقالته حتى تحفظ عنه.

(٢) السلام والاستئذان على من يدخل الإنسان عليهم وهو سلام الاستئذان وهذا هو الذى يمكن أن يكرر ثلاث مرات.

(٣) أن الاستئذان للدخول على القوم يكون إلى حد ثلاث مرات فإن أُذن له فبها، وإن لم يؤذن له فليرجع.

(٤) استحباب إعادة الحديث أو الموعظة المعينة ثلاث مرات، من أجل أن تفهم عن صاحبها وتحفظ.

٩١ - حَدَّثَنا عَبْدَةُ بنُ عَبْدالله حدثنا عَبْدالصَّمد ، قال : حدثنا عَبْدُ الله ابنُ المُثَنَّى ، قال : حدثنا ثُمَامَةُ بنُ عَبْد الله عن أَنَسٍ عن النبيِّ ﷺ «أَنَّهُ كان إذا تَكَلَّمَ بكَلمَة أَعَادَها ثَلاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ ، وإذَا أَتَى على قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلاثًا » .

٩١- فى هذه الرواية الثانية للحديث نلاحظ زيادة ليست فى الحديث السابق، هذه الزيادة فيها مزيد من الإيضاح للمراد بالتوجيه النبوى.

أولاً : أنه زاد عند قوله : «كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً» زادَ بعد ذلك قوله : «حتى تفهم عنه» وهذه الزيادة توضح علة تكرار الكلمة ثلاث مرات.

ثانياً : أن الحديث السابق فيه : «كان إذا سلم سلم ثلاثاً» وهذا يحتمل أن يكون السلام سلام التحية للمار على قوم، ويحتمل أن يكون سلام الاستئذان لمن جاء داخلاً على قوم، فوضح الحديث الثانى أن المراد بالسلام ليس سلام التحية للمار على قوم، بل المراد به السلام على الداخل عليهم ليستأذن فى الدخول وفهم هذا من قوله فى الحديث الثانى الذى معنا : «وإذا أتى على قوم فسلّم عليهم سلم عليهم ثلاثاً».

وفى الحديث : «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع» فثلاث مرات هى غاية التكرار فلا يزيد عليها أخذاً بنص الحديث ، ويرى بعض العلماء : له أن يزيد على الثلاث إذا ظن أن الذين يستأذنهم ويسلم عليهم لم يسمعوه.

والسنة أن يسلم عليهم ثلاث مرات، فيقول : السلام عليكم أدخل ؟ =

ما يؤخذ من الحديث

(١) استحباب إعادة الكلمة للعالم لتفهم عنه.

(٢) كون الاستئذان ثلاث مرات.

(٣) ما كان عليه رسول الله ﷺ من نشر الخير والسلام بين الناس.

٩٢ - حَدَّثَنا مُسَدَّدٌ قال : حَدَّثَنا أَبُو عَوَانَةَ عن أَبِى بِشْرٍ عنْ يُوسُفَ ابنِ ماهَكَ عَنْ عَبْد الله بنِ عَمْرو ، قال : « تَخلَّفَ رَسُولُ الله ﷺ فِى سَفرٍ سَافَرْنَاهُ فَأَدْرَكَنا وقَدْ أَرْهَقْنَا الصَّلاَةَ : صَلاَةَ العَصْر ، وَنحْنُ نَتَوضَّأُ ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ « وَيْلٌ للأَعْقابِ مِنَ النَّارِ » مَرَّتَيْنِ أَو ثَلاَثًا .

٩٢ـ جاء هنا هذا الحديث فى باب (٣٠) باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه.

وقد سبق شرحه، فى باب (٣) «باب من رفع صوته بالعلم» فى الحديث رقم (٥٦) حيث جاء فيه هناك: «فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار» مرتين أو ثلاثاً.

وكان رفع الصوت بسبب بعد المسافة المكانية أو بسبب كثرة الناس الحاضرين.

أما هنا فإعادة الحديث من أجل أن يُفهم ويُعرف ويُحفظ، وقوله هنا: « مرتين أو ثلاثاً » هو شك من الراوى، ويدل على أن الثلاث ليست شرطاً أن المراد هو أن يفهم عنه فإذا تم الفهم بمرتين أجزأ ذلك ولفظ الحديث هنا: «فى سفر سافرناه» وأما فى باب «رفع صوته بالعلم» فبلفظ: «فى سفرة سافرناها» وفى قوله «أرهقنا الصلاة» فيه وجهان: الأول بسكون «القاف» ونصب «الصلاة» على المفعولية، والآخر: بتحريك القاف ورفع الصلاة على الفاعلية، و«صلاة العصر» بالرفع والنصب بدل من الصلاة أو بيان ـ وفى الحديث بيان لأهمية الوضوء وإسباغه وحرص رسول الله ﷺ على توجيه أصحابه وتعليمهم وإرشادهم.

ما يؤخذ من الحديث

(١) حرص العالم على تعليم الناس وتصحيح ما يراهم مخطئين فيه.

(٢) أهمية إسباغ الوضوء، والعناية بالأعضاء وببعض ما عساه لا يتنبه إليه البعض كالأعقاب.

(٣) وأن على العالم أن يتأكد أن الذين يعلمهم قد فهموا الأحكام والمراد، وإلا فعليه أن يعيد القول مرتين أو ثلاثاً.

(٤) حرص الرسول ﷺ على تعليم المسلمين وتوجيههم.

٣١.باب

تَعْلِيمِ الرَّجُلِ أَمَتَهُ وأَهْلَهُ

٩٣ - أَخبرنا مُحَمَّدٌ - هُوَ ابنُ سَلامٍ - حَدَّثنا المُحَارِبيُّ قال : حَدَّثنا صَالِحُ بنُ حَيَّانَ قال : قال عَامِرٌ الشَّعْبِيُّ : حدَّثني أَبو بُرْدَةَ عَنْ أَبيه قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ « ثلاثة لَهُمْ أَجْرَان : رَجُلٌ منْ أَهْلِ الكتَاب آمَنَ بنَبِيِّه ، وآمَنَ بمُحَمَّد ﷺ ، والعبْدُ المَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيه ، ورَجلٌ كَانَتْ عنْدَه أَمَةٌ ، فأَدَّبَها ، فَأَحْسَنَ تأْدِيبَهَا ، وعَلَّمَها فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ، ثم أَعْتَقَها ، فتزوَّجَهَا ، فَلَهُ أَجْرَان » .

ثُمَّ قال عَامِرٌ : أَعْطَيْنَاكَهَا بِغَيْرِ شَيْءٍ ، قَدْ كان يُرْكَبُ فيما دُونَها إِلى المَدِينَة .

٩٣- جاء التبويب بتعليم الرجل أمته وأهله، وقد ورد في الحديث ذكر الأَمة وأَمَّا الأهل فبطريق القياس على الأمة، ومعلوم أن العناية بتعليم الإسلام للحرائر والأهل أشد طلباً في الإماء وآكد وقد يكون أورد كلمة الأهل على أَمَلٍ أن يضع حديثاً يدل على الأهل ولكن لم يتفق له.

ويوضح الحديث ثلاثة أنواع من الناس يعطيهم الله سبحانه وتعالى أجرهم مرتين.

أَمَّا النوع الأول: فجاء التعبير عنه بقوله ﷺ: «رجل من أهل الكتاب آمَنَ بنبيه وآمَنَ بمحمد ﷺ» ويصدق هذا النوع على المرأة كما يصدق على الرجل، =

= والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، وقيل: المراد به الإنجيل فقط على الرأى القائل بأن النصرانية ناسخة لليهودية.

وأمَّا الثانى: فهو العبد المملوك إذا أدّى حق الله وحق مواليه، ووصف العبد بالمملوك، لأن جميع الناس عباد الله تعالى فميزه بوصف المملوك.

والألف واللام للجنس أى جنس الرقيق، ومعنى أدائه حق الله تعالى: قيامه بما فرض الله على عباده من إيمان وعبادة، ومن صلاة وصيام وغير ذلك..

ومعنى أدائه حق مواليه قيامه بخدمتهم وما كُلّف به من أعمال، وإنما ذكر الموالى بصيغة الجمع فى قوله: «وحق مواليه» لمقابلة الجمع فى جنس العبيد، أو ليدخل ما لو كان العبد مشتركاً بين موالٍ.

وأما الثالث: فهو رجل كانت عنده أمة فأدّبها بالأخلاق الفاضلة الحميدة، فأحسن تأديبها بأن كان رفيقاً بها رحيماً، وعلّمها ما تحتاج إليه من أمور دينها ومن كل خير فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها بعد أن يكون قد قام بما ينبغى للزواج من صداق ونحوه، ولم يقتصر الحديث على بدايته بالإخبار أن لهؤلاء الثلاثة أجرين وهذا الثالث داخل فى ذلك، بل نص على الأخير بقوله: «.. فله أجران»، لأن جهة العمل والقيام على الأمر بالنسبة له أكثر حيث اشتمل قيامه على أمر تلك «الأمة» بالتأديب والتعليم والعتق والتزوج وهى أمور أكثر من السابقين فكانت مظنة أن يكون له أكثر من أجرين فأعاد قوله: «فله أجران» ليوضح أن المعتبر أمران وهما ما بعد «ثم» وهما العتق والزواج، أما التأديب والتعليم فيوجبان الأجر فى الأجنبى وجميع الناس.

وعطف العتق بـ«ثم» وفيما قبل ذلك بالفاء، لأن العتق نقل الشخص من الرق إلى الحرية وتعديل من حال إلى حال فناسب العطف فيه بثم، أما التأديب والتعليم فينفعان ويلزمان فى الزوجية فناسب عطفهما بالفاء التى تدل على التعقيب، ولا شك أنه - قياساً على الأَمَة - تلحق المرأة الحرة بها فى ثبوت المثوبة والأجر على تأديبها وعلى تعليمها.

وليست هذه الأنواع الثلاثة - وحدها - التى يكون لأصحابها أجران، بل إن =

= هناك أنواعاً أخرى وردت فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة تفيد أن لأصحابها أيضاً أجرين.

فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر قول الله تعالى فى شأن نساء النبى ﷺ:

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ (١).

ومن ذلك أيضاً قول رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البررة، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق فله أجران» (٢)

ومعنى «يتتعتع» أى: يجد مشقة لضعف الحفظ ويتردد لحصر أو عىّ.

وهل الذى له أجران من كان على دين صحيح حق أم يشمل من كان على دين حق وغيره؟

الرأى الأصح: هو الذى كان على الحق فى شرعه الأول إلى أن آمن برسولنا ﷺ فيكون له أجر على اتباع الأول وأجر على اتباع الثانى.

وأما قوله ﷺ لهرقل: «اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين» (٣) فذلك لأنه بدخوله الإسلام سيدخل أتباعه وقومه، فله أجر بإيمانه لو آمن، وأجر لإيمان أتباعه بسبب إيمانه.

---

(١) سورة الأحزاب - آية ٣١.

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن عائشة.

(٣) رواه البخارى.

ما يؤخذ من الحديث

١ـ ثبوت الأجرين لكل من : ـ من آمن بنبيه وآمن برسولنا ﷺ ، والعبد المملوك الذى أدى حق الله وحق مواليه ، والذى أدَّب أمته وعلَّمها وأعتقها وتزوجها .
٢ـ من أحسن فى أمرين من البر له الأجر مرتين والله يضاعف لمن يشاء .
٣ـ فضل الكتابى الذى يدخل الإسلام حيث يضاعف الله له أجره مرتين .
٤ـ الدعوة إلى مثل هذه الصنائع الواردة فى الحديث والترغيب فى غيرها من فضائل الإسلام ومحامده .
٥ـ نسخ رسالة سيدنا محمد ﷺ لما سبقها وعالميتها وخلودها .
٦ـ فضل العتق ، والتعليم والتأديب .
٧ـ واجب الزوج نحو أهله تعليماً وتأديباً ونصحاً وتوجيهاً .

٣٢. باب

عِظَةِ الإمامِ النساءَ وتَعْلِيمِهِنَّ

٩٤ - حَدَّثنا سليمان بنُ حربٍ قال : حَدَّثنا شُعْبَةُ عن أَيُّوبَ قال : سَمعْتُ عَطَاءً، قال : سَمعْتُ ابنَ عَبَّاسٍ ، قال : أَشْهَد على النبيِّ ﷺ - أَو قال عَطَاءٌ : أَشْهَدُ عَلَى ابنِ عَبَّاسٍ - « أَنَّ رسولَ الله ﷺ خَرَجَ ، ومعَه بلالٌ ، فَظَن أَنَّهُ لَمْ يُسْمِعْ ، فَوَعَظَهُنَّ ، وأَمَرَهُنَّ بالصَّدَقَة ، فَجَعَلَت المَرْأَةُ تُلْقِى القُرْطَ والخَاتَمَ ، وبلالٌ يَأْخُذُ فى طَرَفِ ثَوْبِه » .

وقال إسْماعيلُ : عنْ أَيُّوبَ عنْ عَطَاءٍ ، وقال : عنِ ابنِ عَبَّاس أَشْهَد علَى النبى ﷺ .

٩٤- كان رسول الله ﷺ يعظ النساء ويوجههنّ ويحثهن على أعمال البر وخاصة الصدقة .

وهذا الحديث عَنْونَ البخارى فى ترجمته للباب بقوله : باب عظة الإمام النساء وتعليمهن ، ليوضح أهمية تعليم النساء بعد أن وضحت الأحاديث السابقة أهمية تعليم الزوج أهله ، فبيَّن هنا أن الوعظ والتعليم لا يختص بالأهل فحسب بل يندب للإمام الأعظم ومن ينوب عنه ، فوضح لهن بعض أسباب دخول النار بارتكاب بعض الذنوب ، مثل كثرة اللعن وكفران صنيع الزوج - وأن تكفير مثل هذه الذنوب يتمثل فى الصدقة .

وعندما خرج رسول الله ﷺ من صفوف الرجال إلى صف النساء ليوجههن =

= ويعلمهن ومعه بلال بن رباح رضى الله عنه، فظن أنه لم يُسمع النساء حين أسمع الرجال، فوعظ رسول الله ﷺ النساء، وأمرهن بالصدقة، لأن الصدقة تطفىء الخطيئة ولأن الصدقة سبب فى غفران الذنوب التى توجب النار.

أو لأن الوقت حينئذ كان وقت الحاجة والمواساة، والصدقة فى مثل هذه الأحوال تكون أفضل وجوه الخير والبر، فاستجابت النساء لدعوة رسول الله ﷺ ووعظه، فجعلت المرأة تلقى القرط من شحمة أذنها، والخاتم من يدها، وكان بلال رضى الله عنه يأخذ ما تلقى النساء فى طرف ثوبه، ليقوم بعد ذلك بإعطائه لرسول الله ﷺ، ليصرفه فى وجوهه الشرعية، ومصارفه المطلوبة.

ويتضح من هذا الحديث أن الدعوة كما كانت توجه للرجال كانت تُوجه للنساء وأن الوعظ والتعليم ما كان يخص به الرسول ﷺ الرجال وحدهم بل كان يعظ ويُعلِّم النساء، وكانت النساء على مستوى المسئولية والاستجابة للدعوة استجابة فورية دون تراخ أو تباطؤ، بل فى الحال تلقى المرأة قرطها وخاتمها، طاعةً لله ولرسوله.

ونلاحظ فى قول ابن عباس رضى الله عنهما «أشهد» على النبى ﷺ أو قول عطاء: «أشهد» على ابن عباس، التأكيد لتحقق الأمر والوثوق به.

والصدقة المذكورة فى الحديث تطلق على الفريضة وهى الزكاة الواجبة وتطلق على صدقة التطوع، وهى النافلة، والظاهر أن المراد بها هنا صدقة التطوع، وكانت فى وقت الحاجة ، والصدقة فى وقت الحاجة أفضل أنواع البر والمواساة.

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز صدقة المرأة من مالها الخاص بغير إذن زوجها لأن بعض النساء كن يقدمن القرط والخاتم دون أن يرجعن إلى أزواجهن فى هذا، ويرى مالك أنه لا تجوز الزيادة على الثلث إلا بإذن الزوج.

(٢) فضل الصدقة وأثرها فى غفران الذنوب التى تدخل النار.

(٣) استحباب وعظ النساء وتذكيرهن الآخرة وتعليمهن أحكام الإسلام وحثّهن على الصدقة.

(٤) على الإمام أن يتفقد رعيته، ويُعلِّمهن ويعظهن.

(٥) أن صدقة التطوع يُكتفى فيها بالمعاطاة كما حدث من النساء حين ألْقين ما تصدقْن به فى ثوب بلال دون إيجاب وقبول ومن غير كلام منهن ولا من بلال.

(٦) فى الحديث دليل على أن الصدقة قد تُنجِى من النار.

٣٣ باب

الحِرْصِ على الحَدِيثِ

٩٥ - حَدَّثنا عَبْدُ العَزِيزِ بنُ عَبْدِ اللهِ ، قال : حدّثني سليمان عنْ عَمْرو بنِ أبي عَمْرو عنْ سَعِيدِ بنِ أبي سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنّه قال : قيل : يا رسول الله ، مَنْ أسْعَدُ النَّاسِ بشَفَاعَتِكَ يومَ القيامة ؟ قال رسولُ الله ﷺ : « لَقَدْ ظَنَنْتُ - يا أبَا هُرَيْرَةَ - أنْ لاَ يَسْألَني عَنْ هذا الحَدِيثِ أحَدٌ أوَّلُ منْكَ ، لِمَا رأيْتُ مِنْ حِرْصِكَ على الحَدِيثِ ، أسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتي يَوْمَ القِيامَةِ مَنْ قال « لا إلهَ إلاَّ اللهُ » خَالِصاً مِنْ قَلْبِه ، أوْ نَفْسِهِ » .

٩٥-هذا هو باب الحرص على الحديث النبوى، فقد كان أبو هريرة رضى الله عنه أحرص على التعرف على أهم الأمور، ومنها من يكون أسعد الناس بشفاعة رسول الله ﷺ يوم القيامة.

وكلمة «أسعد» من السعد وهو اليُمْن، والسعادة فى مقابل الشقاوة فأجابه الرسول ﷺ بقوله: «لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك»، وكلمة «أول» يجوز رفعها على أنها صفة لأحد، أو بدل منه ويجوز النصب على الظرفية أو على الحال أى لا يسألنى أحد سابقاً لك لأنه وإن كان نكرة فهو فى سياق النفى، ثم بيّن السبب فى أنه لا يسبقه أحد بمثل هذا السؤال فى قوله «لما رأيت من حرصك على الحديث»، وحرف «مِنْ» للبيان أو للتبعيض أى لرؤيتى بعض حرصك.

ثم وضح أسعد الناس المسئول عنه بقوله : «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه» أى قالها مع قوله : «محمد رسول الله» فقد يكتفى بالجزء الأول من كلمتى الشهادة، لأنه صار شعاراً لمجموع الكلمتين ومعنى (خالصاً) مخلصاً (من قلبه) هذا بيان لتأكيد الإخلاص.

إن سيدنا أبا هريرة رضى الله عنه وأرضاه من المكثرين لرواية الحديث ومن أكثر الصحابة صحبة وملازمة ورواية للحديث النبوى الشريف فهو راوية الإسلام بحق يقول رضى الله عنه قلت : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ لقد كان يسأله كما كان يسأله غيره من صحابة رسول الله ﷺ الأسئلة التى يرجون بها المكانة العالية عند الله يوم القيامة ولما سمع منه النبى ﷺ هذا السؤال أجابه وقال له : «لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألنى عن هذا الحديث أحدٌ أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث».

وهذه شهادة من سيدنا رسول الله ﷺ له رضى الله عنه لحرصه على حديث رسول الله ﷺ ولعل أبا هريرة رضى الله عنه سأل عن أسعد الناس بشفاعة رسول الله ﷺ عندما كان عليه الصلاة والسلام يحدث بحديثه الذى كان يقول فيه «لكل نبى دعوة مستجابة وأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى فى الآخرة» وأيضاً فإنه توجه بهذا السؤال للنبى ﷺ يريد أن يستفسر عن أسعد الناس بشفاعته، فأجابه رسول الله ﷺ موضحاً لقد ظننت أنك أول من يسألنى عن ذلك من أمتى فبيّن له أن شفاعته لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه.

وهذه الرواية جاءت فى مسند الإمام أحمد وصحح هذا الحديث ابن حبان من طريق أخرى عن أبى هريرة قال له النبى ﷺ :

«لقد ظننت أنك أول من يسألنى عن ذلك من أمتى، شفاعتى لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه» والمراد بهذه الشفاعة المسئول عنها هى بعض أنواع الشفاعة وهى التى يقول فيها ﷺ أمتى أمتى فيقال له : أخرج من النار من فى قلبه وزن كذا من الإيمان، فأسعد الناس بهذه

الشفاعة من يكون إيمانه أكمل ممن دونه» وأما الشفاعة العظمى فى الإراحة من كرب الموقف فأسعد الناس بها من يسبق إلى الجنة وهم أولئك الذين ورد فى شأنهم أنهم يدخلون الجنة بغير حساب ثم يأتى بعدهم من يدخلها بغير عذاب بعد أن يحاسب ويستحق العذاب ثم من يصيبه لفح النار ولا يسقط فيها.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: والحاصل أن فى قوله «أسعد الناس بشفاعتى» إشارة إلى اختلاف مراتبهم فى السبق إلى الدخول باختلاف مراتبهم فى الإخلاص، ولذلك أكده بقوله «من قلبه» مع أن الحاصل محله القلب لكن إسناد الفعل إلى الجارحة أبلغ فى التأكيد وبهذا التقرير يظهر موقع قوله أسعد وأنها على بابها من التفضيل ولا حاجة إلى قول بعض الشراح الأسعد هنا بمعنى السعيد لكون الكل يشتركون فى شرطية الإخلاص لكن مراتبهم فيه متفاوتة.

وقال البيضاوى يحتمل أن يكون المراد من ليس له عمل يستحق به الرحمة والخلاص، لأن احتياجه إلى الشفاعة أكثر وانتفاعه بها أوفى وهكذا بيّن الرسول ﷺ أسعد الناس بشفاعته يوم القيامة، هو هذا الذى قال لا إله إلا الله خالصاً أى مخلصاً صادقاً فاعلاً ما تقتضيه (من قلبه) وفى هذا زيادة تأكيد.

ومعلوم أن رسول الله ﷺ يشفع فى الخلق لإراحتهم من هول الموقف وشدائده.

ويشفع الرسول ﷺ لبعض المؤمنين ليخرجوا من النار بعد دخولها.

ويشفع للبعض بعدم دخول النار، بعد أن استوجبوا دخولها.

ويشفع للبعض بدخول الجنة بغير حساب.

ويشفع للبعض فى رفعة الدرجات فى الجنة.

وبهذا كله يتضح أنه يوجد اشتراك فى الشفاعة والسعادة بها، ولكن أسعدهم من كان مؤمناً مخلصاً صادق القلب مع الله سبحانه وتعالى.

ما يؤخذ من الحديث

(١) استفسار الصحابة عن أسعد الناس بالشفاعة فى الآخرة وعن أسباب السعادة والحرص منهم على العلم والحديث.
(٢) منقبة عظيمة لأبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) أهمية الإخلاص والتوحيد وصفاء القلوب.
(٤) تشجيع العالم لطالب العلم وتفرسه فيه ليقوى من جهوده.
(٥) ثبوت الشفاعة وأنها للمؤمنين المخلصين.
(٦) فى الحديث دليل على اشتراط النطق بكلمتى الشهادة لتعبيره بقوله فى الحديث: «من قال..»
(٧) جواز الكنية عند الخطاب.

٣٤.باب
كَيْفَ يُقبَضُ العِلْمُ ؟

وَكَتَبَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيز إلى أَبى بكْرِ بنِ حَزمٍ : انْظُرْ ما كان من حَديث رسول الله ﷺ فاكْتُبْه ، فإنِّى خِفتُ دُرُوس العِلْم وذَهَابَ العُلَماء ، ولاَ تَقْبَلْ إلاَّ حَديثَ النبيِّ ﷺ ، ولْتُفْشُوا العِلْمَ ولْتَجْلسُوا حَتَّى يُعلَّمَ مَنْ لاَ يَعْلَم ، فَإنَّ العِلْمَ لا يَهْلكُ حَتَّى يَكُونَ سِراًّ ، حَدَّثنَا العَلاءُ بنُ عَبْدِ الجَبَّارِ ، قال : حَدَّثنَا عَبْدُ العَزيز بنُ مُسْلمٍ عن عبد الله بن دينَارٍ بذلكَ ، يَعْنى حَديثَ عُمَر بنِ عَبْدِ العَزيزِ إلى قَوْلِه : ذَهَابَ العلمَاء .

٩٦ – حَدَّثَنا إسْمَاعيلُ بنُ أَبى أُوَيْس قال : حدَّثنى مالك عنْ هِشَامِ ابنِ عُرْوَةَ عنْ أَبيه عنْ عَبْد الله بن عَمْرو بنِ العاصِ ، قَالَ : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ : « إنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزاعًا ، يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَاد ، ولكنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بقَبْضِ العُلَمَاء ، حَتَّى إذَا لَمْ يُبْقِ عَالمًا ، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوساً جُهَّالاً ، فَسُئلُوا ، فأفْتَوْا بغَيرِ علْمٍ ، فضَلُّوا وأَضَلُّوا » .

قال الفِرَبْرى : حَدَّثنَا عبَّاسٌ ، قَالَ : حَدَّثنا قُتَيْبَةُ حَدَّثنا جَرِيرٌ عَنْ هِشَامٍ ، نَحْوَهُ .

٩٦ـ هذا باب فى بيان كيفية قبض العلم، ليحرص الناس عليه، وليصونوه ويدوّنوه، وفى كتابة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى أبى بكر بن حزم وأمره=

= له بكتابة الحديث النبوى: بيان لابتداء تدوين الحديث مخافة ذهاب العلم بذهاب حَمَلته من العلماء، وكانوا قبل هذا التدْوين يعتمدون على الحفظ ولم يكن هناك إلا بعض الصحف التى كتبت - بإذن خاص لبعض الصحابة فى العهد النبوى - ولم يكن التدوين الرسمى إلا على رأس المائة الأولى فى عهد هذا الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه الذى أمر بتدوين الحديث مخافة أن يهلك العلم سراً، فيذهب بذهاب العلماء وموتهم.

والحديث يوضح أن الله تعالى لا يقبض العلم بالمحو من الصدور ولكن يقبضه بقبض أرواح العلماء، وموت حملته، وكان تحديث الرسولﷺ بهذا الحديث، فى حجة الوداع، ففى حديث أبى أمامة رضى الله عنه قال: لما كان فى حجة الوداع قال النبى ﷺ: «خذوا العلم قبل أن يقبض أو يرفع»[1] فقال أعرابى: كيف يرفع؟ فقال: «ألا إن ذهاب العلم ذهاب حملته» ثلاث مرات. وقال البعض: محو العلم من الصدور جائز فى القدرة، إلا أن هذا الحديث دل على عدم وقوعه، وكان يمكن أن يكون التعبير بالضمير بدل الاسم الظاهر فى قوله: «ولكن بقبض العلم» ويقول: «ولكن يقبضه» إلا أنه آثر التعبير بالمظهر، زيادة وتأكيداً فى تعظيم شأن العلم.

ومعنى اتخاذ الناس للرؤساء الجهال الذين يفتون بغير علم، أى أن الناس حين لا يجدون العلماء يتجهون إلى الرؤوس أو الرؤساء الجهال وفيهم الجهل البسيط وهو عدم العلم بالشىء، والجهل المركب وهو عدم العلم بالشىء مع اعتقاد العلم به، وهذا قد يكون فى الذين يفتون بغير علم، وقد يكون أيضاً عاماً فى القضاة الجاهلين، لأن الحكم بالشىء يستلزم الفتوى به.

وقوله «فضلوا» من الضلال وذلك فى أنفسهم. «وأضلوا» من الإضلال أى أنهم حين يفتون بغير علم يضلون السائلين.

وفى الحديث توضيح من سيدنا رسول الله ﷺ لمنزلة العلماء وفضلهم، وأن

(١) رواه أحمد والطبرانى.

= رب العزة سبحانه وتعالى حين يقبض العلم فى آخر الزمان لا يقبضه بنزعه من صدور العلماء، ولكن يقبضه بقبض العلماء أى بموتهم حتى إذا لم يُبق عالماً أو حتى إذا لم يَبْقَ عالمٌ اتخذ الناس رؤساء أو اتخذ الناس رؤوسا جُهَّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا أى بسلوكهم هذا، وأضلوا أى: أضلوا غيرهم حين أفتوهم بغير علم، وإذا كان للعلماء هذه المنزلة وأنه يقبض العلم بقبضهم فإن واجب الأمة أن تعرف للعلماء قدرهم فهم الذين يحملون أشرف تراث فى الوجود وهم ورثة النبى ﷺ فالعلماء ورثة الأنبياء. ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾(١) وإن لهم قدرهم ومنزلتهم.

ولقد فضل الله تعالى آدم عليه السلام وأسجد له ملائكته وفضّله بالعلم، ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (٢) فإذا ما أراد أن يقبض العلم قبض العلماء ولذلك فكلما انتقل من دنيا حياتنا عالم نقص جزء كبير من الخير ورحل جزء عظيم من الرشد والهداية وانتزع جزء كبير من العلم النافع، «ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يَبْق عالمٌ » أو «لم يُبْق عالماً» اتخذ الناس رؤساء جُهَّالاً أو «اتخذ الناس رؤوساً جهالاً» لا يعرفون ولا يفقهون فإذا سئلوا أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا.

وإذا كان هذا الحديث فيه من التحذير ما فيه فإنه فى الوقت نفسه يبين لنا فضل العلم ومنزلة العلماء ولطالما وجهنا رسولنا ﷺ إلى فضل العلم وإلى ما له من مكانة وكيف أنه يحى الله به القلوب.

عن أبى موسى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ و العشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فعلم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به».

(١) سورة الزمر - آية ٩   (٢) سورة البقرة - آية ٣١.

وهكذا يضرب لنا رسولنا ﷺ أروع الأمثلة على فضل العلم وعلى فضل العلماء، وفى حديث آخر يدعو رسول الله ﷺ لمن يحمل عنه الخير «نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع» .

وإذا كان قبض العلم يكون بقبض العلماء فعلينا أن نحرص على تلقى العلم عن العلماء وألا نتلقى العلم عن غير العلماء، فإن تلقّى العلم عن غير العلماء يشوبه كثير من الخلط وكثير من البعد عن الحقائق إذا أُخِذ العلم على غير أصوله وقواعده المرعية .

وشاء الله تعالى أن تقوم فى الأمصار الإسلامية وعلى أرض الكنانة جامعات للعلم كالأزهر الشريف وغيره من الجامعات الإسلامية لينشر العلماء من خلالها العلم ولتظل حلقات العلم وأروقة العلم وكلياته ومعاهده ومدارسه مستمرة له لأنه لا حياة إلا بالعلم. فالعلم نور والعلم هو أساس الحياة الدنيوية والأخروية وأساس علاقة الخلق بخالقهم وعلاقة الخلق بعضهم ببعض والعلم هو الهداية التى يهتدى بها الناس فى دنياهم ويسعدون بها فى أخراهم.

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن قبض العلم ليس بانتزاعه من الصدور بل بقبض العلماء وهذا يستوجب على الأمة الإسلامية أن تدون العلم وتسجله وتكتبه حتى إذا قبض العلماء لا يذهب العلم بذهابهم، وهذا ما تنبه إليه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فأمر بتدوين الحديث النبوى تدويناً رسمياً فى خلافته وأصدر توجيهاته بذلك إلى الأقطار الإسلامية لجمعه وتدوينه.

(٢) استدل الجمهور بهذا الحديث على جواز خلو الزمان عن مجتهد خلافاً للحنابلة.

(٣) تعظيم شأن العلم وفضله.

(٤) فضل العلماء ومنزلتهم وأنهم ورثة الأنبياء.

(٥) تحريم الإفتاء بالرأى من غير علم أو من غير أهل العلم المتخصصين فيه.

(٦) التحذير من اتخاذ الجهال رؤوساً فى المجتمع.

(٧) الدعوة إلى الحرص على العلم وحفظه والاشتغال به.

(٨) أن الفتوى هى الرياسة الحقيقية، وأنه لا يصح أن يُقدم عليها أحد بغير علم.

٣٥.باب

هَلْ يُجْعَلُ للنِّسَاءِ يَوْمٌ على حِدَةٍ فِى العِلْمِ ؟

٩٧ – حَدَّثَنَا آدمُ ، قال : حَدَّثنا شُعْبَةُ ، قال : حدَّثنى ابنُ الأَصْبهانىِّ قال : سَمِعْتُ أَبَا صَالحٍ ذَكْوَانَ يُحَدِّثُ عن أَبى سَعيد الخُدْرىِّ قَالَت النِّسَاءُ للنبى ﷺ : غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَال ، فَاجْعَلْ لَنا يَوْمًا مِنْ نَفْسك ، فَوَعَدهُنَّ يومًا لَقِيَهُنَّ فيه ، فَوعَظَهُنَّ ، وأَمَرَهُنَّ ، فَكانَ فيمَا قال لَهُنَّ « مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلاثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلاَّ كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ ، فَقَالت امْرَأَةٌ : وَاثْنَتَيْنِ فَقَالَ : واثْنَتَيْن » .

حَدَّثَنَا مُحمَّدُ بنُ بَشَّارٍ ، قال : حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ ، قال : حَدَّثنا شُعْبَةُ عنْ عَبدِ الرَّحْمن بن الأَصبَهانىِّ عن ذَكْوَانَ عن أَبى سَعيدٍ الخُدْرِىِّ عنِ النبىِّ ﷺ ، بهذا .

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ الأَصْبَهانىِّ قَال : سَمِعْتُ أَبَا حَازِمٍ عن أَبى هُرَيْرة قال : ثلاثة لَمْ يَبْلُغُوا الحِنْثَ .

٩٧-إن عناية الرسول ﷺ بشأن الحرص على العلم ونشره وتعليمه، وعنايته أيضاً بتفقيه المرأة وتعليمها جعله يستجيب لرغبة النساء فى أن يجعل لهن يوماً ومجلساً يجلس إليهن فيه يحثهن على حفظ العلم ويعلمهن الدين والأحكام. لقد اتجه النساء شاكيات إلى النبى ﷺ قائلات: «غلبنا عليك الرجال» فهم يلازمونه ﷺ كل يوم ويسمعون ما لا يسمع النساء ولا تقدر النساء على مزاحمة الرجال .

= لذلك طلب النساء من رسول الله ﷺ أن يجعل لهن يوماً لسماع العلم وتعلُّم أمور الدين، فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوفى بوعده فلقيهن في اليوم المحدد فوعظهن وأمرهن بأمور دينية، ومن بين ما قاله لهن: «ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار» وليس هذا خاصًّا بالأبناء الذكور بل يشمل الذكور والإناث فكلمة «الولد» تشمل الذكر والأنثى، فقالت امرأة: واثنتين؟ فقال واثنتين. والمرأة التي قالت ذلك هي أم سليم، وقيل: غيرها.

وجاءت بعض الأحاديث الأخرى التي تفيد أن الواحد كالاثنين، وذلك في الحديث القدسي: «ما لعبدى المؤمن جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة» [1].

كما جاء في بعض الأحاديث أيضاً التصريح بأن الواحد كالاثنين وكالثلاثة، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قدم ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كانوا له حصناً حصيناً من النار» فقال أبو ذر رضى الله عنه: قدّمت اثنين، قال: «واثنين» قال أبي بن كعب رضى الله عنه: قدمت واحداً؟ قال: «وواحداً»[2].

ومعنى بلوغ الحنث: أى بلوغ سن التكليف التي يُحاسبون فيها ثواباً وعقاباً على الطاعة أو المعصية، وهذا لا يكون إلا عند البلوغ، وفسر الحنث في رواية بالذنب وهو مجاز من تسمية المحل بالحال.

وجاء في بعض الأحاديث ما يوضح فضل من يموت له مَنْ لم يبلغوا الحنث منها:

«ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء» [3].

زاد النسائي: «لا يأتي باباً من أبوابها إلا وجده عنده يسعى في فتحه».

وهل إذا بلغ الولد الحنث وسن التكليف لا تكون له هذه الميزة؟ يرى بعض =

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه الترمذي وابن ماجه.
(٣) رواه أحمد وابن ماجه عن عتبة بن عبد.

= العلماء: البالغ أولى بهذا لأنه إذا ثبت في الصِّغر مع أنه كَلٌّ على أبويه، فمن بلغ السعي أولى، إذ التفجع عليه أشد ولكن يرى البعض أن هذه الميزة خاصة بمن لم يبلغوا الحلم لأن حب الصغير أشد، والشفقة عليه أكثر وأعظم من الكبير، ففى بعض الأحاديث تصريح برحمة الوالدين للصغير وأنها السبب فى هذه المنزلة.

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يموت له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم» [1].

فبيَّن فى هذا الحديث علة ذلك وهى شدة تعلق الآباء بالأبناء ورحمتهم بهم، وأن هذا ليس خاصاً بالأمهات بل يشمل الآباء أيضاً أى: أن هذا يشمل الذكور والإناث من الآباء ومن الأبناء.

فعلى الآباء والأمهات أن يتجملوا بالصبر، وأن يزدادوا إيماناً بالله ورضاً بقضائه وقدره ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[2].

ما يؤخذ من الحديث

(١) العناية بتعليم المرأة وتفقهها في الدين.
(٢) جعل مجالس علمية خاصة بالنساء.
(٣) ما كان عليه نساء الصحابة من الحرص على العلم وتعلّمه.
(٤) جواز الوعد، حيث وعدهن الرسول ﷺ ووفّى بوعده لهن.
(٥) أن أطفال المسلمين فى الجنة.
(٦) من مات له ثلاثة من الأبناء أو مات له اثنان أو واحد حُجب من النار إذا كان مؤمناً صابراً.
(٧) يشمل الحكم الرجال والنساء، وإذا كان الميت ذكراً أو أنثى.
(٨) سؤال النساء عن أمور دينهن لتعلمها وجواز تحدثهن مع الرجال فى ذلك وفيما لهن حاجة إليه.

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) سورة الزمر - آية ١٠.

٣٦. باب

مَنْ سَمِعَ شَيْئًا فَراجَعَ حَتَّى يَعْرِفَهُ

٩٨ - حَدَّثَنَا سَعِيدُ بنُ أَبِى مَرْيَمَ ، قال : أَخبرنا نافعُ بنُ عُمَرَ ، قال : حدّثنى ابنُ أَبِى مُلَيْكَةَ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النبىِّ ﷺ كَانَتْ لا تَسْمَعُ شَيْئًا لا تَعْرِفُهُ إلاَّ رَاجَعَتْ فيه حَتَّى تعرفَهُ ، وأَنَّ النَّبىَّ ﷺ قال : « مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ » قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقُلْتُ : أَوَ لَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعالَى ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾[1]؟ قَالَتْ : فقال : « إِنَّمَا ذلِكِ العَرْضُ ، ولَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ » .

٩٨ـ من الحرص على طلب العلم والتفقه فيه أن من سمع شيئاً لا يعرفه يراجع فيه حتى يفهمه ويعرفه ، فهذا من حقوق طالب العلم ، وهذه المراجعة لا تدخل فيما نهى الصحابة عنه من السؤال ، لأنهم نهوا عما تُرك من الأمور «ذرونى ما تركتكم» وأما هنا فالسؤال والمراجعة لأمر مذكور غير متروك ويراد فهمه والتفقه فيه .

فالسيدة عائشة رضى الله عنها لما سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من حوسب عُذِّب» قالت : أوليس يقول الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾؟[1] وهذا استفسار منها أى : هل يكون هذا مع قول الله تعالى هذا؟ وفى السؤال شىء التعجب فقال لها رسول الله ﷺ موضحاً حقيقة الأمر : «إنما ذلك العرض ،

---

(١) سورة الانشقاق - آية ٨ .

= ولكن من نوقش الحساب يهلك» ومعنى «العرض» أى: أن ذلك الحساب اليسير هو العرض، بعرض الناس على الميزان، أو عرض أفعال العباد عليه مع التبشير بالغفران.

«ولكن من نوقش الحساب يَهْلك» أى أن الذى يناقشه ربه ويستقصى حسابه يهلك والحساب لا يخلو عن مناقشة، والمناقشة أثناء الحساب تؤدى إلى استحقاق العذاب، فأعمال العباد موقوفة على قبول الله سبحانه وتعالى لها، وهو إنما يدخل الجنة برحمة الله تعالى، فإن لم تكن الرحمة التى تتدارك الإنسان لا تكون النجاة من العذاب.

وهكذا نرى منزلة السيدة عائشة رضى الله عنها فى العلم ودقتها فى فهم السنة النبوية الشريفة ويطلعنا هذا الحديث على ما كان عليه رسول الله ﷺ من عدم التضجر من السؤال فى العلم والمراجعة من أجل الفهم والتفقّه.

فعلى المسلم أن يتعرف على دينه، وعلى طالب العلم إذا لم يتأكد من الفهم والمراد أن يراجع حتى يتعلم وليس هذا عيباً.

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز المراجعة فى طلب العلم والسؤال لمعرفة الإنسان للأمر الذى لا يعرفه.

(٢) ما كانت عليه السيدة عائشة رضى الله عنها من كثرة العلم ودقة الفهم والحرص على معانى الحديث.

(٣) ما كان عليه رسول الله ﷺ من الصبر وعدم التألم أو التضجر من المراجعة معه فى مسائل العلم والدين.

(٤) جواز المناظرة والمناقشة لتوضيح الحقائق ومقابلة السنة بالقرآن.

(٥) أن الناس فى حسابهم يتفاوتون.

(٦) أن السؤال فى العلم ومن أجل التفقّه لا يدخل فيما نهى الصحابة رضى الله عنهم عنه فى قول الله تعالى: ﴿لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [1]، لأن المنهى عنه هو السؤال الذى لا يكون استفهاماً بل يكون تعنّتاً.

(٧) ثبوت عرض الناس على الميزان

(٨) عرض أفعال العبد عليه.

(٩) ثبوت الحساب والعذاب يوم القيامة .

(١) سورة المائدة ـ آية ١٠١.

٣٧ - باب

لِيُبلِّغ العِلْمَ الشَّاهدُ الغائبَ ، قالهُ ابنُ عبَّاس عنِ النبيِّ ﷺ .

٩٩ - حدثنا عَبْدُالله بن يُوسُفَ ، قال : حدَّثني اللَّيْثُ قال : حدَّثني سَعيدٌ عنْ أبي شُرَيْح أنَّهُ قال لعمْرِو بن سَعيد وهْوَ يَبْعَثُ البُعُوثَ إلى مَكَّةَ : ائذَنْ لي أيُّها الأميرُ أُحَدِّثْكَ قولاً قام به النبيُّ ﷺ الغَدَ منْ يوم الفَتْح ، سَمعَتْهُ أُذُنايَ ، ووعَاهُ قلْبي ، وأبْصرَتْهُ عَيْنايَ ، حينَ تكلَّمَ به ، «حَمدَ اللهَ وأثْنَى عليْه ، ثُمَّ قالَ : إنَّ مَكَّةَ حرَّمَها اللهُ ، ولَمْ يُحرِّمْها النَّاسُ ، فلا يَحلُّ لامْرِىءٍ يُؤْمنُ باللهِ واليَوْمِ الآخرِ أنْ يَسْفكَ بهَا دماً ، ولاَ يَعْضدَ بها شَجَرَةً ، فإنْ أحَدٌ ترخَّصَ لقتالِ رسُولِ اللهِ ﷺ فيها فقولُوا : إنَّ اللهَ قَدْ أذنَ لرَسُوله ، ولَمْ يأْذَنْ لكُمْ ، وإنَّما أذنَ لي فيها ساعَةً منْ نَهارٍ ، ثم عادَتْ حُرْمَتُها اليَوْمَ ، كحُرْمَتها بالأمْس ، ولْيُبَلِّغِ الشَّاهدُ الغائبَ» فقيل لأبي شُرَيْحٍ : ما قال عَمْرو ؟ قالَ : أنا أعْلَمُ منْكَ يا أبَا شُرَيْحٍ ، لا يُعيذُ عاصياً ، ولا فارًّا بدَمٍ ، ولا فارًّا بخَرْبَةٍ .

---

٩٩ - من أجل الحرص على تبليغ العلم ونشره كان تبليغ الشاهد ، وهو الحاضر الذى سمع الحديث للغائب الذى لم يسمع له أهميته ، وقد جاءت الترجمة فى هذا التبويب بصيغة الأمر : ليبلغ العلمَ الشاهدُ الغائب .

لقد قال أبو شريح لعمرو بن سعيد وكان أمير المدينة ، وغزا عبد الله بن =

= الزبير رضى الله عنهما (وهو يبعث البعوث) أى: أن عمرو بن سعيد كان يبعث الجيوش إلى مكة لقتال ابن الزبير، لأنه لما توفى معاوية توجه يزيد إلى عبد الله بن الزبير يطلب منه أن يبايعه، فخرج إلى مكة وامتنع عن بيعته، فغضب يزيد وأرسل إلى مكة يأمر واليها يحى بن حكيم بأخذ بيعة عبد الله، فبايعه وأرسل إلى يزيد بيعته، فقال: لا أقبل حتى يؤتى به فى وثاق، فأتى ابن الزبير وقال: أنا عائذ بالبيت، فأبى يزيد، وكتب إلى عمرو بن سعيد، أن يوجه إليه جنداً فبعث هذه البعوث.

فأبو شريح قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: إئذن لى أيها الأمير، وفى هذا حسن تلطف فى الإنكار على أمراء الجور ليكون أدعى لقبولهم «أحدثك قولاً قام به النبى ﷺ الغد من يوم الفتح» أى كان قوله وخطبته فى اليوم الثانى من يوم الفتح، وأكد ما يقوله تأكيداً بالغاً فى الدقة والسماع كُلَّ مَبْلَغٍ، حيث وضح أن هذا القول سمعته أذناه ووعاه قلبه وأبصرته عيناه حين تكلم به، أى أنه متأكد ومتثبت مما يقول بكل ثقة واطمئنان، فجمع بين السماع والرؤية ووَعْى القلب، فلم يكن القول عن أحد سواه ولا من وراء حجاب «حمد الله تعالى وأثنى عليه» فيه عطف العام على الخاص، ثم وضح أن الله تعالى حرم مكة المكرمة ولم يحرمها الناس، بل إنه سبحانه حرمها يوم خلق السموات والأرض، فليس من الناس أحد حرمها من قبل نفسه بل إن الذى حرمها هو الله سبحانه وتعالى، وأما ما روى من أن إبراهيم عليه السلام حرم مكة، فالمعنى أن إبراهيم بلغ تحريم الله لها وأظهره.

فلا يحل فيها سفك الدماء ولا يجوز فيها القتل، فهى حرم الله الآمن، «فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولا يعضد بها شجرة».

فلا يحل فيها سفك الدماء ولا القتل أو العدوان على الأنفس، ولا يحل قطع شجرها. فإن قال أحدٌ: إن ترك القتال عزيمة، وإن القتل رخصته عند الحاجة لأجل القتال، مستدلاً بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الأمر ليس كذلك، وإنما أذن الله تعالى فى القتال لرسوله ﷺ - خصوصية له - ولم يأذن لكم فى ذلك وأكد =

= الرسول ﷺ هذه الخصوصية، بل وحدّد ساعتها حتى لا تفهم على أنها عامة فى أى زمان ولكل أحد فقال: «وإنما أذن لى ساعةً من نهار وذلك يوم الفتح ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهدُ الغائب» وهذه الساعة التى أذن الله فيها هى من طلوع الشمس إلى العصر، ثم بعد ذلك عادت حرمتها كحرمتها بالأمس، وأمر أن يبلغ الشاهد وهو الحاضر ذلك إلى الغائب.

«فقيل لأبى شريح: ما قال عمرو؟ أى: ما قال عمرو فى جوابك؟ فأجابه بأنه قال: أنا أعلم منك يا أبا شريح» «لا يعيذ عاصياً» أى: أن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فارّاً بدم ولا فارًا بِخَرْبة» أى: لا يعيذ ولا يعصم العاصى عن إقامة الحد عليه ولا من كان فارًا بسبب دمٍ سفكه بل لا بد من القصاص منه، ولا فاراً بخَرْبة أي سرقة، وقال البعض «الخُربة» بالضم: الفساد، وبالفتح: السرقة.

وليس صحيحاً ما ادعاه عمرو فى الجواب فظاهره حق وهو أن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فارًا بدم....

فإن ابن الزبير رضى الله عنهما لم يرتكب أمراً يجب عليه فيه شىء من ذلك بل هو أولى بالخلافة من يزيد، لأنه تمت بيعته من قبله وهو صاحب الرسول ﷺ.

ما يؤخذ من الحديث

(١) شرف مكة المكرمة وفضلها.

(٢) تحريم مكة وأنه لا يحل فيها سفك الدماء ولا قطع الأشجار ولا الصيد ولا اللقطة إلا لمنشد كما جاء في أحاديث أخرى.

(٣) استحباب تقديم الحمد والثناء على القول الذى يراد.

(٤) ثبوت بعض الخصائص لرسول الله ﷺ.

(٥) فضل أبى شريح لاتباعه هدى الرسول ﷺ.

(٦) فى الحديث وفاء أبى شريح رضى الله عنه بما أخذه الله على العلماء من الميثاق فى تبليغ دينه ونشره، حتى يظهر.

وروى ابن إسحاق فى آخره أنه قال له عمرو بن سعيد: نحن أعلم بحرمتها منك، فقال له أبو شريح: إنى كنت شاهداً و كنت غائباً، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن يبلغ شاهدنا غائبنا وقد أبلغتك فأنت وشأنك.

(٧) استدل أبو حنيفة بقوله: «لا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً» على أن الملتجئ إلى الحرم لا يقتل لأنه عام يدخل فيه هذه الصورة.

واختلف العلماء فيمن أصاب حداً من قتل أو زنا أو سرقة، فقال ابن عباس رضى الله عنهما وعطاء والشعبى: إن أصابه فى الحرم أقيم عليه الحد، وإن أصابه فى غير الحرم - أى ثم لجأ إليه - لا يجالس ولا يدانى حتى يخرج فيقام عليه، لأن الله تعالى جعله آمناً دون غيره.

وقال آخرون: إذا أصابه فى غير الحرم ثم لجأ إليه يخرج ويُقام عليه الحد.

(٨) إن التحليل والتحريم لا يكون إلا من عند الله تعالى، وليس للبشر شأن بذلك.

(٩) النصيحة لولاة الأمر، وعدم الإغلاظ عليهم أو الغش لهم.

١٠٠ - حدثنا عَبْدُالله بنُ عَبْدالوَهَّاب، قال: حدَّثنا حَمَّادٌ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ مُحَمَّدٍ عنِ ابنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ذُكِرَ النبيُّ ﷺ قال: «فإنَّ دِماءَكُمْ وَأَمْوالكُمْ - قال محمد: وَأَحْسبُهُ قال: وَأَعْرَاضَكُمْ - عليكم حرامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا، فِي شَهْرِكُمْ هذَا، أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائبَ».

وكان مُحَمَّدٌ يَقُولُ: صَدَقَ رسولُ الله ﷺ كانَ ذلكَ أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَيْنِ.

---

١٠٠ - في هذا الحديث بيان من رسول الله ﷺ لحرمة الدماء والأموال والأعراض، تلك الحرمات الثلاث التي صانها الإسلام، وحافظ عليها، ونهى عن العدوان عليها وشرع عقوبات رادعة لمن انتهكها فشرع القصاص على من اعتدى على حرمة الدماء والأنفس، وشرع قطع اليد لمن اعتدى على حرمة الأموال بالسرقة، وشرع الرجم أو الجلد لمن اعتدى على حرمة الأعراض بارتكاب الفاحشة إلى غير ذلك من العقوبات الأخرى التي شرعها الإسلام حماية لحق المجتمع في الأمن والاستقرار، ودفاعاً عن هذه الحرمات التي أكّد رسول الله ﷺ حرمتها قبل أن يودع الحياة، فنادى بها وقرّرها وأكد عليها في حجة الوداع ومعنى «ذُكر النبي ﷺ قال: فإن دماءكم...» أي: ذكر أبو بكرة النبي ﷺ.

ولهذا الحديث تكملة، وسبق بعضه في باب: قول النبي ﷺ «رُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع» وفيه قال ﷺ: «أي يوم هذا؟» فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ فقلنا: بلى، قال: فأي شهر هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: أليس بذي الحجة؟ قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم =

= وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا . . إلى آخر الحديث .

واقتصر فى هذا الموطن على المقصود وهو بيان التبليغ وقد سبق شرح الحديث فى أول كتاب العلم فى باب قول النبى ﷺ « رُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع»

«قال محمد» هو ابن سيرين : «وأحسبه» أى : أظنه أى أظن ابن أبى بكرة قال :«وأعراضكم» أى بعد قوله : «وأموالكم» والعِرْض : يقال للحسب والأخلاق النفسانية وهو موضع الذم والمدح من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه .

وقد بيَّن الحديث أن الدماء والأموال والأعراض محرمة كحرمة يوم النحر والشهر الحرام فى البلد الحرام ، وأمر أن يبلغ الحاضر منهم من كان غائباً ، تأكيداً لأهمية هذه الحرمات .

وكان محمد بن سيرين يقول : صدق رسول الله ﷺ كان ذلك ، ثم قال : ألا هل بلغت مرتين ، أى قال ذلك مرتين لتقرير ذلك وتأكيده لأمته عبر عصور التاريخ وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين .

ما يؤخذ من الحديث

(١) تبليغ العلم والأحكام والأحاديث من الحاضر إلى الغائب .

(٢) تأكيد حرمة الدماء والأموال والأعراض .

(٣) حرص الرسول ﷺ على أمته وحبه لها وتوجيهه للأمة أن تحافظ على أمنها وسلامها واستقرارها .

(٤) سَبْق الإسلام فى الدعوة للحفاظ على حقوق الإنسان قبل أن تعرفها المنظمات العالمية بأكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان .

٣٨.باب

إِثْمِ مَنْ كَذَبَ عَلَى النبيِّ ﷺ .

١٠١ ـ حدثنا عليُّ بنُ الجَعْدِ، قال: أَخبرنا شُعْبَةُ، قال: أَخْبَرَنِى مَنْصُور، قال: سَمِعْتُ رِبْعِيَّ بنَ حِرَاشٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عليًّا يَقُولُ: قال النبيُّ ﷺ: «لاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ، فإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَلِجِ النَّارَ».

١٠١ـفى هذا الباب بيان لإثم من كذب على النبى ﷺ، والكذب مخالفة الخبر للحقيقة والصدق والواقع، وإذا كان الكذب رذيلة من أفحش الرذائل، فإنه حين يكون كذباً على رسول الله ﷺ يكون أشد جرماً وأبشع

و«رِبْعى بن حِراش» كان عابداً ورعاً ثقة، يقول: سمعت علياً وهو على بن أبى طالب رضى الله عنه، يقول: قال النبى ﷺ: «لا تكذبوا علىّ» وهذا نهى بصيغة الجمع عن الكذب فى حديث رسول الله ﷺ، وهو مطلق وعام فى كل أنواع الكذب سواء كان كذباً عليه أو كذِباً له، بأن ينسب إليه كلاماً كذباً لم يقله، وسواء كان الكذب بادعاء قول لم يقله وزعم أنه قاله، أوكان بردّ قول صحيح قاله فيرده ويكذبه، فكل من النوعين ينطبق عليه أنه كذب على رسول الله ﷺ.

وإذا كان الكذب بصفة عامة محرماً ومذموماً ومنهياً عنه، فإن الكذب على رسول الله ﷺ أشد بل هو من الكبائر، لأن حديثه يُفَسّرُ شرعاً وديناً باقياً إلى يوم القيامة، ولذلك لم يقل «لا تكذبوا» فقط ليكون نهياً عاماً عن كل كذب =

= وإنما خص وقال: « لا تكذبوا عليّ » ثم بيَّن جزاء من يكذب عليه بقوله: « فإنه من كذب عليّ فليلج النار» وجملة «فليلج النار» جواب الشرط ودخلت الفاء على هذه الجملة، لأنها جملة طلبية، ومعنى «فليلج » فليدخل ، والولوج هو الدخول .

وقال الإمام النووى رحمه الله: معنى الحديث أن هذا جزاؤه وقد يُجازى به، وقد يعفو الله عنه ، ولا يقطع عليه بدخول النار، وهكذا سبيل كل ما جاء من الوعيد بالنار لأهل الذنوب الكبائر إذا كانت غير الكفر، بل إن دخل النار فإنه لا يخلد فيها بل يخرج منها بالشفاعة بفضل الله تعالى ورحمته .

ما يؤخذ من الحديث

(١) غلظ تحريم الكذب على رسول الله ﷺ وإثم من كذب عليه

(٢) الوعيد الشديد بدخول النار لمن كذب فى الحديث النبوى

(٣) لا فرق فى التحريم أن يكون الكذب فى الأحكام أو فى غير الأحكام

(٤) يستوى فى هذا الوعيد من كذب بادعاء ما ليس حديثاً بأنه حديث، أو من كذب بردّ ما هو من الأحاديث الصحيحة ومحاولة تكذيبه .

١٠٢ ـ حدثنا أَبُو الوَليد، قال: حدثنا شُعْبَةُ عنْ جامع بنِ شَدَّادٍ عن عَامرِ بنِ عَبْدالله بنِ الزُّبَيْرِ عنْ أَبيه، قال: قُلْتُ للزُّبَيْر: إِنِّي لاَ أَسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عنْ رسول الله ﷺ كَمَا يُحَدِّثُ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، قال: أَمَا إِنِّي لَمْ أُفارِقْهُ، ولكنْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ كَذَبَ عليَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَه مِنَ النَّارِ».

١٠٢ـ يروى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه «قال: قلت للزبير» هو الزبير بن العوام رضى الله عنه: «إنى لا أسمعك تحدِّث عن رسول الله ﷺ كما يُحدِّث فلان وفلان» وفى بعض الروايات عند ابن ماجه ذكر أحد هؤلاء، وهو عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

قال: «أما إنى لم أفارقه» و «أما» من أدوات التنبيه، أى: أنه لم يفارق رسول الله ﷺ منذ أسلم، أى: لم يفارقه فى الأغلب وكان لكثرة صحبته وملازمته أن يكون أكثر تحديثاً ورواية، ولكن ما سمعه من رسول الله ﷺ من تحذير من الكذب جعله يحتاط فى الأمر قال: ولكن سمعته يقول: «من كذب علىَّ فليتبوأ مقعده من النار» وفى رواية أخرى عند ابن ماجه زيادة: «من كذب علىّ متعمداً».

وفى استدلال الزبير بهذا الحديث على قلة روايته وتحديثه بيان ودليل على أن الكذب المراد التحذير منه هو ما كان إخباراً بالشىء على خلاف ما هو عليه سواء كان عمداً أم خطأ، ومع أن المخطىء غير المتعمد ليس آثماً ولكن الزبير رضى الله عنه خاف من الإكثار أن يقع فى الخطأ دون أن يشعر.

وأما الذين عُرِفوا بالإكثار من رواية الحديث النبوى من الصحابة فقد كانوا متثبتين من أنفسهم من عدم الخطأ، أو أنهم طالت أعمارهم واحتاج الناس إلى ما عندهم من علم، فكانوا إذا سئلوا، وجب عليهم ألا يكتموا علمهم ومعنى «فليتبوأ» فليتخذ لنفسه منزلاً، وهذا الفعل اقترن بلام الأمر إلا أنه بمعنى الخبر، =

= أو بمعنى التهديد لمن كذبوا على رسول الله ﷺ ، أو على سبيل التهكم بهم ، أو دعاء عليهم أن يتبوأوا من النار منزلاً .

ما يؤخذ من الحديث

(١) الإقلال من رواية الحديث فى أول الأمر مخافة الخطأ .

(٢) التحذير من الكذب على رسول الله ﷺ .

(٣) الوعيد لمن يكذب فى الحديث النبوى ، إذ الكذب فيه ، كبيرة من أكبر كبائر الذنوب ورد بشأنه الوعيد الشديد .

(٤) وجوب التثبت من الراوى والمروى مخافة الوقوع فى الكذب أو الخطأ .

١٠٣ ـ حَدَّثَنَا أَبُومَعْمَرٍ قَالَ: حدثنا عَبْدُ الوَارِثِ عَنْ عَبْدِالعَزِيزِ، قال أَنَسٌ: إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِى أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدِيثاً كَثِيراً أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «من تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِباً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

---

١٠٣ ـ يخبر أنس رضي الله عنه بأنه يمنعه أن يُحدِّث حديثاً كثيراً أن النبي ﷺ قال: «من تعمد عليّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار» هذا مع أن أنساً رضى الله عنه من المكثرين من رواية الحديث، ومع هذا فإنه لولا هذا الحديث لكان ما رواه أكثر وما حدَّث به أغزر وأعظم، وكان أضعافاً مضاعفة.

وقد خاف أنس رضى الله عنه مما خاف منه الزبير رضى الله عنه، فمن أجل هذا احتاط فى الأمر، وتحفظ حتى لا يخطىء، ومع هذا فإنه لما تأخرت وفاته، واحتاج الناس إلى ما عنده من علم وأحاديث وأحكام، لم يكتم العلم، بل أخبر بما عنده وحدَّث من يحتاجون إلى الحديث والعلم.

وفى قوله: «من تعمد» ما يشير إلى أن المحرم هو تعمد الكذب وفى رواية أخرجها الدارمى: «من حدث عنى كذباً».

ما يؤخذ من الحديث

(١) الإقلال من الرواية احتياطاً فى الحفاظ على الحديث وعدم الخطأ.
(٢) تحريم الكذب على الرسول ﷺ.
(٣) الوعيد الشديد بدخول النار لمن يكذب فى حديث رسول الله ﷺ.

١٠٤ ـ حَدَّثَنَا مَكيُّ بنُ إبْرَاهِيمَ، قَال: حدّثنا يَزِيدُ بنُ أَبي عُبَيْدٍ عنْ سَلَمَةَ قَال: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقُولُ: «مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوأْ مَقْعَدَه مِنَ النَّارِ».

---

١٠٤ ـ هذا أول حديث ثلاثي وقع في صحيح البخاري، ومعنى كون الحديث ثلاثياً أن يكون بين من أخرجه وبين رسول الله ﷺ ثلاثة رواة، فالبخاري أخذ الحديث عن «مكي» وهو اسم وليس بنسب وهو من كبار شيوخ البخاري، وليس في صحيح البخاري أعلى من الثلاثيات وهي أكثر من عشرين حديثاً، فهذا الإسنادٌ إسنادٌ عالٍ.

ونلاحظ أن هذا الحديث جاء بلفظ: «من يقل عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار» وليس القول عليه فقط محرماً بل يحرم من ادّعى فعلاً أيضاً ولكنه ذكرهنا القول لأنه الأكثر والأغلب، وما ذكر قبل ذلك من قوله «من تعمد عليّ كذباً» ومن قوله «لا تكذبوا عليّ ...» يشمل القول والفعل.

وقد تمسك المانعون للرواية بالمعنى، بما يتبادر فهمه من ظاهر قوله: «من يقل عليّ ما لم أقل»، ولكن الذين أجازوا الرواية بالمعنى أجابوا على هذا بأن المراد النهي عن الإتيان بقول فيه تغيير للحكم المراد، أو المعنى المقصود، أما لو عبر الراوي بما يفيد المراد والمعنى المقصود وكان راوياً للحديث بالمعنى حيث كان عالماً باللغة واشتقاقاتها، عارفاً بما يحيل المعنى ويغيره عارفاً بالأحكام فلا مانع من الرواية بالمعنى بشروطها، ومع هذا فإن الإتيان بلفظ الحديث لا شك أن له الأولوية.

فمن قال قولاً لم يقله الرسول ﷺ، أو نقل ما قاله بلفظ آخر يوجب تغيير المعنى المراد أو الحكم المقصود، ولم يكن هذا الناقل أهْلاً للرواية بالمعنى أو نسب فعلاً لم يرد عن رسول الله ﷺ فله هذا الوعيد «فليتبوأ مقعده من النار».

وهو أمر من التبوء بمعنى الاتخاذ أي: فليتخذ، فيبوئه الله مقعده من النار، أو =

= هو أمر على سبيل التهكم والتغليظ أو أمر تهديد أو دعاء بمعنى: بوأه ذلك، لأنه تجرأ على حديث رسول الله ﷺ وهو أحد مصادر الشريعة الإسلامية الغراء، أما التعبير بألفاظ لا تغير المعنى أو الحكم فهذا جائز عند المحققين والقائلين بجواز الرواية بالمعنى بشروطها المعهودة السابقة، ومن أجل هذا التحذير والوعيد لم يكثر بعض الصحابة رضى الله عنهم من رواية الحديث لأن الكثرة منها مدعاة للخطأ ومظنة لتغيير بعض الألفاظ.

ما يؤخذ من الحديث

(١) تحريم الكذب على رسول الله ﷺ فى القول وفى الفعل وإن كان اللفظ فى هذا الحديث خاصاً بالقول، لكن الفعل فى معناه، لاشتراكهما فى علة الامتناع وهو التجرؤ على الشريعة.

(٢) استدل بهذا الحديث الذين قالوا بمنع الرواية بالمعنى، ولكن أجاب الذين أجازوها بأن المراد النهى عن الإتيان بلفظ يوجب تغيير الحكم، ولا شك أن الرواية باللفظ أولى.

(٣) أن الكذب على رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر.

(٤) الدعوة إلى التأكد والاحتياط في رواية الحديث النبوى.

(٥) منزلة علماء الحديث ورواته الذين يحفظونه فى صدورهم وكتبهم ويقومون على تبليغه ونشره كما سمعوه وكما تعلموه.

١٠٥ ـ حَدَّثنا مُوسَى ، قال : حَدَّثنا أبُو عَوانَةَ عَنْ أبى حَصينٍ عنْ أَبى صالحٍ عنْ أَبى هُرَيْرةَ عنِ النبىِّ ﷺ ، قال : « تسَمَّوْا باسْمى ، ولا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتى ، وَمَنْ رَآنى فى المَنام فَقدْ رَآنى ، فإنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّل فى صورَتى ، وَمَنْ كَذَبَ علىَّ متعمِّداً فلْيَتبوَّأْ مَقْعَدَه مِنَ النَّارِ » .

١٠٥ـ روى لهذا الحديث سبب ورود، أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ـ بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : نادى رجل رجلاً بالبقيع : قال :يا أبا القاسم، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى لم أعنك إنما دعوت فلاناً، فقال رسول الله ﷺ : «تسموا باسمى، ولا تكنوا بكنيتى».

فالكنية بأبى القاسم حرام مطلقاً سواء كان اسمه محمداً أو لا، فى حياته أو بعد انتقاله وهذا مذهب الشافعى. وقيل : فى حياته ﷺ خاصة، وهو مذهب مالك. وقيل : مكروهة وخرج بالكنية بذلك ما إذا جعل علماً فلا بأس به ومن العلماء من نهى عن الكنية بأبى القاسم مطلقاً، ونهى عن التسمية بالقاسم، لئلا يكنى أبوه بأبى القاسم، وقد غيَّر مروان بن الحكم اسم ابنه عبد الملك حين بلغه هذا الحديث، فسماه عبد الملك وكان سماه أولاً القاسم وفعله بعض الأنصار وهذا يدل على تقدير سلفنا لرسولهم صلوات الله وسلامه عليه واحترامهم له.

وقد كان من الأدب القرآنى للمؤمنين ما جاء فى صدر سورة الحجرات، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ (١).

ونهى الله سبحانه وتعالى أن نُسوِّى بين دعائنا للرسول ﷺ وبين دعائنا

---

(١) سورة الحجرات - آية ١ ، ٢ .

= لبعضنا فقال تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (١) وجاء فى حديث عن النبى ﷺ: «تسمون أولادكم محمداً ثم تلعنونهم» كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الكوفة: لا تسموا أحداً باسم نبى، وأمر جماعة بالمدينة بتغيير أسماء أبنائهم الذين سُمُّوا بـ «محمد» حتى ذكر له جماعة أن النبى ﷺ أذن لهم فى ذلك، وسماهم به فتركهم.

والصحيح أن التسمية باسم الرسول ﷺ جائزة وصحيحة كما جاء فى الحديث السابق ولكن فعل سيدنا عمر رضى الله عنه فهو احترام وإجلال وتعظيم منه لاسم النبى ﷺ لئلا ينتهك الاسم كما جاء فى الحديث «تسمون محمداً ثم تلعنونهم» ؟ وسبب نهى سيدنا عمر أنه سمع رجلاً يقول لمحمد بن زيد ابن الخطاب: فعل الله بك يا محمد، فدعاه عمر فقال: أرى رسول الله ﷺ يُسَبُّ بك والله لا تدعى محمداً ما بقيت، وسماه عبد الرحمن، وذلك إنما هو زيادة احترام وتوقير وإعظام لاسم رسول الله ﷺ أما التسمية به فجائزة كما سبق بل إنه ﷺ قد أذن لجماعة وسماهم باسمه.

وأما قوله: «ومن رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى» أى أن من رأى رسول الله ﷺ فى المنام، فقد رآه حقاً وصدقاً وذلك لأن الشيطان لا يستطيع أن يتمثل بصورة رسول الله ﷺ، فرؤية الإنسان لرسول الله ﷺ فى المنام إذاً هى رؤية حقيقية كرؤيته فى اليقظة، لأن الشيطان لا يقدر أن يتمثل بصورته ولا أن يتشكل بها.

ولا فرق فى هذا بين أن يرى الرائى صورة الرسول ﷺ التى كان عليها أو لا. فإن رأى الرائى صورة الرسول ﷺ الحقيقية فإن رؤياه لا تحتاج إلى تأويل وإلا فإنها تحتاج لتعبير يتعلق بالرائى.

وفى قوله ﷺ: «من كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ما يدل على استواء تحريم الكذب فى كل حال سواء فى اليقظة أو فى المنام، والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر.

---

(١) سورة النور - آية ٦٣ .

= ويرى جمهور العلماء أن من كذب على رسول الله ﷺ واستحل الكذب عليه واعتقد حله فهو كافر. ولقد فرّق الرسول ﷺ بين الكذب عليه، وبين الكذب على غيره، في حديث المغيرة حيث يقول. «إن كذباً عليّ ليس ككذب على أحد» وفيما رواه البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثاً كثيراً: أن النبي ﷺ قال: «من تعمد عليّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار». لهذا كان الصحابة يقللون من الرواية للاحتراز.

ومعنى «فليتبوأ..» أي فليتخذ لنفسه منزلاً، يقال: تبوأ الرجل المكان إذا اتخذه سكناً، وهو أمر بمعنى الخبر أيضاً أو بمعنى التهديد أو التهكم أو دعاء على فاعل ذلك ولا مفهوم لقوله «ومن كذب عليّ» أي لا يكون ولا يتصور الكذب له، لنهيه ﷺ عن مطلق الكذب وقد اغتر قوم من الجهلة فوضعوا أحاديث في الترغيب والترهيب وقالوا: نحن لم نكذب عليه بل فعلنا ذلك لتأييد الشريعة وما دروا أنهم بهذا يكذبون على الله تعالى لأنه إثبات حكم من الأحكام الشرعية.

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز التسمية بأسماء الرسول ﷺ والنهي عن التكني بكنيته.
(٢) أن من رآه ﷺ في المنام فقد رآه حقاً.
(٢) الوعيد الشديد لمن كذب على رسول الله ﷺ سواء نفى قولاً له قاله أو قال عليه ما لم يقل، وسواء كان الكذب في حكم غير موجود أو حكم منصوص عليه.

٣٩. باب

كِتَابَةِ العِلْمِ

١٠٦ ـ حدثنا محَمَّد بن سَلامٍ، قال: أَخبرنا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مُطَرِّفٍ عنَ الشَّعْبِيِّ عن أَبِى جُحَيْفَةَ، قال: قُلْتُ لعليٍّ: هَلْ عِنْدَكُمْ كتَابٌ؟ قال: لا، إلاَّ كتَابُ الله، أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَه رَجُلٌ مُسْلِمٌ، أَوْ مَا فِى هذه الصَّحِيفَة، قال: قُلْتُ: فَمَا فى هذه الصَّحِيفَة؟ قال: العَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، ولا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ.

---

١٠٦ ـ منهج الإمام البخارى فى المسائل التى يكون فيها اختلاف أنه لا يجزم فيها بشىء بل يوردها على الاحتمال وهذا من خلق العلماء الكبار وتواضعهم، وهذه الترجمة من هذا القبيل، لأن السلف اختلفوا فى ذلك عملاً وتركاً وكتابة وعدم كتابة، ومعلوم أن ما استقر عليه الأمر بل انعقد الإجماع على جواز كتابة العلم بل على استحبابه بل لا يبعد وجوبه على من خشى عليه النسيان ممن يتعين عليه أن يبلغ العلم حتى لا يضيع العلم ويهلك.

لقد سأل أبو جحيفة علياً قائلاً: هل عندكم كتاب؟ ولعله جمع الضمير فى الخطاب مع أنه يخاطب الإمام عليًّا كرم الله وجهه ورضى الله عنه وحده على إرادة بقية أهل البيت أو خطاب تعظيم فجاء بالجمع فى الضمير فى قوله: «هل عندكم» والمراد «بالكتاب» المكتوب أى: هل عندكم شىء مكتوب عن رسول الله ﷺ مما أوحى الله سبحانه وتعالى به إليه؟

= والسبب فى هذا السؤال هو أن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أن عند أهل البيت أشياء من الوحى خصَّهم النبى ﷺ بها ولم يعرفها أحد سواهم.

فأجابه على رضى الله عنه قائلاً: «لا إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما فى هذه الصحيفة» وفى رواية أخرى فى الجهاد «لا و الذى فلق الحبة وبرأ النسمة».

وفى هذا ما يدل على أنه كان عنده أشياء مكتوبة من الفقه المستنبط من كتاب الله وهى المرادة بقوله «أو فهم أعطيه رجل» وأما «الصحيفة» فهى ورقة مكتوبة وفى رواية النسائى: «فأخرج كتاباً من قراب سيفه».

«قال: قلتُ فما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل» والمراد به الدّية وسميت بذلك لأنهم كانوا يربطون إبل الدية بالعقال وهو الحبل، وفى رواية أخرى عند ابن ماجه «الديات» والمراد: أحكامها وأنواعها ومقدارها «وفكاك الأسير» أى فيها حكم تخليص الأسير من يد العدو والترغيب فى ذلك «ولا يُقتل مسلم بكافر» فكانت الصحيفة تجمع كل هذه الأحكام المكتوبة فيها ونقل الرواة منها ما نقلوا.

ما يؤخذ من الحديث

(١) ثبوت بعض الكتابة لبعض الصحابة الذين أذن لهم الرسول ﷺ.

(٢) أهمية كتابة العلم والأحكام وتقييدها.

١٠٧ ـ حدثنا أبونُعَيْمٍ الفَضْلُ بنُ دُكَيْنٍ، قال: حدّثنا شَيْبَانُ عن يَحْيى عنْ أَبي سَلَمَةَ عنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّ خُزاعَةَ قَتَلُوا رَجُلاً من بَني لَيْثٍ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقَتيلٍ مِنْهُمْ قَتَلُوه، فَأُخْبِرَ بذلكَ النبيُّ ﷺ، فَرَكِبَ راحِلَتَهُ، فَخَطَبَ فقال: «إنَّ اللهَ حَبَسَ عنْ مَكَّةَ القَتْلَ ـ أو الفيلَ، شَكَّ أبو عبْدِالله ـ وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ والمؤْمنين، ألا وإنَّها لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلي، ولَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ بَعْدي، ألاَ وإنَّها حَلَّتْ لي سَاعَةً من نَهارٍ، ألاَ وإنَّهَا سَاعَتي هذه حَرامٌ، لا يُخْتَلَى شَوْكُهَا، ولا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، ولا تُلْتَقَطُ سَاقِطَتُهَا، إلاَّ لمُنْشِدٍ، فَمَنْ قُتِلَ فَهْوَ بخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إمَّا أَنْ يُعْقَلَ، وَإمَّا أَنْ يُقَادَ أَهْلُ القَتيلِ»، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ، فَقَالَ: اكْتُبْ

١٠٧ـ يروى أبو هريرة رضى الله عنه أن واحداً من قبيلة خزاعة المشهورة قتل رجلاً من بنى ليث، وأطلق اسم القبيلة على الرجل القاتل على سبيل المجاز واسمه خراش بن أمية الخزاعى، والمقتول فى الجاهلية منهم اسمه أحمر والمقتول فى الإسلام من بنى ليث، وذلك عام الفتح بقتيل منهم قتلوه فأخبر بذلك النبى ﷺ، فركب راحلته فخطب فقال: إن الله حبس عن مكة القتل، أى منع عنهم القتل أو الفيل، ويُراد بحبس الفيل حبس أهله إشارة إلى قصة محاولة الحبشة غزو مكة ومنعها الله وأرسل عليهم طيراً أبابيل، مع العلم بأن أهل مكة آنئذ كانوا كفاراً، فلاشك أن حرمة أهلها بعد الإسلام أعظم. وسَلّطَ عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين، أو سُلّط بضم أوله بالبناء للمجهول ورفع رسوله وأيضاً ورفع المؤمنين «وسُلّط عليها رسولُه والمؤمنون».

ثم قال ﷺ: «ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولم تحل لأحد بعدى».

لي يا رَسُولَ الله ، فقال : « اكْتُبوا لأَبي فُلاَن » فقال رَجلٌ منْ قُرَيْش : إلاَّ الإذْخرَ يا رسولَ الله ، فإنَّا نجْعَلُهُ في بُيُوتنَا ، وَقُبُورنَا ، فقال النبيُّ ﷺ : إلا الإذْخرَ ، إلاَّ الإذْخرَ » .

قال أَبُو عَبْد الله : يقَال : يقَاد بالقاف ، فَقيلَ لأَبي عَبْد الله : أَيُّ شَيءٍ كَتبَ لَهُ ؟ قال : كَتَبَ له هذه الخُطْبَةَ .

حَدَّثنا عَليُّ بنُ عَبْد الله ، قال : حَدَّثنا سفْيانُ ، قال : حَدَّثنا عَمْرٌو ، قال : أَخبرني وَهْبُ بنُ مُنَبِّه عن أخيه ، قال : سَمعْتُ أَبا هُرَيْرَةَ يَقُولُ : ما منْ أَصْحاب النبيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَديثًا عَنْهُ منِّي ، إلاَّ مَا كَانَ منْ عَبْد الله بن عَمْرو ، فإنَّهُ كانَ يَكْتُبُ ، ولا أَكْتُبُ .

تابَعَهُ مَعْمَرٌ عنْ هَمَّامٍ عن أَبي هُرَيْرَةَ .

= ثم وضح صلوات الله وسلامه عليه أن الله تعالى أحلها له ساعة من نهار عند فتحها ، ألا وإنها ساعتي هذه حرام ، أي في ساعته التي يتكلم فيها بعد فتح مكة حرام «لا يُختلى شوكها» أي : لا يقطع شوكها إلا ما كان مؤذياً منه كالعوسج واليابس وكالحيوان المؤذي.

«ولا يعضد شجرها» أي لا يقطع ، «ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد» أي إلا لمعرّف يعرفها . «فمن قُتل فهو بخير النظرين» أي أنه مرضى بخير النظرين أي أفضل الأمرين المنظور فيهما «إما أن يُعقل» أي يؤخذ له العقل وهو عبارة عن الدية وسميت بذلك لأنهم كانوا يعطون فيها الإبل ويربطونها بفناء دار المقتول بالعقال وهو الحبل «إما أن يُعقل وإما أن يقاد أهل القتيل» أي يمكن أهله من القود أي القتل قصاصاً وهذا في القتل عمداً ، فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتبوا لي يارسول الله فقال «اكتبوا لأبي فلان» أي : لأبي شاه فقال رجل من قريش هو =

= العباس بن عبد المطلب: « إلا الإذخر يا رسول الله فإنا نجعله فى بيوتنا وقبورنا » فقال النبى ﷺ «إلا الإذخر إلا الإذخر» وهو نبت طيب الرائحة كانوا يجعلونه لسقف البيوت فوق الخشب أو يخلط بالطين لئلا يتشقق إذا بنى به، وفى القبور يسدّون به فرج اللحد التى تكون متخلّلة بين اللبنات.

وأعلن أبو هريرة رضى الله عنه أنه لم يسبقه أحد من الصحابة ولا يوجد فيهم من هو أكثر حديثاً منه إلا ما كان من عبد الله بن عمرو.

قال أبو هريرة رضى الله عنه: «ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب»، وفى هذا ما يدل على أكثرية ما عند أبى هريرة وأنه لا يوجد من هو أكثر منه إلا عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب وأبو هريرة لا يكتب.

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن مكة فتحت عنوة وهو قول الجمهور وقال الشافعى: فتحت صلحاً.

(٢) فى الحديث دليل على تحريم قطع الشجر فى الحرم.

(٣) أن ولى القتيل بالخيار بين أخذ الدية وبين القتل وليس له إجبار الجانى على أى الأمرين وقال مالك: ليس له إلا القتل أو العفو وليس له الدية إلا برضا الجانى.

(٤) أن القاتل عمداً يجب عليه أحد الأمرين القصاص أو الدية وهو أحد قولى الشافعى وأصحهما عنده أن الواجب القصاص والدية.

١٠٨ - حَدَّثنا يَحْيَى بنُ سُلَيْمَانَ ، قال : حدّثني ابنُ وَهْبٍ ، قال : أخبرني يُونُسُ عَن ابنِ شِهَابٍ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ اللهِ عَنِ ابنِ عباسٍ ، قال : « لَمَّا اشْتَدَّ بالنبيِّ ﷺ وَجَعُهُ قال : ائْتُوني بكتابٍ أَكْتُبْ لَكُم كتاباً لا تَضلُّوا بَعْدَهُ ، قَالَ عُمَرُ : إنَّ النبيَّ ﷺ غَلَبَهُ الوَجَعُ ، وَعِنْدَنَا كتابُ اللهِ حَسْبُنَا ، فاخْتَلَفُوا ، وكَثُرَ اللَّغَطُ ، قال : قُومُوا عَنِّي ، ولا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ ، فَخَرَجَ ابنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ : إنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ ما حالَ بَيْنَ رسولِ اللهِ ﷺ وبَيْنَ كِتابِهِ » .

١٠٨ـ عندما اشتد برسول الله ﷺ وجعه ومرضه الذى توفى فيه، وكان هذا قبل موته بأربعة أيام وفى يوم الخميس طلب أن يأتوه بأدوات الكتابة كالقرطاس والقلم والدواة وأطلق على هذا قوله: «ائتونى بكتاب أكتب لكم » أى يأمر من يكتب لهم ويملى عليه كتاباً، لعله لبيان الأحكام الهامة أو لبيان الأئمة من بعده حتى لا يضل المسلمون ولا يختلف بعده الناس فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى ﷺ غلبه الوجع أى المرض ، ووضح أن عندهم كتاب الله تعالى وهو كافيهم فلا يريد أن يشق على رسول الله ﷺ فى مرضه وتعبه حتى يملى عليهم، لعله فهم أن الأمر من رسول الله ﷺ فى قوله: «ائتونى» للإرشاد وليس للوجوب وإلا لما ساغ لعمر رضى الله عنه أن يقول هذا، وعندئذ اختلف الصحابة رضوان الله عليهم ، فمنهم من قال : بل نكتب لما فيه من امتثال أمر رسول الله ﷺ ومنهم من رأى رأى عمر رضى الله عنه فلما كثر اللغط أى الأصوات والجلبة والاختلاط قال لهم الرسول ﷺ :

«قوموا عنى» أى عن الجهة التى هو فيها «ولا ينبغى عندى التنازع، فخرج =

= ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه ، ولكن عمر رضى الله عنه كان أفقه حيث اكتفى بالقرآن .

ويحتمل أن يكون الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - كان ظهر له مصلحة حيث هَمَّ بالكتابة ثم ظهر له بعد ذلك أن المصلحة فى تركها ، وإلا فلو كان أمراً لازماً ما تركه لأجل اختلافهم.

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن رسول الله ﷺ لم يوص بالإمامة من بعده .

(٢) فقه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفضله .

(٣) أن للإمام أن يوصى الأمة عند انتهاء أجله أو عند قربه بما يراه خيراً للأمة وللناس .

(٤) إباحة الاجتهاد لما فيه من مصلحة الأمة وخيرها .

٤٠. باب

العِلْمِ والعِظَةِ باللَّيْلِ

١٠٩ - حَدَّثنَا صَدَقَةُ أَخبرنا ابنُ عُيَيْنَةَ عنْ مَعْمَرٍ عنِ الزُّهْرِيِّ عنْ هنْد عنْ أُمِّ سَلَمَةَ ، وعَمْرٍو ويَحْيَى بنِ سَعيدٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ عنْ هنْد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ، قالَت : استَيْقَظَ النبيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فقال : « سُبْحانَ اللهِ ماذا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ منَ الفِتَنِ ؟ وماذا فُتِحَ مِنَ الخَزَائِنِ ؟ أَيْقِظُوا صَوَاحِباتِ الحُجَرِ ، فَرُبَّ كاسية في الدُّنيا عارِيَةٍ في الآخرةِ » .

---

١٠٩ - في هذا الباب يورد ما يدل على تعليم العلم بالليل وعلى جواز العظة كذلك بالليل، فما ورد من الأحاديث مما فيه نهي عن الحديث بعد العشاء إنما هو خاص بما لا يكون في الخير، أما إذا كان في الخير أو تعليم العلم أو موعظة الناس فهذا جائز ومباح ، وراوية هذا الحديث هي السيدة أم سلمة واسمها «هند» وقيل: «رملة» وهي بنت سهل بن المغيرة تقول: استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة، أي أنه تنبه في ليلة فقال: «سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن» وفي هذا التعبير بالاستفهام تضمين للتعجب «وماذا فتح من الخزائن» والمراد بالإنزال: إعلام الملائكة بالأمور التي قدرها الله سبحانه وتعالى، أو أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ في المنام بما سيحدث بعده من الفتن فعبَّر عن ذلك بالإنزال.

= وعبر عن العذاب بالفتن، لأنها هي أسباب العذاب، وعبر عن الرحمة بالخزائن كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ [1] ومعلوم أن رؤيا الأنبياء حق ، فهذا من معجزات رسول الله ﷺ فقد حدث ما أخبر عنه فتم فتح خزائن فارس والروم وغيرهما.

ثم قال ﷺ : «أيقظوا صواحبات الحُجَر » أي : نبهوا أمهات المؤمنين أزواجه ﷺ وإنما خصهن بهذا التنبيه؛ لأنهن الحاضرات في ذلك الوقت.

«فرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة» أي : كاسية بالأثواب الرقيقة التي لا تمنع رؤية البشرة «عارية في الآخرة» أي تعاقب في الآخرة بفضيحة التعري أو عارية بمعنى خالية من الثواب والحسنات في الآخرة ومن أجل هذا دعاهن إلى الصدقة والاستيقاظ للعبادة، فما دام الأمر كذلك فعليهن ألا يغفلن عن العبادة اعتماداً على كونهن أزواج رسول الله ﷺ بل عليهن أن يسارعن بالعبادة.

ما يؤخذ من الحديث

(١) من بعض معجزات رسول الله ﷺ ما رآه في النوم وما أخبر به ، ثم حدث بعد ذلك كما أخبر به .
(٢) التحذير مما سيحدث بعده ﷺ من الفتن .
(٣) دعوة الإنسان أسرته وأهله للعبادة وإيقاظه للأهل لطاعة الله تعالى .
(٤) جواز قول سبحان عند التعجب .
(٥) استحباب ذكر الله تعالى بعد الاستيقاظ من النوم .

---
(١) سورة ص - آية ٩ .

٤١ . باب

السَّمَرِ فِى العِلْمِ

١١٠ ـ حدّثنا سَعِيدُ بنُ عُفَيرٍ ، قال : حدّثنى اللَّيْثُ قال : حدّثنى عَبْدُالرَّحْمن بنُ خالدٍ عنِ ابنِ شِهابٍ عنْ سالِمٍ وأَبى بَكْرِ بنِ سُلَيْمانَ بنِ أَبى حَثْمَةَ أَنَّ عَبْدَاللَّه بنَ عُمَرَ قال : صَلَّى بنا النبىُّ ﷺ العِشَاءَ فى آخرِ حيَاته ، فَلمَّا سَلَّم قام فقال : «أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هذه ، فإنَّ رأْسَ مائَة سَنَةٍ منها لا يبْقَى مَمَّنْ هُو على ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ» .

---

١١٠ ـ فى باب السمر فى العلم . ومعنى السمر : الحديث بالليل قبل النوم . يروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ صلى العشاء فى آخر حياته فلما سلم قام فقال : «أرأيتكم ليلتكم هذه» والمراد بالرؤية هنا العلم أى : أعلمتم أو الإبصار أى أأبصرتم ، والجواب محذوف تقديره : «قالوا : نعم» ثم قال : «فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد» فكأنه قال : أخبرونى عن شأن ليلتكم هذه؟ هل تعلمون ما يأتى بعدها من عجائب الأمور؟ فبيّن لهم أنه على رأس مائة سنة من هذه الليلة لا يبقى أحد ممن هو موجود الآن على ظهر الأرض ، فكل من كان موجوداً آنئذ لا يعيش بعد تلك الليلة أكثر من مائة سنة ، وليس فى الحديث ما يفيد نفى حياة أحد يولد بعد هذه الليلة أو بعد مائة سنة ، فكأنه أراد أن يبين للناس قِصَر الأعمارِ ولا يعمر أحد أكثر من ذلك ، =

= فأعمار هذه الأمة ليست كأعمار الأمم السابقة، وهذا البيان من أجل أن يبادر الناس بالتوبة إلى الله، ومن أجل أن يضاعفوا الطاعة والعبادة، والتقرب إلى الله تعالى.

والمعنى: أنه لا يبقى أحد من الذين ترونهم أو تعرفونهم أو المراد بذلك الموجود من الناس في جزيرة العرب آنئذ.

ولا يفيد معنى الحديث أن الحياة ستنتهي وأن القيامة تقوم بعد مائة سنة كما زعم بعض أهل الزور والبهتان الذين حاولوا أن يطعنوا في هذا الحديث وأن يحملوه غير المراد منه، بل إن الحديث يحث الناس على المبادرة بالاستعداد للقاء الله فلن يعيش الناس آماداً طويلة كما كان الحال في الأمم السابقة فعليهم أن يتقربوا إلى ربهم وأن يعبدوه وأن يغتنموا حياتهم بالعبادة والتقوى.

ما يؤخذ من الحديث

(١) السمر في العلم وأن خير الكلام وأفضله هو العلم فهو فريضة على كل مسلم والسمر به بعد العشاء وفي وقت الليل مشروع بهذا الحديث.

(٢) أن الحياة الدنيا إلى انتهاء، لأنها دار فناء، وأن الآخرة هي دار البقاء.

(٣) قِصَرُ أعمار هذه الأمة، فهي ليست ذات أعمار طويلة كما كان الحال في الأمم السابقة.

(٤) الحث على المبادرة بالتوبة والرجوع إلى الله وكثرة العبادة والطاعة، ليغتنم كل إنسان حياته قبل أن تنتهي.

(٥) أن مدة المائة التي أشار إليها الحديث تخترم الجيل الذي هم فيه.

(٦) ليس في الحديث ما يفيد نفي حياة أحد يولد بعد تلك الليلة مائة سنة، فمن الجائز أن يمد في عمر بعض الناس إلى مائة سنة وأكثر والأمر بيد الله سبحانه وتعالى.

(٧) في قوله ﷺ (ممن هو على ظهر الأرض) ما يفيد انتهاء جيل الصحابة بعد مائة سنة، وليس المراد انتهاء الدنيا كما زعم بعض الناس في فهمه لهذا الحديث فهماً خاطئاً. وآخر الصحابة موتاً هو أبو الطفيل عامر بن واثلة وقد مات سنة عشر ومائة وهي رأس مائة سنة من هذا الحديث، فيكون معجزة للرسول ﷺ.

١١١ ـ حدّثنا آدمُ، قال: حدّثنا شُعْبَةُ، قال: حدّثنا الحَكَمُ قال: سَمِعْتُ سَعِيدَ بنَ جُبَيْرٍ عن ابنِ عَبَّاس، قال: بتُّ في بَيْتِ خَالَتي مَيْمُونَةَ بِنْتِ الحَارِثِ زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ عندَها في لَيْلَتِها، فَصَلَّى النَّبيُّ ﷺ العشاءَ، ثُمَّ جاءَ إلى مَنْزِله، فَصَلَّى أَرْبعَ رَكَعَات، ثُمَّ نامَ، ثُمَّ قامَ، ثُمَّ قال: نامَ الغُلَيِّمُ ـ أَو كَلِمَةً تُشْبِهُها ـ ثُمَّ قَامَ، فقُمْتُ عن يَسَارِه، فَجَعَلَني عَنْ يَمينه، فصلى خَمْسَ رَكَعاتٍ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ نَامَ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ أَو خَطِيطَهُ ثُمَّ خَرَجَ إلى الصَّلاَة».

---

١١١ ـ يخبر عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه بات عند خالته ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج النبى ﷺ، وهى خالته، لأنها أخت أمه لبابة بنت الحارث الكبرى، ولبابة أول امرأة أسلمت بعد السيدة خديجة وكان رسول الله ﷺ عند السيدة ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها فى ليلتها الخاصة بها على حسب قسمة الرسول ﷺ بين أمهات المؤمنين.

فصلى النبى ﷺ صلاة العشاء فى المسجد، ثم جاء إلى منزله وهو بيت السيدة ميمونة رضى الله عنها، فصلى فى بيت السيدة ميمونة عقب دخوله أربع ركعات، ثم نام ثم قام من النوم ثم قال: نام الغليم وهذا التصغير لكلمة الغلام من قبيل الشفقة والمراد بالغليّم: هو ابن عباس، وهذا القول منه ﷺ يحتمل أن يكون استفهاماً عن نوم ابن عباس ويحتمل أن يكون إخباراً بنومه، يقول راوى الحديث: أو قال كلمة تشبه هذه الكلمة وهذا شك من الراوى.

ثم قام بعد ذلك فى الصلاة فقام ابن عباس عن يساره فجعله الرسول ﷺ عن يمينه، فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين والمراد بالركعتين هما ركعتا الفجر،

= وقيل: هما ركعتان من صلاة الليل، ولكن حمل الركعتين على سنة الفجر أولى ليكون الختم بالوتر، ثم نام الرسول ﷺ إلى أن سمع ابن عباس غطيطه وهو صوت نفَس النائم عند اشتغاله، أو خطيطه وهو بمعنى الغطيط وقال ابن الأثير: هو دون الغطيط، ثم استيقظ عليه السلام ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ، لأن من خصائص رسول الله ﷺ أن نومه مضطجعاً لا ينقض وضوءه، لأن عينيه تنامان ولا ينام قلبه صلوات الله وسلامه عليه.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل ابن عباس وقوة ذكائه وحرصه على العلم والعبادة.

(٢) جواز صلاة النافلة فى جماعة، حيث إن الرسول ﷺ لما قام ليصلى النافلة بالليل وقام عن يساره ابن عباس وهو غلام صغير فجعله الرسول ﷺ عن يمينه فصلى خمس ركعات وخلفه ابن عباس يأتم به وقد أقرّه على هذا.

(٣) جواز أن يصلى الإنسان مأموماً خلف مصلّ آخر لم يَنْوِ الإمامة، لأن الرسول ﷺ حين كان يصلى لم ينو الإمامة أو الجماعة وصلى خلفه ابن عباس وأقره على صلاته.

(٤) السنة فى وقوف المأموم إذا كان فرداً واحداً هو أن يقف على يمين الإمام.

(٥) جواز أن ينام الأطفال عند أقاربهم من النساء المحارم كما فعل ابن عباس حيث كان يبيت عند خالته ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها.

٤٢ - باب حفظ العلم

حَدَّثَنَا عَبْدُالعَزِيز بنُ عَبْدالله، قال: حدثنى مَالكٌ عَن ابن شهَاب عَن الأَعْرج عنْ أَبى هُريرة، قال: إنَّ النَّاسَ يَقولُونَ: أَكثَر أَبُوهُرَيْرَةَ، ولَوْلاَ آيتَان فى كتَابَ الله مَا حَدَّثْتُ حَديثاً، ثُمَّ يَتْلُو ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَات ﴾ - إلى قَوْله - ﴿ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾[1] إنَّ إخْوانَنا منَ المُهاجرين كانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بالأَسْوَاق، وإنَّ إخْوَانَنَا منَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ العَمَلُ فى أَمْوَالهم، وإنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رسول الله ﷺ بشبَع بَطْنه ويَحْضُرُ ما لاَ يَحْضُرُونَ، ويَحْفَظُ ما لاَ يَحْفَظُونَ.

١١٢ - حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بنُ أَبى بَكْرٍ أَبُو مُصْعَبٍ، قال: حدّثنا مُحَمَّدُ بنُ إبْرَاهيمَ بن دينارٍ عن ابنِ أَبى ذئبٍ عَنْ سَعيدٍ المَقْبُرِىِّ عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ، قال: قُلْتُ، يارسولَ الله. إنِّى أَسْمَعُ منْكَ حَديثاً كثيراً أَنْسَاهُ، قال: «ابْسُطْ رداءَك»، فَبَسَطْتُهُ، قال: فَغَرَفَ بيَدَيْه، ثُمَّ قال: «ضُمهُ» فَضَمَمْتُهُ، فَما نَسيتُ شَيْئاً بَعْدَهُ.

حدثنا إبْرَاهيمُ بنُ المُنْذرِ، قال: حدثنا ابنُ أَبى فُدَيْك بهَذَا أَو قال: غَرَفَ بيَده فيه.

حَدَّثَنَا إسماعيل، قال: حدثنى أَخى عن ابنِ أَبى ذئبٍ عَنْ سَعيد المَقْبُرِىِّ عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ، قال «حَفظْتُ منْ رسول الله ﷺ وعَاءَيْنِ، فَأَمَّا أَحَدُهُما فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُه قُطعَ هذا البُلْعُومُ».

---

(١) سورة البقرة - آيتا: ١٥٩، ١٦٠.

١١٢- في باب حفظ العلم أورد ما أورد عن أبى هريرة رضى الله عنه، لأنه كان أكثر الصحابة رضى الله عنهم حفظاً للحديث النبوى، ولذلك قال الشافعى رحمه الله: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى عصره، ومع كثرة ما حفظ من الحديث فإنه لم يُحدِّث بكل ما يحفظ ومع كثرة حفظه فإنه ما نسى شيئاً بفضل دعاء الرسول ﷺ له وتأمين الرسول ﷺ عندما دعا أبو هريرة وسأل ربه سبحانه علماً لا يُنْسى هذا إلى جانب تفرغه للحديث النبوى وذكائه وحرصه، وقوة حافظته.

أما دعاء النبى ﷺ، ففى حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: «كنت أنا وأبو هريرة وآخر عند النبى ﷺ، فقال: ادعوا، فدعوت أنا وصاحبى وأمّن النبى ﷺ ثم دعا أبو هريرة فقال: اللهم إنى أسألك مثل ما سألك صاحباى، وأسألك علماً لا يُنسَى، فأمّن النبى ﷺ، فقلنا: ونحن كذلك يارسول الله، فقال: «سبقكما الغلام الدوسى».

لقد قال أبو هريرة: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، أى من الحديث ويقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدِّثون مثل أحاديثه؟

ثم يقول: ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدثتُ حديثاً ثم يتلو قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾(١).

فبيَّن أبو هريرة رضى الله عنه سبب إكثاره من رواية الحديث:

أولاً: ما أشار إليه فيما يتعلق بالآيتين الكريمتين، ففيهما ذمّ من الله تعالى لمن يكتمون العلم، بل إن الله تعالى يلعن الكاتمين للعلم الذين لا يظهرونه للناس، فكتمان العلم حرام وإظهاره واجب ومن كتمه فله وعيد شديد إلا إذا تاب وأصلح وبيَّن فيتوب الله عليه.

---

(١) سورة البقرة - آيتا: ١٥٩، ١٦٠.

ثانيـاً : أن أبا هـريرة رضى الله عنه وضّح العلة فى كـثـرة روايتـه للحـديث بأن إخوانه من المهاجـرين شغلهم الصـفق فى الأسواق أى التبـايع والتجـارة ، وسـمى التبايع «صفقاً» ، لأنهم كانوا إذا تعاقدوا فى معاملاتهم وبيوعهم يضربون يداً بيد عند المعاقدة ، كما سـميت السـوق بهذا الاسم لقيامهم فيها على سوقهم . كما وضح أن الأنصـار كـانوا مشـغولين بالعـمل فى مزارعهم وأموالهم ، أما أبو هريرة رضى الله عنه ، فكان يلزم رسـول الله ﷺ لشـبع بطنه قـانعاً بالقـوت فلا يشـتغل بالزراعة ولا التجارة فكان يحضر من مجالس الرسول ﷺ ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون من أحاديث رسول الله ﷺ ولذلك كان ابن عمر رضى الله عنه يقول له : « كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأعرفنا بحديثه» (١) .

وإنما قـال : «وإن أبا هريرة كـان يلزم رسـول الله ﷺ » ولم يـقل : وإنى ، لقـصـد الالتفات لمزيد التنبيه والتوضيح والتأكيد .

وعندمـا شكا أبو هريـرة رضى الله عنه إلى رسـول الله ﷺ نسـيـانه وقـال : إنى أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه ، فقال له الرسول ﷺ : ابسـط رداءك فبسط رداءه ، فغرف الرسول ﷺ بيـديه ، وهذا أمر ليس محسـوساً حتى يغرف باليـد ولكنها معجزة لصـاحب الرسالة ﷺ وهو من الأمور التى يختص الله تعالى بها من يشاء وليس للعقل فيـهـا مـجال فلا نقـيس مـا غـرفه الرسـول ﷺ بيديه من فـيض الله وفضله ، فكأن الحفظ فى هذا التعبـير النبوى شىء يغرف منه ويوضع فى الرداء ، وهذا أمر لا يقوى العقل على تصوره ، لأنه ليس مادة وليس شيئاً محسوساً ، وإنما جاء هكذا بيـاناً للمعجزة النبـوية ولفـضل الله تعالى الذى يختص به من يشـاء من عباده .

فعندمـا أمر الرسـول ﷺ أبا هريرة أن يضـمـه فضـمـه مـا نسى شيئاً بعد ذلك و«شيئاً» فى الحديث جاءت نكرة فى سياق النفى فتفـيد العموم فى عدم نسيـان أبى هريرة رضى الله عنه لكل شىء يسمعه .

ثم يخبر أبو هريرة رضى الله عنه أنه حفظ من النبى ﷺ وعاءين أى نوعين من =

(١) رواه أحمد والترمذى .

= أنواع العلم، أما أحدهما فبثّه أى نشره، وأما الآخر فلو بثّه قطع هذا البلعوم وهو كناية عن القتل، والبلعوم هو مجرى الطعام فى الحلق وهو المرىء، وأراد أبو هريرة رضى الله عنه بالوعاء الأول الذى بثّه ونشره هو ما حفظه من أحاديث رسول الله ﷺ، وأراد بالثانى ما كتبه من أخبار الفتن وأشراط الساعة، وما أخبر به الرسول ﷺ من فساد الدين وهلاك الأمة على أيدى أغيلمة من سفهاء قريش، وقد كان أبو هريرة يقول: لو شئت أن أسميهم بأسمائهم، أو هى الأحاديث التى فيها أسماء أمراء الجور وكان أبو هريرة يكنى عن بعضهم ولا يصرح خوفاً على نفسه من عدوانهم عليه فكان يقول: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان يشير بهذا إلى خلافة يزيد بن معاوية فقد كانت خلافته سنة ستين من الهجرة، واستجاب الله دعوته فمات قبلها بعام واحد وقيل: المراد به العلم اللدنىّ أو علم الموهبة أو ما يخص الله به بعض العارفين بالله وأصحاب المجاهدات.

ما يؤخذ من الحديث

(١) الحث على حفظ العلم وطلبه والحرص عليه.

(٢) لا مانع من أن يخبر الإنسان عن فضيلة من الفضائل التى يتحلى بها إذا احتاج المقام إلى ذلك بشرط أن يأمن على نفسه الإعجاب والرياء.

(٣) أهمية الإكثار من حفظ الحديث النبوى وفضل حفظه.

(٤) النهى عن كتمان العلم وعدم نشره بين الناس.

(٥) ثبوت معجزة رسول الله ﷺ برفع النسيان عن أبى هريرة.

(٦) منقبة عظيمة لأبى هريرة.

(٧) إذا خاف من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من عدوان عليه فكف عنه فلا شىء عليه.

(٨) ليس للمحدث أن يُحدِّث الناس بكل ما يعرف

٤٣ - باب

الإنْصَات للْعُلَمَاءِ

١١٣ـ حَدَّثنَا حَجَّاجٌ، قال: حـدثنا شُعْبَةُ، قـال: أَخبـرنى عَلىٌّ ابنُ مُدْرِكٍ عنْ أَبى زُرْعَةَ عنْ جـرير أَنَّ النبىَّ ﷺ قال لَهُ فى حَجَّة الوَدَاعِ: « اسْتَنْصِتِ النَّاسَ » فقال: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِى كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ».

١١٣ـ الإنصات للعلم هو السكوت والاستماع والسكون، وقد طلب النبى ﷺ من جرير أن يستنصت الناس، بأن يوجههم إلى السكوت، لأن جموعهم فى حجة الوداع كانت كثيرة وكانوا يجتمعون لرمى الجمرات ولغير ذلك من المناسك، فأراد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أن ينصتوا ويسكتوا فطلب ذلك، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وكان هذا القول فى حجة الوداع وعند جمرة العقبة حيث كان الناس مجتمعين لرمى الجمرة.

والسين والتاء فى قوله: «استنصت» للطلب أى: اطلب من الناس أن يسكتوا ثم قال: «لا ترجعوا» أى: لا تصيروا ولا تتحوّلوا «بعدى» أى بعد موقفه هذا، أو بعد موته ﷺ حيث يلحق بالرفيق الأعلى، لا ترجعوا بعد ذلك كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنهم إن فعلوا ذلك تشبهوا بالكفار فى قتل بعضهم بعضاً، =

= وقد أورد الإمام النووى رحمه الله تعالى أوجهاً فى ذلك هى :
أحدها : أن ذلك كفر فى حق المستحل بغير حق .
ثانيها : المراد كفر النعمة وحق الإسلام .
ثالثها : أنه يقرب من الكفر ويؤدى إليه .
رابعها : أنه حقيقة الكفر ، ومعناه : دوموا مسلمين .
خامسها : حكاه الخطابى أن المراد بالكفار المتكفرون بالسلاح يقال للابس السلاح : كافر .
سادسها : لا يكفر بعضكم بعضاً فتستحلوا قتال بعضكم بعضاً .
فالحديث يحذر فيه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أشد التحذير من جريمة العدوان على النفس الإنسانية وقتال الإنسان لأخيه الإنسان بغير حق ويُنفّر من ذلك بصورة يشبه فيها الذى يُقدم على مثل هذه الجريمة بمن خرج من الإسلام وصار كافراً ، وتحول من الإيمان إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

ما يؤخذ من الحديث

(١) ضرورة الإنصات إلى العلماء وتوقيرهم واحترامهم .
(٢) التحذير من الفتن ومن قتال المسلمين بعضهم لبعض .
(٣) النهى عن الكفر وعن الرجوع إلى خصال الجاهلية الأولى .
(٤) حرمة النفس الإنسانية والمحافظة عليها .

٤٤ - باب

ما يُسْتَحَبُّ للعالم إذا سُئلَ أَيُّ النَّاس أَعْلَمُ؟ فَيَكلُ العِلْمَ إلَى الله.

١١٤ - حدثنا عَبْدُ الله بنُ مُحمَّد، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنا عَمْرٌو، قال: أخبرني سعيد بنُ جُبَير، قال: قُلْت لابن عَبَّاسٍ: إنَّ نَوْفاً البَكَاليَّ يزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنى إسْرَائيل، إنَّما هُوَ مُوسَى آخَرُ، فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ الله، حدثنا أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ عن النبيِّ ﷺ «قام مُوسَى النَّبيُّ خَطيباً في بَني إسْرَائيلَ، فَسُئلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فقالَ: أَنَا أَعْلَمُ،

---

(١١٤) لقد مر هذا الحديث برواية سابقة في «باب الخروج في طلب العلم» ولكنه أورده هنا في «باب ما يُستحب للعالم إذا سئل: أيُّ الناس أعلم؟ فيكل العلمَ إلى الله» فوضح هنا ما يستحب أن يقال.عند مثل هذا السؤال وهو أن يكل العالم العلم إلى الله تعالى.

وفي هذا الحديث أخبر الرسول ﷺ أن موسى عليه السلام وقف خطيباً في بني إسرائيل يُذكِّرهم أيام الله تعالى ونعمه التي أنعم بها عليهم وبلاءه واختباره الذي اختبرهم به، وبنو إسرائيل هم أولاد يعقوب عليه السلام وهم اثنا عشرابناً، وكل واحد منهم جاء من نسله قبيلة، وهذه القبائل يطلق عليها اسم الأسباط.

ولما سئل موسى عن أعلم الناس فقال: أنا، فآخذه الله حيث عتب عليه إذ لم يرد العلم إلى الله تعالى، فكان عليه أن يقول لمن سأله عن أعلم الناس؟ الله أعلم.

والمراد بعتاب الله تعالى عليه هو التأديب والتعليم فأوحى الله تعالى له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين هو أعلم، وفي بعض الأحاديث: بلى عبدنا خضر. =

فعَتَبَ اللّهُ علَيْه، إذْ لَمْ يَرُدَّ العلْمَ إلَيْه، فَأَوْحَى اللّهُ إلَيْه: أَنَّ عَبْداً مِنْ عِبادى بمَجْمَعِ البَحْرَيْن، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قال: يارَبِّ وكَيْفَ به؟ فَقيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتاً فى مِكْتَل فإذا فَقَدتَهُ فَهْوَ ثَمَّ، فانطَلَقَ وانْطَلَقَ بفَتَاهُ يُوشَعَ بن نُون، وَحَمَلا حُوتاً فى مِكْتَل، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَة، وَضَعَا رُءُوسَهُما وَنَامَا، فانْسَلَّ الحُوتُ مِنَ المِكْتَلِ، فاتخَذَ سَبيلَهُ فى البَحْرِ سَرباً، وكانَ لِمُوسَى وفَتَاهُ عَجَباً، فَانْطَلَقَا بَقيَّةَ لَيْلَتهما ويوْمهمَا فلَمَّا أَصْبَح قال مُوسَى لفَتَاهُ: آتنَا غَداءَنَا، لَقَدْ لَقينا مِنْ سَفَرِنَا هذا نَصَباً، ولَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا من النَّصَبِ حتَّى جاوَزَ المَكَانَ الَّذى أُمِرَ به، فَقَال لَهُ فَتَاهُ: أَرَأَيْتَ إذْ أَوَيْنَا إلى الصَّخْرَة، فإنى نَسيتُ الحُوتَ، قال مُوسَى: ذلكَ ما كُنَّا نَبْغى، فَارْتَدَّا علَى آثَارِهمَا قَصَصاً، فَلَمَّا انْتَهَيَا إلى الصَّخْرَة إذَا رَجُلٌ مسجًّى بثوب - أَوْ قَالَ: تَسَجَّى بِثَوْبِه - فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقَالَ الخَضِرُ: وَأَنَّى

= وقد ذكر فى شأن الخضر أسماء كثيرة، وصحَّح البعض أنه نبى مُعمَّر محجوب عن الأبصار، وأنه باق إلى يوم القيامة، وقيل: لا يموت إلا آخر الزمان حتى يرتفع القرآن الكريم، وقيل: إن الرجل الذى يقتله الدجال فى آخر الزمان ثم يحييه هو الخضر، ومن العلماء من قال: إنه ليس بحىّ منهم البخارى وابن المبارك وابن الجوزى، ورُوى فى سبب تسميته بالخضر، أنه جلس على فروة بيضاء فإذا بها تخضر والمقصود بالفروة هى وجه الأرض وقيل: نبات يابس، وقيل: لُقب بهذا اللقب لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله، وقال الخطابى: لُقِّب بالخضر لحسنه وإشراق وجهه هذا عن لقبه، وأما كنيته فهى: «أبو العباس» - أما اسمه: فورد فيه اختلاف فقال ابن قتيبة: (بَلْيَا) بن (مَلْكان) وقيل: ابن مالك وهو أخو إلياس وقيل: ابن آدم لصلبه رواه ابن عساكر وقيل: ابن قابيل بن آدم.

بأَرْضكَ السَّلامُ؟ فقال: أنا مُوسَى، فقال : مُوسَى بَنى إسْرَائيلَ؟ قال: نعَمْ ، قال: هَلْ أَتَّبـعُكَ على أنْ تُعَلِّمَنى مَّا عُلِّمْتَ رُشْداً؟ قال: إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مَعى صَبْراً، يا مُوسَى إنِّى عَلَى علْمٍ منْ عَلْم الله عَلَّمَنيه لا تعْلَمُهُ أنْتَ، وأَنْتَ على علْمٍ عَلَّمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ، قال: سَتَجِدُنى إن شَاءَ اللهُ صَابراً، ولاَ أَعْصى لَكَ أَمْراً، فانْطَلَقَا يَمْشيان عَلَى ساحلِ البَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفينَةٌ، فَمرَّتْ بهمَا سَفينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْملُوهُمَا، فعُرفَ الخَضرُ، فَحملُوهُمَا بغير نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْف السَّفينَة، فَنَقَر نَقْرَةً أوْ نَقْرَتَيْنِ في البَحْرِ، فقال الخَضرُ: يا مُوسَى، ما نَقَصَ علْمى وعلْمُكَ منْ علْمِ الله إلاَّ كَنَقْرَةِ هذا العُصْفُورِ فى البحرِ، فَعَمَدَ الخَضرُ إلى لَوْحٍ منْ أَلْوَاحِ السَّفينَة فَنَزَعَهُ، فقال مُوسَى: قومٌ حَمَلُونَا بغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إلى سَفينَتهِم فخَرَقْتَها، لتُغْرِقَ أَهْلَها؟ قال: أَلَمْ أَقُل إنَّكَ لَنْ

= ولما بيَّن الله تعالى لموسى أن عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منه، قال: يارب وكيف به ؟ ومجمع البحرين: هو ملتقى بحرى فارس والروم مما يلى المشرق، وقيل : بحر إفريقيا وبحر طرابلس الغرب وقيل بحر الأردن وبحر القلزم والمراد : بكون الخضر أعلم من موسى أى أعلم منه بأشياء خاصة مما علمه الله إياه من الغيوب وحوادث القدرة التى لا يعلمها الأنبياء إلا بما علمهم الله به، وما من شك فى أن موسى عليه السلام أعلم بوظائف النبوة والشريعة، ولذلك قال الخضر: إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علّمكه لا أعلمه وإن قلنا إنه ولى وليس نبياً فالنبى أفضل من الولى وهذا الذى حدث بين موسى والخضر إنما هو بإرادة الله تعالى وكانت الحوادث التى فى القصة امتحاناً واختبارا ليعتبر بها ويعتبر غيره. =

تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً؟ قال: لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ، فَكَانَت الأُولَى من مُوسَى نِسْيَاناً، فانْطَلَقَا، فإذا غُلامٌ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَان، فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِه من أَعْلاهُ فاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِه، فقال مُوسَى: أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيرِ نَفْس؟ قال: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً؟ - قال ابنُ عُيَيْنَة: وهذا أَوْكَدُ - فانْطَلَقَا حَتَّى إذا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَة اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فيها جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ ينقض فأَقَامَهُ قال الخضرُ بِيَدِه، فَأَقَامَهُ، فقال لَهُ مُوسَى: لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْه أَجْراً، قَالَ: هذا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنِكَ، قال النبيُّ ﷺ: يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا».

= فلما علم موسى من ربه سبحانه منزلة الخضر قال: يا رب وكيف به؟

فقيل له: «احمل حوتاً في مكتل فإذا فقدته فهو ثَمَّ» والمكتل: هو الزنبيل ويقال: القفة. فإذا ضاع منها فهو هناك في هذا الموضع (فهو ثم) أي هناك، فانطلق موسى عليه السلام من مكان المناجاة وانطلق مصاحباً لفتاه «يوشع بن نون» وحملا حوتاً في مكتل حتى وصلا عند الصخرة التي كانت موجودة عند ساحل البحر الموعود للقاء الخضر عنده وعندما وصلا هذا المكان وضعا رؤوسهما فناما وعندئذ انسل الحوت . أي: خرج الحوت الذي كان ميتاً قيل: أصابه ماء الحياة الذي كان عند الصخرة، وقيل: توضأ يوشع من عين الحياة فانتضح الماء عليه فعاش ووثب في الماء، فلما استيقظ موسى من نومه نسي يوشع أن يخبره بشأن الحوت، وإنما نسب النسيان في الآية القرآنية الكريمة إلى كل من موسى وفتاه في قوله تعالى: ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ [1]، إما على حدّ قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ

(١) سورة الكهف - آية ٦١.

مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾[1] وإنما يخرج من الملح ، وإما أن يكون فتاه نسى وموسى أيضاً نسى ، أما فتاه : فنسى أن يذكر لموسى ما كان من شأن الحوت وحياته ووقوعه فى البحر ، وأما موسى فنسى أن يكلم فتاه ويتعرف على حاله فاتخذ الحوت طريقه فى البحر مسلكاً فيه .

وكان هذا الحوت الميت المملّح وما جرى بشأنه عجباً ، فانطلق موسى وفتاه بقية ليلتهما ويومهما فلما أصبح الصباح وكان النهار قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا وهو ما يؤكل أول النهار لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً أى : لقينا تعباً ولم يجد موسى شيئاً من التعب حتى جاوز المكان الذى أُمِر به ، فلما جاوز وسار الليلة والغد إلى الظهر ألقى عليهما الجوع والنصب ، وعندئذ قال له فتاه (أرأيت) أى أخبرنى عما دهانى (إذ أوينا إلى الصخرة) أى إذ أتينا إليها فإنى نسيت الحوت أى فقدته أو نسيت أن أذكره بما رأيت منه وفى رواية :« وما أنسانيه إلا الشيطان بوساوسه»

ونسب النسيان إلى الشيطان تأدباً مع الله تعالى وقيل : بسبب الاستغراق فى الاستبصار أو نسبه إلى الشيطان هضماً لنفسه ، فأجابه موسى قائلاً : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ [2] أى نطلب لأن ذهابه وضياعه علامة على المطلوب ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾[3] أى : رجعا فى الطريق يقصان أى يتبعان أثرهما .

(فلما انتهيا إلى الصخرة إذا رجل مُسَجًّى) . أى : مُغَطًّى بثوبه ، ونائم «أو قال تَسَجَّى بثوبه» شك من الراوى ، وكان وجوده عند تلك الصخرة التى كانا نائمين عندها بساحل البحر ، وقيل : إنهما وجدا الخضر يصلى فى وسط البحر فى جزيرة هناك على طنفسة خضراء أى من الحشيش ، فعندما رآه موسى سلّم عليه أى ألقى عليه التحية وهى : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ويفهم من هذا أن السلام كان تحية الأنبياء وأهل الشرائع السماوية السابقة وتحية المؤمنين فى الجنة ، ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾[4] فتعجب الخضر من تسليم موسى عليه وقال له : «وأَنَّى بأرضك السلام » أى : كيف عرفت السلام فى هذه البقعة وهى

(١) سورة الرحمن - آية ٢٢
(٢) سورة الكهف - آية ٦٤
(٣) سورة الكهف - آية ٦٤
(٤) سورة الأحزاب - آية ٤٤

= لا يعرف فيها السلام، لأنها كانت دار كفر والسلام تحية أهل الإسلام وأتباع الشرائع والإيمان فأجابه موسى قائلاً: «أنا موسى» فقال الخضر له: موسى بنى إسرائيل؟ أى الذى أرسل إلى بنى إسرائيل؛ قال: نعم، وذلك لأن الخضر لم يكن يعلم أنه موسى بنى إسرائيل؟ ولذلك سأله إذ لو كان يعرفه ما سأله، ومعنى عدم معرفة الخضر به أنه مع ما سيأتى من أنبائه العجيبة فهو لا يعلم كل الغيوب، وإنما يعرف ما أطلعه الله سبحانه وتعالى عليه. فقال موسى للخضر: هل أتبعك على أن تعلمنى مما عُلّمتَ رُشداً؟ وهو ما علمه الله تعالى إياه، وكلمة «رُشداً» صفة لمصدر محذوف، والتقدير: «عُلّمتَ علماً رشداً» أى: ذا رُشد وهو ضد الغى ومعناه: الخير والسداد والهداية.

ونلاحظ هنا أن موسى عليه السلام نبى وصاحب رسالة وشريعة، ومع هذا طلب من الخضر أن يتبعه وأن يتعلم منه، فكيف يكون نبيًا ويتعلم من غيره؟ أو يكون تابعاً لغيره ليتعلم منه؟ والجواب على هذا هو أن موسى ما كان يطلب أن يتعلم من الخضر شيئاً من أمور شريعته ورسالته التى جاء بها بل يتعلم أموراً أخرى غير التى جاء موسى بها من أمور الدين وأصوله وفروعه، فليس تعلّم موسى من الخضر تعلماً مطلقاً بل يتعلم أموراً خاصة، وهذا لا مانع منه. وأيضاً فإن موسى لم يكن مرسلاً إلى الخضر.

ولما طلب موسى أن يتبع الخضر أجابه الخضر قائلاً: إنك لن تستطيع معى صبراً وأكّد الخضر ما قاله بقوله: إنك لن تستطيع معى صبراً.

وقد وضح القرآن الكريم السبب فى عدم الاستطاعة فى قول الله تعالى ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾(١) وفى هذا استبعاد منه أن يصبر موسى على ما سيراه من أمور ظاهرها مناكير وباطنها لم يسبق له إحاطة بها قال: «يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علّمكه الله لا أعلمه» والمعنى أن كل طرف لا يحيط بجميع ما يعلمه الآخر من علوم كثيرة، فقد كان الخضر يعلم من علوم الشريعة ما لا غنى لمكلف عنه كما أن موسى عليه

(١) سورة الكهف - آية ٦٨.

السلام كان على علم بالحقيقة بما لا بد منه، فأجابه موسى قائلاً: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾(١) ونرى هنا أن موسى عليه السلام قد علّق ما وعد الخضر به على مشيئة الله تعالى، ويحتمل أن يكون هذا التعليق إمّا على سبيل التيمن والتبرك، وإما لأنه كان يتوقع صعوبة الأمر، خاصة أن الخضر سبق أن قال له: إنك لن تستطيع معى صبراً، وأيضاً فإن صبر الإنسان على أمور لم يعهدْها من قبل يكون من الأمور الصعبة فَلهَذَا علّق الأمر على المشيئة.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة، وليس معهما ما يركبانه فمرت بهما سفينة فكلموهم أى باشر الكلام مع أهل السفينة موسى والخضر ويوشع، فى أن يحملوهم فيها وجاء الضمير فى الحديث بصيغة التثنية (أن يحملوهما وأيضاً فى قوله: «فانطلقا يمشيان» لأن يوشع كان تابعاً وليس مقصوداً بالأصالة، ويحتمل أنه لم يركب معهما. وفى بعض النسخ «فحملوهم» بصيغة الجمع وهى تفيد أن يوشع ركب معهما فعرف أهل السفينة الخضر وحملوهم بغير نَوْل أى بدون أجرة أو جُعْل «فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة..» فشبه الخضر علم الله تعالى وعلمهما بهذا المظهر المشاهد من العصفور الذى نقر من البحر بعض الماء فأيضاً علم الله تعالى واسع لا ينقصه أن يأخذ منه أحد إلا كنقر العصفور فى البحر فكما لا تنقص نقرة العصفور من مياه البحر شيئاً، كذلك لا ينقص علم موسى وعلم الخضر إلا كنقرة هذا العصفور فى البحر.

أما الأمور التى فعلها الخضر وقد مرت قبل ذلك فهى:

أولاً: نزعه للوح من ألواح السفينة.

ثانياً: قتله الغلام.

ثالثاً: إقامة جدار يريد أن ينقض فى قرية أبى أهلها أن يضيفوهما أما بالنسبة للأمر الأول وهو نزع اللوح من السفينة فكان من أجل دفع الظالم عن اغتصابها، وأما قتله الغلام فلأن الله طبعه يوم طبعه كافراً فلوعاش لأرهق والديه طغياناً =

---

(١) سورة الكهف - آية ٦٩.

= وكفراً، وأما إقامة الجدار فمن أجل أنه لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحاً وشاءت إرادة الله أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما، وأما كون أهل القرية لم يضيفوهما، وهو بهذا العمل أحْسَن إليهم فهذا من قبيل مقابلة السيئة بالإحسان.

والتعبير فى القرآن عن الجدار بقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ (١) يراد به أن الجدار أشرف على السقوط فالجدار لا إرادة له.

ونلاحظ فى المرة الثانية بعد قتل الغلام أن الخضر قال لموسى - عندما قال له: «أقتلت نفساً زكية بغير نفس» - قال له الخضر: «ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً» فزاد كلمة«لك» عن المرة الأولى للتأكيد والزيادة فى المكافحة بالعتاب على رفض الوصية والوصف بقلة الثبات.

ما يؤخذ من الحديث

(١) يستدل بالحديث على صحة الاعتراض بالشرع على ما لا يسوغ فيه وإن كان مستقيماً فى باطن الأمر.

(٢) استحباب الرحلة فى طلب العلم.

(٣) فضل كل من موسى والخضر عليهما السلام.

(٤) إثبات كرامات الأولياء على الرأى القائل بأن الخضر كان وليًّا ولم يكن نبياً.

(٥) جواز ارتكاب أخف الضررين عند الضرورة كما فعل الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام.

(٦) إن ما فعله الخضر لم يكن من تلقاء نفسه، وإلا فإن الله تعالى حرم قتل النفس، وإحداث ما فيه ضرر وإضرار بالغير، حيث اتضح هذا فى الآية الكريمة: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾(٢).

(١) سورة الكهف - آية ٧٧

(٢) سورة الكهف - آية ٨٢

٤٥ - باب

مَنْ سَأَلَ وهْوَ قائِمٌ عالِمًا جالِسًا

١١٥ـ حَدَّثَنَا عثمان ، قال :أخبرنا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُور عن أبى وائل عَنْ أَبِى مُوسَى ، قال : جاءَ رَجُلٌ إلى النبىِّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ما القِتَالُ فِى سَبيل الله ؟ فإنَّ أَحدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا ، ويُقَاتِلُ حَمِيَّةً ، فَرَفَعَ إليْه رَأْسَهُ ، قَالَ : ومَا رَفَعَ إلَيْه رأْسَهُ إلاَّ أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا ، فَقَالَ : مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِىَ العُلْيَا ، فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ » .

---

١١٥ - لقد كان المسلمون الأوائل يسألون رسول الله ﷺ فى جميع الأحوال وهم وُقوف أو جلوس، وهم فى سفر أو حضر، وفى هذا الحديث توجه إليه أحد المسلمين يسأله عن القتال الذى يكون حقاً فى سبيل الله، لأن دوافع الناس للقتال كثيرة فمنهم من قاتل غضباً ومنهم من قاتل حمية أى أَنَفَةً من الناس أو الأشياء وللحفاظ على الحرم ومنهم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا.

وهكذا... تعددّت دوافع الناس ونواياهم ولا يعلم ما فى القلوب إلا الله سبحانه وتعالى، فعندما كان السائل قائماً وكان الرسول ﷺ جالساً، عندئذ رفع الرسول ﷺ رأسه عناية بسؤال السائل وزيادة في الانتباه إليه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً فأجابه الرسول ﷺ مقرّراً له حقيقة من الذى يكون قتاله فى سبيل الله، فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله، ومعنى «كلمة الله» أى : دعوته إلى الإسلام أو هى كلمة الإخلاص، ويدخل فى ذلك من قاتل من أجل الثواب ورضا الله سبحانه وتعالى.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل الجهاد في سبيل الله، حيث كان من أجل إعلاء كلمة الله.

(٢) أهمية الإخلاص في الجهاد، لأن الله لا يقبل من العلم إلا ما كان خالصاً.

(٣) جوامع كلم رسول الله ﷺ حيث جاءت إجابته مع قلة كلماتها شاملة معاني كثيرة.

٤٦ - باب

السُّؤَالِ والفُتْيا عِنْدَ رَمْيِ الجِمَارِ

١١٦ـ حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيمٍ ، قال : حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بنُ أَبِى سَلَمَةَ عَنِ الزُّهرِىِّ عَنْ عِيسَى بنِ طَلْحَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو ، قال : « رَأَيْتُ النَّبِىَّ ﷺ عِنْدَ الجَمْرَةِ ، وهُوَ يُسْأَلُ ، فَقَالَ رَجلٌ : يا رسولَ اللهِ ، نَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِىَ ، قَالَ : ارْمِ ولا حَرَجَ ، قَالَ آخَرُ : يا رسولَ اللهِ ، حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَنْحَرَ ، قال : انْحَرْ ولاَ حَرَجَ ، فَمَا سُئِلَ عَنْ شَيءٍ قُدِّمَ ولا أُخِّرَ إلاَّ قَالَ : افْعَلْ ولاَ حَرَجَ » .

---

١١٦ – رأى عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما رسول الله ﷺ عند الجمرة ، أى جمرة العقبة الكبرى التى يرميها الحجاج يوم النحر حالة كونه ﷺ يُسأل من المسلمين عن أحكام الحج وما قد يفعله البعض من تقديم وتأخير فيها ، فما منع الرسول ﷺ اشتغاله بالطاعة من أن يسأل عن العلم وعن بعض الأحكام.

فقال رجل : يا رسول الله نحرت قبل أن أرمى ، أى نحر هديه ، فذبحه قبل أن يرمى جمرة العقبة الكبرى فيريد أن يعرف حكم هذا التقديم للنحر والتأخير للرمى ، فأجابه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بقوله : ارْم ولا حرج ، فلا إثم على أحد فى مثل هذا التأخير .

فجاء آخر فسأل قائلاً: يا رسول الله حلقت قبل أن أنحر؟ أى: أنه سأل عن تقديم الحلق على نحر الهدى فأجابه قائلاً: انحر ولا حرج، فما سئل عن شىء قُدِّم ولا أُخِّر إلا قال: افعل ولا حرج.

وفى هذا كله دلالة على سماحة التشريع الإسلامي ودقة حكمته، ويُسْره على العباد، فلا حرج فيه ولا مشقة، فلا يؤثر تقديم نحر الهدى على رمى جمرة العقبة، ولا يؤثر تقديم الحلق على النحر، بل كل هذه الأمور وأمثالها لا يضر فيها التقديم والتأخير، ولا إثم على من قَدَّم أو أَخَّر، لأن الرسول ﷺ قال: « افعل ولا حرج ».

وجاء في الحديث أن الرسول ﷺ كان عند الجمرة ولم يرِدْ أن سؤال السائل كان في حال اشتغاله بالرمى، إلا أنه يفهم منه استفادة جواز السؤال أثناء الاشتغال بالرمى، لأن قوله «عند الجمرة» أعم من أن يكون مشتغلاً بالرمى أو عندها ولكنه غير مشتغل بالرمي، كما وضح لنا هذا الحديث أن الأصل فى هذه المناسك هو أن نقدم ما جاء مقدماً ونؤخر ما جاء مؤخراً، فإذا احتاج الإنسان إلى تقديم وتأخير فلا حرج عليه بنص هذا الحديث، ولكن لا يفيد الحديث التسوية بصفة عامة وانتفاء هذا الترتيب.

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز السؤال والفتيا عند رمى الجمار، وسؤال المشتغل بشىء ما إذا كانت هناك حاجة.

(٢) جواز التقديم والتأخير لبعض المناسك كالوارد فى الحديث.

(٣) يسر التشريع الإسلامى وسماحته ودقة تشريعه.

(٤) جواز سؤال العالم على قارعة الطريق إذا كان السائل محتاجاً لعلمه ولا نقص فيه على العالم ولا لوم على السائل.

(٥) يستثنى من المحافظة على الرامين والتضييق عليهم ما كان للسؤال وتلقى فتوى تتعلق بهذه العبادة.

٤٧ - باب

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ (١).

١١٧ـ حَدَّثَنَا قَيْسُ بنُ حَفْصٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَاحِد ، قَالَ : حَدَّثَنَا الأَعْمَش سُلَيْمَانُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ : « بَيْنَا أَنَا أَمشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي خَرِبِ المَدِينَةِ ، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ ، فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لاَ تَسْأَلُوهُ ، لاَ يَجِيءُ فِيهِ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَنَسْأَلَنَّهُ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ : يَا أَبَا القَاسِمِ ، مَا الرُّوحُ ؟ فَسَكَتَ ، فَقُلْتُ : إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ ، فَقُمْتُ ، فَلَمَّا انْجَلَى عَنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ قَالَ الأَعْمَشُ : هَكَذَا فِي قِرَاءَتِنَا .

---

١١٧ – يخبر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول: بينا أنا أمشى مع النبى ﷺ فى خَرِبِ المدينة، أى: فى الأماكن الخربة من المدينة، وفى رواية « فى حرث المدينة » وهو يتوكأ على عَسِيبٍ، وهو غصن من جريد النخل فمر بنفر من اليهود، والنفر من ثلاثة إلى عشرة، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، أى: =

---

(١) سورة الإسراء (٨٥).

= طلب بعضهم من بعض أن يسألوا النبى ﷺ عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه لا يجيء بشيء تكرهونه، أى خشية أن يجيء فيه بشيء تكرهونه، و«لا» زائدة، فأقسم بعضهم لبعض أن يسأله، وهذا القسم فهم من اقتران جملة الجواب بلام القسم: «فقال بعضهم: لنسألنّه أى عن الروح، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ والروح ورد فى القرآن الكريم بعدة معانٍ: منها القرآن، وجبريل أو ملك غيره وعيسى، وإذا كان لكلمة الروح معانٍ كثيرة فإن السؤال عنها مشكل إذ لا يعلم مرادهم، والمتبادر أن يكون سؤالهم عن الروح، بمعنى حقيقة الروح الذى به الحياة فى الإنسان والحيوان.

ومما روى فى شأن اليهود وتوجههم بالأسئلة إلى رسول الله ﷺ أن اليهود قالوا لقريش: إن فسر الروح فليس بنبى، ومن أجل هذا قال بعضهم: لا تسألوه لا يجيء بشيء تكرهونه أى إن لم يفسره لهم، لأنه من المعلوم أنه يدل على نبوة الرسول ﷺ وهم يكرهونها، فلما سأل اليهود رسول الله ﷺ عن الروح، سكت فقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «إنه يوُحَي إليه فقمت» وإنما قام عبد الله ابن مسعود حتى لا يشوّش عليه، أو أنه قام حائلاً بينه وبينهم «فلما انْجلى عنه» أى انكشف عن الرسول ﷺ ما كان يُعانيه عند نزول الوحى قال: ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتوا من العلم إلا قليلاً أى أن الروح لا مادة لها بل هى من أمر الله تعالى الذى يقول للشيء كن فيكون، فالروح لدقتها لا يعلم بها إلا بعوارض تميزها فلم يوضح ماهية الروح لدقتها ولا يدرك كنهها إلا خالقها سبحانه وتعالى.

وقد خاض كثير من العلماء والمفكرين والفلاسفة فى أمر الروح، ويرى المتكلمون من أهل السنة. أنها جسم لطيف فى البدن سارٍ فيه سريان الماء فى العود الأخضر، وعن الأشعرى أنها النفَس الداخل الخارج وإنما جاء فى الحديث قوله: «وما أوتوا من العلم إلا قليلاً» بصيغة الغائب وهى عبارة تخالف ما جاء فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1] لأنها لم

---

(١) سورة الإسراء (٨٥).

تذكر فى الحديث كآية بل للبيان وتوضيح قلة العلم بالنسبة إلى علم الله تعالى، وفى بعض النسخ «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» كما جاء فى المصحف الشريف.

ومع ما ورد فى شأن الروح من معان كثيرة مثل ما به حياة الإنسان والحيوان أو جبريل أو عيسى أو القرآن أو خَلْق عظيم روحانى أو غير ذلك من المعانى التى جاءت كلمة الروح بها إلا أن الأصح فى وجهة نظرنا هنا أن المراد بالروح: حقيقة ما استأثر الله تعالى بعلمه.

ما يؤخذ من الحديث

(١) ليست الروح مادة بل هى من الإبداعات الكائنة بـ«كن»

(٢) أن معلومات الله لا حد لها ولا نهاية فهو سبحانه يعلم كل شىء، لأنه خالق كل شىء فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، وأما الذى أوتيه الخلق من العلم مهما كثر فهو قليل بالنسبة لما يعلمه الله تعالى

(٣) طبيعة اليهود وما جُبلوا عليه فى كل عصر من العصور من المراوغة والعناد

(٤) إن واجب العلماء أن يتواضعوا، وأن يوقنوا بأنهم لا يعلمون إلا قليلاً وأن الخلق من إنس وجن وملائكة ورسل لا يدركون جميع ما عند الله ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء.

٤٨ - باب

مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الاخْتِيَارِ مَخَافَةَ أَنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بَعْضِ النَّاسِ عَنْهُ فَيَقَعُوا فِي أَشَدَّ مِنْهُ .

١١٨ - حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بنُ مُوسَى عنْ إسْرائيلَ عَنْ أَبِي إسْحَاقَ عَنِ الأَسْود ، قالَ : قالَ لي ابنُ الزُّبَيْرِ : كَانَتْ عائِشَةُ تُسرُّ إلَيْكَ كثيراً فَمَا حَدَّثَتْكَ فِي الكَعْبَة ؟ قُلْتُ : قَالَتْ لي : قالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يا عائشَةُ لَوْلاَ قَوْمُك حَديثٌ عَهْدُهُمْ - قال ابنُ الزُّبَيْرِ : بكُفْر - لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ ، فَجَعَلْتُ لَهَا بابَيْن : بابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ ، وباب يَخْرُجُونَ » فَفَعَلَهُ ابنُ الزُّبَيْرِ .

١١٨- هناك أمور اختيارية ،يكوُن الإنسان مخيّراً حيالها بين فعل بعضها وترك البعض الآخر أو العكس، فهو بالخيار، ولكنه حين يكون فعل البعض سبباً فى الوقوع فى حرج بسبب قصور فهم بعض الناس يكون الترك أوْلى.

فنقض بناء الكعبة وبناؤها من جديد وجعل بابين لها أحدهما للدخول والآخر للخروج هذا خيار من الخيارات، وتركها على ما هى عليه خيار آخر ،فأى الاختيارين أولى، إن الرسول ﷺ يتمنى الخيار الأول، ولكنه يتركه إلى الخيار الثانى وأن تبقى على ما هى عليه فلا ينقضها ولا يبنى لها بابين باباً للدخول وآخر للخروج ، والسبب فى تركه هذا وإيثاره لما كان عليه بناء الكعبة، مخافة أن يقصر فهم البعض فيترتب على ذلك الوقوع فى أشد منه، وذلك لأن القوم حديث

= عهدهم» أو كما قال ابن الزبير« بكفر » أى : كانوا حديثى عهد بكفر ، فإذا رأوا هدم الكعبة وتغيير وضعها يتأثرون بذلك ، ويفهمون هذا الإصلاح فهماً خاطئاً .

وفى بعض الروايات(بجاهلية) بدل (بكفر) يعنى لولا أهلك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة أى هدمتها وجعلت لها بابين «ففعله ابن الزبير » أى أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه جعل الكعبة على ما أراد رسول الله ﷺ وقد اشتمل الحديث على المعنى المراد من الترجمة ،لأن قريشاً كانت تعظم أمر الكعبة تعظيماً كبيراً جداً ، فخشى الرسول ﷺ أن يظنوا بسبب قرب عهدهم بالإسلام أنه غيَّر بناءها لينفرد بالفخر عليهم فى ذلك .

ما يؤخذ من الحديث

(١) ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم البعض عنه .
(٢) حرمة الكعبة المشرفة ومكانتها فى الإسلام
(٣) المراعاة لأحوال الناس .
(٤) ترك المصلحة لأمن الوقوع فى المفسدة
(٥) ترك إنكار المنكر خشية أن يقع الإنسان فى منكر أشد منه
(٦) على الإمام أن يقود رعيته ويسوسها بما فيه إصلاحهم ولو كان الأمر الذى يسوسهم به مفضولاً ما لم يكن محرماً .

٤٩ - باب

مَنْ خَصَّ بِالعِلْمِ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَن لاَ يَفْهَمُوا

وقَالَ عَلِيٌّ : حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟ .

حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بنُ مُوسَى عَنْ مَعْرُوفِ بنِ خَرَّبوذٍ عَنْ أَبى الطُّفَيْلِ عَنْ عَلِيٍّ بِذَلِكَ .

١١٩ – حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بنُ إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا مُعَاذُ بنُ هِشَامٍ ، قَالَ : حدَّثنى أَبِى عَنْ قَتَادَةَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَنَسُ بنُ مَالك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ومَعَاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ قالَ « يا مُعَاذ بنَ جَبَلٍ ، قَالَ : لَبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ وسَعْدَيْكَ ، قَالَ : يا مُعَاذُ ، قَالَ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ ثلاثاً ، قَالَ : ما مِنْ أَحدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ عَلى النَّارِ ، قَال : يا رسولَ اللهِ ، أَفَلاَ أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا قَالَ : إِذًا يَتَّكلُوا » وأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا .

---

١١٩ – إن هناك من الأحاديث النبوية الشريفة ، ما كان يخص رسول الله ﷺ بها بعض أصحابه دون غيرهم مخافة أن لا يفهم غيرهم المراد بها أو أن يتكلوا عليها فيترخّصوا بسببها ، أما إذا كان من يحدثهم ممن لا يترخّصون ولا يُخشى عليهم الاتكال عليها فإنه يصح أن نُخبرهم بها ونحدثهم بها كما حدَّث الرسول ﷺ معاذ بن جبل رضى الله عنه .

فقد كان معاذ بن جبل رضى الله عنه يركب رديف النبى ﷺ أى خلفه على الرحل، وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب، وهو للبعير أصغر من القتب أى الرحل الصغير على قدر سنام البعير.

فناداه الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ثلاث مرات قائلاً: يا معاذ بن جبل ويجيبه معاذ قائلاً: لبيك يارسول الله وسعديك ثلاثاً وإنما ناداه الرسول صلوات الله وسلامه عليه، مع أنه كان معه ويركب خلفه وكان قريباً منه ويسمع ما يقول، ليؤكد له أهمية ما يقول، وليلفت انتباهه ليعى بدقة هذا التوجيه وتلك البشارة العظيمة.

ومعنى: «لبيك يا رسول الله وسعدَيك» إجابة لك بعد إجابة وإسعاداً بعد إسعاد.

قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار» أى يشهد ناطقاً بلسانه مصدقاً بقلبه وإنما خص رسول الله ﷺ معاذاً بهذه البشارة دون غيره، مخافة أن يقصد غيره فى العمل ويتقل على البشارة.

ويتبادر للذهن من هذه البشارة التى وردت فى هذا الحديث تعارض ذلك مع ما هو معلوم من النصوص والأدلة الشرعية بأن هناك طائفة من عصاة الموحّدين يدخلون النار ثم يخرجون بالشفاعة ويُجَاب على هذا بأن الذى يكون من أهل هذه البشارة هو من يأتى بالشهادتين ويموت عليهما موحّداً وتائباً لله سبحانه وتعالى.

ويحتمل أن يكون المراد بالتحريم على النار هو تحريم خلوده فى النار، لا أصل الدخول فيها، أو أنه خرج مخرج الغالب، إذ أن الغالب أن يكون الموحّد قائماً بالطاعات مجتنباً للمعاصى، أو أن ذلك لمن قال الشهادتين وأدّى حقهما وفريضتهما.

=

قال معاذ بن جبل رضى الله عنه: يا رسـول أفلا أخبر به الناس فيستبشرون؟ وجاء بلفظ (فيستبشروا) بحذف النون على النصب بتقدير فأن يستبشروا وفى نسخة «فيستبشرون» بالنون فقال له الرسول ﷺ: «إذاً يتّكلوا» أى لو بشّرهم معاذ بذلك يَتّكلُون على الشهادة المجرّدَة وفى بعض النسخ «إذاً يَنْكُلُوا» من النكول وهو الامتناع «وأخبر بها معاذ عند موته تأثُّماً» أى: تجنباً للإثم إن كتم الإخبار بهذه البشرى، فيكون كاتماً لما أمر الله به من التبليغ فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾(١).

والذى يتضح لنا من الحديث عند نهاية حياة معاذ وإخباره بهذه البشرى مخافة أن يأثم بكتمان العلم أنّ إخباره بالبشرى لا يتفق مع نهى الرسول ﷺ له عن الإخبار بها مخافة أن يتكل الناس عليها؟ ونجيب على هذا بأن النهى عن الإخبار بالبشرى مقيدٌ بالاتكال أى أنه لا يخبر بها من يعلم أنه يتكل عليها فلا يعمل، أما الذى يأمن عليه عدم الاتكال وأن البشرى لا تمنعه من العمل فلا مانع أن يخبره بها، فحيث زال قيد الاتكال زال المقيّد وهو الإخبار بهذه البشرى بالجنة وتحريم دخول النار على من مات موحّداً ناطقاً لسانه بالشهادتين مصدقاً قلبه بهما.

وهناك احتمال آخر، وهو أن يكون معاذ رضى الله عنه فهم من قول رسول الله ﷺ: «... إذاً يتكلوا» أنه نهى للتنزيه وليس للتحريم، فلو فهم أن هذا للتحريم ما كان ليخبر بذلك.

وهناك رواية أخرى للحديث، ورد فيها أن النبى ﷺ أذن لمعاذ فى التبشير بذلك، فلقيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال: لا تعجل ثم دخل، فقال له: «يا نبى الله أنت أفضل رأياً إن الناس إذا سمعوا ذلك اتكلوا عليها قال: فردّه»(٢).

(١) سورة آل عمران – آية ١٨٧.

(٢) رواه البزار.

وهكذا يتضح لنا أهمية التمسك بتوحيد الله، وثمرة الصدق في الإيمان، وأرى أن الذى يشهد الشهادتين على هذا النحو من التأكيد الوارد في الحديث بكونه صادقاً فيهما من قلبه لابد أن يكون مطبقاً هذا الإيمان عملاً بالأركان واتباعاً للشرع وطاعة لله سبحانه وتعالى.

كما أن إخبار معاذ عند موته بالبشارة حيث لا يكون هناك اتّكال ممن يخبرهم بها، وأن يُراعى الناس عدم الاتكال عليها هو اجتهاد منه وفهم للحديث مقبول والله أعلم.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فى الحديث دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يُذكَر عند العامة.

(٢) أن للعالم أن يخص بعض الناس بحديثه دون بعض مخافة أن لا يفهم الناس المراد بذلك، وهذا يؤكد أن معاذاً رضى الله عنه أخبر عند موته من لا يتكل على البشارة.

(٣) على العالم أن يُحدِّث الناس بما يمكن أن يفهموه حتى لا يكون هناك ما يدعو إلى ادّعاء البعض عدم صحة الحديث أو أن يفهمه الناس خطأ كما قال الإمام على كرم الله وجهه: «حدّثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكذّب الله ورسوله»؟ ومعنى (بما يعرفون) أى بما يفهمون وكما قال ابن مسعود رضى الله عنه: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

(٤) منقبة عظيمة لمعاذ رضى الله عنه، وبيان لمكانته عند رسول الله ﷺ، حيث خصه بذلك.

(٥) فضل الشهادتين لمن يقولهما صدْقاً من قلبه ويعمل بحقهما.

(٦) الحث على الطاعة والعمل وعدم اتّكال الناس.

(٧) إثم كتمان العلماء لعلمهم وعليهم أن يُعلّموا الناس وأن يبلغوا العلم.

ما يؤخذ من الحديث

(٨) جواز ركوب اثنين على الدابة حيث كانت قوية قادرة.

(٩) تكرار السؤال والجواب والكلام والتوجيه بقصد بيان المعنى وتوضيحه، وتأكيد الأمر الذى يراد.

(١٠) جواز استفسار الإنسان من الإمام أو من العالم عن الأمر الذى يتردّد فيه، حيث سأل معاذ رضى الله عنه رسول الله ﷺ قائلاً: «أفلا أخبر به الناس؟»

(١١) بشارة الرسول ﷺ للمؤمنين الموحدين الصادقين بالجنة والبعد عن النار، فهم بلا شك يعملون بما يقتضيه إيمانهم فيطيعون ربهم ولا يعصونه.

(١٢) الحث على عدم الاتكال بالبشرى ومضاعفة العمل ليحظى الإنسان بعفو الله سبحانه وتعالى ورحمته فى الآخرة.

(١٣) تواضع الرسول ﷺ.

(١٤) الاستئذان عند إرادة ما يعلمه وحده لإرادة نشره وتبليغه.

(١٥) الإمساك عن تبليغ ونشر ما يكون ظاهره الذى ليس مراداً يقوى بدعة وعدم نشره عند من يخشى عليه أنه يأخذ بالظاهر من الأمور.

١٢٠ - حَدَّثَنا مُسَدَّدٌ قال : حَدَّثَنا مُعْتَمِرٌ ، قال : سَمِعْتُ أَبي ، قال : سَمِعْتُ أَنَسًا قال : ذُكِرَ لي أَنَّ النبيَّ ﷺ قال لِمُعَاذٍ : مَنْ لَقيَ اللَّهَ لا يُشْرِكُ به شيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ قال : أَلاَ أُبَشِّرُ النَّاسَ ؟ قال : لا ، إِنِّي أَخافُ أَنْ يَتَّكِلُوا » .

---

١٢٠ - يحمل هذا الحديث البشارة لكل من مات على التوحيد ، ولم يشرك بالله شيئاً ، بأنه من أهل الجنة ، وهي بلا شك بشارة تدل على رحمة أكرم الأكرمين بعباده الموحدين الذين ماتوا وهم يؤمنون بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وعندما سأل معاذ رضي الله عنه رسول الله ﷺ قائلاً : ألا أبشر الناس ؟ أجابه قائلاً : لا ؛ إني أخاف أن يتكلوا .

ويتضح من سؤال معاذ رضي الله عنه أنه فهم أن هذه البشارة ربما لا تكون مما يُبلّغ للناس ، وأن الرسول ﷺ خصّه بذلك لأنه لا يخشى على معاذ أن يتكل على البشارة وأنها لا تمنعه من العمل ، ومن أجل ذلك سأل : ألا أبشر الناس ؟ فإذا ما أذن له بأن يُبَشّر الناس فإنه سيكون فرحاً مسروراً بما يبلغ به الناس وبما يُدخله عليهم من السرور ، ولكن الرسول ﷺ أجابه بقوله «لا» وفي هذا نهي عن أن يُبشّر الناس ، ثم وضح السبب في ذلك بقوله ﷺ : «إنّي أخاف أن يتكلوا» فمن رحمة رسول الله ﷺ ومحبته ورأفته بأمته أنه إلى جانب ما ضمن لهم من الجنة ، يريد منهم ألا ينقطعوا عن العبادة وأن يزدادوا فيها ، وألا يضيّعوها وألاّ يتكلوا على البشارة ونلاحظ في لفظ هذا الحديث أنه يختلف عن سابقه ، وذلك أن سابقه يقول : «إلا حرّمه الله على النار»

أما لفظ هذا الحديث : فيقول : «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة»

= ومعنى هذا أن من مات على التوحيد يدخل الجنة، وهذا لا يمنع من دخوله النار أولاً بسبب المعاصى مثلاً ثم يدخل بعد ذلك الجنة بالشفاعة وبكلمة التوحيد، فالإخبار بدخول الجنة فى قوله: «دخل الجنة» يحتمل دخوله الجنة من غير دخول فى النار قبل ذلك، ويحتمل دخوله الجنة بعد دخوله النار بسبب الذنوب والمعاصى ثم يدخل الجنة.

وللتوفيق بين هذين الحديثين نرى أن المطلق يحمل على المقيد هناك وهو تحريمه على النار فى قوله ﷺ فى الحديث السابق: «إلا حرمه الله على النار».

ولكن كيف يتفق هذا مع أن الأدلة القاطعة تفيد أن البعض يدخل النار من العصاة ثم يخرجون ويدخلون الجنة بالشفاعة؟ نقول: ومن أجل هذا لم يأذن الرسول ﷺ لمعاذ بالبشارة، وهناك أجوبة أخرى منها أن المراد بالتحريم على النار هو تحريم خلوده فيها لا تحريم دخوله، ومنها أن تحريم دخول النار هو على من قال الشهادتين وأدّى حقهما وما يقتضيانه من عبادات وطاعة وبُعدٍ عن الذنوب ومن توبة صادقة لله سبحانه وتعالى.

ما يؤخذ من الحديث

(١) أهمية التوحيد والتمسك به وبقوة الإيمان وعدم التزحزح عنه.

(٢) وجوب الإخلاص لله فى كل أمر فى الإيمان فلا يشرك بالله شيئاً، وفى الطاعة والعبادة فلا معبود إلا الله سبحانه وتعالى.

(٣) ثمرة قوة الإيمان والتوحيد وما يقتضيه ذلك من الطاعات سبب فى دخول الجنة.

(٤) عدم البشارة بذلك لمن يخشى عليه أنه يتكل على ذلك ولا يعمل

(٥) وجوب العمل مع الإيمان والتوحيد؛ لأن الإيمان لا يكون كاملاً إلا بالعلم فعند كماله وعدم الإشراك بالله شيئاً يكون سبباً لدخول الجنة.

٥٠- باب
الحَيَاء فِي العِلْمِ

وقال مُجاهدٌ : لا يَتَعَلَّمُ العِلْمَ مُسْتَحْيٍ ، ولا مُسْتَكبِرٌ .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ : نِعْمَ النسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدينِ .

١٢١ - حَدَّثَنَا مُحمدُ بنُ سَلامٍ ، قال : أَخبرنا أَبُو مُعَاوِيَةَ ، قال : حَدَّثَنَا هشَام عنْ أَبيه عَنْ زَيْنَب ابْنَة أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : جاءَتْ أُمُّ سُلَيْم إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فقالت : يَا رَسُولَ اللهِ ، إنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، فَهَلْ عَلَى المرْأَة منْ غُسْلٍ إِذا احْتَلَمتْ ؟ قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « إذا رَأَت المَاءَ ، فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ - تَعْنِى وجْهَهَا - وقَالَتْ : يا رسولَ الله وَتحتَلِمُ المَرْأَةُ ؟ قال : نَعَمْ ، تَرِبتْ يَمِينُكِ ، فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا ؟ » .

باب الحياء فى العلم

الحياء هو تغيُّر وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يعاب عليه من فعل أو قول. والحياء شعبة هامة من شعب الإيمان ، وهو الحياء المشروع الذى يكون فيه إجلال واحترام للأكابر ، أو يكون خوفاً من فعل أو قول يعاب الإنسان عليه ، وهذا النوع من الحياء محمود ومشروع.

وهناك نوع آخر من الحياء يكون سبباً فى ترك أمر شرعى ، وهذا النوع مذموم =

= وغير مشروع مثل حياء المسلم من السؤال عن حكم شرعى أو من الجلوس فى حلقة العلم أو الاستفسار عن أمر لا يعرف حكمه فى الدين وهكذا، فمثل هذا ليس حياء مشروعاً بل هو عجز ومهانة ، وهو الذى يعنيه مجاهد بقوله: «لا يتعلم العلم مستحى ولا متكبر».

١٢١ ـ وفى هذا الحديث توجهت أم سُليم والدة أنس بن مالك إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله إن الله لا يستحى من الحق»

أى أن الله تعالى لا يمتنع من بيان الحق، فكذلك هى لا تمتنع عن أن تسأل عما تحتاج إليه، وبهذا القول أرادت أم سليم أن تمهّد لما تريد أن تسأل عنه لتوضح عذرها فى السؤال حيث إنها ستذكر ما يستحى النساء من ذكره فى العادة بحضرة الرجال، لأن ذكر الاحتلام ونزول الماء بسببه من المرأة يدل على شهوتها ورغبتها فى الرجل ومن أجل هذا قالت لها السيدة عائشة رضى الله عنها: «فضَحْت النساء»[١].

سألت أم سليم رسول الله ﷺ قائلة له: « فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟» أى هل يجب عليها الاغتسال لو رأت فى نومها ما يحدث بينها وبين زوجها من معاشرة جنسية كالتى تحدث فى اليقظة وهى حالة الجماع؟ فأجابها رسول الله ﷺ فقال: «إذا رأت الماء» أى: إذا رأت المنى النازل منها بعد أن تستيقظ، أما إذا لم ترشيئاً فلا غسل عليها. فغطت أم سلمة وجهها.

وفى صحيح مسلم من حديث أنس أن ذلك وقع لعائشة أيضاً ويمكن الجمع بأنهما كانتا حاضرتين وقالت أم سلمة: يارسول الله وتحتلم المرأة؟ قال: «نعم تربت يمينك فبم يشبهها ولدها؟» أى أنها سألت هل ترى المرأة ماء لها وتحتلم؟ فبيّن لها النبى ﷺ بأن هذا حق ومعنى «تربتْ يمينك» أى: لصقت بالتراب وهذا كناية عن الفقر وهى عبارة اعتاد العرب جريانها على ألسنتهم دون إرادة الدعاء على الغير بها بل يريدون بها زجر المخاطب لا غير.

وأكد المعنى بدليل معتاد ، وهو كون ولد المرأة يكون فيه شَبَهٌ بأمه فماء

(١) رواه مسلم.

= الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر فإذا علا أحدهما وسبق يكون منه الشبه، وهكذا وضح الرسول ﷺ هذا الحكم الشرعى الخاص بالنساء فلا حياء فى معرفة الأحكام الشرعية والسؤال عنها للوقوف على ما يصح منها وما لا يصح.

وهناك أمور أخرى قد يبلغ الحياء بكل من السائلة ومن الرسول ﷺ ما يجعل إحدى أمهات المؤمنين تأخذ السائلة على جانب وتفصل لها الحكم حتى تفهمه، ولذا كان من ضمن الحكم الآلهية والأسباب الشرعية فى تعدّد أزواج النبى ﷺ ما كُنَّ يَقُمْنَ به من توضيح الأحكام الشرعية لبنات جنسهن.

ما يؤخذ من الحديث

(١) ترك الاستحياء من السؤال عن العلم ومعرفة الحكم الذى يريد المسلم أو المسلمة الاستفسار عنه.

(٢) طلب النساء للعلم وحرصهن على سؤال رسول الله ﷺ.

(٣) وجوب غسل المرأة إذا وجدت الماء وكذلك وجوب الغسل للرجل إذا احتلم ووجد الماء.

(٤) ثبوت الماء للمرأة، كالرجل.

(٥) ثبوت القياس وإلحاق النظير بنظيره كما جاء فى الحديث من التشبيه الوارد فيه.

١٢٢ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قال : حدَّثنى مالك عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ دينار عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُها ، وهِيَ مَثَلُ المُسْلِمِ ، حَدِّثُونِى مَا هِيَ ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فى شَجَرِ البَادِيَةِ ، وَوَقَعَ فى نَفْسِى أَنَّهَا النَّخْلَةُ - قال عَبْدُ اللهِ : فَاسْتَحْيَيْتُ - فَقَالُوا : يا رسولَ اللهِ ، أَخْبِرْنا بها ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : هِيَ النَّخْلَةُ ، قال عبدُ اللهِ : فَحَدَّثْتُ أَبِى بِمَا وقَعَ فِى نَفْسِى ، فقال : لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِى كَذَا وَكَذَا » .

١٢٢- سبق شرح هذا الحديث فى بعض المواضع فى رقم : [٥٧ ، ٥٨ ، ٦٨] فذكره فى باب : قول المحدث : حدثنا أو أخبرنا وأنبأنا وذكر ما قاله ابن عيينة بأن هذه الصيغ وصيغة « سمعتُ » تعتبر واحداً لا فرق بينها وإيراده قول ابن عيينة يدل على اختياره لرأيه.

ثم أورده فى باب : « طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم » . ثم أورده هنا فى باب : « الحياء فى العلم » وأورد فى هذا الباب سؤال أم سليم لرسول الله ﷺ : « هل على المرأة من غسل إذا احتلمت » ؟ قال النبى ﷺ : « إذا رأت الماء » . ووضح بهذا أنه ليس من الحياء المشروع والمحمود الحياء الذى يمنع صاحبه أن يتعرف على أمور دينه.

أما هنا فى هذا الحديث ، فنلاحظ أن الحياء جاء من عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فلم ينطق بالإجابة على سؤال رسول الله ﷺ ، مع أنه كان يعرفها ، ولكن الذى منعه من أن ينطق بها ، هو وجود كبار الصحابة أمثال أبى بكر وعمر وغيرهما رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ، فلم يقل : « إنها النخلة » احتراماً وتوقيراً وهيبة من هذا المجلس الذى يضم النبى ﷺ وكبار الصحابة رضى الله عنهم.

= ففي الحديث السابق كان عن الحياء في العلم من حيث عدم الاستفسار عن الأمور التي يجهلها الإنسان وهذا غير محمود، بل إن السؤال عنها أفضل كما صنعت السيدة أم سليم والسيدة أم سلمة.

وأما في هذا الحديث فالحياء لا من عدم السؤال بل من التحدث والإجابة عن السؤال حياء في وجود من هم أكبر من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

والحياء هنا كان أدباً من هذا الصحابي الجليل وتوقيراً لمن هم أكبر منه، وقد أخبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما والده وقال: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحب إليّ من أن يكون لي كذا وكذا.

ففي هذا الموطن بيان لأدب من آداب طالب العلم، ولون من ألوان التواضع عند العلماء، ألا يتجرأ الصغير في حضرة الكبير، وألا يتقدم عليه بالقول، مع أنه كان على الحق ويعرف الإجابة وما كان ليُلاَم لو قال الإجابة، بل إن أباه كان أول الفرحين به.

ولكنها أخلاق الصحابة الذين تعلموا في مدرسة النبوة رضوان الله عليهم أجمعين.

ما يؤخذ من الحديث

(١) منقبة عظيمة لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) عدم تحدّث الصغير في وجود من هو أكبر.

(٣) من الحياء في العلم ما يكون مذموماً ومنه ما يكون محموداً فالمذموم هو الذي يمنع صاحبه من أن يستفسر من العالم عما يريد حياء، والمحمود ألا يُحَدِّث في وجود من هو أكبر منه حياء منه.

(٤) فضل النخلة وأنها تشبه المؤمن في كثرة المنافع.

(٥) طرح الإمام السؤال لاختبار الانتباه والعلم.

٥١- باب

مَن استَحْيَا ، فَأَمَرَ غَيْرَهُ بالسُّؤَال

١٢٣ - حَدَّثنَا مُسَدَّدٌ ، قال : حَدَّثنَا عَبْدُ الله بنُ دَاوُد عَن الأَعْمَش عَنْ مُنْذِرٍ الثَّوْرِىِّ عنْ مُحمَّد بن الحَنَفيَّة عن عَلىٍّ ، قال : كُنْتُ رَجُلاً مَذَّاءً فأمَرْتُ المقْدَادَ أنْ يسْأَلَ النبىَّ ﷺ ، فَسَأَلَهُ ؟ فقال : « فيه الوُضُوءُ » .

١٢٣ـ قد يستحى أحد الناس أن يسأل عن الحكم فى مسألة تخصه، فيأمر غيره أن يسأل نيابة عنه.

يقول على بن أبى طالب رضى الله عنه: كنتُ رجلاً مذّاء أى أنه كان كثير المذى وهو ماء أبيض رقيق يخرج غالباً عند تحرّك الشهوة، فأمر على بن أبى طالب رضى الله عنه المقداد بن الأسود، وعرف بالنسب إليه، لأنه رباه أو كان من قبل قد تبنّاه أو حالفه أو تزوج بأمه، أما أبوه حقيقة فهو ثعلبة البهرانى، وكان رضى الله عنه من السابقين إلى الإسلام، ومات فى خلافة عثمان رضى الله عنه، أمره على بن أبى طالب أن يسأل النبى ﷺ، فسأله عن حكم المذى فقال النبى ﷺ (فيه ـ أى فى المذى ـ الوضوء) لا الغسل.

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز تكليف الغير أن يسأل عن الحكم لسبب ما من الأسباب.

(٢) أن المذى لا يوجب الغسل بل يوجب الوضوء ويجب غسل المواضع التى أصابها.

(٣) سؤال العالم من هو أعلم منه إذا كان متردّداً فى حكم ليعلم وجه الصواب فيه مؤكّداً.

٥٢ - باب

ذِكْرِ العِلْمِ والفُتْيَا فى المَسْجِدِ

١٢٤ -حدثنى قُتَيْبَةُ بنُ سَعِيدٍ ، قال : حَدَّثَنَا اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ ، قالَ : حَدَّثَنَا نافِعٌ مَوْلَى عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلاً قامَ فى المَسْجِدِ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ، مِنْ أَيْنَ تأمُرُنا أن نُهِلَّ ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « يُهِلُّ أَهْلُ المدينَةِ مِنْ ذِى الحُلَيْفَةِ ، ويُهِلُّ أَهْلُ الشَّأمِ من الجُحْفَةِ ، ويهِلُّ أَهْلُ نَجْدٍ مِنْ قَرْنٍ » وقال ابنُ عُمَرَ : ويَزْعُمُونَ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « وَيُهِلُّ أَهْلُ اليَمَنِ مِنْ يَلَمْلَمَ » وكانَ ابنُ عُمَرَ يَقُولُ : لَمْ أَفْقَهْ هذه مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ .

١٢٤-فى باب ذكر العلم والفتيا فى المسجد توضيح لمشروعية إلقاء العلم والفتيا فى المسجد، وفى هذا ردٌّ على من توقَّف فى ذلك لما يقع فى المباحثة من رفع الأصوات، فأراد بهذه الترجمة وإيراد هذا الحديث أن يبين جواز إلقاء العلم والفتيا فى المسجد، فهو مكان الصلاة والعبادة، والاشتغال بالعلم من أفضل أنواع العبادات، وكان عليه الصلاة والسلام يعقد مجالسه العلمية فى مسجده الشريف.

وفى هذا الحديث قام رجل فى المسجد النبوى فسأل رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله من أين تأمرنا أن نُهل؟ وما دام السؤال عن ذلك فى المسجد النبوى فهذا =

= يدل على أن السؤال عن مواقيت الحج كان قبل السفر من المدينة إلى مكة المكرمة لأن الرجل وهو فى المدينة يسأل عن أى مكان يهلّ منه أى يحرم منه والإهلال هو رفع الصوت بالتلبية فى الحج والمراد به الإحرام مع التلبية، يريد أن يعرف الموضع الذى يحرم منه وهو المعروف بالميقات المكانى فأجابه رسول الله ﷺ بأن أهل المدينة يُحرمون من ذى الحليفة، وهو اسم لمكان على بعد ستة أميال من المدينة ويعرف هذا المكان الآن باسم أبيار على، وكلمة حليفة واحدة الحلف وهو نبات معروف فى تلك البقاع.

كما وضح أيضاً مكان إحرام أهل الشام وهو: «الجُحْفة» وهى قرية بين مكة والمدينة على بعد خمسين فرسخاً من مكة ويحرم منها أيضاً أهل مصر والمغرب، وأما أهل نجد فمن «قرن المنازل» وهو جبل مدوّر أملس كالهضبة يطل على عرفات، قال ابن عمر رضى الله عنهما: ويزعمون أى يقولون قولاً محققاً وليس شكاً، لأن ابن عمر رضى الله عنهما سمع ذلك من رسول الله ﷺ ففى هذا ما يدل على إطلاق الزعم فى قوله «يزعمون» على القول المحقّق. «أن رسول الله ﷺ قال ويهل أهل اليمن من يَلَمْلَمْ» وهو جبل من جبال تهامة على بعد مرحلتين من مكة، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول: «لم أفقه» أى لم أفهم «هذه من رسول الله ﷺ» وهذا من شدة تحريه وورعه وهذه الأماكن هى مواقيت مكانية لأهلها ولمن يمر عليها من غير أهلها وسيأتى هذا الحديث فى الحج إن شاء الله.

ما يؤخذ من الحديث

(١) بيان المواقيت المكانية التى يُحرم منها الحجاج والمعتمرون.

(٢) لا يصح مجاوزة هذه الأماكن المذكورة دون إحرام لمن أراد الحج أو العمرة.

(٣) من جاوز هذه المواقيت دون إحرام يلزمه دم ويصح حجه.

(٤) جواز إلقاء العلم والفتيا فى المسجد.

٥٣ - باب

مَنْ أَجابَ السَّائِلَ بِأَكْثَرَ مِمَّا سأَلَهُ

١٢٥ - حَدَّثَنَا آدَمُ قال : حَدَّثَنَا ابنُ أَبِى ذِئْبٍ عنْ نافِعٍ عَنِ ابنِ عُمَرَ عَنِ النبىِّ ﷺ ، وعَنِ الزُّهْرِىِّ عنْ سالِمٍ عَنِ ابنِ عُمَرَ عَنِ النبىِّ ﷺ أَنَّ رُجلاً سأَلَهُ : ما يَلْبَسُ المُحْرِم ؟ فقال : « لا يَلْبَسِ القَمِيصَ ، ولا العمَامَةَ ، ولا السَّراوِيلَ ، ولا البُرْنُسَ ، ولا ثَوْبًا مَسَّهُ الوَرْسُ أَوِ الزَّعْفَرانُ ، فإنْ لَمْ يَجِدِ النَّعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسِ الخُفَّيْنِ ، ولْيَقْطَعْهُما حَتَّى يَكُونَا تَحْتَ الكَعْبَيْنِ » .

١٢٥ـ جاءت الترجمة فى هذا الباب لتوضيح أن الإجابة ليس بلازم أن تكون مطابقة للسؤال بل إنها إذا جاءت عامة وأفادت الإجابة عن السؤال وزيادة فذلك خير وأفضل، فإذا كان السبب خاصاً وجاءت الإجابة عامة جاز ذلك، وحمل الحكم على عموم اللفظ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقد جاء هذا الحديث برواية الإمام مسلم فى صحيحه بالسند عن مالك عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : ما يلبس المحرم من الثياب؟ فقال رسول الله ﷺ : «لا تلبسوا القمص ولا العمائم ولا السراويلات ولا البرانس، ولا الخفاف، إلا أحد لا يجد النعلين، فيلبس الخفين وليقطعهما أسفل من الكعبين، ولا تلبسوا من الثياب شيئاً مسّه الزعفران ولا الورس». =

= «القميص» ويُجمع على قمص كما يجمع على قمصان وأقمصة، وهو ما يلبس من الثوب وله ذراعان، وفي القاموس: قمصه فتقمصه أى لبسه.

و«العمامة» وجمعها: عمائم وهى ما تلف على الرأس، يقال: عممه تعميماً: ألبسه العمامة، وعمم الرجل: سود، لأن العمائم تيجان العرب كما قيل فى العجم توج.

«والسراويل» وتجمع على «السراويلات» والسراويل من الثياب ما له رِجْلان يلبس في النصف الأسفل ويذكر ويؤنث كما قال فى مختار الصحاح. قال سيبويه: سراويل واحدة وهى أعجمية عربت فأشبهت من كلامهم ما لا ينصرف فى معرفه، وهى مصروفة فى النكرة، ومن النحويين من لا يصرفه أيضاً فى النكرة، ويزعم أنه جمع سروال وسروالة.

والبرنس يجمع على «البرانس» قال ابن الأثير: هو كل ثوب رأسه منه ملتزق به. وقال الجوهرى: هو قلنسوة طويلة كان النساك يلبسونها.

«الخفاف» جمع خف، وهو ما يلبس فى الرِّجْل و «الزعفران» هو: نبت طيب الرائحة له لون يميل إلى الحمرة، وجمعه زعافر ويقال: زعفر الثوب صبغه به، «والورس» وهو: نبت أصفر طيب الريح يصبغ به ويكون باليمن ويقال: ورس الثوب صبغه بالورس.

يوضح الرسول ﷺ فى هذا الحديث ما يباح للمحرم لبسه وما لا يباح، وذلك عندما تقدم إليه رجل فسأله ما يلبس المحرم من الثياب، وعند النسائى من طريق عمر بن نافع عن أبيه: ما نلبس من الثياب إذا أحرمنا، وهذا السؤال كما أورده النسائى يُشعِر بأنه كان قبل الإحرام فأجابه الرسول ﷺ بما جاء فى الحديث ومحرمات الإحرام سبعة أمور:

أولاً: اللباس بتفصيله الآتى.

ثانياً: الطيب.

ثالثاً : إزالة الشعر والظفر .

رابعاً : دهن الرأس واللحية .

خامساً : عقد النكاح والجماع .

سادساً : سائر وجوه الاستمتاع حتى الاستمناء ، وهو إنزال المنى بأية وسيلة من الوسائل .

سابعاً : إتلاف الصيد . والحكم الشرعى إذا تطيّب المحرِم أو لبس ما نهى عنه أنه تلزمه الفدية إن كان عامداً بالإجماع .

وأما إن كان ناسياً فلا فدية عليه عند الثورى والشافعى وأحمد وإسحاق ولكن أبا حنيفة ومالكاً أوجباها .

وعند الإمام مالك والشافعى أنه لا يحرم المعصفر ، وحرَّمه الثورى وأبو حنيفة لأنه عندهما يعتبر طيباً ، ولذا فهو عندهما تجب فيه الفدية ، وأما الثوب المصبوغ بغير طيب فلا يحرم لبسه على المحرم ولكنه يكون مكروهاً .

ويتبادر هنا سؤال هو : لماذا حُرِّمت هذه الأمور على المحرم؟

وللإجابة على هذا السؤال نلقى نظرة سريعة على أول ما يقوم به الحاج ، إنه يستهل أعمال الحج بالاغتسال الظاهر فينظف جسمه ويطهره ، ثم يغسل باطنه ويطهره ، وذلك بالتوبة الخالصة النصوح ، ثم يلبس هذه الملابس الخاصة بالإحرام نقية طاهرة بيضاء متخلياً عن ملابسه الأخرى التى دخلتها الصنعة والزينة وربما قد لوثتها الأخطاء فهو يتجرد منها ومن كل زينة أو زخرف ، وينتظم مع إخوانه المسلمين فى زى واحد لا يتميز فيه إنسان عن إنسان ، إنها المساواة المطلقة ، فلا فرق بين غنى أو فقير ، ولا رئيس أو مرءوس ، وليس هناك ميزان للتفاضل إلا بتقوى الله ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1] .

والمحرم يتذكر بهذا يوم أن وفد إلى الحياة الدنيا وخرج من بطن أمه مجرداً من =

---

(١) سورة الحجرات - آية ١٣

= كل زينة، ويتذكر أيضاً يوم أن يودع الحياة ويخرج منها وهو لا يحمل معه شيئاً من الزينة أو المال إلا هذا الثوب الأبيض، بهذا كله ندرك الحكمة فى تحريم المحرمات المذكورة على المحرم.

والحكمة فى لباسه الإزار والرداء حيث يصبح بزى الإحرام هذا بعيداً عن الترفه خاشعاً خاضعاً متذكراً فى كل وقت وحين أنه محرم فيكون بذلك أقرب إلى كثرة أذكاره وأبلغ فى المراقبة والمحافظة على العبادة، والامتناع عن ارتكاب المحظورات، ومتذكراً الموت والبعث حيث يكون الناس حفاة عراة مهطعين إلى الداعى.

كما أن فى تحريم الطيب والنساء بعداً عن الترفه وعن زينة الحياة الدنيا وزخرفها حتى يكون مقصده واحداً وهو وجه الله تعالى.

وهذا الحديث يوضح لنا ظاهرة من أهم ظواهر الإحرام وهى التجرد من المخيط ومن الترف والزينة، والتجرد من كل ما نهى الله عنه كما قال تعالى: ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾(1) وهذا التجرد ظاهرة مرئية وشعار مرئى، وإلى جواره توجد ظاهرة أخرى مسموعة ينطلق بها المحرم وهى التلبية.

وفى إجابة الرسول ﷺ للسائل الذى سأله عما يلبسه المحرم بقوله: لا تلبس كذا وكذا اتضح أنه يحرم عليه لبس الأمور المذكورة ويلبس كل ما سواها والتصريح بما يلبس أولى لأنه منحصر ومحدود.

أما الملبوس الجائز للمحرم فغير منحصر وقد نبه بتحريم القميص والسراويل على كل ما كان على شاكلتهما أو فى معناهما من كل مخيط أو محيط صنع على قدر البدن أو قدر عضو منه.

كما أشار بتحريم العمائم والبرانس بتحريم كل ما كان ساتراً للرأس مخيطاً كان أو غير مخيط حتى العصابة فإنها تحرم إلا إذا احتاج إليها لشجة أو صداع فإنه يشدها كما أشار أيضاً بتحريم كل ساتر للرجل من جورب وغيره.

(1) سورة البقرة - آية 197.

والأمور السابقة تناولت جميع البدن وما يلزم له من اللباس، فمنه ما يكون خاصاً بالجسم عامة ومنه ما يكون خاصاً بالرأس ومنه ما يكون خاصاً بالقدمين وهذه الأمور إنما هى بالنسبة للرجال.

وأما المرأة: فيباح لها أن تستر كل جسدها بكل ساتر مخيطاً كان أو غيره إلا ستر وجهها ، وفى ستر يديها بالقفازين خلاف للعلماء، وقال الإمام النووى رحمه الله: قولان للشافعى أصحهما التحريم.

ونبه أيضاً رسول الله ﷺ بتحريم الورس والزعفران على تحريم ما فى معناهما، وهو الطيب، ولا يختص تحريم الطيب بنوع دون نوع، بل يحرم على الرجل والمرأة جميعاً فى الإحرام جميع أنواع الطيب، وهو كل ما يقصد به التطيب ، أما تناول الفواكه ذات الرائحة الطيبة فإنها لا تحرم لأنها لا يقصد بها الطيب ، وقد حرم على المحرم لبس الخفاف ثم قال ﷺ «إلا أحد لا يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما أسفل من الكعبين». ورواية ابن عباس وجابر «من لم يجد نعلين فليلبس خفين» ولم يذكر قطعهما.

وقال الإمام النووى رحمه الله: واختلف العلماء فى هذين الحديثين فقال أحمد: يجوز لبس الخفين بحالهما، ولا يجب قطعهما لحديث ابن عمر المصرح بقطعهما، وزعموا أن قطعهما إضاعة مال. وقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وجماهير العلماء: لا يجوز لبسهما إلا بعد قطعهما أسفل من الكعبين لحديث ابن عمر، قالوا: وحديث ابن عباس وجابر مطلقان فيجب حملهما على المقطوعين لحديث ابن عمر، فإن المطلق يحمل على المقيد، والزيادة من الثقة مقبولة، وقولهم إنه إضاعة مال ليس بصحيح، لأن الإضاعة إنما تكون فيما نهى عنه، وأما ما ورد الشرع به فليس بإضاعة بل هو حق يجب الإذعان له.

ثم اختلف العلماء فى لابس الخفين لعدم النعلين، هل عليه فدية أم لا؟ فقال مالك والشافعى ومن وافقهما: لا شىء عليه، لأنه لو وجبت فدية لبيَّنها ﷺ، وقال أبو حنيفة وأصحابه: عليه الفدية كما إذا احتاج إلى حلق الرأس يحلقه ويفدى أ. هـ.

ويلاحظ فى ذكر العمامة والبرنس أنه أراد أن يوضح عدم تغطية الرأس لا بالشىء المعتاد ولا بالنادر كالمكتل الذى يحمله على رأسه كلابس القنع، أما مجرد وضع الشىء النادر على رأسه لا على هيئة اللبس بل على هيئة الحامل لحاجة فلا يضر عند بعضهم، ولا يضر أيضاً ستر الرأس باليد، والمراد بقطع الخفين كشف الكعبين فى الإحرام، وهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم.

وبهذا ندرك قيمة الإحرام وعناية الإسلام بما يتصل به لتحقيق أهدافه وأهداف الحج بصفة عامة.

ما يؤخذ من الحديث

(١) يحرم على المحرم الحاج أو المعتمر أن يلبس شيئاً من هذه الأمور المذكورة وما فى حكمها من كل مخيط أو محيط.

(٢) يحرم على المحرم كل ما يستر من المخيط أو غيره، وكل ما يستر القدم كالحذاء والجورب.

(٣) هذه المحرمات من أنواع اللبس خاصة بالرجل، وأما المرأة فتستر جميع بدنها إلا الوجه والكفين.

(٤) يحرم على الرجال والنساء كل أنواع الطيب لأنها تَتَنَافى مع مظاهر الخشوع والخضوع.

(٥) يجوز لبس الخفين إذا لم يجد النعلين بشرط قطعهما أسفل من الكعبين وليس عليه فدية.

(٦) سؤال المسلمين رسول الله ﷺ عن كل ما يريدون فهمه.

(٧) بلاغة الرسول ﷺ حيث يجيب السائل بما كان ينبغى السؤال عنه حيث أجاب بخلاف السؤال لأن فى الإجابة بياناً لما يسأل عنه بصورة أوضح وأكمل.

(٨) تحريم لبس الثوب الذى مسّه طيب أو ورس أو زعفران.

خاتمة فى تعداد أحاديث

كتاب الإيمان ومقدمته من بدء الوحى

رأيت من تمام الفائدة أن أورد هنا ما نبه عليه الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى فى كتابه العظيم «فتح البارى» عند نهاية كتاب الإيمان حيث أورد تعداد أحاديث كتاب الإيمان ومقدمته من بدء الوحى.

وكان المتوقع أن يكون تعداد أحاديث كتاب الإيمان بعد نهاية كتاب الإيمان وقبل كتاب العلم، كما صنع الحافظ ابن حجر، ولكن رأيت أن نهاية كتاب العلم يمكن أن تكون نهاية لجزء من الشرح يجمع ويجلّد على حدة فيكون التعداد والفهارس المتصلة به فى نهايته.

وإليك ما ذكره ابن حجر رحمه الله فى بيان تعداد الأحاديث وأنواعها:

«اشتمل كتاب الإيمان ومقدمته من بدء الوحى من الأحاديث المرفوعة على أحد وثمانين حديثاً بالمكرر منها فى بدء الوحى خمسة عشر، وفى الإيمان ستة وستون، المكرر منها ثلاثة وثلاثون، منها فى المتابعات بصيغة المتابعة أو التعليق اثنان وعشرون، فى بدء الوحى ثمانية، وفى الإيمان أربعة عشر، ومن الموصول المكرر ثمانية، ومن التعليق الذى لم يوصل فى مكان آخر ثلاثة، وبقية ذلك وهى ثمانية وأربعون حديثاً موصولة بغير تكرير. وقد وافقه مسلم على تخريجها إلا سبعة وهى: الشعبى عن عبد الله بن عمرو فى: المسلم والمهاجر، والأعرج عن أبى هريرة فى: حب الرسول ﷺ، وابن أبى صعصعة عن أبى سعيد فى: الفرار من الفتن، وأنس عن عبادة فى: ليلة القدر، وسعيد عن أبى هريرة فى: الدين يسر، والأحنف عن أبى بكرة فى: القاتل والمقتول، وهشام عن أبيه عن عائشة فى: أنا أعلمكم بالله. وجميع ما فيه من الموقوفات على الصحابة والتابعين ثلاثة عشر أثراً معلقة، غير أثر ابن الناطور فهو موصول. كذا خطبة جرير التى ختم بها كتاب الإيمان والله أعلم».

خاتمة فى تعداد أحاديث

كتاب العلم

رأيت من تمام الفائدة أن أورد هنا ما نبه عليه الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى فى كتابه العظيم : «فتح البارى» عند نهاية كتاب العلم، حيث أورد تعداد أحاديث كتاب العلم على النحو التالى :

«اشتمل كتاب العلم من الأحاديث المرفوعة على مائة حديث وحديثين، منها فى المتابعات بصيغة التعليق وغيرها ثمانية عشر، والتعاليق التى لم يوصلها فى مكان آخر أربعة وهى : كتب «لأمير السرية»، و « رحل جابر إلى عبد الله بن أنيس»، و «قصة ضمام فى رجوعه إلى قومه» و«حديث إنما العلم بالتعلم» وباقى ذلك وهو ثمانون حديثاً كلها موصولة، فالمكرر منها ستة عشر حديثاً، وبغير تكرير أربعة وستون حديثاً، وقد وافقه مسلم على تخريجها إلا ستة عشر حديثاً وهى الأربعة المعلقة المذكورة، وحديث أبى هريرة «إذا وسد الأمر إلى غير أهله وحديث ابن عباس «اللهم علمه الكتاب»، «وحديثه فى الذبح قبل الرمى»، وحديث عقبة بن الحارث فى «شهادة المرضعة»، وحديث أنس فى «إعادة الكلمة ثلاثاً»، وحديث أبى هريرة «أسعد الناس بالشفاعة»، وحديث الزبير «من كذب علىَّ»، وحديث سلمة «من تقوَّل علىّ»، وحديث علىّ فى الصحيفة، وحديث أبى هريرة فى «كونه أكثر الصحابة حديثاً»، وحديث أم سلمة «ماذا أنزل الليلة من الفتن»، وحديث أبى هريرة «حفظت وعاءين» والمراد بموافقة مسلم موافقته على تخريج أصل الحديث عن صاحبيه وإن وقعت بعض المخالفة فى بعض السياقات. وفيه من الآثار الموقوفة على الصحابة ومن بعدهم اثنان وعشرون أثراً : أربعة منها موصولة، والبقية معلقة»

٤ كتاب الوضـوء

بسم الله الرحمن الرحيم

٤ - كتاب الوضوء

١ - باب ما جاء في الوضوء

وَقَوْلِ الله تعالى ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾(١) قال أبُوعَبْدالله: وبَيَّن النبيُّ ﷺ أَنَّ فَرْضَ الوُضُوءِ مَرَّةً مَرَّةً، وتَوَضَّأَ أَيْضاً مَرَّتَيْنِ، وثَلاثاً ولَمْ يَزِدْ عَلَى ثَلاثٍ وكَرِهَ أَهْلُ العِلْمِ الإِسْرَافَ فِيهِ، وأَنْ يُجَاوِزُوا فِعْلَ النَّبيِّ ﷺ.

باب ما جاء في الوضوء

الوضوء مشتق من الوضاءة وسمي بذلك، لأن المصلي إذا توضأ صار وضيئاً. وهو بضم الواو، فعل الوضوء، وبفتحها «الوَضوء» اسم للماء الذي يتوضأ به، والمراد بقوله: باب الوضوء أي ذكر أحكامه وشروطه وصفته. وأشار في ترجمة الباب بقوله: «ما جاء في الوضوء» إلى اختلاف السلف في معنى الآية الكريمة: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾(١) فقال أكثرهم: إذا قمتم إلى الصلاة محدثين فالوضوء على هذا يكون مطلوباً إذا كان هناك حدث. وقال آخرون: الأمر على عمومه إلا أن الوضوء يكون واجباً في حق المحدث، أما غير المحدث ففي حقه يكون مندوباً، وقال البعض: كان على الإيجاب ثم نسخ فصار مندوباً، روى مسلم من حديث بريدة: «كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح صلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر - رضي الله عنه -: إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله؟ فقال: عَمْداً فعلته» والمعنى أنه أراد بيان الجواز.

(١) سورة المائدة: ٦.

= أما الذى يوجب الوضوء، فقيل: يجب بالحدث وجوباً موسعاً وقيل به : وبالقيام إلى الصلاة معاً، وقيل: بالقيام إلى الصلاة فقط، للحديث الذى رواه أصحاب السنن عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة».

كما استنبط البعض من قول الله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ وجوب النيّة فى الوضوء، لأن التقدير إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

ويدل على أن الوضوء كان مشروعاً قبل الهجرة إلى المدينة حديث ابن عباس رضى الله عنهما: دخلت فاطمة على النبى ﷺ وهى تبكى فقالت: هؤلاء الملأ من قريش تعاهدوا ليقتلوك؟ فقال: «ائتونى بوضوء فتوضأ» والوضوء يكون مرة واحدة على سبيل الإيجاب بشرط أن يشمل الماء فيها جميع العضو المغسول فإذا زاد على ذلك فالزيادة مندوبة، «وتوضأ مرّتَيْن» أى حدث هذا من الرسول ﷺ «وثلاثاً» أى وتوضأ ثلاثاً «ولم يزد على ثلاث» ومما يدل على الثلاث ـ مارواه أبو داود «أن النبى ﷺ توضأ ثلاثاً ثم قال: من زاد على هذا أو نقص فقد أساء وأظلم».

«وكره أهل العلم الإسراف فى الوضوء، وأخرج ابن أبى شيبة من طريق هلال بن يساف أحد التابعين كان يقال : من الوضوء إسراف ولو كنت على شاطىء نهر.

وقال الشافعى: لا أحب أن يزيد المتوضىء على ثلاث فإن زاد لم أكرهه أى : لم أحرمه.

ويُستثنى من النهى عن الزيادة على الثلاث ما إذا بقى من العضو شىء لم يأت الماء عليه فى المرات السابقة أو فى بعضها فإنه يغسل موضعه عندئذ، ولا يسلم نفسه للوسوسة.

٢.باب

لا تُقْبَلُ صَلاةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ

١٢٦ ـ حدثنا إِسْحَاقُ بنُ إبْرَاهِيمَ الحَنْظَلِيُّ، قال: أَخْبرنا عَبْدُالرَّزَّاق، قال: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عنْ هَمَّامِ بنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقْبَلُ صَلاةُ مَنْ أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ»، قال رَجُلٌ مِنْ حَضرَمَوْتَ: مَا الْحَدَثُ يا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قال: فُسَاءٌ أَوْ ضُرَاط.

١٢٦ـ لا تكون الصلاة صحيحة ومجزئة إلا بالوضوء المشروع بالماء الطاهر أو بما يقوم مقامه كالتراب فى التيمم عند فقد الماء أو عند استعماله لعذر مَرَضِيّ، فإذا أحدث أحد، بأن وجد منه الحدث كخروج شيء من أحد السبيلين فلابد من الوضوء، وإنما خص أبو هريرة رضى الله عنه بأخص شيء، لينبه بالأخف على الأغلظ.

وذلك عندما سأله رجل من حضرموت قائلاً: ما الحدث يا أبا هريرة؟

قال: فساء أو ضراط، ولأنهما قد يقعان فى أثناء الصلاة، فأكثر من غيرهما.

وقيل: إن أبا هريرة اقتصر فى جوابه على السائل على ذلك، لأنه كان يعلم أن السائل كان يعلم ما عدا ذلك.

وأيضاً فلعل أبا هريرة كان لا يرى النقض بمثل مس الذكر ولمس المرأة والقيء ملء الفم والحجامة.

= والمراد بقوله ﷺ «لا تُقبل صلاة مَنْ أحدث حتى يتوضأ» أى: من وجد منه حدث أكبر مثل الجنابة والحيض أو أصغر مثل ما خرج من أحد السبيلين «حتى يتوضأ» أى بالماء أو بما يقوم به من التيمم عند العجز عن استعمال الماء لفقده أو بسبب المرض المانع من استعمال الماء.

والمراد بقوله: «لا تقبل» أى لا تكون صحيحة ومجزئة، وعبر عن الصحة بالقبول، لأنها مظنة القبول.

ولا يراد بالحديث أن من كان يصلى - مثلاً - ثم أحدث، وأعقب الحدث وضوءاً، أن تكون صلاته مقبولة مع أنها حَدَثَ فيها الحدث، لا يراد ذلك بل إن الصلاة التى جرى فيها حدث تبطل، فصلاة من أحدث لا تقبل حتى يتوضأ، فإذا توضأ قُبلت الصلاة التى تأتى بعد الوضوء، فالوضوء شرط لصحة الصلاة.

ما يؤخذ من الحديث

(١) لا يجب الوضوء لكل صلاة ويكفى وضوء واحد لعدة صلوات

(٢) فى الحديث دليل على أن المصلى إذا أحدث أثناء صلاته تبطل صلاته سواء ما خرج منه كان اختيارياً أو كان ضرورياً.

(٣) ويدل الحديث على أن صلاة الجنازة والعيدين وغيرهما ينطبق عليها ذلك، وحكى عن الشعبى ومحمد بن جرير الطبرى أنهما أجازا صلاة الجنازة بغير وضوء وقال بهذا أيضاً بعض الشافعية، وهو مخالف لعموم هذا الحديث بالإجماع.

(٤) أن جميع الصلوات مفروضة كانت أو مندوبة لابد فيها من الوضوء والطهارة.

(٥) يقوم التيمم مقام الوضوء عند العجز عن استعمال الماء.

(٦) بطلان الصلاة بالحدث فيها.

٣ ـ باب فضل الوضوء

والغُرُّ المُحَجَّلُونَ مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ

١٢٧ ـ حَدَّثَنَا يَحْيى بنُ بُكَيْر، قَالَ: حَدَّثَنا اللَّيْثُ عنْ خَالد عنْ سَعيد ابنِ أَبِى هِلاَلٍ عنْ نُعَيْمٍ المُجْمِرِ، قال: رَقِيتُ مَعَ أَبِى هُرَيْرَةَ عَلى ظَهْرِ المَسْجِد، فَتَوَضَّأَ فَقَالَ: إِنِّى سَمِعْتُ النبىَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أُمَّتى يُدْعَوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»

---

٣ ـ باب فضل الوضوء
والغر المحجّلون من آثار الوضوء

جاء فى بعض النسخ: «باب فضل الوضوء والغر المحجلين من آثار الوضوء» بالعطف على الوضوء والمعنى: وفضل الغر المحجلين، وأما الرواية التى هنا بالرفع «والغُرّ المحجّلون» فهو إما على سبيل الحكاية حيث جاء فى بعض طرق الحديث: «أنتم الغر المحجلون» أو أن الواو للاستئناف والغر المحجلون مبتدأ وخبره محذوف والتقدير: «الغر المحجلون لهم فضل» وأشار بهذه الترجمة إلى فضل الوضوء، وهذا الفضل يتجلى يوم القيامة كما ورد فى الحديث: «يُدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء» فتكون الغرة والتحجيل علامة لأمة الإجابة وهذه العلامة عبارة عن نور فى تلك الأعضاء بسبب إسباغ الوضوء. =

= ١٢٧ـ عن نعيم المجمر هو ابن عبدالله المدنى وقد وصف بهذا الوصف لكونه كان يبخر المسجد النبوى قال: «رقيت» أى صعدت و«المسجد» هو المسجد النبوى فالألف واللام للعهد. صعد نعيم المجمر مع أبى هريرة رضى الله عنهما على ظهر المسجد النبوى «فتوضأ» وفى رواية زيادة: [فغسل وجهه ويديه فرفع فى عَضُدَيه، وغسل رجليه فرفع فى ساقيه] وفى رواية أن أبا هريرة رضى الله عنه قال «هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ».

وبعد أن توضأ وأسبغ الوضوء وأطال الغرة والتحجيل قال: إنى سمعت النبى ﷺ يقول: «إن أمتى يدعون يوم القيامة غُرًّا محجلين من آثار الوضوء» والأمة تطلق ويراد بها أمة الدعوة وهم الذين بعث إليهم الرسول ﷺ، كما تطلق ويراد بها أمة الإجابة: وهم الذين صدقوا الرسول ﷺ وآمنوا به والمراد هنا: أمة الإجابة وهم المسلمون.

هذه الأمة، يُنادون يوم القيامة، أو يُسمَّون «غراً محجلين» وأصل كلمة الغرة: هى لمعة بيضاء تكون فى جبهة الفرس ثم استعملت فى النور والشهرة وطيب الذكر والمراد به فى الحديث ما يكون فى وجوه المسلمين الذين يسبغون الوضوء من نور، وأما التحجيل: فهو بياض يكون فى ثلاث قوائم من قوائم الفرس مشتق من الحجل وهو الخلخال، والمراد به: النور.

وكان الوضوء فى الأمم التى قبلنا، كما جاء فى حديث جريج فيمن كان قبلنا وأنه قام وتوضأ وصلى ثم كلم الغلام فهذا يدل على أن الوضوء كان موجوداً فى الأمم السابقة، وأما الذى اختصت به هذه الأمة فهو الغرة والتحجيل والمعنى أن هذه الأمة تنادى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد وهم بهذه الصفة والعلامة التى يتميزون بها وتختص بهم كما جاء فى رواية أخرى عند الإمام مسلم: «لكم سيما ليست لأحد غيركم».

إنهم يدعون بهذه الصفة «من آثار الوضوء» أى: بسبب الوضوء فَمِن بمعنى =

السببية « فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل » أي : من قدر على إطالة غرته وتحجيله فهو وإن لم يذكر التحجيل فإنه اقتصر على الغرة في قوله « فمن استطاع أن يطيل غرته » لدلالتها على التحجيل من باب الاكتفاء بالأول، وإنما خصها بالذكر لأن محلها أشرف الأعضاء وأول ما يقع عليه النظر «فليفعل» أي : ما ذكر من الغرة والتحجيل، ويحصل تحقيق إطالة الغرة والتحجيل بغسل ما زاد على ما يتيقن به كمال الواجب، فإطالة الغرة بغسل صفحتي العنق من مقدمات الرأس، والتحجيل أن يستوعب العضدين والساقين.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل الأمة الإسلامية وهي أمة سيدنا محمد ﷺ.

(٢) الحث على إسباغ الوضوء.

(٣) تطويل الغرة وهو غسل شيء من مقدم الرأس زيادة على الواجب.

(٤) مكانة أهل الوضوء والطهارة المحافظين عليها يوم القيامة.

(٥) غسل الرجلين وإسباغهما.

(٦) إطلاع الله تعالى نبيه ﷺ على بعض الأمور الغيبية المستقبلة.

(٧) قبول خبر الواحد.

(٨) في الحديث دليل على يوم القيامة وأنه سيحدث ويكون النشور.

(٩) جواز الوضوء على ظهر المسجد إذا لم يحصل منه أذى للمسجد أو لمن في داخله.

(١٠) أن الغرة والتحجيل من خصوصيات هذه الأمة وليس الوضوء من خصوصياتها - كما ورد ذلك - لما ثبت عن الأمم السابقة أنهم يتوضأون.

٤. باب

لا يَتَوَضَّأُ مِنَ الشَّك حَتَّى يَسْتَيْقِنَ

١٢٨ ـ حدثنا عَلِيٌّ قال: حدثنا سُفيان قال: حدَّثنا الزُّهْرِيُّ عن سَعِيدِ ابنِ المُسَيَّب [و] عن عَبَّاد بنِ تَمِيمٍ عنْ عَمِّه أَنَّهُ شَكَا إلى رسولِ الله ﷺ الرَّجُلَ الَّذِى يُخَيَّلُ إِلَيْه أَنَّهُ يَجِدُ الشَّيْءَ فى الصَّلاةِ، فقال: «لا يَنْفَتِلُ ـ أَو لاَ يَنْصَرِفُ ـ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتاً أَو يَجِدَ رِيحاً»

٤ـ باب لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن

يوضح فى هذه الترجمة أن الذى يشك فى نقض وضوئه وهو فى حال صلاته فلا يجب عليه الوضوء إلا بعد أن يستيقن من سبب نقض الوضوء كما اتضح هذا فى الحديث.

١٢٨ـ عن عباد بن تميم عن عمه وهو عبد الله بن زيد الأنصارى رضى الله عنهما أنه شكا إلى رسول الله ﷺ الرجلَ، وفى رواية: «أنه شُكِيَ» بالبناء للمفعول، والرجل نائب فاعل «الذى يخيل إليه أنه يجد الشيء فى صلاته» أى يشبّه عليه، والتخيّل بمعنى الظن، وهو وإن كان فى اللغة خلاف اليقين فإنه هنا أعم من تساوى الاحتمالين أو ترجيح أحدهما، والمراد بكلمة «الشيء» أى الحدث الخارج من الدبر فأجابه الرسول ﷺ قائلاً: «لا ينفتل» أى لا ينصرف «أو لا ينصرف» شك من =

= الراوى «حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً» أى حتى يسمع من دبره صوتاً أو يشم رائحة فيتحقق وجودهما أو وجود واحد منهما، وهذا حتى لا يكون هناك مجال للشك والوسوسة التى يتأذى بسببها كثير من الناس في صلاتهم، فكان هذا الحديث بياناً شافياً لمنع الشكوك والوساوس التى تتسرب إلى المسلم.

ومن هذا الحديث كانت القاعدة الفقهية التى تقول: استصحاب الأصل، وطرح الشك فعلى المسلم أن يستصحب الأصل المتيقّن وهو أنه على يقين أنه متوضىء، ويطرح الشك الذى طرأ على هذا الوضوء وهو هل خرج منه شيء أم لا؟

فعليه حينئذ أن يعمل بيقين الطهارة، أما لو كان العكس، بأن كان غير متوضىء مثلاً، وشك هل توضأ أم لا عمل باليقين وهو الأصل ووجب عليه أن يتوضأ.

وقال النووى رحمه الله تعالى: هذا الحديث أصل فى حكم بقاء الأشياء على أصولها حتى يتيقّن خلاف ذلك، ولا يضر الشك الطارىء عليها. وأخذ بهذا الحديث جمهور العلماء، ورُوِى عن مالك النقض مطلقاً، وروى عنه النقض خارج الصلاة دون داخلها.

وروى هذا التفصيل عن الحسن البصرى والأول مشهور مذهب مالك قاله القرطبى.

ما يؤخذ من الحديث

(١) دقة التشريع الإسلامي وسماحته.
(٢) الحكم على الأشياء ببقائها على أصولها إلى أن يتيقن خلاف ذلك وهذه قاعدة من قواعد الفقه الإسلامي.
(٣) ترك الاستحياء في العلم والتفقه فعلى من جهل حكماً أن يسأل أهل الذكر عنه.
(٤) من كان على حال لا ينصرف إلا بوجود خلاف ذلك.
(٥) مشروعية سؤال العلماء عما يحدث من الوقائع المشتبهة التي تحتاج إلى بيان الحكم الشرعي.
(٦) قبول خبر الواحد والعمل به.
(٧) ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم حيث كانوا يشكون إلى الرسول ﷺ جميع ما كان ينزل بهم في سائر حياتهم وشئونهم.

٥. باب

التَّخْفيف في الوُضُوء

١٢٩ - حَدَّثنَا عَلِيُّ بنُ عبْدِ الله قال : حَدَّثنا سُفيانُ عنْ عَمْرو قال : أخبرني كُرَيْبٌ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ « أنَّ النَّبيَّ ﷺ نامَ حَتَّى نَفخَ ، ثُمَّ صلَّى ، ورُبَّما قال : اضْطَجعَ حتَّى نفخَ ، ثُمَّ قام ، فصلَّى » .

ثمَّ حدَّثنا به سُفيانُ مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ عنْ عَمْرٍو عنْ كُرَيْب عَنِ ابن عَبَّاسٍ قالَ : بتُّ عنْدَ خالَتي ميْمُونَةَ لَيْلَةً ، فقامَ النبيُّ ﷺ منَ اللَّيْل ، فَلمَّا كانَ في بَعْضِ الليْلِ قَامَ النبيُّ ﷺ ، فتَوضَّأَ من شَنٍّ مُعلَّقٍ وُضُوءًا خفيفًا - يُخَفِّفُه عَمْرٌو ويُقَلِّلُهُ - وقام يُصلِّي ، فَتوَضَّأْتُ نَحوًا ممَّا توَضَّأَ ، ثُمَّ جئتُ فَقُمْتُ عنْ يَسَاره - ورُبَّمَا قالَ سُفيانُ عنْ شِمَاله - فَحوَّلَني ، فَجعَلَني عنْ يَمينه ، ثُمَّ صَلَّى ما شاءَ اللهُ ، ثم اضْطَجَع ، فَنَامَ حتَّى نَفَخَ ، ثم أتاهُ المُنادي ، فآذَنَهُ بالصَّلاَة ، فقامَ معَهُ إلى الصَّلاة ، فصلَّى ، ولَمْ يتوضَّأْ ، قُلْنا لعمْرٍو : إنَّ ناسًا يقُولُونَ : إنَّ رسولَ الله ﷺ تنامُ عيْنُهُ ولا ينامُ قلْبُهُ ، قالَ عمْرٌو : سمعْتُ عُبَيْدَ بنَ عُمَيْر يَقُولُ : رُؤْيا الأنْبياءِ وَحْيٌ ، ثمَّ قرأَ ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾[١] .

---

(١) سورة الصافات - آية (١٠٢) .

يشير بهذه الترجمة إلى جواز تخفيف الوضوء، لأن الرسول ﷺ كان يخفف الوضوء فلا يكثر الدلك ويقلّله فلا يزيد على مرة مرة.

١٢٩ـ يخبر ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ نام حتى نفخ ثم صلى وربما قال اضطجع، ويمكن أن يكون نام مضطجعاً أو اضطجع نائماً.. وأخبر ابن عباس رضى الله عنهما أنه بات عند خالته ميمونة ليلة فقام النبى ﷺ من الليل، فلما كان الرسول ﷺ فى بعض الليل قام فتوضأ من شنّ معلق، وهو القربة العتيقة، ووصف وضوءه بأنه كان وضوءاً خفيفاً، ووصفه عمرو وصفاً يخففه ويقلّله أى: يصفه بذلك أما التخفيف فلا يكثر الدلك، وأما التقليل فلا يزيد على مرة مرة، وفى هذا ما يدل على وجوب التدليك، لأنه لو كان يمكن اختصاره لاختصره، ولكنه لم يختصره.

وأنه ﷺ قام يصلى وصلى خلفه واقفاً عن يساره فحوَّله إلى يمينه، ثم صلى ما شاء الله ثم اضطجع فنام حتى نفخ ثم أتاه المنادى فآذنه ـ أى أعلمه ـ بالصلاة، فقام معه إلى الصلاة فصلى ولم يتوضأ، لأن الرسول ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه.

ووجه الاستدلال بقوله: رؤيا الأنبياء وحى ثم قرأ: ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾[1] أن الرؤيا لو لم تكن وحياً لما جاز لإبراهيم عليه السلام أن يُقْدم على ذبح ولده وقرة عينه.

---

(١) سورة الصافات - آية (١٠٢).

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز التخفيف فى الوضوء بشرط أن يكون كاملاً .

(٢) فى الحديث دليل على إيجاب الدلك لأنه لو أمن اختصاره لاختصره .

(٣) فيه دليل على أن النوم ليس حدثاً بل مظنة الحدث لأنه ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه ، وأن نومه مضطجعاً لا ينقض وضوءه وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام فيقظة قلوبهم تمنعهم من الحدث .

(٤) جواز مبيت الطفل الصغير الذى لم يبلغ الحلم عند محرمه .

(٥) تواضع الرسول ﷺ وما كان عليه من مكارم الأخلاق .

(٦) صلة القرابة والأرحام وزيارتهم .

(٧) جواز الإمامة فى النافلة وصحة الجماعة فيها .

(٨) جواز ائتمام واحد بواحد .

(٩) موقف المأموم إذا كان واحداً على يمين الإمام .

(١٠) طلب علو الإسناد فإنه كان يمكنه الاكتفاء بإخبار خالته أم المؤمنين رضى الله عنها .

(١١) التعليم فى الصلاة إذا كان من أمرها .

(١٢) إيذان الإمام بالصلاة .

٦. باب

إِسْبَاغ الوُضُوءِ

وقالَ ابنُ عُمَرَ : إسْبَاغُ الوُضُوءِ الإنْقَاءُ .

١٣٠ ـ حَدَّثنا عَبْدُ الله بنُ مَسْلَمَةَ عنْ مَالك عنْ مُوسَى بن عُقْبَةَ عن كُرَيْب مَوْلَى ابنِ عَبَّاسٍ عنْ أُسَامَةَ بن زَيْدٍ أَنَّهُ سَمعَهُ يَقُولُ : « دَفَعَ رسولُ الله ﷺ منْ عَرفَةَ حَتَّى إذا كانَ بالشِّعْبِ نَزَلَ ، فبَالَ ، ثُمَّ توضَّأَ ولَمْ يُسْبغِ الوُضُوءَ ، فَقُلْتُ : الصَّلاةَ يا رسولَ الله ، فقالَ : الصَّلاةُ أَمامَكَ ، فَركِبَ ، فَلَمَّا جاءَ المُزْدلفةَ ، نَزلَ فَتوضَّأَ ، فأَسْبَغَ الوُضُوءَ ، ثم أُقيمَتِ الصَّلاةُ ، فَصلَّى المَغْرِبَ ، ثم أَناخَ كُلُّ إنْسَانٍ بَعيرَهُ في مَنْزِله ، ثم أُقيمَتِ العشاءُ ، فَصلَّى ، ولَمْ يُصَلِّ بَيْنَهُمَا » .

باب إسباغ الوضوء

وقال ابن عمر : إسباغ الوضوء الإنقاء

في هذا الباب بيان لكيفية إسباغ الوضوء وهو ما أشار إليه قول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، والإسباغ هو الإتمام وإيفاء كل عضو حقه.

١٣٠ـ يخبر أسامة بن زيد بن حارثة الحب بن الحب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ « دفع من عرفة » أى رجع وأفاض من عرفة ، ويوم عرفة هو اليوم التاسع من شهر ذى الحجة فيقال : عرفة اسم للزمان وعرفات اسم للمكان وسمى بهذا =

الاسم لأن آدم عليه السلام وحواء تعارفا فيه بعد أن أهبطا إلى الأرض، فإن آدم أهبط بالهند، وحواء أهبطت إلى جده ثم تعارفا في الموقف. وقيل في سبب التسمية، أن جبريل عليه السلام كان يعرّف إبراهيم عليه السلام مناسك الحج هناك، فمعنى دفع من عرفة: أي رجع من الوقوف بعرفة، حتى إذا كان عليه السلام بالشّعْب وهو الطريق في الجبل المعهود للحجاج نزل فبال ثم توضأ .

وقوله في الحديث: «ولم يسبغ الوضوء» يراد به أنه خفّفه ولم يبالغ فيه، وذلك لأنه كان متعجلاً بالدفع إلى المزدلفة، ومما يدل على أن المراد بعدم الإسباغ التخفيف لتعجله ما جاء في صحيح مسلم: «فتوضأ وضوءاً خفيفاً» فليس معنى هذا أنه لم يسبغ الوضوء على حقيقته بل إنه خفّفه على غير عادته .

(فقلت الصلاةَ) أي تريد الصلاة أو تصلي الصلاة فهو منصوب على الإغراء فقال: «الصلاة أمامك» أي: وقت الصلاة أو مكان الصلاة أمامك (فلما جاء المزدلفة نزل فتوضأ) والمزدلفة سمي بذلك، لأن الحجاج يزلفون فيها إلى الله تعالى بمعنى أنهم يتعبدون ويتقربون إلى ربهم سبحانه وتعالى.

(وأسبغ الوضوء) وإنما أسبغ الوضوء هنا ولم يسبغه هناك، لأنه هنا أراد الصلاة، وقبل ذلك لم يرد بالوضوء الصلاة بل أراد دوام الطهارة ، ومعنى أنه لم يسبغه أي: أنه خففه ولكنه وضوء كامل وصحيح إلا أنه لم يبالغ فيه وخففه.

ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب ثم أقيمت العشاء فصلى ولم يصل بينهما، أي لم يصل نافلة بينهما لاستحباب المتابعة بين صلاتي الجمع.

ما يؤخذ من الحديث

(١) مشروعية تخفيف الوضوء حيث يكون تاماً عند الضرورة والحاجة.
(٢) مشروعية إسباغ الوضوء وأهميته.
(٣) استحباب تجديد الوضوء.
(٤) استحباب التتابع بين صلاتى الجمع سواء كان جمع تقديم أو جمع تأخير.
(٥) استحباب الطهارة والوضوء عند كل حدث متى أمكن ذلك.
(٦) الإقامة لكل من صلاتى الجمع.
(٧) ترك النافلة فى السفر على خلاف بين العلماء.
(٨) صحة الدفع من عرفة إلى مزدلفة راكباً.
(٩) تخلل العمل اليسير بين الصلاتين لا يقطع نظام الجمع بينهما.
(١٠) لا يؤذن للفوائت لكن يقام لها.
(١١) عدم وجوب الموالاة فى جمع التأخير فإنه حدث فصل بين الصلاتين بإناخة كل إنسان بعيره.

٧. باب

غَسْلِ الوَجْهِ باليَدَيْنِ مِنْ غَرْفَةٍ واحِدَةٍ

١٣١ - حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ قال : أخبرنا أَبُو سَلَمَةَ الخُزَاعيُّ مَنْصُورُ بنُ سَلَمَةَ قال : أخبرنا ابنُ بلال - يَعْني سُلَيمانَ - عنْ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بنِ يَسَارٍ عن ابنِ عَبَّاسٍ « أَنَّهُ تَوَضَّأَ فَغَسَلَ وجهَهُ : أَخَذَ غَرْفَةً منْ ماءٍ ، فَمَضْمَضَ بها ، واسْتَنْشَقَ ، ثم أَخَذَ غَرْفَةً مِنْ مَاءٍ ، فجعل بهَا هكَذَا ، أَضافَها إلى يده الأُخْرَى ، فغَسَل بهما وجْهَهُ ، ثم أَخَذَ غَرْفَةً منْ ماءٍ ، فغَسَلَ بها يَدَهُ اليُمْنَى ، ثم أَخَذَ غَرفَةً منْ ماءٍ ، فَغسل بهَا يدَهُ اليُسْرى ، ثم مَسَح برأسه ، ثم أَخَذَ غَرفَةً منْ ماء فرَشَّ على رِجْله اليُمْنَى حتَّى غسلَها ، ثم أَخَذَ غَرفَةً أُخْرَى ، فَغَسَلَ بهَا رِجْلَهُ - يعْنِي اليُسْرَى - ثُمَّ قال : هكَذا رأَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ » .

باب غسل الوجه باليدين

من غرفة واحدة

يشير بهذه الترجمة إلى جواز غسل الوجه باليدين بغرفة واحدة ولا يشترط الاغتراف باليدين جميعاً ، حيث تكون كافية ما دامت تغمر الوجه ويصل الماء إلى جميع حدوده .

= ١٣١ـ توضأ ابن عباس رضى الله عنهما فغسل وجهه ففى هذا عطف المفصل وهو غسل الوجه على المجمل وهو قوله : «توضأ» ثم أخذ فى بيان الغسل على وجه الاستئناف ، أخذ غرفة من ماء ، وهى ملء الكف فتمضمض بها واستنشق ، ثم أخذ غرفة أخرى فغسل بالغرفة الواحدة وجهه ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى ، وأخذ أخرى فغسل بها يده اليسرى ثم مسح برأسه ، وفى رواية عند أبى داود زيادة : «مسح أذنيه» ثم أخذ غرفة من ماء فرش على رجله اليمنى والرش هنا قد يراد به الغسل ، ويدل على أن المراد بالرش هو الغسل قوله : «حتى غسلها» .

ثم أخذ غرفة أخرى فغسل بها رجله اليسرى ثم قال ابن عباس : « هكذا رأيت النبى ﷺ يتوضأ» والجمع بين المضمضة والاستنشاق بغرفة واحدة بأن يتمضمض من الغرفة ثلاثاً ثم يستنشق ثلاثاً كذلك وأن يتمضمض ثم يستنشق ثم يفعل هذا مرة ثانية ثم ثالثة ، وأفضل الكيفيات : أن يجمع بينهما بثلاث غرفات يتمضمض من كل غرفة ثم يستنشق .

ما يؤخذ من الحديث

(١) فى الحديث بيان لجواز غسل الوجه باليدين من غرفة واحدة ، لأن اليد الواحدة قد لا تستوعب جميع الوجه .

(٢) فى الحديث دليل على الجمع بين المضمضة والاستنشاق بغرفة واحدة .

(٣) تقديم المضمضة على الاستنشاق .

(٤) الاقتداء برسول الله ﷺ .

(٥) أن الوضوء مرة واحدة .

(٦) البدء فى الغسل باليد اليمنى ثم اليسرى وكذا فى الرجلين وأما الخدان والكفان فيطهران مرة واحدة .

(٧) أخذ الماء للوجه باليد الواحدة .

٨ . باب

التَّسْمِيةِ على كُلِّ حالٍ ، وعنْد الوِقَاع

١٣٢ - حَدَّثنَا علِيُّ بنُ عَبْدِ الله قال : حَدَّثنا جَرِيرٌ عنْ مَنْصُورٍ عنْ سالِم ابنِ أبي الجَعْدِ عنْ كُرَيْبٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ يَبْلُغُ النبيَّ ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إذا أَتَى أَهْلَهُ قال : باسْمِ الله اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيطَانَ وجَنِّبِ الشَّيْطَانَ ما رَزَقْتَنَا ، فَقُضِيَ بينَهُما ولَدٌ لَمْ يضُرُّهُ » .

باب التسمية على كل حال
وعند الوقاع

أورد فى هذه الترجمة أمرين : أما الأول فهو التسمية على كل حال .

وأما الثانى : فهو التسمية عند الوقاع أى : عند الجماع .

والأمر الثانى واضح فى نص الحديث ، أما بالنسبة للأول فيستفاد بطريق الأَوْلَى ، لأنه إذا شرع له أن يسمى عند الجماع الذى هو موضع الصمت فغيره من الأحوال الأخرى من باب الأولى والمراد بالتسمية قول بسم الله الرحمن الرحيم .

١٣٢ - «لو أن أحدكم إذا أتى أهله» المراد زوجته عند إرادة معاشرتها بالجماع ذكر الله تعالى وسمى فقال : بسم الله ودعاه قائلاً «اللهم جنبنا الشيطان» أى أبعدنا منه يقال : أجنب إذا تباعد ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝٣٥ ﴾[1] أى أبعدنا فإذا أتى الإنسان أهله للجماع فسمى الله قائلاً : =

(١) سورة إبراهيم - آية ٣٥ .

= باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقُضى بينهما ولد لم يضره، أى لم يضر الشيطان الولد فلا يكون للشيطان عليه سلطان بفضل هذا الذكر والدعاء بل يكون الولد من عباد الله الذين حفظهم الله تعالى المشار إليهم فى قول الله سبحانه ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1] ويحتمل أنه لا يضره ضرراً دينياً أو بدنياً، أولا يصرعه الشيطان، ولا يضر عقله أو بدنه.

ما يؤخذ من الحديث

(١) مشروعية التسمية فى جميع الأحوال من باب أوْلَى.

(٢) مشروعية التسمية فى حال الوقاع.

(٣) فضل التسمية والدعاء المشروع: «اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا».

(٤) التمسك بذكر الله تعالى ودعائه أن يحفظنا من الشيطان والتبرك باسم الله سبحانه.

(٥) الإشارة إلى ملازمة الشيطان لابن آدم من حين خروجه إلى العالم إلى حين موته، لأنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق فيجب الحفاظ على النفس من الشيطان والاستعاذة بالله سبحانه وتعالى منه.

---

(١) سورة الحجر - آية ٤٢ .

٩. باب

ما يقُولُ عنْدَ الخَلاَءِ

١٣٣ ـ حَدَّثنَا آدمُ قال : حَدَّثنا شُعْبَةُ عَنْ عَبْد العَزيز بن صُهَيْب قال : سَمِعْتُ أَنَسًا يَقُولُ : « كانَ النبيُّ ﷺ إذا دَخلَ الخَلاَءَ قال : اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ منَ الخُبُث والخَبَائث » .

تابَعَهُ ابنُ عَرْعَرَةَ عَنْ شُعْبَةَ .

وقالَ غُنْدَرٌ عَنْ شُعْبَةَ : إذَا أَتَى الخَلاَءَ .

وقالَ مُوسَى عَنْ حَمَّادٍ : إذَا دَخَلَ .

وقالَ سَعيدُ بنُ زَيْدٍ : حَدَّثنا عَبْدُ العَزيز : إذَا أَرادَ أَنْ يَدْخُلَ .

باب ما يقول عند الخلاء

أي : ما يقوله الداخل لمكان الخلاء وقضاء الحاجة، وذلك اقتداء برسول الله ﷺ حيث كان يستعيذ بالله من الخبث والخبائث.

١٣٣ـ يوضح أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدخل الخلاء، وهو موضع قضاء الحاجة ويُسَمّى المرحاض، والكنيف، وسُمّي خلاء، لأن الإنسان يخلو فيه، فكان يقول بعد قوله : «بسم الله» كما جاء في بعض الروايات «اللهم إني أعوذ» أي أتحصّن وألتجيء «بك من الخُبث» وهو جمع خبيث «والخبائث» جمع خبيثة، إني أعوذ بك من ذكور الشياطين وإناثهم.

= ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ حفظه الله من شرور الإنس والجن ولكنه مع هذا كان يستعيذ بالله، تعليماً لأمته وإظهاراً للعبودية لله رب العالمين كما كان عليه الصلاة والسلام إذا خرج بعد قضاء حاجته يقول: «غفرانك الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى» وفى رواية أخرى أنه كان يقول: «الحمد لله الذى أخرج عنى ما يؤذينى وأمسك علىّ ما ينفعنى».

وإنما خص مكان قضاء الحاجة بالاستعاذة من الشياطين ذكورهم وإناثهم، لأن أماكن قضاء الحاجة مأوى الشياطين، لعدم ذكر الله سبحانه وتعالى فيها.

وهكذا نرى التوجيه النبوى الحكيم قد ربط الإنسان بربه سبحانه وتعالى فى كل زمان ومكان وفى جميع أحواله، ويعلمنا التوجيه النبوى أن نتحصن بالله تعالى ونلوذ به من شر الشياطين وفى هذا محافظة على النّفس الإنسانية من الشرور ومن كل ما يضر الإنسان، وارتباط له بربه سبحانه وتعالى فى كل وقت وحين، وإعلان العجز والافتقار إلى الله سبحانه وتعالى فى جميع الأحوال.

ما يؤخذ من الحديث

(١) استحباب الاستعاذة بالله من الخبث والخبائث عند دخول مكان قضاء الحاجة.

(٢) ارتباط المسلم بربه وتحصنه به فى كل وقت وحين وفى جميع أحواله.

(٣) أن أماكن قضاء الحاجة هى مواطن الشياطين حيث لا يذكر الله تعالى فيها وكذلك كل مكان لا يذكر الله فيه.

١٠. باب

وَضْعِ المَاءِ عِنْدَ الخَلاَءِ

١٣٤ ـ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّد قَالَ : حَدَّثَنَا هَاشِمُ بنُ القَاسِمِ قَالَ : حَدَّثَنَا وَرْقَاءُ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بنِ أَبِى يَزِيدَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ «أَنَّ النبىَّ ﷺ دَخَلَ الخَلاَءَ ، فَوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءًا ، قَالَ : « مَنْ وَضَعَ هَذَا ؟ فَأُخْبِرَ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِى الدِّينِ » .

باب من وضع الماء عند الخلاء

وفى هذه الترجمة توضيح لمكان الوضوء، وأنه ينبغى أن يكون قريباً من مكان قضاء الحاجة، وأن فى وضعه بالقرب من مكان قضاء الحاجة عوناً على الوضوء.

١٣٤ـ عندما دخل رسول الله ﷺ الخلاء لقضاء حاجته رأى ابن عباس رضى الله عنهما أن يضع له بالقرب من المكان الماء الذى يتوضأ به «الوَضُوء» بفتح الواو الماء الذى يتوضأ به.

وعندما خرج الرسول ﷺ من الخلاء، سأل قائلاً: من وضع هذا الوضوء؟ فأخبر الرسول ﷺ بمن وضعه والمخبر له هى خالته ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها حيث كان فى بيتها، فلما علم الرسول ﷺ بحسن الفعل والذكاء من ابن عباس مع صغر سنه آنئذ حيث وضع الوضوء قريباً عند الخلاء دعا رسول الله ﷺ له قائلاً: «اللهم فقهه فى الدين» فوضع الماء فيه استعانة على أداء الصلاة التى هى =

= عـمـاد الدين فناسب أن يدعـو له بأن يفـقـهـه الله فى الدين ودعـاء رسـول الله ﷺ مجاب لا يرد، ولذا كان ابن عباس ترجمان القرآن ومن كبار المتفقهين فى الأمة.

ما يؤخذ من الحديث

(١) وضع الماء الذى يُتوضأ به قريباً من مكان قضاء الحاجة، وفى عصرنا هذا جعل حوض الوضوء بالقرب من مكان قضاء الحاجة ليكون ذلك عوناً للمتطهر وأسهل وأسرع.
(٢) ذكاء ابن عباس وفهمه فى الدين.
(٣) الدعاء لمن قدم مساعدة.

١١ - باب

لا تُسْتَقْبَلُ القِبْلَةُ بغَائط أَوْ بَوْل ، إلاَّ عِنْد البِنَاء : جدارٍ أَوْ نَحْوِه .

١٣٥ ـ حَدَّثَنا آدمُ قال : حَدَّثَنا ابنُ أَبِى ذئْبٍ قال : حَدَّثَنا الزُّهْرِىُّ عَنْ عَطَاء بن يَزِيدَ اللَّيْثِىِّ عَنْ أَبِى أَيُّوب الأَنْصَارِيِّ قال : قَالَ رسولُ الله ﷺ : « إذَا أَتَى أَحَدُكُم الغَائطَ ، فَلاَ يَسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ ، ولا يُولِّها ظَهْرَهُ ، شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا » .

باب لا تُستقبل القبلة بغائط أو بول
إلا عند البناء : جدار أو نحوه

وفى هذا بيان لمنزلة القبلة ، وأنه لا يصح لأحد أن يستقبلها بغائط أو بول إلا إذا كان هناك حائل من بناء كالجدار أو نحوه.

١٣٥ ـ المكان المطمئن من الأرض الذى يقضى الناس فيه حاجتهم يسمى الغائط ، ثم كنى به عن العذرة الخارجة من الإنسان تجنباً لذكرها باسمها ، ثم غلبت الحقيقة العرفية على الحقيقة اللغوية ، وقد نهى الرسول ﷺ عن استقبال القبلة أو استدبارها عند قضاء حاجته ، وفى رواية أخرى فى صحيح مسلم : «ولا يستدبرها ببول أو غائط» .

والحكمة من هذا النهى هى تكريم القبلة عن أن تواجه بقضاء الحاجة ، وأيضاً حتى لا يستقبلها أو يستدبرها كاشفاً عورته ، وإذا كان كشف العورة منهياً عنه فى استقبال القبلة أو استدبارها عند قضاء الحاجة فإنه منهى عن كشفها أيضاً عند الوطء إذا كان فى الوطء استقبال للقبلة أو استدبار لها .

=

«شرّقوا أوْ غرّبوا» أى اتجهوا جهة المشرق أو المغرب، وهذا لأهل المدينة ومن كانت قبلتهم مثلهم، أما الذين تقع قبلتهم ناحية المشرق أو المغرب فعليهم أن يتجهوا جنوباً أو شمالاً ويرى أبو حنيفة وبعض السلف وأحمد فى رواية أن هذا النهى عام فى تحريم الاستقبال والاستدبار فى الصحراء والبنيان سواء كان مُعداً لذلك أم لا وهذا النهى لتعظيم أمر القبلة واحترامها.

ولكن خص الشافعية والمالكية وأحمد فى رواية بما إذا كان المكان غير معد لقضاء الحاجة وبدون ساتر مرتفع ثلثى ذراع بينه وبينه ثلاثة أذرع فأقل. ويكرهان كراهة خفيفة فى غير المعد مع الساتر المذكور.

أما الذى أعدّ لقضاء الحاجة فلا حرمة ولا كراهة.

أما القبلة السابقة مثل بيت المقدس فاستقبالها واستدبارها مكروهان.

وكل هذا احترام وتقدير لقبلة الصلاة التى يتجه المسلمون إليها فى صلاتهم وعبادتهم لله تعالى.

ما يؤخذ من الحديث

(١) النهى عن استقبال القبلة أو استدبارها عند قضاء الحاجة.

(٢) النهى عن استقبال القبلة أو استدبارها عند كشف العورة.

(٣) كراهية استقبال ما كان قبلة ثم نسخ التوجه إليه مثل بيت المقدس.

(٤) لا يحرم ذلك عند وجود حاجز أو بناء فى رأى البعض.

١٢ - باب

مَنْ تبرَّز على لَبِنَتَيْنِ

١٣٦ - حَدَّثنا عَبْدُ اللهِ - بنُ يُوسُف قالَ : أَخْبَرَنَا مَالكٌ عنْ يَحْيى بنِ سَعيد عَنْ مُحَمَّد بن يَحْيى بنِ حَبَّانَ عَنْ عَمِّه واسِعِ بنِ حَبَّانَ عَنْ عَبْد الله ابنِ عُمَرَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ : إنَّ نَاساً يَقُولُونَ : إِذَا قَعَدتَ عَلى حاجَتكَ ، فَلاَ تَسْتَقْبِل القِبْلَةَ ، ولا بَيْتَ المَقْدسِ ، فقالَ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَر : لقد ارْتَقَيْتُ يَوْماً على ظَهْرِ بَيْتٍ لَنَا ، فرَأَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ عَلَى لَبِنَتَيْنِ مُسْتَقْبِلاً بَيْتَ المَقْدسِ لحَاجَته ، وقَال : لَعَلَّكَ مِنَ الَّذينَ يُصَلُّونَ عَلى أَوْرَاكِهم، فَقُلْتُ : لا أَدْرى واللهِ .

قَال مَالكٌ : يعني الَّذى يُصَلِّى ولا يَرْتفِعُ عَنِ الأَرْضِ ، يَسْجُد وهُوَ لاصِقٌ بالأَرْض .

باب من تبرز على لبنتين

البَراز: هو المكان الواسع وكَنَّوْا به عن الخارج من الدبر كما أطلق مثل ذلك فى الغائط أيضاً، والتبرز هو قضاء الحاجة على اللبنتين وهما المصنوعتان من الطين قبل أن يحرق.

١٣٦- يقول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما إن ناساً يقولون : إذا قعدت على حاجتك فلا تستقبل القبلة ولا بيت المقدس، ويقصد بهؤلاء الناس أبا هريرة وأبا أيوب الأنصارى ومعقل الأسدى وغيرهما رضى الله عنهم أجمعين ومن يرى =

= النهى عن استقبال القبلة أو استدبارها نهياً عاماً سواء كان المكان الذى يقضى الإنسان فيه حاجته مكاناً أعدّ لذلك أم لا، والمراد من قول «قعدت لحاجتك» كناية عن التبرز ونحوه وذكر القعود إنما هو على سبيل الغالب وإلا فإن الأمر فى الوقوف كذلك أيضاً إذا كان الإنسان مثلاً يبول واقفاً عند الضرورة، فيرون أن النهى عام عن استقبال أو استدبار القبلة أو بيت المقدس، وبيت المقدس الإضافة فيه هى إضافة الموصوف إلى الصفة مثل مسجد الجامع، وقول ابن عمر رضى الله عنهما هذا فيه إنكار على من يرى النهى عاماً ثم وضح الدليل وسبب إنكاره عليهم أن يكون النهى عاماً بما أورده من فعل رسول الله ﷺ فى قوله: «لقد ارتقيت يوماً على ظهر بيت لنا» أى صعد على ظهر البيت وفى رواية أخرى. «ارتقيت فوق ظهر بيت حفصة لحاجتى» وأضاف البيت إليها لأنه الذى أسكنها فيه النبى ﷺ وأضافه ابن عمر رضى الله عنهما إلى نفسه فى قوله «بيت لنا» لكونه حال إخباره صار البيت له وآل إليه بالإرث من أخته حفصة لكونها شقيقته قال: «فرأيت رسول الله ﷺ على لبنتين مستقبلاً بيت المقدس لحاجته» واللبن هو الطوب النىء وفى هذا ما يدل على استقبال بيت المقدس ويلزم من ذلك استدبار القبلة بالنسبة لأهل المدينة، ولكنه مكان معد لقضاء الحاجة وبهذا يفهم أن المكان إذا كان معداً لقضاء الحاجة فلا يكون هناك نهى عن الاسْتقبال أو الاستدبار ولا يكون النهى عاماً عن ذلك ومما يدل على أن الرسول ﷺ كان فى مكان معد لقضاء الحاجة ما رواه الحكيم الترمذى بسند صحيح: «فرأيته فى كنيف» وهذا صريح فى أن المكان الذى يقضى فيه حاجته آنئذ كان معداً لذلك فالاستقبال والاستدبار جائز ولا مانع منه بناء على هذا.

فيكون هذا الحديث وغيره كحديث جابر عند أبى داود وغيره مخصصاً لما عساه يفهم من عموم حديث أبى أيوب السابق.

ومما ينبغى أن ننبه عليه أن ابن عمر رضى الله عنهما لم يقصد أن ينظر إلى حال الرسول ﷺ وإنما كان بالصدفة صاعداً السطح لضرورة فحدث منه التفات، كما جاء فى بعض الروايات فكانت نظرة دون قصد أو تعمد ولكنه جعلها لا

تخلو من فائدة فى حكم شرعى حفظه وبلغه أو لعل الاستقبال فى مثل هذه الحالة وفى المكان المعد لذلك يكون ناسخاً للنهى عن ذلك .

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يتتبعون جميع أحوال رسولهم ﷺ ليقتدوا به فى جميع أحواله وأفعاله وأقواله وصفاته .

ثم قال ابن عمر رضى الله عنهما فى خطابه «لواسع» : «لعلك من الذين يصلون على أوراكهم فقلت : لا أدرى والله» وفسر مالك رحمه الله ذلك بقوله «يعنى الذى يصلى ولا يرتفع عن الأرض ، يسجد وهو لاصق بالأرض» أى يلصق بطنه بوركيه إذا سجد وهو بهذا يخالف هيئة السجود المعهودة التى شرع فيها أن يجافى ويباعد بين ذراعيه وترتفع الذراعان عن الأرض ، ولعله كنى عمن لا يعرف السنة بمن يصلى على وركيه ، فإنه يكون جاهلاً بالسنة أو لعل ابن عمر رأى من «واسع» فى صلاته ما يستحق أن ينبهه عليه فى تصحيح كيفية السجود التى رآها وكأنه رأى منه شيئاً فى حال سجوده لم يتحققه فسأله بالعبارة المذكورة يريد بذلك التحقق والإرشاد له .

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن استقبال القبلة أو استدبارها فى مكان معد لذلك لا يكون منهياً عنه بل هو جائز .

(٢) أن جميع أحوال الرسول ﷺ لا تخلو من حكمة .

(٣) استعمال الكناية بالحاجة عن البول والغائط وجواز الإخبار عن مثل ذلك للاقتداء والعمل .

(٤) فى الحديث دلالة على ما كان يحدث بين الصحابة من بعض الاختلافات اليسيرة فى السنن أو فيما هو أولى أو خلاف الأولى ، وأن بعضهم كان يستعمل ما سمع أو فهم على العموم ومن هنا وقعت اختلافات يسيرة بينهم ولكن الاختلاف فى الرأى لم يفسد للود قضية وكلها اجتهادات فى الفهم .

١٣ - باب

خُرُوجِ النِّساءِ إلى البَرَازِ

١٣٧ ـ حَدَّثَنَا يحْيى بنُ بُكَيْرٍ قال : حَدَّثَنا اللَّيْثُ قالَ : حدَّثنى عُقَيْلٌ عن ابنِ شِهابٍ عنْ عُرْوَةَ عَنْ عائِشَةَ أَنَّ أَزْواجَ النَّبى ﷺ كُنَّ يَخْرُجْنَ باللَّيْلِ إذا تبرزْنَ إلى المَناصِعِ - وَهُو صَعِيدٌ أَفْيَحُ - فكانَ عُمَرُ يَقُولُ للنبىِّ ﷺ : احجُبْ نساءَكَ ، فَلَمْ يكُنْ رسولُ الله ﷺ يَفْعلُ ، فخرجَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ زَوْجُ النبىِّ ﷺ لَيْلةً منَ اللَّيَالى عشاءً ، وكانَت امْرأَةً طَويلَةً ، فَنَادَاها عُمَر : أَلاَ قَدْ عرفْنَاكِ يا سَوْدَةُ ، حرصًا علَى أَنْ يُنْزَلَ الحِجَابُ ، فأَنْزَلَ الله آيَةَ الحِجَابِ .

باب خروج النساء إلى البَراز

هذا الباب فيه توضيح لخروج النساء إلى الفضاء ، لقضاء الحاجة .

١٣٧ـ تروى السيدة عائشة رضى الله عنها أن أزواج النبى ﷺ ، كنّ يخرجن بالليل إذا تبرزْن إلى المناصع وهى أماكن معروفة من ناحية البقيع وسميت بذلك لأن الإنسان ينصع فيها أى يخلص .

وهو صعيد أفيح أى متسع فكان عمر رضى الله عنه يقول للنبى ﷺ : احجب نساءك ، أى امنعهن من الخروج من البيوت ، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل ما قاله عمر رضى الله عنه ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ فى ليلة من الليالى

عشاء وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر رضى الله عنه قائلاً: ألا قد عرفناك يا سودة وهذا النداء كان حرصاً منه على أن ينزل الحجاب فأنزل الله عز وجل الحجاب أى أنزل سبحانه وتعالى حكم الحجاب، فى آية الحجاب.

ومن الحجاب ما يكون ساتراً للوجه، ومنه ما يكون بإرخاء الحجاب بينهن وبين الناس، ومنه ما يكون بمنعهن من الخروج من البيوت إلا لضرورة.

وكانت لهن فى حالة الستر عند قضاء الحاجة أحوال: الأولى: الظلمة حيث كنَّ يخرجن بالليل، ثم نزل الحجاب فتسترن بالثياب ثم لما اتخذ الناس الكنف فى البيوت منعهن الخروج من البيوت وهذه هى الحالة الثالثة.

«فأنزل الله آية الحجاب» وجاء فى سبب نزول آية الحجاب ما روى بشأن قصة زينب بنت جحش لما أولم عليها وتأخر النفر الثلاثة فى البيت واستحيا النبى ﷺ أن يأمرهم بالخروج فنزلت آية الحجاب.

وفى حديث عمر رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب.

ما يؤخذ من الحديث

(١) التستر عند قضاء الحاجة.

(٢) حجاب المرأة.

(٣) فضل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وموافقاته للوحى.

١٣٨ ـ حَدَّثنا زَكَريًّا قالَ : حَدَّثنا أبُو أُسَامَةَ عَنْ هشَام بْن عُرْوَةَ عَنْ أَبِيه عَنْ عائشَةَ عَنِ النَّبىِّ ﷺ قالَ : « قَدْ أُذن أَنْ تَخْرُجْنَ فِى حَاجَتِكُنَّ » . قَال هِشَامٌ : يَعْنِى البَرَاز .

١٣٨- كانت السيدة سودة رضى الله عنها قد خرجت بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت رضى الله عنها عظيمة الجسم فرآها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا سودة أما والله ما تَخْفَيْن علينا، فانظرى كيف تخرجين، فرجعت فشكت إلى رسول الله ﷺ ذلك وكان وقتها يتعشى، فأنزل عليه الوحى فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه.

فقال مخبراً عما أوحى إليه : إنه قد أُذن لكُنَّ أن تَخرجْن فأوحى إليه، فلما انتهى من الوحى قال : إن الله تعالى قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن.

ما يؤخذ من الحديث

(١) يجوز للنساء التصرف فيما لهن الحاجة إليه من مصالحهن.
(٢) مراجعة الأدنى للأعلى فى الأمور التى يتبين أنها صواب.
(٣) منقبة عظيمة لعمر رضى الله عنه.
(٤) جواز كلام الرجال مع النساء فى الطرق للضرورة.

١٤ - باب

التَّبَرُّزِ فِى البُيُوتِ

١٣٩ - حَدَّثنَا إبْرَاهِيمُ بنُ المُنْذِرِ قالَ : حَدَّثنَا أَنَسُ بنُ عِيَاضٍ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ عنْ مُحَمَّدِ بنِ يَحْيَى بنِ حَبَّانَ عَنْ وَاسِعِ بنِ حَبَّانٍ عنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، قالَ : « ارْتَقَيْتُ فَوْقَ ظَهْرِ بيْتِ حَفْصَةَ لِبَعْضِ حَاجَتِى ، فَرَأَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقْضِى حاجتهُ مُسْتَدْبِرَ القِبْلَةِ مُسْتَقْبِلَ الشَّأْمِ » .

باب التبرز فى البيوت

فى هذا العنوان توضيح بأن خروج النساء للتبرز فى الخلاء لم يستمر بل كن بعد ذلك يقضين حاجتهن فى البيوت بعد أن اتخذت فى البيوت أماكن خاصة لقضاء الحاجة فلم تعد النساء تخرجن إلا للضرورة النادرة.

١٣٩ - يخبر عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أنه صعد فوق ظهر بيت حفصة رضى الله عنها لبعض حاجته فرأى رسول الله ﷺ يقضى حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشام، وقد جاء هنا بلفظ :«فوق ظهر بيت حفصة » وفى الرواية الآتية : « على ظهر بيت لنا» لأن بيت حفصة بيته أو كان لها بيت فى بيت عمر رضى الله عنه يعرف بها أو صار إليها بعد ذلك.

وفى هذا بيان أن استقبال القبلة أو استدبارها إذا كان داخل المنازل والبيوت فلا كراهة فى ذلك ولا مانع.

ما يؤخذ من الحديث

(١) أن استقبال القبلة أو استدبارها إذا كان داخل البيوت فلا كراهة فى ذلك.

(٢) تيسير الأحكام الشرعية فلا حرج فى الدين.

(٣) الاقتداء برسول الله ﷺ فى كل أعماله وأقواله وأحواله.

١٤٠ ـ حَدَّثَنا يَعْقُوبُ بنُ إبْراهيم قالَ : حَدَّثَنا يزيدُ بنُ هارون قال : أخْبَرنَا يَحْيَى عنْ مُحَمَّد بنِ يَحْيَى بن حَبَّانَ أنَّ عَمَّهُ وَاسعَ بنَ حَبَّانَ أخْبَرَهُ أنَّ عَبْد الله بنَ عُمَرَ أخْبَرَهُ قالَ : لَقَدْ ظَهَرْتُ ذَاتَ يَوْم عَلَى ظَهْرِ بَيْتِنَا ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَاعِداً عَلَى لَبِنَتَيْنِ مُسْتَقبلَ بَيْتِ المَقْدِس .

---

١٤٠ – هذا الحديث كالذى قبله ، ومعنى «لقد ظهرت ذات يوم على ظهر بيتنا» أى لقد علوت وارتفعت وجاء بالحرف «قد» هنا لتأكيد الكلام .

وجاء فى هذه الرواية قوله : «مستقبل بيت المقدس» ولم يقل مستدبراً القبلة وهى الكعبة كما جاء فى بعض الروايات الأخرى ؛ لأن هذا من لازم من استقبل الشام بالمدينة فمن استقبل الشام فى المدينة كان مستدبر القبلة فاستغنى بأحد الأمرين عن الآخر ، وذكر الأمرين فى بعض الروايات للتأكيد والتصريح بالحكم فى الحالين .

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز إطلاق الشام مرة كما فى الحديث السابق وإطلاق بيت المقدس مرة أخرى كما هنا ؛ لأنهما فى جهة واحدة .

(٢) استقبال القبلة أو استدبارها داخل المساكن والأماكن المعدّة لقضاء الحاجة لا ضرر فيه .

١٥ - باب

الاسْتنْجاء بالماء

١٤١ - حَدَّثنَا أَبُو الوَليد هشَامُ بنُ عَبْد المَلكَ قال : حَدَّثنَا شُعْبَةُ عنْ أَبي مُعَاذٍ - واسْمُهُ عَطَاءُ بنُ أَبي مَيْمُونَةَ - قَال : سَمعْتُ أَنَس بن مالك يَقُولُ : « كانَ النبى ﷺ إذَا خَرَجَ لحَاجَته أجىءُ أَنَا وَغُلامٌ معنا إدَاوَةٌ منْ مَاءٍ ، يَعْنى يَسْتَنْجى به » .

باب الاسْتنْجَاء بالماء

١٤١- فى هذه الترجمة بيان وردٌ على من كره الاستنجاء بالماء ومن نفى وقوعه من الرسول ﷺ .

والاستنجاء لغة : الذهاب إلى النجوة من الأرض لقضاء الحاجة .

والنجوة هى المرتفع من الأرض إذ كانوا قديماً يستترون بها عند قضاء الحاجة فى خلوتهم ، والمعنى : إزالة النجو وهو الأذى الباقى بالحجر أوبالماء ، ولا يمكن أن يُسْتَساغ إنكار الاستنجاء بالماء مع ما أطبق عليه المفسرون فى قول الله تعالى : ﴿ فيه رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ (١) فقد نزلت فى أهل قباء وأن النبى ﷺ سألهم عن الطهارة التى مدحهم الله تعالى بها فقالوا له : كنا نُتْبعُ الحجارةَ بالماء فقال : «هو ذاك فعليكموه»(٢).

وفى قول أنس رضى الله عنه : «كان النبى ﷺ إذا خرج لحاجته» كلمة (كان) تشعر بإفادة تكرار هذا ودوام فعله فى استعمال الماء إذا قضى حاجته من بول أو غائط ، حيث كان يأتيه أنس وغلام معهما إداوة من ماء وهى الإناء الصغير من جلد =

---

(١) سورة التوبة (١٠٨) .

(٢) رواه البراز .

«يعنى يستنجى به»، ولمسلم عن عطاء عن أنس: «فخرج علينا وقد استنجى بالماء».

وفى صحيح ابن حبان، عن عائشة رضى الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ خرج من غائط قط إلا مسَّ ماء» وروى عنها أنها قالت: «مُرْنَ أزواجكنّ أن يغسلوا أثر الغائط والبول فإن النبى ﷺ كان يفعله»[1].

ما يؤخذ من الحديث

(١) الاستنجاء بالماء والرد على من أنكر ذلك.

(٢) خدمة الصالحين وأهل الفضل وتفقد حاجاتهم وخاصة ما يتعلق بالطهارة.

(٣) التباعد عن الناس أثناء قضاء الحاجة.

(٤) جواز الاستعانة بالغير فى الطهارة والوضوء

(٥) اتخاذ آنية الطهارة وحمل الماء إلى مكان الطهارة.

(١) رواه الترمذى.

١٦ - باب

مَنْ حُمِلَ مَعَهُ الْمَاءُ لِطُهُورِهِ

وقالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : أَلَيْسَ فِيكُمْ صاحِبُ النَّعْلَيْنِ والطَّهورِ وَالوِسادِ ؟

١٤٢ ـ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بنُ حَرْبٍ قال : حَدَّثَنا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي مُعَاذٍ – هو عَطَاءُ بنُ أَبِي مَيْمُونَةَ – قالَ : سَمِعْتُ أَنَسًا يَقُولُ : « كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ تَبِعْتُه أَنَا وَغُلَامٌ مِنَّا مَعَنَا إِدَاوَةٌ مِنْ مَاءٍ » .

١٤٢ـ في هذا الباب أورد في الترجمة حمل الماء للتطهر به وقال أبو الدرداء : أليس فيكم صاحب النعلين والطَّهور والوساد ؟

وهذا التعليق أخرجه موصولاً في المناقب قال : حدثنا موسى عن أبي عوانة عن مغيرة عن إبراهيم عن علقمة «دخلت الشام فصليت ركعتين فقالت : اللهم يسر لي جليساً صالحاً فرأيت شيخاً مقبلاً ، فلما دنا ، قلت أرجو أن يكون استجاب قال ممن أنت ؟ قلت : من أهل الكوفة قال : فلم يكن فيكم صاحب النعلين والوساد والمطهرة» الحديث .

وأراد بطرف هذا الحديث في هذا الباب مع حديث أنس رضي الله عنه التنبيه على ما ترجم عليه من حمل الماء إلى الكنيف لأجل التطهر .

وقوله : «أليس فيكم» خطاب لأهل العراق ويدخل فيه علقمة بن قيس «صاحب النعلين» أي صاحب نعلي رسول الله ﷺ لأن عبد الله كان يلبسهما إياه إذا قام وإسناد النعلين إليه مجاز أما صاحبهما حقيقة فهو رسول الله ﷺ «والطَّهور» أي الماء الذي يتطهر به رسول الله ﷺ .

= «والوساد» أى صاحب الوساد وهو عبد الله بن مسعود لأنه كان يمشى مع النبى ﷺ ويخدمه ويحمل مطهرته وسواكه ونعليه والوسادة أو السواد بمعنى صاحب السر فكان رضى الله عنه صاحب الأسرار ويحتمل أن يحمل على معنى «المخدّة».

وفى الحديث بيان بأن أنساً رضى الله عنه كان إذا خرج الرسول ﷺ لحاجته يتبعه هو وغلام منهم بإداوة الماء، وهى إناء من جلد صغير يحمل فيه الماء ولعل ورود الحديث مع طرف من حديث أبى الدرداء يشعر بأن الغلام المذكور هو ابن مسعود ولفظ الغلام يطلق على غير الصغير مجازاً.

وفيما رواه أبو داود من حديث أبى هريرة قال: «كان النبى ﷺ إذا أتى الخلاء أتيته بماء فى ركوة فاستنجى» فيحتمل أن يفسر به الغلام المذكور فى حديث أنس رضى الله عنه.

ما يؤخذ من الحديث

(١) حمل الماء للتطهر به.
(٢) الطهارة والاستنجاء بالماء.
(٣) خدمة أهل الفضل والصلاح.

١٧ - باب

حَمْلِ العَنَزَةِ مَعَ المَاءِ فِى الاستِنْجاءِ

١٤٣ ـ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ بَشَّارٍ قالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ . قالَ : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عنْ عَطَاءِ بنِ أَبِى مَيْمُونَةَ سَمِعَ أَنَسَ بن مالك يقول : « كان رسول الله ﷺ يَدْخُلُ الخَلاءَ ، فأَحْمِلُ أَنَا وَغُلامٌ إِدَاوَةً مِنْ مَاءٍ ، وَعَنَزَةً يَسْتَنْجِى بالمَاءِ » .

تابَعَهُ النَّضْرُ وَشَاذَانُ عَنْ شُعْبَةَ .

العَنَزَةُ : عَصًا عليه زُجٌّ .

١٤٣ـ «العَنَزَةُ» عصا أقصر من الرمح لها سنان وقيل: هى الحربة القصيرة، وقوله فى آخر الحديث: عصا عليها «زُجٌّ» أى سنان يروى فى الطبقات الكبرى لابن سعد أن النجاشي كان قد أهداها للنبى ﷺ .

ولعل حمل العَنَزَة، ليستتر بها عند قضاء الحاجَة بأن يركزها أمامه ويضع عليها نحو ثوب مثلاً أو ليركزها بجواره ليكون فيها إشارة لمنع من يريد المرور بالقرب منه أو ليحفر بها الأرض حتى لا يرتد عليه الرشاش من البول أو لمقاومة ومنع ما يعرض من هوام الأرض، لأنه كان يبتعد عند قضاء الحاجة، أو كان يحملها لأنه إذا استنجى توضأ فصلى فيستعملها أمامه وفى الحديث بيان لاستعمال الماء فى الاستنجاء وهو حجة على من منع الاستنجاء بالماء لأنه مطعوم ولأن ماء المدينة كان عذباً .

ما يؤخذ من الحديث

(١) مشروعية الاستنجاء.

(٢) الاقتداء بالرسول ﷺ فى كل شىء.

(٣) جواز استخدام الأحرار إذا أرصدوا لذلك ليحصل لهم التمرن على التواضع.

(٤) أن فى خدمة العالم شرفاً للمتعلم.

١٨ - باب

النَّهْيِ عَنْ الاسْتِنْجَاءِ بِالْيَمِينِ

١٤٤ - حَدَّثَنَا مُعَاذُ بنُ فَضَالَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا هِشَامٌ هُوَ الدَّسْتَوائِيُّ عَنْ يَحْيَى بنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ أبي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « إذَا شَرِبَ أَحَدُكُمْ ، فَلاَ يَتَنَفَّسْ فِي الإِنَاءِ ، وإِذَا أَتَى الخَلاَءَ فَلاَ يَمَسَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ ، ولا يَتَمَسَّحْ بِيَمِينِهِ » .

---

١٤٤ - هذا باب في النهي عن الاستنجاء باليد اليمنى ونلاحظ في هذه الترجمة قوله : «باب النهي عن الاستنجاء باليمين» ولم يقل مثلاً تحريم الاستنجاء باليمين ؛ وفي هذه الترجمة إشارة إلى أنه لم يظهر له : هل النهي الوارد في الحديث للتحريم أم هو نهي للتنزيه ؟ أو أن القرينة التي تصرف النهي عن التحريم ليست واضحة ، فهذا أدب من الآداب ويرى الجمهور أن النهي للتنزيه ، وذهب أهل الظاهر أن النهي للتحريم ، وعلى كل حال فهو مكروه راجح الترك إلا إذا كان لضرورة تمنعه من الاستنجاء باليسرى .

ويوجه الحديث المسلمين إذا شرب أحدهم فلا يتنفس في الإناء ، وهذا نهي للتأديب للمبالغة في النظافة ، حتى لا يخرج منه أثناء الشرب ريق فيخالط الماء فيعافه الشارب فيسن أن يفصل الإناء عن فمه ، وأن يكون شربه ثلاثاً مع التنفس في كل مرة خارج الإناء وإذا أتى الخلاء فلا يمس ذكره بيمينه ولا يمس أيضاً دبره

= ولا يمسح بيمينه فلا يستنجي بها في قبل ولا دبر ، تشريفاً لليد اليمنى عن مسّ ما فيه أذى ، وربما يتذكر عند الأكل ما مسته يده من الأذى فينفر ، والنهى للتنزيه عند الجمهور وقيل للتحريم كما سبق ، وخص الرجال بهذا التوجيه والنساء تبع لهم ؛ لأن النساء شقائق الرجال في الأحكام إلا فيما اختص النساء به .

ما يؤخذ من الحديث

(١) النهي عن الاستنجاء باليد اليمنى .
(٢) عدم التنفس في الإناء أثناء الشرب .
(٣) استحباب الشرب ثلاثاً بفصل الإناء عن الفم .
(٤) عدم الاستنجاء باليد اليمنى .
(٥) مراعاة الإسلام للآداب العالية والعادات السامية .
(٦) فضل الميامن واستحباب العمل بها .

١٩ - باب

لا يُمْسِك ذَكَرَهُ بِيَمِينِه إذَا بالَ

١٤٥ - حَدَّثنَا مُحَمَّدُ بنُ يُوسُفَ قالَ : حَدَّثنا الأوْزاعيُّ عَنْ يَحْيَى بنِ أبى كَثيرٍ عَنْ عَبْد الله بن أَبى قَتَادَةَ عَنْ أَبيه عَنِ النبيِّ ﷺ ، قال : « إذَا بالَ أَحدُكُمْ فَلاَ يأْخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ ، ولا يسْتَنْجِي بِيَمِينِه ، ولا يَتَنَفَّسْ فى الإنَاءِ » .

---

١٤٥ - فى الحديث السابق نهى عن مس الذكر باليمين وهنا أشار فى الترجمة إلى أن النهى فى حالة التبول فيحمل المطلق هناك على المقيد هنا فيكون النهى خاصاً بحالة التبول، ومما يدل على إباحة المس حديث : «إنما هو بضعة منك» فدل على الجواز وخرجت حالة البول بهذا الحديث وبقى ما عداها على الإباحة، وإنما اختصت حالة البول بمنع المس؛ لأن ما قرب من الشيء يأخذ حكمه، ولما منع الاستنجاء باليمين منع مس آلته حسماً للمادة.

وفى الحديث توجيه لعدم أخذ الذكر باليمين عند التبول وجاء التعبير بنون التأكيد فى قوله : «فلا يأخذن» ليؤكد النهى عن ذلك، كما يوجه الحديث إلى عدم الاستنجاء باليمين والاستنجاء شامل وعام للقبل أو للدبر.

وأما الحكمة من النهى عن أخذ الذكر باليمين وعن الاستنجاء باليمين، فهى أن اليمين مُعدَّة للأكل بها فلو تعاطى ذلك بها لكان من الممكن أن يتذكر ذلك

= عند تناول طعامه فيتأذى وتنفر نفسه، وأيضاً لتشريف اليمين إذ بها المصافحة والأمور المهمة والأكل ونحو ذلك.

كما نهى الحديث عن التنفس في الإناء وهو خاص بحالة الشرب لما ورد فيما أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة «لا يتنفس أحدكم في الإناء إذا كان يشرب منه».

ويحتمل أن يكون النهي عن التنفس في الإناء ذكر هنا إشارة إلى ما كان المسلمون يفعلونه من الاقتداء بالرسول ﷺ حيث كان إذا بال توضأ وثبت أنه شرب فضل وضوئه فالمؤمن بصدد أن يفعل ذلك ويشرب.

ما يؤخذ من الحديث

(١) النهي عن أخذ الذكر باليمين في حالة البول.

(٢) النهي عن الاستنجاء باليد اليمنى عند قضاء الحاجة.

(٣) النهي عن التنفس في الإناء في حالة الشرب منه.

(٤) واستنبط بعض العلماء من هذا الحديث منع الاستنجاء باليد التي فيها الخاتم المنقوش فيه اسم الله تعالى لكون النهي عن ذلك لتشريف اليمين فيكون ذلك من باب أولى.

٢٠ - باب

الاسْتِنْجَاء بِالحِجَارَةِ

١٤٦ ـ حَدَّثنَا أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدٍ الْمَكِّيُّ قال : حَدَّثنا عَمْرُو بنُ يَحْيَى بنِ سَعِيدِ بنِ عَمْرٍو المَكِّيُّ عَنْ جَدِّهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال : اتَّبَعْتُ النبيَّ ﷺ وَخَرَجَ لِحَاجَتِه ، فكان لا يَلْتَفِتُ ، فَدَنَوْتُ منه فقال : « ابغِني أَحْجَارًا أَسْتَنْفِضْ بِهَا ، أَوْ نَحْوَهُ ، ولا تَأْتِنِي بعَظْمٍ ، ولا رَوْثٍ ، فأَتَيْتُهُ بأَحْجَارٍ بِطَرَفِ ثِيابِي ، فوَضَعْتُهَا إِلَى جَنْبِهِ وأَعْرَضْتُ عنهُ ، فَلَمَّا قَضَى أَتْبَعَهُ بِهِنَّ » .

---

١٤٦ – فى هذه الترجمة للحديث بيان صحة الاستنجاء بالحجارة، وردّ على من زعم أن الاستنجاء لا يكون إلا بالماء فقط، فإن قوله فى الحديث «أستنفض بها» معناه: أستنجى بها. ومعنى قوله: «ابغنى أحجاراً» اطلب لى أحجاراً وأعنّى على ذلك «أستنفض بها» الاستنفاض: هو الاستخراج ويكنى به عن الاستنجاء «أو نحوه» شك من الراوى أى نحو ذلك اللفظ مثل استنجى بها «ولا تأتنى بعظم ولا روث» لأنهما من مطعومات الجن.

ففيما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال للنبى ﷺ لما أن فرغ: ما بال العظم والروث؟ قال: «هما من طعام الجن» وفيما رواه أبو داود عن ابن

= مسعود رضى الله عنه أن وفد الجن قدموا على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنْهَ أمتك عن الاستنجاء بالعظم والروث؛ لأن الله تعالى جعل لنا فيه رزقاً، فنهاهم عن ذلك وقال: «إنه زاد إخوانكم من الجن».

وأيضاً فإن هناك حكمة أخرى من النهى عن الاستنجاء بالعظم: وهى أن العظم لزج لا يصلح لنقاء المكان وتنظيف الخارج ويلحق به كل ما يشبهه كالزجاج الأملس ولا يخلو فى الغالب من بقاء دسم عليه، وأيضاً فإن الروث ولو كان جافاً فهو فى ذاته نجس، فكيف يزيل النجاسة إنه يزيدها بلا شك.

وخص الأحجار بالذكر لكثرة وجودها وصلاحيتها للاستنجاء عن غيرها.
قال أبوهريرة رضى الله عنه: فأتيته بأحجار بطرف ثيابى فوضعتها إلى جنبه وأعرضت عنه فلما قضى حاجته أتبعه ـ أى ألحقه ـ بهن أى ألحق المحل بالأحجار وكنّى بذلك عن الاستنجاء

ما يؤخذ من الحديث

(١) مشروعية الاستنجاء وجواز الاستنجاء بالأحجار وفيه الرد على من أنكر ذلك.

(٢) النهى عن الاستجمار بالعظم أو الروث.

(٣) يصح الاستنجاء بالأحجار وبغيرها مما يقوم مقامها من كل جامد طاهر قالع غير محترم، وإنما نص على الأحجار لكونها الأغلب والأيسر فى الوجود.

(٤) النهى عن الاستنجاء بجميع المطعومات فقد نبّه بالعظم على ذلك ويلتحق بها الأشياء المحترمة مثل أجزاء الحيوان وأوراق كتب العلم.

(٥) استحباب البعد عن الذى يقضى حاجته.

(٦) جواز الرواية بالمعنى حيث ورد فى الحديث قول: «أو نحوه».

(٧) مما كرهه العلماء أن يستنجى به: العظم والرجيع والروث والطعام والفحم والزجاج والورق والخرق وورق الشجر، قالوا: ولو استنجى بها أجزأه مع الكراهة.

٢١. باب

لا يُستنْجى بِروث

١٤٧ ـ حدثنا أبُو نُعَيمٍ قالَ: حدّثنا زُهَيْرٌ عَنْ أبى إسْحَاقَ قال: لَيْسَ أبُو عُبيْدَةَ ذَكَرَهُ، ولكنْ عَبْدُالرحمنِ بْنُ الأَسْوَد عَن أبيه أنَّهُ سمع عَبْدَالله يَقُولُ: «أتَى النبىُّ ﷺ الغَائطَ، فَأَمَرَنى أنْ آتيَهُ بثَلاثة أَحْجَارٍ، فَوَجَدْتُ حَجَرَينِ، والْتَمسْتُ الثَّالثَ، فَلَمْ أجِدْهُ فَأَخَذْتُ رَوْثَةً، فَأَتَيتُهُ بِهَا، فأَخَذَ الحَجَرَيْنِ وَأَلْقَى الرَّوْثَةَ، وقال: هذا رِكْسٌ» وقال إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبى إسحاق حدثنى عبدالرحمن.

---

١٤٧ ـ فى هذا الباب بيان أنه لا يصح الاستنجاء بروث.

لقد أتى النبى ﷺ الغائط أى الأرض المطمئنة وذلك لقضاء حاجته، فأمر عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أن يأتيه بثلاثة أحجار، وفى هذا العدد بيان ودليل على اعتباره فى الاستنجاء، فوجد عبدالله بن مسعود رضى الله عنه حجرين وطلب الثالث فلم يجده، فأخذ روثة، وقيل: إنها كانت روثة حمار فأتاه بها فأخذ الرسول ﷺ الحجرين، وألقى الروثة وقال: هذا ركس بمعنى الرجس والنجس، وقيل: الركس: الرجيع سمى بذلك لأنه رُدّ من حالة الطهارة إلى حالة النجاسة، أو من حالة الطعام إلى حالة الروث.

واستدل الطحاوى بإلقائه الروثة على عدم اشتراط الثلاثة فى الاستنجاء،

= وعلّل ذلك بأنه لو كان مشترطاً الثلاثة لطلب حجراً ثالثاً عندما ألقى الروثة وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وداود . وأجيب بأنه ثبت في رواية أحمد في مسنده بأنه ألقى الروثة وقال : إنها ركس ائتني بحجر ، ويحتمل أن يكون اكتفى بالأمر الأول في طلب ثلاثة أحجار ، أو اكتفى بطرف أحدهما عن الثالث .

ما يؤخذ من الحديث

(١) استحباب الاستجمار بثلاثة أحجار .

(٢) يكون الاستجمار بكل جامد طاهر قالع .

(٣) منع الاستنجاء بالروث .

(٤) منع الاستنجاء بالنجس فالركس هو النجس.

(٥) قال الخطابي : فيه إيجاب عدد ثلاثة أحجار في الاستنجاء إذ كان معقولاً أنه إنما استدعاها ليستنجي بها كلها وليس في قوله : «فأخذ حجرين» دليل على أنه اقتصر عليهما لجواز أن يكون بحضرته ثالث . أما قوله في آخر الحديث : «وقال إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق : حدثني عبدالرحمن» يعني ابن الأسود بن يزيد بالإسناد المذكور أولاً ، وأراد البخاري بهذا التعليق الرد على من زعم أن أبا إسحاق دلّس هذا الخبر .

٢٢.باب

الوضُوءِ مَرَّةً مَرَّةً

١٤٨ ـ حدثنا مُحَمَّدُ بنُ يُوسُفَ قالَ: حدّثنا سُفيانُ عَنْ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بنِ يَسَارٍ عَنِ ابنِ عبَّاسٍ «قالَ: تَوَضَّأَ النبيُّ ﷺ مَرَّةً مَرَّةً».

---

١٤٨ ـ في هذا الباب بيان جواز كون الوضوء لكل عضو مرة، وقد مرَّ بيانه في باب غسل الوجه باليدين من غرفة واحدة:

لقد توضأ رسول الله ﷺ فغسل أعضاءه، كل عضو غسله مرة واحدة، وهذا منه ﷺ لبيان الجواز؛ لأن فعله تشريع للأمة، ولا شك أن إسباغ الوضوء مطلوب وأنه يستحب غسل العضو ثلاث مرات. ولكنه هنا وضح الوضوء مرةً مرةً لبَيان الجواز؛ وذلك حيث كانت المرة كافية في غسل جميع العضو بحيث يَعُم الماء أعضاء الوضوء.

ما يؤخذ من الحديث

(١) غسل العضو مرة واحدة إذا كانت تغمر العضو ولا يبقى فيه جزء لم يصله الماء.

(٢) عدم وجوب تخليل اللحية؛ لأن الإنسان إذا غسل وجهه ـ مثلاً ـ مرة لا يبقى معه من الماء ما يخلل به لحيته.

(٣) في الحديث ردّ على من أوجب غسل الأعضاء ثلاث مرات.

٢٣.باب

الوُضُوءِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ

١٤٩ ـ حدثنا حُسَيْنُ بنُ عِيسَى قال: حدّثنا يُونُسُ بنُ مُحمَّد قال: حدثَنَا فُلَيْحُ بنُ سليمان عنْ عَبْد الله بنِ أَبى بكْرِ بن عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ عَن عبَّادِ بنِ تَميمٍ عَنْ عَبْد الله بنِ زَيْد «أَنَّ النبىَّ ﷺ تَوَضَّأَ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ».

---

١٤٩ ـ هذا الباب فيه بيان لجواز الوضوء مرتين مرتين لكل عضو من أعضاء الوضوء.

وفى هذا الحديث توضيح بأن الرسول ﷺ توضأ مرتين مرتين، أى لكل عضو من أعضاء الوضوء، فليس غسل أعضاء الوضوء ثلاث مرات واجباً بل مستحباً، فيكفى مرتين كما هنا بل يكفى مرة واحدة كما ورد فى الحديث السابق وفى فعل رسول الله ﷺ تشريع للأمة وبيان للجواز ولا شك أن فى هذا تيسيراً وعدم حرج عليهم حيث يمكن أن يكتفى بمرتين أو مرة بشرط أن يستوعب الماء جميع الأعضاء ويغمرها ولا يبقى جزء من أعضائه لم يصله الماء.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه توضأ مرة مرة؛ كما روى عنه أنه توضأ مرتين مرتين، كما روى عنه أنه توضأ ثلاثاً ثلاثاً كما روى عنه أنه توضأ بعض وضوئه مرة وبعضه ثلاثاً وهكذا نرى من فعله ﷺ سماحة التشريع الإسلامى وجواز كل حال من هذه الأحوال، بشرط أن يغمر الماء أعضاء الوضوء وألا يبقى جزء من أعضائه دون غسل.

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز الوضوء مرتين مرتين.

(٢) عدم وجوب غسل الأعضاء ثلاث مرات.

(٣) فى فعل الرسول ﷺ وعدد مرات الغسل تشريع للأمة وبيان للجواز.

٢٤. باب

الوُضُوء ثلاثاً ثلاثاً

١٥٠ ـ حدثنا عَبْدُ العَزِيزِ بنُ عَبْدالله الأُوَيسى قال: حدّثنى إبْرَاهيمُ ابنُ سعْدٍ عَنِ ابنِ شِهَابٍ أَنَّ عطَاء بن يَزِيدَ أَخْبَرَهُ أَنَّ حُمرَانَ مَولَى عُثْمَانَ ابن عَفَّانَ أَخْبرَهُ أنّه رَأَى عُثمانَ بنَ عفَّانَ دعا بإناءٍ، فَأَفْرَغَ عَلَى كَفَّيْه ثَلاَثَ مرارٍ فغَسَلَهُمَا، ثُمَّ أَدْخَلَ يمينَهُ في الإنَاء، فمَضْمَضَ، واسْتَنْشَقَ ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثلاثاً، ويَدَيْه إلى الْمِرْفَقَيْنِ ثَلاَثَ مرارٍ، ثُمَّ مَسَحَ برأْسِه، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْه ثَلاَثَ مرارٍ إلَى الكَعْبَيْنِ، ثُمَّ قال: قالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ توَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئى هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، لا يُحدِّثُ فيهِمَا نَفْسَهُ، غُفرَ لهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه».

وعَنْ إبْرَاهيمَ قَالَ: قَالَ صَالحُ بْنُ كَيْسَانَ: قَال ابنُ شِهَابٍ: ولكِنْ عُرْوَةُ يُحدِّثُ عنْ حُمْرَانَ: فلمَّا توضَّأ عُثْمان قال: ألا أُحَدِّثُكُمْ حَديثاً لَوْلاَ آيَةٌ ما حَدَّثْتُكُمُوهُ، سَمِعْتُ النَّبىَّ ﷺ يَقُولُ: «لاَ يَتَوضَّأُ رَجُلٌ يُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ويُصَلِّى الصَّلاَةَ إلاَّ غُفرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وبَيْنَ الصَّلاَة حَتَّى يُصَلِّيهَا».

قالَ عُرْوَةُ: الآيَةَ ﴿إنَّ الَّذين يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا منَ الْبيِّنَات﴾ (١).

---

(١) سورة البقرة - آية ١٥٩.

١٥٠ـ هذا الباب في كون الوضوء ثلاثاً ثلاثاً أي : لكل عضو من أعضاء الوضوء.

لقد طلب عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ إناء فيه ماء للوضوء ثم توضأ أمام أصحابه موضحا الطريقة المثلى الكاملة في إسباغ الوضوء التي كان يفعلها رسول الله ﷺ، فبدأ أول ما بدأ بأن صب الماء على كفيه واحدة بعد الأخرى فغسلهما ثلاثاً وذلك قبل أن يدخل كفيه في الإناء حتى وإن كان هذا ليس بعد النوم وذلك للاحتياط في طهارتهما ونظافتهما ثم أدخل يمينه في الإناء فأخذ منه الماء فتمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثاً، وحدود الوجه من منبت الشعر إلى اسفل الذقن وما بين شحمتي الأذنين.

ونلاحظ أن غسل اليدين والمضمضة والاستنشاق من سنن الوضوء وقدمت على فرائضه التي تبدأ بغسل الوجه، للتعرف على أوصاف الماء لوناً وطعماً ورائحة، وغسل اليدين إلى المرفقين ثلاث مرات ثم مسح رأسه ولم يذكر عدد المسح فأفاد هذا الاقتصار على مرة واحدة ، لأن المسح مبنى على التخفيف، ولعل رواية المسح مرة لبيان الجواز، وقد روى أبو داود من وجهين بتثليث مسح الرأس.

ثم وغسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين أى مع الكعبين وهما العظمان المرتفعان عند مفصل القدم والساق، ثم قال عثمان رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ نحو وضوئى هذا» أى مثله، وإنما لم يقل «من توضأ مثل وضوئى هذا»، لأن حقيقة مماثلته لا يقدر عليها غيره، وكلمة «مثل» وإن كانت قد وردت بها بعض الروايات فهى تطلق على الغالب وبهذا يجمع بين الروايات، ويكون المتروك بحيث لا يخل بالمقصود فى أمر الوضوء الكامل.

«ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه» أى لا يحدث نفسه بأحاديث الدنيا، أما ما يهجم من الخطرات التى يصعب دفعها فلا يضر مثل ذلك، ومنه ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يجهز جيشه فى صلاته، فالمراد أنه كان يهجم عليه ذلك فيدفعه ولا يسترسل معه.
ويعلم من ذلك أيضاً: استحباب صلاة ركعتين بعد الوضوء.

ومعنى: «غفر له ما تقدم من ذنبه» أى من الصّغائر دون الكبائر، فقد جاء في صحيح مسلم التصريح بذلك فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك، وهناك عند ابن أبى شيبة زيادة: «وما تأخر» وهكذا فى حق من له كبائر وصغائر فإنه يغفر له الصغائر، ومن ليس له إلا الصغائر كفرت عنه، وأما من ليس له إلا الذنوب الكبائر فيرجى من الله تعالى أن يخفف عنه بمقدار ما لصاحب الصغائر، وأما من ليس له صغائر ولا كبائر فإن الله تعالى يزيد فى حسناته بنظير ذلك، والله واسع المغفرة، وذو فضل عظيم.

وفي بعض الروايات فى آخر هذا الحديث، قال ﷺ: «لا تغتروا فتستكثروا من الأعمال السيئة» بناء على أن الصلاة تكفرها، فإن الصلاة التى تكفر الخطايا هى التى يقبلها الله، وأنَّى للعبد بالاطلاع على ذلك.

وفى رواية أن عثمان رضى الله عنه بعد أن توضأ قال: ألا أحدثكم حديثاً لولا آية ما حدثتكموه؟

سمعت النبى ﷺ يقول: «لا يتوضأ رجل يُحسن وضوءه ويصلى الصلاة الا غفر له ما بينه وبين الصلاة حتى يصليها» قال عروة: الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾(١) والمراد بقوله: «حتى يصليها» أى يفرغ منها وقيل: يشرع فيها.

والآية المذكورة وإن كانت فى أهل الكتاب إلا أنها تحث على التبليغ . والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولا منافاة بين ما ورد فى بعض الأحاديث من حصول الغفران بالوضوء فقط، وما ورد هنا من حصول الغفران بالوضوء والصلاة، لأن الأمر يختلف باختلاف الناس فمن الناس من يتم له الغفران بالوضوء لما له من خشوع ومنهم ما يتم له الغفران بالوضوء والصلاة.

---

(١) سورة البقرة - آية ١٥٩ .

ما يؤخذ من الحديث

(١) استحباب غسل أعضاء الوضوء ثلاثاً ثلاثاً.

(٢) تأكيد إسباغ الوضوء.

(٣) التعليم بالفعل، لأنه أقوى فى التأثير وأضبط.

(٤) الحث على الإخلاص.

(٥) النهى عن الغفلة واللهو وكثرة التفكير فى الصلاة.

(٦) الترتيب فى أعضاء الوضوء حيث جاء العطف فى ذكر أعضاء الوضوء بـ ثم التى تفيد الترتيب.

٢٥. باب

الاستنثار في الوضوء

ذَكَرَهُ عُثْمَان وعَبْدُ الله بن زَيْدٍ وابنُ عَبَّاس رَضِىَ الله عَنْهم عَنِ النبىِّ ﷺ .

١٥١ ـ حدثنا عَبْدانُ قَالَ : أَخْبرنَا يُونُسُ عَنِ الزُّهْرِىِّ قَالَ : أَخْبرَنِى أَبُوإِدْرِيسَ أَنَّهُ سَـمِعَ أَبَا هُرَيْرةَ عَنِ النَّبى ﷺ أَنَّهُ قَـالَ : « منْ تَوضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرَ ، ومنِ اسْتَجْمَرَ فَلْيُوتِرْ » .

١٥١ـ الاستنثار : هو طرح الماء الذى يستنشقه المتوضىء بأنفه لتنظيف داخله ويخرجه بريح أنفه مستعيناً بيده ويستحب أن تكون الاستعانة باليد اليسرى فى الاستنثار عند إخراج الماء ، أما عند الاستنشاق وأخذ الماء إلى الأنف فيكون باليمنى .

ويوضح هذا الحديث أن من توضأ فليستنثر بإخراج ما فى أنفه من أذى بعد الاستنشاق وفيه طرد الشيطان ، لما ورد أنه يبيت على الخيشوم وهو أعلى الأنف .

والأمر بالاستنثار للندب عند الجمهور ، لما روى أن رسول الله ﷺ قال للأعرابى : «توضأ كما أمر الله» فأحال على قول الله تعالى فى آية الوضوء وليس فيها الاستنثار ولا الاستنشاق فدلَّ هذا على الندب لا الوجوب . وقيل : الأمر للوجوب .

«ومن استجمر فليوتر» أى من مسح محل الاستنجاء بالجمار وهى الأحجار الصغيرة فليوتر ، وقيل : المراد من استعمل البخور فليوتر بأن يتطيب ثلاثاً ، ولكن الصحيح الأول .

ما يؤخذ من الحديث

(١) الاستنشاق والاستنثار من سنن الوضوء ففيهما زيادة في النظافة والتنقية .

(٢) أن السنة في الاستجمار أن يكون ثلاث مرات إذا حصل الإنقاء بها وإلا وجب أن يزيد على الثلاث حتى يحصل الإنقاء .

(٣) قال النووي : فيه دلالة لمذهب من يقول إن الاستنشاق واجب لمطلق الأمر ، ومن لم يوجبه يحمل الأمر على الندب ، وعند الجمهور أن الأمر للندب .

٢٦. باب

الاسْتِجْمَارِ وِتْراً

١٥٢ ـ حدثنا عبدالله بنُ يُوسُفَ قَالَ: أَخْبرنَا مَالكٌ عَنْ أبى الزِّنَاد عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوضَّأ أَحدُكُمْ فَلْيجعَلْ فى أنْفِهِ، ثُمَّ لِينْثُرَ، ومَنِ اسْتَجْمرَ فَلْيُوتِرْ، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ من نَوْمِه فَلْيَغْسِلْ يدَهُ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهَا فِى وَضُوئِهِ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لاَ يدْرِى أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ».

١٥٢ـ دخل قوله: باب الاستجمار وتراً فى الوضوء، لأن أبواب الاستطابة لم تنفصل عن أبواب الوضوء لتلازمهما.

« إذا توضأ أحدكم» أى: إذا شرع فى الوضوء « فليجعل فى أنفه » ماء « ثم لينثر » بأن يُحرّكه ويُخرجه، ومن استجمر بالأحجار فليوتر بثلاثة أحجار أو أكثر «وإذا استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يده قبل أن يدخلها فى وَضوئه» والأمر بغسل اليد هنا للندب، والوَضوء بفتح الواو هو الماء الذى يتوضأ به.

والسبب فى هذا التوجيه هو ما أوضحه فى بقية الحديث: «فإن أحدكم لا يدرى أين باتت يده » من جسده أى هل لاقت مكاناً طاهراً أم نجساً بقربه أو جرحاً أو أثر استنجاء، وهذا التعليل قائم على الشك فى نجاسة اليد، هذا إذا كان الماء قليلاً دون قلتين أما إذا كان الماء كثيراً قلتين فأكثر فلا يكره غمس اليد فيه قبل غسلها، وكذلك إن تيقن طهارتها.

ما يؤخذ من الحديث

(١) استحباب التثليث في غسل النجاسة .

(٢) استحباب الاستنشاق والاستنثار .

(٣) استحباب الوتر في الاستجمار بثلاث أو خمس أو سبع .

(٤) إيجاب الوضوء من النوم .

(٥) القليل من الماء لا يكون مستعملاً بإدخال اليد فيه لمن أراد الوضوء .

٢٧.باب

غَسْلِ الرِّجْلَيْنِ ، وَلاَ يَمْسَحُ عَلَى القَدَمَيْنِ

١٥٣ ـ حَدَّثَنَا مُوسَى ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ أَبِي بِشْرٍ عَنْ يُوسُفَ بنِ مَاهَكَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو قَالَ : تَخَلَّفَ النبيُّ ﷺ عَنَّا فِي سَفْرَةٍ سَافَرْنَاهَا ، فأَدْرَكَنَا ، وَقَدْ أَرْهَقنا العَصْرَ ، فَجَعَلْنَا نَتوضَّأُ ، وَنَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا ، فَنادَى بأَعْلَى صَوته « وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ » ، مَرَّتَيْن أَوْ ثلاثاً .

١٥٣ـ في هذا الباب بيان لحكم غسل الرِّجْلَين في الوضوء ولا يمسح على القدمين ما دام لا يلبس الخفين.

يخبر عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ تخلّف عنهم في سفرة كانت من مكة إلى المدينة إما في حجة الوداع أو في عمرة القضاء، فأدركهم النبي ﷺ وقد أرهقهم العصر بمعنى أدركهم فيراد بالإرهاق الإدراك والغشيان، فكأنهم أخّروا الصلاة طمعاً أن يلحقهم النبي ﷺ ليصلوا معه، فلما ضاق الوقت أسرعوا بالوضوء ولهذه السرعة لم يسبغوا الوضوء فأدركهم النبي ﷺ فأنكر عليهم لأنهم كانوا يمسحون أرجلهم بالماء، أو لأنهم تركوا التعميم .

وفي رواية عند الإمام مسلم أن النبي ﷺ رأى رجلاً لم يغسل عقبه فقال ذلك فنادى الرسول ﷺ بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار» مرتين أو ثلاثاً، واللام

= في قوله «للأعقاب» للعهد والعقب مؤخر القدم، والمعنى: ويل لأصحاب هذه الأعقاب المقصرين في غسلها.

ما يؤخذ من الحديث

(١) وجوب غَسْل الرِّجلين وعدم مسحهما.
(٢) تعليم الجاهل.
(٣) رفع الصوت بالإنكار إذا رأى العالم خطأ.
(٤) تكرار المسألة أكثر من مرة لتفهم.
(٥) الحرص على إسباغ الوضوء والتأكد من غسل الأعقاب.

٢٨ـ باب

المضمضة في الوضوء

قَالَهُ ابنُ عَبَّاس. وَعَبْدُاللهِ بنُ زَيْدٍ رَضِي الله عَنْهُمْ عَنِ النَّبيِّ ﷺ.

١٥٤ ـ حدثنا أَبُواليَمَان قَالَ: أَخْبَرنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهرِيِّ قال: أَخْبرني عَطاءُ بنُ يَزِيدَ عَنْ حُمْرَانَ مولَى عُثْمان بنِ عفَّانَ أنَّه رأَى عُثْمانَ دَعَا بِوضُوءٍ، فَأفْرَغَ عَلَى يدَيْه منْ إِنائه، فَغسَلَهُمَا ثلاث مرَّات، ثُمَّ أَدْخَلَ يَمينه فِي الوضُوءِ، ثُمَّ تَمَضْمَضَ، واسْتَنْشَقَ، واسْتنثَر، ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه إلى المرفقين ثَلاثاً، ثُمَّ مسح برأْسه، ثُم غسل كل رجْلٍ ثلاثاً ثم قال: رأيت النَّبيَّ ﷺ يَتوضأُ نحو وُضُوئي هَذَا، وقَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، لاَ يُحدِّثُ فيهما نَفْسَهُ، غَفَرَ الله لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه».

١٥٤ـ سبق هذا الحديث في باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، لأنه ذكر فيه غسل كل عضو ثلاثاً، وذكره هنا في باب: المضمضة في الوضوء. وهي وضع الماء في الفم وتحريكه ويديره ثم يمجّه.

وقد تقدم شرح هذا الحديث في باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، ولكن هذه الرواية نرى في سياقها من الزيادة رفع صفة الوضوء إلى فعل النبي ﷺ.

= قال الزهرى: كان علماؤنا يقولون: هذا الوضوء أسبغ ما يتوضأ به أحد للصلاة. وتمسك بهذا من لا يرى تثليث مسح الرأس.

ومعنى «أدخل يمينه في الوضوء» بفتح الواو أى : فى الماء الذى يتوضأ به. «ثم تمضمض واستنشق واستنثر».

وذكر في ترجمة الباب: « قاله ابن عباس وعبد الله بن زيد رضى الله عنهم» «قاله» الضمير فيه راجع إلى المضمضة وهو مصدر يستوى فيه التذكير والتأنيث أو يكون تذكير الضمير باعتبار المذكور، والقول هنا على معنى الحكاية أى حكى هذا. أى قال ابن عباس بالمضمضة فى الوضوء وقد مر حديثه فى باب غسل الوجه باليدين، وعبد الله بن زيد وسيأتى فى باب « من تمضمض واستنشق » .

وفى قوله: «لا يحدث فيهما نفسه» يحتمل أن يكون المراد بذلك الإخلاص أو ترك العجب بأن لا يرى لنفسه مزية، خشية أن يتغير فيهلك.

وتختلف هذه الرواية عن سابقتها في زيادة: «رأيت النبى ﷺ يتوضأ بنحو وضوئى هذا»

ما يؤخذ من الحديث

(١) غسل اليدين قبل وضعهما فى الإناء إذا كان الماء أقل من قلتين.
(٢) استحباب غسل العضو فى الوضوء ثلاثاً.
(٣) استحباب المضمضة وغسل اليدين والاستنشاق والاستنثار.
(٤) ترتيب غسل الأعضاء فى الوضوء
(٥) فعل الرسول ﷺ مثل قوله فى الاستدلال به فهو نوع من أنواع الحديث النبوى.

٢٩. باب

غَسْلِ الأعْقَابِ

وَكَانَ ابنُ سِيرِينَ يَغْسِلُ مَوْضِعَ الخَاتَمِ، إذَا تَوَضَّأَ.

١٥٥ - حدثنا آدَمُ بنُ أَبِى إِيَاسٍ قَالَ: حدثنا شُعْبَة قَال: حدثنا مُحَمدُ ابنُ زِيَادٍ قَالَ: سمعتُ أَبا هُرَيْرَةَ - وكَانَ يَمُر بنَا والنَّاسُ يَتَوَضَّئُونَ مِنَ المِطْهَرَةِ - قال: أَسْبِغُوا الوضُوء، فَإِنَّ أَبَا القَاسِمِ ﷺ قَالَ: «وَيْلٌ للأَعْقَاب مِنَ النَّار».

١٥٥- هذا التعليق الوارد فى قوله: «باب غسل الأعقاب، وكان ابن سيرين يغسل موضع الخاتم إذا توضأ» وصله المصنف فى التاريخ عن موسى بن إسماعيل ابن ميمون، وروى ابن أبى شيبة عن هشيم عن خالد عنه أنه كان إذا توضأ حرّك خاتمه، وهذا من أجل وصول الماء إلى ما تحته.

ومعنى «والناس يتوضأون من المطْهرة» أى من الإناء المعد للتطهير ويصح فتح الميم فيها وقد تكون أجود لورود ذلك فى حديث: «السواك مَطْهَرةٌ للفم» قال: أسبغوا الوضوء: أى أكملوه وأتموه، وإنما قال ذلك لهم لأنه قد يكون رأى تقصيراً منهم وخاف عليهم التقصير.

ثم قال: «فإن أبا القاسم قال: ويل للأعقاب من النار» وفى هذا تكنية رسول =

= الله ﷺ بهـذه الكنيـة وهو حـسن ولكن ذكـره بوصف الرسـالة أفـضل وأحـسن واستدل أبو هريرة على توجيهه لهم وأمره إياهم بإسباغ الوضوء استدل بقول الرسول ﷺ «ويل للأعقاب من النار» وقد تقدم شرح الحديث ومعلوم أن إسباغ الوضوء إنما هو فى جميع الأعضاء وإنما خص الأعقاب هنا بقوله: «ويل للأعقاب من النار» لصورة السبب فقد يكون حدث تساهل فى إسباغها.

ما يؤخذ من الحديث

(١) وجوب غسل الأعقاب.
(٢) وجوب إسباغ الوضوء.
(٣) وجوب تحريك الخاتم إذا كان الماء لا يصل إلى موضعه إلا بتحريكه.
(٤) استدلال العالم على ما يفتى به ليكون ذلك أوقع فى نفس سامعه.

٣٠.باب

غَسْلِ الرِّجْلَيْنِ فى النَّعْلَينِ، ولاَ يَمْسَحُ عَلَى النَّعْلَيْنِ.

١٥٦ ـ حدثنا عَبْدُالله بنُ يُوسُفَ قَالَ: أَخْبرنا مالك عَنْ سَعيدٍ المَقْبُرىِّ عَنْ عُبَيْدِ بنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ قَالَ لعَبدالله بن عُمَرَ: يَا أَبَا عَبْدالرَّحْمنِ، رَأَيْتُكَ تَصْنَعُ أَرْبعاً لَمْ أَرَ أَحَداً مِنْ أَصْحَابِكَ يَصْنَعُهَا، قَالَ: وَمَا هِىَ يَابْنَ جُرَيْجٍ؟ قَالَ: رَأَيْتُكَ لاَ تَمَسُّ مِنَ الأَرْكَانِ إِلاَّ اليَمَانِيين، وَرَأَيْتُكَ تَلْبَسُ النِّعَالَ السِّبْتِيَّةَ، وَرَأَيْتُكَ تَصْبُغُ بالصُّفْرة، وَرَأَيْتُكَ إِذَا كُنْتَ بمَكَّةَ أَهَلَّ النَّاسُ إِذَا رَأَوُا الهِلاَلَ وَلَمْ تُهِلَّ أَنْتَ حَتَّى كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَة، قَالَ عَبْدُالله: أَمَّا الأَرْكَانُ فَإِنِّى لَمْ أَرَ رَسُولَ الله ﷺ يَمَسُّ إِلاَّ اليَمَانِيَيْنِ، وأَمَّا النِّعَالُ السِّبْتِيَّةُ فَإِنِّى رَأَيْتُ رسولَ الله ﷺ يَلْبَسُ النَّعْلَ الَّتى لَيْسَ فِيها شَعرٌ، وَيَتَوضَّأُ فيها، فَأَنَا أُحبُّ أَنْ أَلْبَسَهَا، وأَمَّا الصُّفْرَةُ فَإِنِّى رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَصْبُغُ بهَا، فَأَنَا أُحبُّ أَنْ أَصْبُغَ بهَا، وأَمَّا الإِهْلاَلُ فَإِنِّى لَمْ أَرَ رسول الله ﷺ يُهِلُّ حَتَّى تَنْبَعِثَ بهِ راحِلَتُهُ.

---

١٥٦ – مطابقة الحديث لترجمة الباب في قوله: «ويتوضأ فيها» أى فى النعال المذكورة ومعنى «يتوضأ فيهما» أى يغسل رجليه فيهما وليس يمسح على النعلين، ولو أراد المسح لقال: عليها.

لقد قال عبيد بن جريج لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما: يا أبا عبدالرحمن =

= رأيتك تصنع أربعاً لم أر أحداً من أصحابك يصنعها، قال: وما هي يا ابن جريج؟ قال له عبيد بن جريج: رأيتك لا تمس من الأركان وهى أركان الكعبة الأربعة إلا الركنين اليمانيين، وفى هذا الوصف تغليب لأنهما الركن الذى فيه الحجر الأسود والركن اليمانى، فغلب الوصف باليمانيين لهما ولم يغلب الوصف بالحجر الأسود بقوله الركنين الأسودين حتى لا يلتبس المعنى أو يشتبه، وهذان الركنان هما الباقيان علي قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولذلك اختص كل منهما بالاستلام «ورأيتك تلبس النعال السبتية» وهى النعال التى لا شعر عليها من السبت وهو الحلق، أو هى التى عليها الشعر أو جلد البقر المدبوغ بالقرظ أو كل مدبوغ أو هى التى أسبتت بالدباغ أى لانت.

وإنما كان السؤال والحوار على هذا النوع، لأنها كانت لباس الأغنياء وأهل النعيم فقد كانوا قديماً يلبسون النعال بالشعر غير مدبوغة «ورأيتك تصبغ بالصفرة» أى تصبغ ثوبك أو شعرك باللون الأصفر.

«ورأيتك إذا كنت بمكة أهلَّ الناس إذا رأوا الهلال ولم تهل أنت حتى كان يوم التروية» أى أن الناس كانوا يهلون برفع أصواتهم بالتلبية إذا أحرموا بحج أو عمرة إذا رأوا هلال شهر ذى الحجة وأما هو فلا يهل إلا فى يوم التروية وهو اليوم الثامن من شهر ذى الحجة وسمى يوم التروية بهذا، لأنهم كانوا يتروون فيه الماء، فيجمعونه ليستعملوه فى اليوم التاسع يوم عرفة للشرب والوضوء وسائر وجوه الاستعمال وقيل: لأن الإمام كان يروي المناسك ويشرحها لهم.

فأجابه عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن السؤال عن استلام الركنين بقوله «فإنى لم أر رسول الله ﷺ يمس منها إلا اليمانيين» وأما النعال السبتية فلأن رسول الله ﷺ كان يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها وفى هذا تصريح بأن الرسول ﷺ كان يغسل رجليه وهما فى النعلين ولم يكن يمسح عليهما، وأما الصفرة فلأنه رأى الرسول ﷺ يصبغ بها.

أى أنه ما فعل شيئاً من هذه الأشياء إلا اقتداء برسول الله ﷺ ، حيث فعل ما كان يفعله.

ويحتمل فى الصبغ : أنه كان يصبغ ثيابه ، ويحتمل أنه كان يصبغ شعره لما فى السنن أنه « كان يصفر بها لحيته » وأن أكثر الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يخضب بالصفرة.

«وأما الإهلال فإنى لم أر رسول الله ﷺ يُهِلُّ حتى تنبعث به راحلته» والمقصود بذلك هو الإهلال أى الإحرام بالحج والعمرة، لقد أجاب بأنه لم يَرَ رسول الله ﷺ يهل إلا حيث تستوى راحلته قائمة متوجهة إلى الطريق وهو مذهب الشافعى ومالك وأحمد، وقال أبو حنيفة : يحرم عقب الصلاة جالساً.

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل استلام الركن اليمانى والحجر الأسود واستحباب ذلك.

(٢) لبس النعال التى لا شعر فيها، وجواز غسل الرجلين فى مثل هذه النعال التى تعد لذلك.

(٣) جواز الصبغ بالصفرة للّحية أو التطيب بها، لاحتمال أن استعمال الرسول ﷺ للصفرة لم يكن للصبغ بها بل للتطيب.

(٤) رفع الصوت بالتلبية عند الإحرام حيث تنطلق الراحلة ويجوز بعد ركعتى الإحرام.

٣١ . باب

التَّيمُّنِ فِى الوُضُوء والغُسْلِ

١٥٧ ـ حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قال : حَدَّثَنَا إسماعيلُ قال : حَدَّثَنَا خالدٌ عن حَفْصَةَ بِنْتِ سيرينَ عن أُمِّ عطيَّةَ قالتْ : قال النبيُّ ﷺ لَهُنَّ فِى غُسْلِ ابْنَته : «ابْدَأْنَ بِمَيَامِنِهَا ، ومَوَاضِعِ الوُضُوءِ منْهَا» .

١٥٧- عنوان هذا الباب التيمن ، أى الابتداء باليمين ، لقد وجه الرسول ﷺ فى غسل ابنته زينب رضى الله عنها كما ورد فى صحيح مسلم ، وقيل : اسمها أم كلثوم زوج عثمان بن عفان وكانت قد غسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبدالمطلب وشهدت أم عطية غسلها . والصواب أنها زينب .

لقد وجههن الرسول ﷺ أن يبدأن فى غسلها بميامنها ومواضع الوضوء منها ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يعجبه التيمن .

ما يؤخذ من الحديث

١- استحباب التيمن فى الوضوء والغسل
٢- استحباب الوضوء فى أول غسل الميت
٣- فضل اليمين على الشمال

١٥٨ - حَدَّثَنا حَفْصُ بنُ عُمَرَ قال : حَدَّثَنا شُعْبَةُ قال : أَخْبَرَنِي أَشْعَثُ بنُ سُلَيْمٍ قالَ : سَمِعْتُ أَبِي عَنْ مَسْرُوقٍ عن عائشَةَ قالَتْ : « كانَ النبيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ فِي تَنَعُّلِهِ وتَرَجُّلِهِ وطُهُورِهِ وفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ » .

---

١٥٨ - توضح السيدة عائشة رضى الله عنها ما كان يعجب النبى ﷺ فى تنعله وترجله وطهوره وسائر أحواله، وذلك بأنه ﷺ كان يعجبه التيمن فى تنعله أى فى لبس نعله فإذا لبس نعله يبتدىء بلبس اليمين أولاً وكذلك الحال أيضاً فى ترجله أى فى تسريح شعره فإذا سرح شعره بدأ بشقه الأيمن فى رأسه ولحيته، وفى طهوره بضم الطاء، فيبتدئ بالشق الأيمن فى الغسل.

«وفى شأنه كله» وهذا عام يشمل ما سبق ذكره من التنعل والترجل والطهور وغير ذلك من الأمور فهو من عطف العام على الخاص وهكذا فى سائر أمور التكريم من نحو لبس ثياب ودخول مسجد، وأما ما كان من غير ذلك كالامتخاط والاستنجاء فيفعل باليسار وكذا ما لا تكرمة فيه ولا إهانة كالأخذ والإعطاء على الراجح وإنما كان يعجبه التيمن، لأن الرسول ﷺ كان يحب الفأل الحسن ولأن أصحاب اليمين أهل الجنة، وفى رواية: «ما استطاع» فنبه على المحافظة على التيمن ما دام لا يمنع من ذلك مانع أو عذر.

ما يؤخذ من الحديث

١- استحباب التيمن وهو البدء باليمين فى لبس النعال وتسريح الرأس أو اللحية وفى الطهارة وفى كل شىء ما كان من باب التكريم كاللبس ودخول المسجد ونحو ذلك، وأما ما كان فى غير التكريم فيكون باليسار كالاستنجاء وغيره مثل دخول الخلاء وهو مكان قضاء الحاجة، والخروج من المسجد والامتخاط وخلع الثوب والسراويل والخف وما أشبه ذلك.

٢- استحباب الفأل الحسن، لأن محبة التيمن ناشئة لأن أصحاب اليمين هم أهل الجنة.

٣- الدلالة على شرف اليمين.

٤- استحباب البدء بشق الرأس الأيمن فى الترجل والغسل والحلق.

٥- البدء باليمين فى الوضوء، وهناك من أعضاء الوضوء ما لا يطهر إلا مرة واحدة فلايستحب فيه التيامن مثل الأذنين والكفين والخدين بل يطهران دفعة واحدة إلا إذا تعذر ذلك إلا فى حق الأقطع مثلاً ونحوه فيقدم اليمين.

٣٢.باب

التماس الوضوء إذا حانتْ الصَّلاةُ

وقَالتْ عائشَةُ : حَضَرَتِ الصُّبْحُ ، فَالْتُمِس المَاءُ ، فَلَمْ يُوجَدْ ، فَنَزَلَ التَّيَمُّمُ .

١٥٩ ـ حدثنا عَبْدالله بنُ يُوسُفَ قال : أَخبرنا مالك عنْ إسحاق بنِ عَبْدِالله بنِ أَبى طَلْحَةَ عنْ أَنَس بنِ مالك أنَّه قال : رَأَيْتُ رسول الله ﷺ ، وحَانتْ صَلاةُ العَصْرِ ، فالْتمسَ النَّاسُ الوَضُوءَ ، فَلَمْ يَجدُوهُ ، فَأُتِىَ رسولُ الله ﷺ بوَضُوءٍ ، فَوضَعَ رسولُ الله ﷺ فى ذَلكَ الإنَاءِ يَدَهُ ، وَأَمرَ النَّاسَ أَنْ يَتوَضَّئُوا منْهُ ، قال : فرَأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ منْ تَحْتِ أَصَابعه حَتَّى تَوضَّئُوا منْ عنْدِ آخرِهم .

١٥٩ـ هذا الباب فى التماس الوَضوء إذا حانت الصلاة ، والوَضوء بفتح الواو هو الماء الذى يتوضأ به ، إذا قرب وقت الصلاة .

وما جاء تعليقاً فى ذكر قول السيدة عائشة رضى الله عنها « حضرت الصبح فالتُمس الماء فلم يوجد فنزل التيمم » ، أى : حانت صلاة الصبح ، فالتمس الماء فلم يوجد فنزلت آية التيمم .

ويخبر أنس بن مالك رضى الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ ، والحال أنه حانت صلاة العصر أى قربت وهو بالزوراء وهى سوق المدينة فالتمس الماء أى طلب =

= الناس الماء الذى يتوضأ به فلم يجدوا، فأُتى رسول الله ﷺ بوَضوء أى بما يتطهر به من ماء فى إناء، وفى رواية أخرى: فجاء رجل بقدح فيه ماء يسير، وهو مقدار وضوء رجل واحد، فوضع الرسول ﷺ فى ذلك الإناء يده الشريفة وأمر الناس أن يتوضأوا من ذلك الإناء، وهنا تجلت معجزة لرسول الله ﷺ حيث كان الماء ينبع أى يخرج ويفور من تحت أصابعه حتى توضأوا جميعاً إلى آخر واحد فيهم «حتى توضئوا من عند آخرهم» كناية عن جميعهم.

وهكذا كانت تلك المعجزة الواضحة التى رآها أنس رضى الله عنه وأخبر عنها قائلاً: «فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه حتى توضؤا من عند آخرهم».

ما يؤخذ من الحديث

(١) استحباب التماس الماء لمن كان على غير طهارة.
(٢) الرد على من أنكر المعجزات من غير المؤمنين.
(٣) جواز اغتراف المتوضىء من الماء القليل مع عدم استعماله.
(٤) التبكير بأداء الصلاة فى أول وقتها.
(٥) ثبوت المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ ومنها: نبع الماء من بين أصابعه.

٣٢. باب

الماء الذى يُغْسَلُ به شَعر الإنسَان

وَكَانَ عَطَاءٌ لا يَرَى به بَأْساً أنْ يُتَخذَ منْهَا الخُيُوطُ والحِبَالُ، وسُؤْر الكلاب ومَمَرها في المَسْجد، وقَالَ الزُّهرىُّ: إذا ولَغَ فى إناء لَيْسَ لَهُ وَضُوءٌ غَيْرُهُ يَتَوَضّأُ به، وقال سُفْيَانُ: هَذَا الفقْهُ بعيْنه، يَقُولُ اللّهُ تعالى ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾(١)

وهذَا ماءٌ، وفى النَّفْسِ منْهُ شَيءٌ، يَتَوضَّأُ به ويَتَيَمَّمُ.

١٦٠ ـ حدثنا مالك بن إسماعيلَ قال: حَدّثنا إسْرائيلُ عنْ عاصمٍ عَنْ ابنِ سيرينَ قَالَ: قُلْتُ لعَبيدَةَ: عنْدنَا منْ شَعَرِ النبىِّ ﷺ أصَبْنَاهُ منْ قِبَلِ أنَس أوْ منْ قِبَلِ أهْلِ أَنَس، فقَالَ: لأنْ يَكُونَ عِنْدى شَعَرَةٌ منْهُ أَحَبُّ إليَّ مِنَ الدُّنْيا ومَا فِيهَا.

١٦٠ـ هذا الباب فى حكم الماء الذى يغسل به شعر الإنسان وأن حكمه الطهارة، لأن المغتسل قد يقع شىء فى ماء غسله من شعره فلو كان نجساً لتنجس الماء الذى يقع فيه ولم ينقل أن النبى ﷺ تجنب هذا فى اغتساله بل كان يخلّل أصول شعره فيتناثر بعضه فدلّ على الطهارة.

وكان عطاء لا يرى به بأساً أن يتخذ منها الخيوط والحبال أى بشعور الناس =

(١) سورة النساء ـ آية ٤٣.

= التى تحلق بمنى . و (وسؤر الكلاب . .) بالعطف على قوله : «الماء» أى باب سؤر الكلاب . والمراد حكمه والسؤر هو البقية ، والظاهر من صنيع البخارى القول بطهارته .

وقول سفيان : يتوضأ به ويتيمم عقّب بعض الأئمة بقوله : الأولى أن يريق ذلك الماء ثم يتيمم .

وفى قول ابن سيرين لِعَبيدةَ : «عندنا من شعر النبى ﷺ» أى عندهم شيء منه «أصبناه» أى حصل لنا من جهة أنس بن مالك ، ووجه الدلالة منه على الترجمة أن الشعر طاهر وإلا لما حفظوه ، وإذا كان طاهراً فالماء الذى يغسل به طاهر .

ما يؤخذ من الحديث

(١) طهارة الماء الذى يغسل به شعر الإنسان .

(٢) محبة المسلمين الأوائل لآثار الرسول ﷺ .

(٣) التبرك بأثر النبى ﷺ ومحبته .

(٤) التيمم إذا لم يوجد الماء ، أو وجد ولكنه غير طاهر على الرأى المختار لنجاسة مثل ولوغ كلب فيه ونحو ذلك .

(٥) كما جاء اتخاذ شعر النبى ﷺ والتبرك به لطهارته دل على أن مطلق الشعر طاهر ، والماء الذى يغسل به طاهر ، وهذا ما يطابق ترجمة الباب .

١٦١ ـ حدَّثَنا مُحمَّدُ بنُ عَبْدِالرَّحيمِ قال: أَخْبرَنا سَعيدُ بنُ سليمان قال: حدّثنا عَبَّادٌ عَنْ ابنِ عَوْنٍ عَن ابنِ سيرينَ عَنْ أَنَس أَنَّ رسول الله ﷺ لَمَّا حَلَقَ رَأْسَهُ كانَ أَبُو طَلْحَةَ أَوّلَ مَنْ أَخَذَ من شَعْرِهِ.

١٦١ـ وفى هذا الحديث دليل ثانٍ على طهارة الشعر وعلى طهارة الماء الذى يغسل به وهو يطابق ترجمة الباب الدالة على طهارة الماء الذى يغسل به شعر الإنسان.

وقد أخرج الحديث أبو عوانة فى صحيحه ولفظه: «أن رسول الله ﷺ أمر الحلاق فحلق رأسه ودفع إلى أبى طلحة الشق الأيمن ثم حلق الشق الآخر فأمره أن يقسمه بين الناس» ورواه مسلم أيضاً من طريق ابن عيينة عن هشام بن حسان عن ابن سيرين بلفظ: لما رمى الجمرة ونحر نسكه ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه ثم دعا أبا طلحة فأعطاه إياه ثم ناوله الشق الأيسر فحلقه فأعطاه أبا طلحة فقال: اقسمه بين الناس».

ما يؤخذ من الحديث

(١) المواساة بين الأصحاب فى الهبة والعطية.
(٢) المواساة لا تستلزم المساواة.
(٣) حلق الرأس سنة اقتداء بالرسول ﷺ.
(٤) طهارة الشعر.
(٥) التبرك بشعر النبى ﷺ.
(٦) جواز اقتناء الشعر.

١٦٢ ـ حدثنا عَبْدُالله بنُ يُوسُفَ عَنْ مالك عَنْ أَبِى الزِّناد عن الأَعْرَجِ عن أبى هريرة قَالَ: إن رسـول الله ﷺ قـالَ: «إذَا شَـرِبَ الكَلْبُ فى إناءِ أَحَدِكُمْ فليَغْسله سَبْعاً».

وقال أحْمَدُ بنُ شَبيب: حدثنا أَبى عن يُونُسَ عَن ابنِ شهَاب قال: حدثنى حَمْزَةُ بن عَبْدالله عَنْ أبيه قال: كانَت الكلاَبُ تَبُول وتُقْبلُ وتُدْبرُ فى المَسْجد فى زَمَانِ رَسُولِ الله ﷺ، فَلَم يكونوا يَرُشُّونَ شَيْئاً من ذَلكَ.

١٦٢ـ فى هذا الحديث توضيح وبيان من رسول الله ﷺ لنجاسة الكلب، وانه إذا شرب، فى إناءٍ فعلينا أن نغسله سبع مرات، حتى ولو كان الكلب معلماً، وفى رواية أخرى «إذا ولغ» والولوغ هو أن يأخذ الكلب الماء بطرف لسانه، والأمر بغسل الإناء سبع مرات يفيد نجاسة فم الكلب، ويقاس على الإناء غيره من كل ما أصابه شىء من أجزاء الكلب وكذلك أيضاً الخنزير، ولابد مع هذا الغسل أن تكون إحدى المرات السبع بالتراب، كما ثبت فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم، وأهمية الغسل بالتراب أمر بها الرسول ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، ويأتى العلم الحديث اليوم مؤخراً ليثبت أن فى لعاب الكلب ميكروباً لا يقاومه إلا المادّة الترابية، فتتبدّى الحكمة واضحة جلية من استعمال إحدى مرات الغسل للتراب، إثباتاً للإعجاز النبوى الذى سبق العلم الحديث بقرون عديدة.

ما يؤخذ من الحديث

(١) ثبوت نجاسة الكلب وجميع أجزائه ويقاس على الكلب الخنزير.
(٢) أن تطهير ما ولغ فيه الكلب يكون بغسله سبع مرات إحداهن بالتراب الطهور.
(٣) فيه دليل على تحريم بيع الكلب إذا كان نجس الذات، وأجاز بعض العلماء بيعه؛ لأنه ينتفع به فى الحراسة والصيد حيث قال الله تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤].

٣٤- باب

مَنْ لَمْ يرَ الوضوء إلا من المخْرجيْن منَ القُبُلِ والدبُرِ

وقَوْلِ الله تعالى ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ (١) وقالَ عطَاءٌ ، فيمَنْ يَخْرُجُ مِنْ دُبُرِهِ الدُّودُ أَوْ مِنْ ذَكَرِهِ نَحْوُ القَمْلَة : يُعِيدُ الوُضُوءَ ، وقال جَابرُ بنُ عَبْدِ الله : إذَا ضَحِكَ فى الصَّلاَة أَعَادَ الصَّلاَةَ ، وَلَمْ يُعِد الوُضُوءَ ، وقال الحَسَنُ : إنْ أَخَذَ مِنْ شَعَرِهِ وأَظْفَارِهِ أَوْ خَلَعَ خُفَّيْه فَلاَ وُضُوءَ عَلَيْه ، وقالَ أَبو هُرَيْرَةَ : لاَ وُضُوءَ إلاَّ مِنْ حَدَث ، ويُذْكَرُ عَنْ جابرٍ : أَنَّ النبىَّ ﷺ كانَ فى غَزْوَة ذات الرِّقَاعِ فَرُمِيَ رَجُلٌ بسَهْمٍ ، فَنَزَفَهُ الدَّمُ ، فَرَكَعَ ، وسَجَدَ ، ومَضَى فى صَلاَته ، وقال الحَسَنُ : ما زَالَ المسْلمُونَ يُصَلُّونَ فى جِراحَاتِهِمْ ، وقالَ طاووس ومُحَمَّدُ بنُ عَلىٍّ وعَطَاءٌ وأَهْلُ الحِجَاز : لَيْسَ فى الدَّمِ وُضُوءٌ ، وعَصَرَ ابنُ عُمَرَ بَثْرَةً ، فَخَرَجَ منْهَا الدَّمُ ، ولَمْ يَتَوَضَّأْ ، وبَزَقَ ابنُ أَبِى أَوْفَى دَمًا ، فَمَضَى فى صَلاته ، وقالَ ابنُ عُمَرَ ، والحَسَنُ فِيمَن يَحْتَجِمُ : لَيْسَ عَلَيْه إلاَّ غَسلُ مَحَاجِمه .

باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين القبل والدبر

هذا الباب فيه بيان وتوضيح لما ينتقض به الوضوء ، فإن الوضوء يكون واجباً بخروج شيء من مخارج البدن من القبل والدبر ، وبهذا يشير إلى مخالفة رأى من رأى الوضوء بخروج شيء من غير هذين المخرجين من البدن ، وذلك مثل القيء =

(١) سورة النساء (٤٣) .

= بخروج شيء من الجوف عن طريق الفم، أو الحجامة لاستخراج بعض الدم ونحو ذلك، وكأن البخارى أراد أن ينبه إلى أن نواقض الوضوء المعتبرة راجعة إلى المخرجين، حتى نقض الوضوء بالنوم فهو لمظنة خروج الريح، وحتى لمس المرأة أو مس الذكر فهو لمظنة خروج المذى.

وأشار بقول الله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ [1] معلقاً وجوب الوضوء أو التيمم على المجيء من الغائط؛ ليبين أن الوضوء يكون بسبب ما يخرج من المخرجين، ثم ذكر أقوال عطاء وجابر والحسن وأبى هريرة وطاوس، وهى أقوال تؤيد ما ذهب إليه من أن نقض الوضوء إنما يكون بالخارج «من المخرجين وأن ابن عمر عصر بثرة» وهى خراج صغير فخرج الدم ولم يتوضأ، وبزق ابن أبى أوفى دماً فمضى فى صلاته أى: لم ينتقض الوضوء وكذلك من احتجم لا ينتقض وضوؤه.

(١) سورة النساء (٤٣).

١٦٤ - حَدَّثنَا آدَمُ بنُ أَبِى إِيَاسٍ قَالَ : حَدَّثنَا ابنُ أَبِى ذِئبٍ عَنْ سَعيد المَقْبُرىِّ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ النبى ﷺ : « لا يَزَالُ العَبْدُ فى صَلاَة ما كانَ فى المَسجد يَنْتَظِرُ الصَّلاَةَ ما لَمْ يُحدثْ » .

فقَال رَجُلٌ أَعجَمىٌّ : ما الحَدَثُ يا أَبا هُرَيْرَةَ ؟ قَالَ : الصوْتُ ، يَعْنى الضَّرْطَةَ .

---

١٦٤ - إن المصلى إذا انتظر قيام الصلاة وجلس فى المسجد فى انتظارها فهو كأنه فى الصلاة يحصل له من الثواب والأجر ما يحصل عليه إذا كان يصلى ، فكأنه فى صلاة ، أى فى الحصول على الثواب . وليس على الحقيقة فى صلاة ، وإلا امتنع عليه الكلام الأجنبى الخارج عن الصلاة ، ولكن المنتظر للصلاة له أن يتكلم وله ثواب الصلاة ، ما دام فى المسجد ينتظر الصلاة ، ما لم يحدث ، فما دام طاهراً متوضئاً فكأنه فى صلاة وله الثواب .

فقال رجل أعجمى ، أى غير فصيح بالعربية : ما الحدث يا أبا هريرة؟ قال : الصوت يعنى الضرطة وفى رواية أبى داود وغيره : «لا وضوء إلا من صوت أو ريح» أى إلا من ضراط أو فساء ، وإنما خصهما ؛ لكونهما لا يخرج من المرء فى المسجد غيرهما فى الأغلب .

ما يؤخذ من الحديث

(١) فضل انتظار الصلاة بعد الصلاة .

(٢) الحث على أداء الصلاة فى أول وقتها .

(٣) فضل صلاة الجماعة والحث عليها .

(٤) فضل الاعتكاف فى المسجد .

(٥) حصول من ينتظر الصلاة على الثواب ما دام منتظراً للصلاة وكان على طهارة .

(٦) وأن الذى ينقض الوضوء هو ما خرج من المخرَجيْن .

١٦٥ - حَدَّثنَا أَبُو الوَلِيدِ قالَ : حَدَّثنا ابنُ عُيَيْنَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عنْ عَبَّاد ابنِ تَمِيمٍ عَنْ عَمِّه عَنِ النبيِّ ﷺ قال : « لا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتاً أَوْ يَجِدَ رِيحاً » .

---

١٦٥ - سبق الكلام عن ذلك فى باب : «لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن» وأورد هذا الحديث هنا ليستدل به على أن نقض الوضوء محصور بما يخرج من السبيلين : القبل والدبر . وقد سبق بيان سبب ورود هذا الحديث وهو : عن عباد بن تميم عن عمه أنه شكا إلى رسول الله ﷺ الرجل الذى يخيل إليه أنه يجد الشيء فى الصلاة، فقال : « لا ينفتل - أو لا ينصرف - حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً » لأن كثيراً ما تحدث وسوسة يترتب عليها أن يتخيل الإنسان نقض وضوئه فحينئذ لا يسترسل الإنسان فى هذا الظن ويظل يتوضأ لكل ظن فيكون فى هذا مشقة وعناء، وحرج وتعب، بل إن الإنسان لا يتوضأ حتى يستيقن وعليه طرح الشك ، والاستيقان يكون بسماع صوت أو وجود ريح ، فإن نقض الوضوء يكون بما خرج من السبيلين يقيناً وإلا فلا .

ما يؤخذ من الحديث

(١) هذا الحديث دليل على حكم بقاء الأشياء على أصلها حتى يتيقن الإنسان خلاف ذلك .

(٢) أن نقض الوضوء محصور فيما خرج من السبيلين يقيناً ، حتى قيل إن لمس المرأة مدعاة لنزول المذى وإن النوم مظنة خروج ريح ونحوه .

١٦٦ - حَدَّثنا قُتَيْبَةُ بنُ سَعيدٍ قالَ : حَدَّثنا جَريرٌ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ مُنْذرٍ أَبي يَعْلَى الثَّوريِّ عَنْ مُحَمَّد بنِ الحَنَفيَّة قالَ : قالَ عَليٌّ : كُنْتُ رَجُلاً مَذَّاءً ، فاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسْأَلَ رَسُولَ الله ﷺ ، فَأَمَرْتُ المقْدادَ بنَ الأَسْوَدِ ، فَسَأَلَهُ ، فقالَ : « فيه الوُضُوءُ » . وَرَوَاهُ شُعْبَةُ عَنِ الأَعْمَش .

---

١٦٦ - لقد سبق هذا الحديث فى آخر كتاب العلم فى باب : من استحيا فأمر غيره بالسؤال .

وورد هذا الحديث هنا ؛ للاستدلال به على أن المذى لا يوجب الغسل ، وإنما ينقض الوضوء .

وإنما استحيا الإمام على كرم الله وجهه من السؤال عن هذا الحكم وأمر غيره بالسؤال لمكانه من بنت رسول الله ﷺ وهى زوجته السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها .

وقد أجاب رسول الله ﷺ المقداد بن الأسود موضحاً له أن خروج المذى فيه الوضوء ؛ لأنه كالبول وينقض الوضوء مثله .

ما يؤخذ من الحديث

(١) وجوب الوضوء من خروج المذى .
(٢) من استحيا من سؤال العالم يمكن أن يكلف غيره بالاستفسار عنه .
(٣) لا يوجب خروج المذى الغسل .

١٦٧ - حَدَّثنا سَعْدُ بنُ حَفْصٍ حَدَّثنا شَيْبَانُ عَنْ يَحْيَى عَنْ أَبِى سَلَمَةَ أَنَّ عَطاءَ بنَ يَسارٍ أَخْبَرَهُ أَنْ زَيْدَ بنَ خالدٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَأَلَ عثمان بنَ عَفَّانَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ، قُلْتُ : أَرَأَيْتَ إذا جامعَ فَلَمْ يُمْنِ ؟ قال عثمان : يَتَوَضَّأُ كَما يَتَوَضأُ للصَّلاةِ ، ويَغْسِلُ ذَكَرَهُ ، قالَ عثمان : سَمِعْتُهُ من رَسول الله ﷺ ، فَسَأَلْتُ عَنْ ذلكَ عَلِيًّا ، والزُّبَيْرَ ، وطَلْحَةَ ، وَأُبَيَّ بنَ كَعْبٍ ، رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ ، فَأَمَرُوهُ بذَلكَ .

١٦٧- فى هذا الحديث سؤال من زيد بن خالد رضى الله عنه لسيدنا عثمان رضى الله عنه قال له : «أرأيت» أى أخبرنى «إذا جامع فلم يُمْن» أى إذا جامع الرجل زوجته فلم ينزل منه منىٌّ، فأجابه سيدنا عثمان رضى الله عنه بقوله : «يتوضأ كما يتوضأ للصلاة» أى يتوضأ الوضوء الشرعى، لأن أغلب الأحوال عندئذ أن يخرج ممن جامع مذى «ويغسل ذكره» لأنه يكون قد أصيب بالنجاسة بسبب المذى.

ومعلوم أن غسل الذكر مقدم على الوضوء، ولكنه أورده بعد الوضوء، وهذا لأن الواو لا تدل على الترتيب فهى تفيد مطلق الجمع، ولا فرق بين أن يغسل ذكره قبل الوضوء أو بعده على وجه لا يكون فيه نقض للوضوء.

قال عثمان رضى الله عنه : سمعته من رسول الله ﷺ ، قال زيد : فسألت عن ذلك عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله وأُبَىّ بن كعب رضى الله عنهم فأمروه بذلك، أى : بالوضوء فقط دون الغسل.

وهذا الحديث منسوخ بمثل قوله ﷺ : «إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل». كما أن الإجماع منعقد على وجوب الغسل بالجماع وإن لم ينزل. والمنسوخ من هذا الحديث هو عدم وجوب الغسل.

وأما الأمر بالوضوء فهو باق، لأنه يندرج تحت الغسل، والحكمة فى قوله :

= «يتوضأ كما يتوضأ للصلاة» مع أن الأمر حينئذ كان قبل وجوب الغسل ؛ إما لكون الجماع مظنة خروج المذى أو لملامسة المرأة ، ولذا أورد المصنف الحديث هنا فى كتاب الوضوء .

ما يؤخذ من الحديث

(١) وجوب الغسل من الإنزال ، ومن الجماع وإن لم ينزل وهذا ثابت بحديث آخر ناسخ لعدم الغسل من الجماع إذا كان دون إنزال وهو قوله ﷺ : «إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل» .

(٢) نجاسة المذى ، ووجوب التطهر بالماء منه وغسل مكانه .

(٣) ثبوت وجوب الغسل من كل ما يخرج من أحد السبيلين : القبل أو الدبر .

(٤) النسخ فى هذا الحديث خاص بعدم وجوب الغسل بالجماع دون الإنزال فهذا منسوخ ويجب الغسل بالجماع وإن لم يحدث إنزال ما دام قد تم التقاء الختانين ، فالنسخ خاص بذلك فقط ، أما دلالة الحديث على الوضوء من الخارج من نحو مذى فهى باقية والحديث دال على ذلك حيث جاء فيه الأمر بالوضوء وغسل الذكر .

١٦٨ - حَدَّثنا إسْحاقُ قالَ : أخبرنا النَّضْرُ قالَ : أَخبرنا شُعْبَةُ عَن الحَكَمِ عَنْ ذَكْوانَ أَبي صالحٍ عن أَبي سَعيد الخُدْرِيِّ « أَنَّ رسولَ الله ﷺ أَرْسَلَ إلى رَجلٍ منَ الأنْصارِ ، فَجاءَ ورَأْسُهُ يَقْطُرُ ، فَقالَ النبي ﷺ : لَعَلَّنا أَعْجَلْنَاكَ ؟ فَقالَ : نَعَمْ ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : إذَا أُعْجِلْتَ أَوْ قُحطْتَ ، فَعَلَيْكَ الوُضُوءُ .

تابَعَه وَهْبٌ قالَ : حَدَّثنا شُعْبَةُ .

قالَ أَبو عَبْد الله : وَلَمْ يَقُلْ غُنْدَرٌ وَيَحْيَى عَن شُعْبَةَ الوُضُوءَ .

١٦٨- أرسل رسول الله ﷺ إلى رجل من الأنصار وهو عتبان بن مالك الأنصارى، وقيل: هو صالح الأنصارى وقيل: رافع بن خديج والقول بأنه (عتبان) هو أرجح الأقوال.

وفى رواية الإمام مسلم: «مر على رجل» فيحمل على أنه مر به فأرسل إليه فجاء ورأسه يقطر، أى: ينزل منه الماء قطرة بعد أخرى، وذلك من أثر الاغتسال، فقال رسول الله ﷺ: لعلنا أعجلناك؟ أى عن فراغ حاجته من الجماع فأجاب بقوله: «نعم» فقال رسول الله ﷺ: «إذا أعجلت أو قحطت فعليك الوضوء» والقحط معناه: عدم الإنزال مستعار من قحوط المطر بمعنى انحباسه و «أو» للشك من الراوى أو للتنويع، أى سواء كان عدم الإنزال لأمر خارج عن ذات الشخص أو من ذاته فلا فرق فى وجوب الوضوء دون الغسل وهذا الحكم كما فى الحديث السابق منسوخ بمثل حديث: «إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل» وأجمعت الأمة على وجوب الغسل بالجماع حتى وإن لم يحدث إنزال وبهذا قال الشافعى وأحمد ومالك وأبو حنيفة.

ما يؤخذ من الحديث

(١) سرعة إجابة الصحابة لرسول الله ﷺ .

(٢) وجوب الغسل من الجماع، وما ورد فى الحديث إنما هو منسوخ.

(٣) استحباب الدوام على الطهارة؛ لكون النبى ﷺ لم ينكر عليه تأخير إجابته.

(٤) جواز الأخذ بالقرائن؛ لأن الصحابى لما أبطأ عن إجابة رسول الله ﷺ مدة اغتساله كان هذا التأخير غير معهود منه، فلما رأى الرسول ﷺ على الرجل أثر الغسل دل على أن شغله كان به.

(٥) عدم الحياء فى مثل هذه المواقف وذكر ما يحدث؛ لما يترتب عليه من أحكام وضحها لهم رسول الله ﷺ .

٣٥ - باب

الرَّجُلِ يُوضِّيءُ صَاحِبَهُ

١٦٩ - حدثني مُحَمَّدُ بنُ سَلام قالَ : أَخبرنا يَزِيدُ بنُ هَارُونَ عَنْ يَحْيىَ عَنْ مُوسَى بنِ عُقْبَةَ عَنْ كرَيْبٍ مَوْلَى ابنِ عَبَّاس عَنْ أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ « أن رسولَ اللهِ ﷺ لَمَّا أَفَاضَ من عَرَفَةَ عدَلَ إِلى الشِّعْب ، فَقَضَى حاجَتَهُ ، قالَ أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ : فَجَعَلْتُ أَصُبُّ عَلَيْه ، ويَتَوَضأُ ، فَقُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ أَتُصَلِّي ؟ فَقالَ : المُصَلَّى أَمامَكَ » .

١٦٩- سبق هذا الحديث فى باب : «إسباغ الوضوء» وأورده هنا ليوضح حكم قيام الرجل يوضىء صاحبه ، حيث إن أسامة بن زيد رضى الله عنه أخبر أن رسول الله ﷺ لما أفاض من عرفة عدل إلى الشِّعْب فقضى حاجته ، قال أسامة بن زيد رضى الله عنه : فجعلت أصب عليه ويتوضأ ، وفى هذا دلالة على جواز الاستعانة فى الوضوء ، وقاس البخارى - رحمه الله تعالى - توضئة الرجل غيره على صبِّه عليه لاجتماعهما فى معنى الإعانة .

قال النووى رحمه الله تعالى : الاستعانة ثلاثة أقسام الأول : إحضار الماء ولا كراهة فيه أصلاً . والثانى : مباشرة الأجنبى الغسل وهذا مكروه إلا لحاجة . والثالث : الصب وفيه وجهان : أحدهما : يكره ، والثانى : خلاف الأولى . وتعقب هذا بأنه ما دام الرسول ﷺ فعله لا يكون خلاف الأَوْلى .

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز الاستعانة بالغير فى الوضوء.
(٢) جواز أن يوضىء الرجل صاحبه قياساً على الاستعانة والصب فى حالة الحاجة إلى ذلك.
(٣) الاقتداء بالرسول ﷺ فى أفعاله الموضحة للأحكام.

١٧٠ - حَدَّثَنَا عَمْرُو بنُ عَلِيٍّ قالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَهَّاب قالَ : سَمِعْتُ يَحْيَى بنَ سَعِيدٍ قال : أَخبرَني سَعْدُ بنُ إبْرَاهِيمَ أَنَّ نَافِعَ بنَ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ عُرْوَةَ بنَ المُغِيرَة بنِ شُعْبَةَ يُحَدِّثُ عَنِ المُغِيرَة بنِ شُعْبَةَ « أَنَّهُ كانَ مع رسولِ اللهِ ﷺ في سَفَرٍ ، وأَنَّهُ ذَهَبَ لحَاجَةٍ لَهُ ، وأَنَّ مُغِيرَةَ جَعَلَ يَصُبُّ الماءَ عَلَيْه ، وهُوَ يتوَضَّأُ ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ ويَدَيْه ومَسَحَ بِرَأْسه ومَسَحَ عَلَى الخُفَّيْن » .

١٧٠- كان المغيرة بن شعبة مع رسول الله ﷺ في سفر وذهب الرسول ﷺ لحاجة له ، وأنه لما توضأ جعل المغيرة يصب الماء فغسل وجهه ويديه ومسح برأسه ومسح على الخفين .

وفى هذا الحديث أيضاً دلالة على الاستعانة بالغير فى الوضوء .

واستدل البخارى من صب الماء عليه عند الوضوء أنه يجوز للرجل أن يوضئه غيره . وفى هذا الحديث والحديث السابق دلالة على عدم كراهة الاستعانة بالصب ، وأيضاً إحضار الماء لمن يريد الوضوء من باب أَوْلَى .

وفيما رواه الحاكم فى المستدرك من حديث الرُّبيّع بنت معوذ أنها قالت : أتيت النبى ﷺ بوضوء فقال : اسكبى فسكبت عليه . وفى هذا الحديث تصريح فى عدم الكراهة خاصة أنه فى الحضر وليس فى السفر .

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز الاستعانة بالغير في الوضوء.

(٢) مشروعية غسل الوجه واليدين ومسح الرأس والمسح على الخفين.

(٣) أخذ الصحابة الأحكام عن الرسول ﷺ قولاً وعملاً.

(٤) جواز إحضار الماء لمن يريد الوضوء من باب أَوْلَى.

(٥) جواز توضئة الرجل صاحبه عند الحاجة.

٣٦ - باب

قراءة القرآن بعد الحدث وغيره

وَقَالَ مَنْصُورٌ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: لاَ بَأْسَ بالقراءَة فى الحَمَّام، وَبِكَتْب الرِّسَالَة عَلَى غَيْرِ وُضُوءٍ، وَقَالَ حَمَّادٌ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: إِنْ كانَ عَلَيْهِمْ إِزَارٌ فَسَلِّمْ، وَإِلاَّ فَلاَ تُسَلِّمْ.

١٧١ ـ حدثنا إسْماعيل قَالَ: حدَّثنى مالك عَنْ مَخْرَمَةَ بن سُليمانَ عَنْ كُرَيْب مَوْلَى ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عَبْدَالله بنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ بات لَيْلَةً عنْدَ مَيْمُونَةَ زَوْجِ النَّبىِّ ﷺ ـ وهىَ خَالَتُهُ ـ فاضْطَجَعْتُ فى عَرضِ الوسَادَة، واضطَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَهلُهُ فى طُولهَا، فَنَامَ رسُولُ الله ﷺ، حَتَّى إذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ، أَو قَبْلَهُ بقَليلٍ، أَو بَعدَهُ بقَليلٍ، استَيقَظَ رسولُ الله ﷺ، فَجلَسَ يَمسَحُ النَّومَ عَن وَجهه بيَده، ثُمَّ قَرَأَ العَشْرَ الآيَات الخَواتمَ منْ سُورَة آلِ عمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إلَى شَنٍّ مُعلَّقَة، فَتوضَّأَ منهَا فَأَحسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّى، قَال ابنُ عبَّاسٍ: فَقُمْتُ، فَصَنعْتُ مثْلَ ما صَنَعَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ، فَقُمْتُ إلَى جَنْبه، فَوضَعَ يده اليمْنَى عَلَى رَأْسى، وأَخَذَ بأُذُنى اليُمْنَى، يَفْتلُهَا فَصلَّى رَكْعَتَين، ثُمَّ رَكْعَتَيْن، ثُمَّ رَكْعَتَيْن، ثُمَّ رَكْعَتَيْن، ثُمَّ رَكْعَتَيْن، ثُمَّ رَكْعَتَيْن، ثُمَّ أَوْتَرَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ، حَتَّى أَتَاهُ المُؤَذِّنُ، فَقَامَ، فَصلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفيفَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصلَّى الصُّبْحَ.

= ١٧١ ـ عنوان هذا الباب يوضح أن قراءة القرآن بعد الحدث الأصغر جائزة وكذلك غيره من الأذكار من باب أولَى، وذكر قول منصور بن المعتمر عن إبراهيم النخعي: لا بأس بالقراءة في الحمام، وقال محمد بن الحسن ومالك: لا تكره لأنه ليس فيه دليل خاص، وقال السبكي: إن كان القارئ في مكان نظيف وليس فيه كشف عورة لم يكره وإلا كُره.

وكذلك لا بأس بالقراءة في الحمام وبكتابة الرسالة على غير وضوء ومعلوم أن الرسائل عادة تُصَدّر بالبسملة فتوهم البعض أن ذلك يكره لمن كان على غير وضوء فوضح جوازها، ويمكن أن نقول: إن كاتب الرسالة لا يقصد القراءة.

وقال حماد بن أبي سليمان فقيه الكوفة عن إبراهيم النخعي: إن كان على مَنْ في الحمام إزار فسلّم عليهم وإلا فلا تسلم لكونهم على بدعة أو لأن السلام يستدعي الرد وفيه ذكر الله فالسلام من أسماء الله تعالى وكلمة «سلام عليكم» من القرآن والمتعرى عن الإزار مشابه لمن هو في الخلاء.

وقد سبق شرح هذا الحديث في باب: «تخفيف الوضوء» ومناسبة الحديث للترجمة من جهة أن مضاجعة الأهل في الفراش لا تخلو من الملامسة.

لقد بات ابن عباس رضي الله عنهما عند ميمونة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها وهي خالته فاضطجع في عرض الوسادة، واضطجع رسول الله ﷺ وأهله وهي زوجته ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها. في طول الوسادة وهي المخدّة التي يُتكأ عليها، فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل أو قبله أو بعده بقليل استيقظ فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده أي يمسح عينيه لإزالة استرخاء الجفون الحاصل بسبب النوم ثم قرأ ﷺ العشر الآيات من إضافة الصفة إلى الموصوف أي الآيات العشر الخواتم من سورة آل عمران من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[1] إلى آخر السورة، ثم قام إلى شنٍّ معلقة أي إلى قربة معلقة قديمة من جلد فتوضأ منها فأحسن الوضوء وأتمه، ولا يتعارض هذا مع الحديث السابق قبل ذلك في قوله: «وضوء خفيفاً» لاحتمال الإتيان بكل المندوبات مع التخفيف.

---

(١) سورة آل عمران - آية ١٩٠.

ويحتمل أنه كان كل منهما في وقت، ثم قام ﷺ يصلي، قال ابن عباس رضى الله عنهما: فقمت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت إلى جنبه الأيسر فوضع يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني اليمنى يفتلها أى يدلكها تنبيهاً على الغفلة عن أدب الائتمام وهو القيام عن يمين الإمام إذا كان المأموم واحداً، أو تأنيساً له لكون ذلك كان ليلاً فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ومجموعها اثنتا عشرة ركعة، وهذا العدد فيه تقييد للمطلق فى الرواية الأخرى التى تقول: «فصلى ما شاء الله» ثم أوتر بواحدة أو ثلاث ثم اضطجع حتى أتاه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج من حجرته إلى المسجد فصلى الصبح بأصحابه رضى الله عنهم.

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز قراءة القرآن للمُحْدث حدثاً أصغر؛ لأنه ﷺ عندما قام من النوم وقبل أن يتوضأ قرأ العشر الآيات المذكورة، فدل هذا على جواز قراءة القرآن لغير المتوضئ وهو المحدث حدثاً أصغر وعارض البعض هذا وقال: إنه تنام عينه ولا ينام قلبه فلا ينتقض وضوؤه بالنوم، وأما وضوؤه فللتجديد طلباً لزيادة النور، لما ورد: «الوضوء على الوضوء نور على نور» أو لحدث آخر؛ لأن مضاجعة الأهل فى الفراش لا تخلو من الملامسة غالباً ومذهب الشافعي انتقاض الوضوء بالملامسة.

(٢) استحباب التهجد، وقراءة العشر الآيات المذكورة عند الانتباه من النوم.

(٣) أن صلاة الليل مثنى مثنى.

(٤) زيارة الأرحام وجواز المبيت عند المحارم.

(٥) فضل القيام عند منتصف الليل.

(٦) استحباب تنشيط الأعضاء والجفون عند الاستيقاظ لمنع الاسترخاء والكسل.

(٧) استحباب مجيء المؤذن للإمام لإعلامه بالصلاة.

(٨) تخفيف الركعتين اللتين قبل صلاة الصبح.

(٩) جواز دلْك أذن الصغير محبة أو تأديباً وتعليماً.

٣٧ - باب

مَنْ لَمْ يَتوضَّأ إلاَّ من الغَشْيِ المُثْقِلِ

١٧٢ـ حَدَّثنَا إسْماعيل قال : حدَّثني مالك عنْ هشامِ بن عُروَة عن امْرأته فاطمَةَ عَنْ جَدَّتها أَسْمَاءَ بنْت أَبي بَكْرٍ أَنَّهَا قالَتْ : أَتيتُ عائشَةَ زَوْجَ النبي ﷺ حينَ خَسَفت الشَّمْسُ ، فإذَا النَّاسُ قيَامٌ يُصلُّونَ ، وإذَا هيَ قَائمَةٌ تُصلِّي ، فقلْتُ : ما للنَّاس ؟ فأَشارَتْ بيَدهَا نَحْوَ السَّمَاء وقالَتْ : سُبْحَانَ الله ، فَقُلْتُ : آيَةٌ ؟ فأَشارَتْ أَيْ نعم فقُمْتُ حَتَّى تَجلاَّني الغَشْيُ ، وَجعلْتُ أَصُبُّ فَوْقَ رأسي ماءً ، فَلمَّا انْصرَفَ رسول الله حَمدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْه ، ثُمَّ قالَ : « ما منْ شَيءٍ كُنْتُ لَمْ أَرَه إلاَّ قَدْ رَأَيْتُه في مَقَامي هَذَا ، حَتَّى الجَنَّة وَالنَّار ، ولَقَدْ أُوحيَ إلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ في القُبور ، مثْلَ أَوْ قَريبَ منْ فتْنَة الدَّجَّال - لاَ أَدْري أَي ذلكَ قالَتْ أَسْمَاءُ - يُؤْتَى أَحَدكُمْ ، فيقَالُ : ما علْمُكَ بهَذَا الرَّجُلِ ؟ فَأَمَّا المُؤْمنُ ، أَو المُوقنُ - لاَ أَدْري أي ذلكَ قالَتْ أَسْماءُ - فَيَقُولُ : هُوَ مُحَمَّدٌ رسولُ الله ، جَاءَنَا بالبَيِّنَات وَالهُدَى ، فَأَجَبْنا وآمَنَّا واتَّبَعْنَا ، فَيُقَالُ : نَمْ صَالحاً ، فَقَدْ علمْنَا إنْ كُنْتَ لَمُؤْمنًا ، وأَمَّا المُنافقُ ، أَو المُرْتَابُ - لاَ أَدْري أَيَّ ذَلكَ قالَتْ أَسْمَاءُ - فَيَقُولُ : لاَ أَدْري ، سَمعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ » .

=

١٧٢ ـ هذا الحديث تقدم في كتاب العلم في باب من أجاب الفُتيا بإشارة اليد والرأس ، وأشار هنا بترجمة الحديث إلى أن الغَشْى مطلقاً لا ينقض الوضوء وإنما ينقض إذا كان الغَشْى مُثقلاً ، والغَشْى هو مرض يعرض من طول التعب والوقوف أو عند رؤية ما يُدهش أو سماع مدهش كما في الحديث ، وهو نوع من أنواع الإغماء إلا أنه أقل منه ، وإنما صبت السيدة أسماء رضى الله عنها الماء على رأسها مدافعة له ، ولو كان شديداً لكان كالإغماء وهو حينئذ ينقض الوضوء بالإجماع ، ومما يدل على أنه لم يكن مثقلاً أنها كانت تصب على نفسها أى أنها كانت مدركة لحالها فلا ينتقض وضوؤها ، بدليل أنها كانت تصلى خلف النبى ﷺ وهو يرى من خلفه فى الصلاة ولم ينكر عليها .

وكانت السيدة أسماء رضى الله عنها قد سألت السيدة عائشة قائلة : ما للناس ؟ لما رأت من اضطرابهم ، فأجابتها السيدة عائشة رضى الله عنها مشيرة بيدها نحو السماء ، منبهة إلى كسوف الشمس . وسألت قائلة : آية ؟ فأشارت السيدة عائشة رضى الله عنها : أى نعم فلما انصرف رسول الله ﷺ حمد الله وأثنى عليه ثم أخبر بما أراه الله تعالى إياه فى مقامه حتى الجنة والنار وفتنة القبر أعاذنا الله تعالى منها .

ما يؤخذ من الحديث

(١) لا يكون الوضوء إلا من «الغَشْى» المثقل ، أما الخفيف فلا ينقض الوضوء وهو نوع من الإغماء .
(٢) جواز الإجابة فى الفتيا بإشارة اليد أو الرأس .
(٣) استحباب صلاة الكسوف .
(٤) وجود الجنة والنار .
(٥) ثبوت عذاب القبر وفتنته .
(٦) ثبوت فتنة المسيخ الدجال .

٣٨ - باب

مَسْح الرَّأْسِ كُلِّه

لقَوْلِ اللهِ تَعَالَى ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ [١] وقَالَ ابنُ المُسَيَّبِ : المرْأَةُ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ ، تَمْسَحُ عَلَى رَأْسِهَا ، وسُئِلَ مَالك : أَيُجْزِىءُ أَنْ يَمْسَحَ بَعْضَ الرَّأْسِ ؟ فاحْتَجَّ بِحَدِيث عَبْد الله بنِ زَيْدٍ .

١٧٣ - حَدَّثنَا عَبْدُ الله بنُ يُوسُفَ قَالَ : أَخبرنا مالك عَنْ عَمْرِو بن يَحْيَي المَازِنِى عَنْ أَبِيه أَنْ رَجُلاً قَالَ لعَبْد الله بن زَيْد - وَهُوَ جَدُّ عَمْرو ، ابن يَحْيَى - أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُرِيَنِى كَيْفَ كانَ رسولُ الله ﷺ يَتَوَضَّأُ ؟ فَقَالَ عَبْدُ الله بنُ زَيْد : نَعَمْ ، فَدَعَا بِمَاء ، فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْه فَغَسَلَ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ مَضْمَضَ ، واسْتَنْثَرَ ثلاثاً ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثلاثاً ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْه مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ إِلَى المرْفَقَيْنِ ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْه ، فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَدْبَرَ ، بَدَأَ بِمُقَدَّمِ رَأْسه ، حتى ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قفَاهُ ، ثُمَّ رَدَّهُمَا إِلَى المَكَانِ الَّذى بَدَأَ منْهُ ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْه .

---

١٧٣ - يشير فى هذا الباب إلى استيعاب مسح الرأس والحديث يدل على ندب استيعاب المسح فهو ليس فرضاً لما ورد من الأحاديث الأخرى وفى الحديث بيان كيفية وضوء الرسول ﷺ وذلك بغسل اليدين مرتين، وفى بعض الروايات

---

(١) سورة المائدة - آية ٦

....

= (ثلاثاً) ثم المضمضة والاستنشاق ثلاثاً بثلاث غرفات، والاستنثار ثلاثاً وهو تحريك النثرة أى الخيشوم لإخراج الماء من طرف الأنف، وغسل الوجه ثلاثاً ثم غسل اليدين مرتين مرتين إلى المرفقين، والمرفق: هو مفصل الذراع والعضد وسمى بذلك لأنه يرتفق به فى الاتكاء، ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر .

وقيل : إن الباء في قوله تعالى: ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ [1] زائدة فيكون مسح الرأس كله واجباً وقيل للتبعيض، قال الشافعى رحمه الله تعالى: احتمل قوله: برؤوسكم الرأس وبعضه، فدلت السنة أن بعضه يجزئ، ثم غسل رِجْلَيْه إلى الكعبين.

والكعب: هو العظم الناشز عند ملتقى الساق والقدم.

---

(١) سورة المائدة - آية ٦

ما يؤخذ من الحديث

(١) وجوب مسح الرأس فى الوضوء فهو من فروض الوضوء واستحباب مسح الرأس كله.

(٢) استحباب غسل اليدين قبل الشروع فى الوضوء.

(٣) من سنن الوضوء المضمضة والاستنشاق ثلاثاً.

(٤) وجوب غسل الوجه.

(٥) وجوب غسل اليدين مع المرفقين ومن أول الأصابع ؛ لأن غسلهما قبل ذلك كان سنة لا فرضاً.

(٦) وجوب غَسْل الرِّجْلين إلى الكعبين.

(٧) مشروعية التعليم بالفعل.

(٨) الاغتراف من الماء القليل لا يجعله مستعملاً.

(٩) جواز الاستعانة في إحضار الماء من غير كراهة.

(١٠) الإفراغ على اليدين معاً في ابتداء الوضوء.

(١١) أن الوضوء الواحد يكون بعضه بمرة وبعضه بمرتين وبعضه بثلاث مرات.

(١٢) التعليم بالفعل.

(١٣) أن الاغتراف من الماء القليل للتطهر لا يُصيِّر الماء مستعملاً، لما ورد فى رواية وهيب وغيره: «ثم أدخل يده فغسل وجهه....».

٣٩ - باب

غَسْلِ الرِّجْلَيْنِ إِلَى الكَعْبَيْنِ

١٧٤ - حَدَّثنا مُوسَى قالَ : حَدَّثنا وُهَيبٌ عَنْ عَمْرٍو عَنْ أَبِيه : شَهِدْتُ عَمْرَو بنَ أَبِى حَسَنٍ سَأَلَ عَبْدَ اللهِ بنَ زَيْدٍ عَنْ وُضُوءِ النبىِّ ﷺ ، فَدَعَا بِتَوْرٍ مِنْ مَاءٍ ، فَتَوَضَّأَ لَهُمْ وُضُوءَ النبىِّ ﷺ ، فَأَكْفَأَ عَلَى يَدِه مِنَ التَّوْرِ ، فَغَسَلَ يَدَيْه ثلاثاً ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فى التَّوْرِ ، فَمَضْمَضَ ، واسْتَنْشَقَ ، واسْتَنْثَرَ ثَلاثَ غَرَفاتٍ ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ ثَلاثاً ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْه مَرَّتَيْنِ إِلَى المِرْفَقَيْنِ ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَه فَمَسَحَ رَأْسَهُ ، فَأَقْبَلَ بِهِمَا وأَدْبَرَ مَرَّةً واحِدَةً ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْه إِلَى الكَعْبَيْنِ .

---

١٧٤ ـ سبق فى الحديث الماضى ما يتعلق بالمباحث الواردة فى هذا الحديث هنا .
ومعنى : «فدعا بتَوْر» أى دعا بقدح ؛ أو الإناء الذى يشرب منه ، وقيل : هو الطست ، وقيل : مثل القدر يكون من حجارة «فتوضأ لهم وضوء النبى ﷺ» أى : توضأ لأجلهم مثل وضوء النبى ﷺ ، فأكفأ على يده من التور فغسل يديه ثلاثاً ، ثم أدخل يده فمضمض واستنشق واستنثر ثلاث غرفات ، ثم أدخل يده فغسل وجهه ثلاثاً ، فبيَّن هنا تجديد الاغتراف لكل عضو من الأعضاء ، وأنه اغترف بإحدى يديه ، ويبدو أن الإناء كان صغيراً فاغترف بإحدى يديه ثم أضافها إلى الأخرى . وعند =

= ابن عساكر : «ثم أدخل يديه» .

«ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين» أى : أنه غسل كل يد على حدة مرتين وفي رواية مالك : «ثم غسل يديه مرتين مرتين» .

ومعنى «إلى المرفقين» أى : مع المرفقين فالغاية داخلة .

ثم أدخل يده فمسح رأسه ، فأقبل بهما وأدبر مرة واحدة ثم غسل رجليه إلى الكعبين أى مع الكعبين فيجب غسلهما مع الرجلين، والكعبان هما العظمان الناتئان عند ملتقى الساق والقدم .

ما يؤخذ من الحديث

(١) وجوب غسل الرجلين إلى الكعبين ، أى مع الكعبين فيجب غسلهما .

(٢) جواز الإفراغ على اليدين عند ابتداء الوضوء .

(٣) وأن الوضوء الواحد يكون بعضه مرة وبعضه مرتين وبعضه ثلاث مرات .

(٤) جواز الاستعانة فى إحضار الماء .

(٥) التعليم بالفعل .

٤٠ - باب

اسْتِعْمالِ فَضْلِ وَضُوءِ الناسِ

وأمَرَ جَرِيرُ بنُ عَبْدِ اللهِ أَهْلَهُ أَنْ يَتوَضَّأُوا بِفَضْلِ سِواكه .

١٧٥ - حَدَّثنا آدمُ قال : حَدَّثنا شُعْبَةُ قال : حَدَّثنا الحَكَمُ قال : سَمِعْتُ أَبَا جُحَيْفَةَ يَقُولُ : « خَرَجَ عَلَيْنَا رسولُ اللهِ ﷺ بالْهاجِرَةِ ، فَأُتِيَ بِوَضُوءٍ ، فَتَوَضَّأَ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَأخذُونَ مِنْ فَضْلِ وَضُوئه ، فَيَتَمَسَّحُونَ به ، فصَلَّى النبيُّ ﷺ الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ ، والعَصْرَ رَكْعَتَيْنِ ، وَبَيْنَ يَدَيْه عَنَزَةٌ » .

وقال أَبُو مُوسَى : « دَعا النبيُّ ﷺ بِقَدَحٍ فيه ماءٌ ، فَغَسَلَ يَدَيْه وَوَجْهَهُ فيه ، وَمَجَّ فيه ، ثُمَّ قالَ لَهُمَا : اشْرَبَا مِنْهُ ، وأَفْرِغَا عَلى وُجُوهِكُمَا ، ونُحُورِكُمَا » .

١٧٥ـ هذا الباب يوضح حكم استعمال فضل وَضوء الناس فى التطهر به وهو الماء الذى فضل وتبقى بعد فراغ من توضأ منه .

وأورد ما كان يفعله جرير بن عبد الله حين كان يستاك ويغمس رأس سواكه فى الماء ثم يقول لأهله : توضئوا بفضله ولا يرى بأساً لأن السواك لا يغير الماء وهذا الصنيع لا يغير الماء ولذلك يجوز التطهر به .

لقد خرج الرسول ﷺ على بعض أصحابه بالهاجرة أى : فى وسط النهار عند =

= شدة الحر في سفر ، ويُرْوى أن خروجه كان من قبة حمراء من أَدَم أى من جلد بالأبطح خارج مكة فأتى ﷺ بوَضوء بفتح الواو وهو الماء الذى يتوضأ به فتوضأ منه فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه يقتسمون الماء الذى فضل منه وفى هذا دلالة على طهارة الماء المستعمل فيتمسحون به تبركاً لأن الماء مسَّ جسد رسول الله ﷺ .

فصلى رسول الله ﷺ الظهر ركعتين والعصر ركعتين قصراً فى السفر ، وبين يديه عَنَزَةٌ وهى أقصر من الرمح وأطول من العصا وصلى إليها لأنه كان فى الصحراء حتى إذا مرّ شيء أو أحد بين يديه كانت فاصلاً بينه وبين المار ، فهذه سنة فى مثل هذه الأماكن ، كما أن الحديث يدل على محبة أصحاب رسول الله ﷺ له وتبركهم به وبآثاره وما جاء فى أثر أبى موسى : «ومجّ فيه» أى صبه فى الإناء والغرض بذلك وجود البركة بريق رسول الله ﷺ المبارك

ما يؤخذ من الحديث

(١) طهارة الماء المستعمل وأنه ليس نجساً بل هو طاهر فى نفسه ولكنه غير مطهر لغيره فلا يرفع حدثاً ولا يزيل نجساً .

(٢) جواز التبرك بآثار رسول الله ﷺ .

(٣) قصر الصلاة الرباعية فى السفر وهى الظهر والعصر والعشاء وذلك بأدائها ركعتين .

(٤) نصب المصلى العصا أو الرمح بين يديه إذا كان فى الصحراء واتخاذ السترة أمامه .

(٥) محبة الصحابة لرسولهم ﷺ .

١٧٦ ـ حدَّثنا عليُّ بن عَبْدالله قال: حدَّثنا يَعْقُوب بن إبْرَاهِيمَ بن سَعْدٍ قالَ: حدَّثنا أَبي عَنْ صالحٍ عَنِ ابنِ شهابٍ قال: أَخْبرني مَحْمُود بن الرَّبيعِ قَالَ: وَهْو الَّذى مَجَّ رسول الله ﷺ في وَجْهه وهُوَ غُلاَمٌ من بئْرِهِمْ.

وَقَالَ عرْوَةُ عَنِ المسور وغَيْره يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحدٍ منهما صاحبه: وإذَا تَوضَّأ النبيُّ ﷺ كادوا يَقْتتلُونَ عَلَى وَضُوئه.

١٧٦ـ وهذا الحديث يدل على ما سبق من التبرك بآثار رسول الله ﷺ، وأن الماء المستعمل يكون طاهراً وليس نجساً إلا أن الماء المستعمل لا يرفع حدثاً ولا يطهر نجساً.

ومحمود بن الربيع مجَّ رسول الله ﷺ في وجهه وهو غلام من بئرهم، وفي هذا دلالة على طهارة الماء المستعمل وما كان متبقياً من ماء الوضوء، وكان الصحابة رضي الله عنهم يقتتلون على وضوئه أي: يتنافسون منافسة شديدة على التبرك بما فضل من الماء الذي كان يتوضأ به والماء الذي يكون قد استعمله.

ما يؤخذ من الحديث

(١) طهارة الماء المستعمل إلا أنه لا يرفع حدثاً ولا يزيل نجساً.
(٢) التبرك بآثار رسول الله ﷺ.
(٣) حب الصحابة له وحبه لهم ولأبنائهم وللأطفال.

١٧٧ ـ حدثنا عَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ يونُس قَالَ: حدَّثنا حاتِمُ بنُ إسْمَاعِيلَ عَنِ الجَعْد قَالَ: سَمِعْتُ السَّائِبَ بن يَزِيدَ يَقُولُ: «ذَهَبَتْ بى خَالَتى إلَى النبىِّ ﷺ فَقَالَتْ: يارسولَ الله إنَّ ابنَ أُخْتى وَجِعٌ، فَمَسَحَ رَأْسى، وَدَعَا لى بالْبَرَكَة، ثُمَّ تَوَضَّأَ، فَشَرِبتُ مِنْ وضُوئه، ثُمَّ قُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِه، فَنَظَرْتُ إلَى خَاتَمِ النُّبوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ مثْلِ زِرِّ الحَجَلَة.

١٧٧ـ معنى كلمة «وجع» به وجع وفى رواية «وَقِع» والوقع، والوجع بمعنى واحد وهو الوجع فى القدمين ولما قالت خالته ذلك للرسول ﷺ مسح على رأسه بيده الشريفة ودعا له بالبركة ثم توضأ فشرب السائب بن يزيد من وَضوئه أى من الماء الذى كان يتقاطر من أعضاء رسول الله ﷺ أثناء وضوئه، وهذا يدل على طهارة الماء المستعمل ولكنه غير طهور كما سبق، قال السائب رضى الله عنه: ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، وهو ما يدل على أنه النبى الخاتم الذى لا نبى بعده، وفى هذا صيانة لنبوته من أن يتسرب إليها قدح القادحين مثل زر الحجلة أى: مثل أحد أزرار ما يزيّن به الثياب مما لها عرى وأزرار وهو الذى يوضع فى العروة، وقيل: المراد بها الطير والمراد بكلمة «زر» البيض وجاء فى حديث آخر «مثل بيض الحمامة» قيل: إنه ولد به وقيل: ظهر بعد مولده.

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز الدعاء والرُّقية.
(٢) مشروعية الدعاء بالبركة للمريض والمسح على رأس الصغير.
(٣) طهارة الماء المستعمل.

٤١ - باب

مَنْ مَضْمَضَ واسْتَنْشَقَ منْ غَرْفَة وَاحدَةً

١٧٨ - حَدَّثَنَا مُسدَّدٌ قالَ : حَدَّثَنَا خالدُ بن عَبْد الله قال : حَدَّثَنَا عَمْرو بن يَحْيي عَنْ أَبيه عنْ عَبْد الله بن زَيْد أَنَّه أَفْرَغَ منَ الإنَاء علَى يَدَيْه فَغَسَلَهُمَا ، ثُمَّ غَسَلَ ، أَوْ مَضْمَضَ ، واسْتَنْشَقَ من كُفَّةٍ واحدة ، ففعل ذلك ثلاثاً ، فَغَسل يديْه إلَى المرْفَقَيْنِ مَرَّتيْن مَرَّتَيْنِ ، وَمَسَحَ برأْسه ما أَقْبَلَ وما أَدْبَرَ ، وَغَسَلَ رِجْلَيْه إلَى الكَعْبَيْن ، ثُمَّ قالَ : هَكَذَا وُضُوءُ رسول الله ﷺ .

١٧٨- سبق الكلام على ذلك فى باب مسح الرأس، وفيه توضيح لصحة المضمضة والاستنشاق من غرفة واحدة فنرى فى الحديث أن عبد الله بن زيد أفرغ من الإناء على يديه فغسلهما، ثم غسل فمه، أو مضمض واستنشق من كفة واحدة، وفى نسخة أخرى «من غرفة واحدة»، ومعنى «من كفة» أى من غرفة والمراد: ما ملأ كفه من الماء، ففعل ذلك ثلاثا، وذكر فى الحديث: «فغسل يديه إلى المرفقين مرتين مرتين» وإنما لم يذكر غسل الوجه اختصاراً لأنه ذكر قبل ذلك وايراده للحديث هذا للاستدلال على كون المضمضة والاستنشاق من غرفة واحدة، ومسح برأسه ما أقبل وما أدبر وغسل رجليه إلى الكعبين ثم قال: «هكذا وضوء رسول الله ﷺ» أى أنه شرح لهم وضوء الرسول ﷺ شرحاً عملياً.

ما يؤخذ من الحديث

(١) صحة المضمضة والاستنشاق من غرفة واحدة.
(٢) شرح ما كان يفعله الرسول ﷺ للاقتداء به.
(٣) استحباب غسل اليدين، والمضمضة والاستنشاق قبل الدخول فى فروض الوضوء لمعرفة لون الماء وطعمه ورائحته بغسل هذه الأعضاء.

٤٢ - باب

مَسْحِ الرَّأْسِ مَرَّةً

١٧٩ - حَدَّثنا سُلَيْمَان بن حَرْبٍ قالَ : حَدَّثنا وُهَيْبٌ قال : حدَّثنا عَمْرو بن يَحْيَ عنْ أَبيه قال : شَهِدْتُ عَمْرَو بن أَبي حَسَن سَأَلَ عَبْدَ الله بن زَيْد عنْ وُضُوء النبيِّ ﷺ ، فَدعَا بتَوْر منْ ماء ، فَتَوضَّأَ لَهُمْ ، فَكَفَأَ علَى يَدَيْه ، فَغَسَلَهُمَا ثَلاَثاً ثُمَّ أَدْخَل يَدَهُ في الإِنَاء ، فَمَضْمَضَ ، واسْتَنْشَقَ ، واسْتَنْثَرَ ثَلاَثاً بثَلاث غَرَفَات منْ مَاءٍ ثُمَّ أَدْخَل يَدَهُ في الإِنَاء ، فَغسَلَ وَجْهَهُ ثَلاَثاً ثُمَّ أَدْخَل يَدَهُ في الإِنَاء ، فَغَسَل يَدَيْه إلى المِرْفَقَيْن مَرَّتَيْن مَرَّتَيْن ثُمَّ أَدْخَل يدَهُ في الإِنَاء ، فَمَسَحَ بِرَأْسِه ، فَأَقْبَلَ بِيَدَيْه وَأَدْبَرَ بهِما ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ في الإِنَاء فَغَسَلَ رِجْلَيْه .

وحَدَّثنا موسَى قال : حَدَّثنا وُهيبٌ قالَ : مَسَحَ رَأْسَه مَرَّةً .

١٧٩ـ لقد سبق الكلام عن مباحث هذا الحديث ، وإنما أورده هنا ليستدل على أن مسح الرأس يكفى فيه مرة واحدة ، ومعنى قوله عن الإناء «فكفأه» أى أماله وهناك خلاف فى استحباب العدد فى مسح الرأس وتقدم بيان ذلك فى باب : الوضوء ثلاثاً ثلاثاً ، والروايات الصحيحة عن عثمان رضى الله عنه أنه ليس فى مسح الرأس عدد ، ويرجع الاختلاف فى عدد مرات مسح الرأس إلى احتمال التعدد بأن يكون مسح مرة حيناً ومسح ثلاث مرات حيناً آخر ، ويجزئ الغسل للرأس ولكنه مكروه ، لورود المسح فى الكتاب والسنة.

=	ولكن ورد فيما أخرجه ابن خزيمة وغيره في صفة الوضوء قول الرسول ﷺ بعد أن فرغ: «من زاد على هذا فقد أساء وظلم» وورد المسح مرة واحدة فدل هذا على أن الزيادة على مرة في مسح الرأس غير مستحبة، وأما ما ورد من تثليث المسح - إن صح - فمحمول على إرادة الاستيعاب بالمسح، لا أنها مسحات مستقلة لجميع الرأس.

ما يؤخذ من الحديث

(١) الاكتفاء في مسح الرأس بمرة واحدة

(٢) لو غسل الرأس بدل مسحها كفى ولكنه مكروه فالأفضل مسح الرأس بكفيه وأن يقبل بهما ثم يعود بهما.

(٣) الاقتداء في العبادات بما كان يفعله رسول الله ﷺ.

٤٣ - باب

وُضُوءِ الرجُلِ مع امْرأتِه

وَفضْلِ وَضُوءِ المَرْأة ، وتَوَضَّأَ عمَرُ بالحَميم منْ بَيْت نَصْرانيَّةٍ

١٨٠ - حَدَّثنَا عَبْدُ اللهِ بنُ يُوسفَ قال : أَخبرنا مالك عَنْ نَافعٍ عنْ عَبْد الله بنِ عُمَر أَنَّه قَال : « كانَ الرِّجالُ والنِّسَاءُ يَتوَضَّأونَ في زمانِ رسولِ الله ﷺ جَميعاً » .

١٨٠ـ في هذا الحديث بيان لصحة وضوء الرجل مع امرأته من إناء واحد، وصحة ما فضل من وَضوء المرأة أى من الماء المتبقى بعد وضوئها.

وتوضأ عمر رضى الله عنه بالحميم وهو الماء المسخَن، والغالب أن أهل الرجل تبع له، ففى هذا إشارة إلى الرد على من منع من تطهر المرأة بفضل الرجل، فالظاهر أن امرأة عمر رضى الله عنه كانت تتطهر بفضله أو معه فيناسب قوله: «وضوء الرجل مع امرأته» أى من الإناء الواحد وأما الوضوء من بيت نصرانية ففيه جواز التطهر بالماء الذى فضل من المرأة المسلمة، لأنها لا تكون أسوأ حالاً من النصرانية، وأن استعمال ماء أهل الكتاب جائز دون استفصال، وأنه لا بأس باستعمال ماء المشرك ومابقى منه ما لم تُعلم نجاسته.

ويوضح الحديث أن الرجال والنساء كانوا يتوضأون فى زمان النبى ﷺ حال كونهم مجتمعين من إناء واحد، ولعل هذا كان قبل نزول الحجاب أما بعد نزول الحجاب فيختص بالزوجات والمحارم، وقد وردت أحاديث بجواز التطهر بفضل =

= الرجل أو المرأة ، كما وردت أحاديث أخرى بالنهى عن ذلك ويجمع بينها بحمل أحاديث النهى على ما تساقط من الأعضاء والجواز على ما بقى من الماء ويحمل النهى على أنه للتنزيه .

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز وضوء الرجل والمرأة من إناء واحد ، وجواز الوضوء بفضل ماء الرجل أو فضل ماء المرأة .

(٢) إذا أسند الصحابى الفعل إلى زمن النبى ﷺ يكون له حكم الحديث المرفوع .

(٣) جواز استعمال ماء أهل الكتاب وماء المشرك ما لم تُعلم نجاسته .

(٤) الاغتراف من الماء القليل لا يصيره مستعملاً .

٤٤ - باب

صَبِّ النبيِّ ﷺ وَضُوءَه على المُغْمَى عَلَيْه

١٨١ - حَدَّثَنَا أبو الوَليد قال : حَدَّثَنا شُعْبَةُ عنْ مَحَمَّد بن المُنْكَدِرِ قالَ : سَمِعْتُ جابِرًا يَقُولُ : « جَاءَ رَسُول الله ﷺ يَعودُنِي ، وَأَنَا مَرِيضٌ لاَ أَعْقِلُ ، فَتَوَضَّأَ ، وَصَبَّ عَلَيَّ منْ وَضُوئِه ، فَعَقَلْتُ ، فَقُلْتُ : يا رسولَ الله لِمَنِ المِيرَاثُ ؟ إِنَّمَا يَرِثُنِي كَلاَلَةً ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الفَرائِضِ » .

---

١٨١ ـ يوضح هذا الحديث أثر ما صبه رسول الله ﷺ من الماء الذى توضأ به على المغمى عليه وهو الذى أصابه الإغماء فلا يعقل ولا يعى ، وإذا بالمغمى عليه يفيق ويبرأ ويعقل ما يُقال .

فلقد زار رسول الله ﷺ جابر بن عبد الله رضى الله عنه عندما كان مريضاً ومغمى عليه لا يفهم ولا يعى، فتوضأ الرسول ﷺ وصبّ عليه من وضوئه بفتح الواو وهو الماء الذى توضأ منه أو مما بقى منه، فعقل جابر، وسأل رسول الله ﷺ قائلاً: لمن الميراث؟ أى ميراثى، لأن «أل» عوض عن ياء المتكلم «إنما يرثنى كلالة» بمعنى غير ولد ولا والد، فنزلت آية الفرائض: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ (١) إلى آخر السورة.

(١) سورة النساء (١٧٦) .

ما يؤخذ من الحديث

(١) طهارة الماء المستعمل فى الوضوء.
(٢) رقية الصالحين ومباشرتهم للماء مما يُرْجى بركته.
(٣) بركة يد الرسول ﷺ وأنها تزيل كل مرض.
(٤) جواز الانتفاع بالماء بعد قراءة القرآن عليه أو الدعاء المشروع.
(٥) فضل عيادة الأكابر للضعفاء والصغار.

٤٥ - باب

الْغُسْلِ والوُضُوءِ فِي المِخْضَبِ والقَدَحِ والْخَشَبِ والحجَارَةِ

١٨٢ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بن مُنِيرٍ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بن بَكْرٍ قَالَ حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: « حَضَرَتُ الصَّلاةُ فَقَامَ من كَانَ قَرِيبَ الدَّارِ إِلى أَهْلِه، وبَقِيَ قَوْمٌ، فَأُتِيَ رَسولُ اللهِ ﷺ بِمِخْضَبٍ مِنْ حِجَارَةٍ فِيهِ مَاءٌ فَصَغُرَ المِخْضَبُ أَنْ يَبْسُطَ فِيهِ كَفَّهُ، فَتَوَضَّأَ القَوْمُ كُلُّهُمْ، قُلْنَا: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: ثَمَانِينَ وزِيَادَةً » .

١٨٢ـ المخضب: هو الإناء الذى يغسل فيه الثياب، وقد يطلق على الإناء صغيراً كان أو كبيراً، وأما القدح: فأكثر ما يكون من الخشب مع ضيق فمه.

يخبر أنس رضى الله عنه أنه حضرت صلاة العصر فقام من كان قريباً من المسجد لتحصيل الماء والتوضؤ به، وبقى قوم عند رسول الله ﷺ لم يكونوا على وضوء فأتى رسول الله ﷺ بمخضب، وهو الإناء الذى يغسل فيه الثياب، وهذا المخضب كان من حجارة وليس من خشب ولا نحاس، فيه ماء قليل، فصغر المخضب عن بسط كفيه فيه لصغره فوضعهما فيه بدون بسط، فتوضأ القوم الذين بقوا، قال الراوى لأنس: كم كنتم؟

قال: كنا ثمانين نفساً وزيادة، وكفاهم هذا الماء القليل ببركة وضع الرسول ﷺ يديه فازداد الماء حتى كفى الباقين وهذا من معجزات رسول الله ﷺ.

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز الغسل والوضوء فى المخضب والقدح والخشب والحجارة .
(٢) ثبوت المعجزات الحسية للرسول ﷺ .
(٣) ما ينبغى عند حضور الصلاة من الاستعداد بالوضوء .
(٤) طهارة جميع أنواع الأوانى سواء كانت من حجارة أو خشب أو غير ذلك .

١٨٣ - حَدَّثنا محَمَّدُ بنُ العَلاَءِ قال : حَدَّثنا أبو أُسامَةَ عنْ بُرَيْد عنْ أَبِى بُرْدَةَ عنْ أَبِى موسى « أَنَّ النبىَّ ﷺ دَعَا بِقَدَحٍ فِيه ماءٌ ، فَغَسَلَ يَدَيْه وَوَجْهَه فِيه ، وَمَجَّ فِيه » .

١٨٣ـ طلب رسول الله ﷺ قدحاً فيه ماء ، فغسل يديه ووجهه فيه ، ومجّ فيه أى صب الماء فيه الذى حمله فى فمه ، وليس فى الحديث دلالة على أنه توضأ أو اغتسل من الماء .

وهذا الحديث يدل على جواز الغسل والوضوء فى المخضب والقدح والخشب والحجارة .

ما يؤخذ من الحديث

(١) الدلالة على غَسْل (بفتح الغين) الأعضاء فى القدح .
(٢) طهارة الماء الذى مجّ فيه .
(٣) جواز الوضوء والشرب من الماء الذى مج فيه ﷺ .
(٤) التبرك بآثار رسول الله ﷺ

١٨٤ - حَدَّثنا أَحْمَد بن يونُسَ قال : حَدَّثنا عَبْدُ العَزيزِ بنُ أَبى سَلَمَةَ قال : حَدَّثنا عَمْرُو بنُ يَحْيى عنْ أَبيه عنْ عَبْد الله بنِ زَيْد قال : أَتى رسولُ الله ﷺ فأَخْرَجْنا لَه ماءً فى تَوْرٍ مِنْ صُفْرٍ ، فَتَوَضَّأَ ، فَغَسَلَ وَجْهَه ثلاثاً ، ويَدَيْه مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ ، ومَسَحَ برَأْسِه ، فَأَقْبَلَ به وأَدْبَرَ ، وَغَسَلَ رِجْلَيْه .

١٨٤- يقول عبد الله بن زيد رضى الله تعالى عنه : أتى رسول الله ﷺ ، وفى رواية : أتانا رسول الله ﷺ فأخرجنا له ماء فى تور أى فى طست ، فتوضأ ، فغسل وجهه ثلاثاً ويديه مرتين مرتين ومسح برأسه ، فأقبل به وأدبر وغسل رجليه وفى هذا الحديث : حذف تقديره « فمضمض واستنشق » كما جاء فى بعض الروايات .

ومعنى « من صُفر » أى نحاس جيد وهو وصف للتور أى أخرجنا له ماء فى طست من نحاس .

وهذا الحديث يدل على ترجمة الباب : باب الغسل والوضوء فى المخضب ، والقدح والخشب والحجارة .

ما يؤخذ من الحديث

(١) جواز الوضوء من الطست المصنوع من نحاس .
(٢) الاقتداء برسول الله ﷺ فى وضوئه وفى كل أفعاله وأحواله .